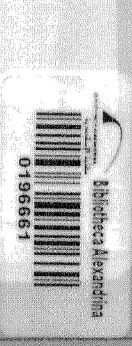


المدينة الإسلامية

تأليف الدكتور

محمد عبد الستار عثمان



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

اهداءات ١٩٩٩
م/ منصور الحسيني
ج/ سمير احمد عنبر



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

المدينة الإسلامية

تأليف الدكتور

محمد عبد الستار عثمان



١٢٨ - ذو الحجة ١٤٠٨ هـ - أغسطس / آب ١٩٨٨م

المراسلات :

توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب ٢٣٩٩٦ الصفاة / الكويت - 13100


المدينة الإسلامية

مُقــدّمَة

بدأت دراسة المدن الإسلامية في العصر الحديث مرتبطة بحركة الاستشراق وتطور اتجاهاتها، ولاسيما بعد أن اهتمت الدراسات الاستشراقية بحقل التمدن الإسلامي، ويفسر هذا الارتباط أسس التوجه البحثى الذي يحكم هذه الدراسات، ولا أدل على ذلك من أن الاطار والاسس التي قامت عليها دراسات المدينة الإسلامية بدت متأثرة إلى حد بعيد بالمفاهيم والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تحكم المدينة الغربية، فانتهت هذه الدراسات الى نتائج خالفت الواقع الى حد بعيد، وبدت الحاجة إلى تصحيح تلك النتائج باتباع منهج سليم يقيم المدينة الإسلامية تقييما يقوم في أساسه على المعايير والمقاييس المستمدة من التجربة الإسلامية.

ومع تطور الاتجاهات البحثية في المدينة الإسلامية، والتي بدأت تركز بشكل خاص على الجوانب الاجتماعية: كالحركات الجماهيرية والتنظيمات الاجتماعية، ومع الاهتمام المتزايد الذي أولاه علماء الاجتماع الحضرى لدراسة التمدن العربى والاسلامى في ضوء ما توصلوا إليه من نظريات اجتماعية، باتت الحاجة أكثر الحاحا لإبراز الصورة الحقيقية للمدينة الاسلامية، لاسيما أن هذه الدراسات الحديثة بدأت أيضا توجهها من منطلق المدينة الأوروبية والامريكية في الوقت الحاضر، ومن المشاكل العصرية التي تعانيها هذه المدن.

ويلاحظ أن هناك كثيرا من الدراسات العلمية للمدينة العربية والإسلامية من زوايا مختلفة أوجبها اتجاه البحث ذاته، ولم تتكامل هذه الدراسات بعضها مع بعض، كما أنها انحسرت في دراسة الجزئيات دراسة منعزلة عن الربط بين هذه الجزئيات والكيان الكلي للمدينة، فأدى ذلك إلى بعض القصور وإلى غموض الصورة الحقيقية للمدينة الإسلامية.

ونقدم للقارىء في هذا الكتاب دراسة للمدينة الإسلامية، تحاول أن تعطى صورة كلية لنشأتها وتخطيطها ومرافقها، وعلاقة ذلك بتنظيم الحياة فيها، من منظور يوضح أسس الفكر الاسلامي العمرانى النظرى، وتطبيقاته العملية، في مدننا الإسلامية في مراحل تاريخها المتتابعة حتى نهاية العصر العثمانى.

وتحكم دراسة «المدينة الإسلامية» أسس واضحة يجب اعتبارها عند تناول أي جانب من جوانبها، وتشكل هذه الأسس الاطار العام والمحاور الواضحة التي تميز المدينة الإسلامية عن غيرها من المدن.

فقد تميزت الحضارة الإسلامية بأنها وجدت في التشريع الإسلامي المفصل لنواحى الحياة دستورا مهيئا سارت عليه حركة حياة المجتمع، فالإسلام دين مدنى، وساعد ذلك على سرعة ازدهار الحضارة الاسلامية بصورة منقطعة النظير، ولاسيما أن هذه التشريعات سدت النقص الذي اعترى الفكر الإنسانى في المراحل السابقة، وأعطت قواعد صالحة لكل زمان ومكان، سعى لها فكر الإنسان على مراحل تاريخه في رؤيته الفكرية النظرية «للمدينة الفاضلة» وعجز أن يحقق واقعا ملموسا لها بأي صورة من الصور. وتناسبت الأحكام الإسلامية مع النظرة الإنسانية التي تكيفت معها في سهولة ويسر وتدرج، وهذب الإسلام من طبائع النفس البشرية وارتقى بها وانعكس ذلك في صفاته التي تمثلها المدينة الإسلامية باعتبار أن «المدينة هي الحضارة».

وحقا نسبت المدينة الإسلامية الى الإسلام، فهى بالاضافة الى ما تتميز به المدينة من خصائص حضارية عامة، تتسم بالصفة الإسلامية باعتبار أن الإسلام منهج حياة فيها، فقد اعتبر القرآن والسنة مصدري التشريع في كل وقت، واجتهد الفقهاء في تفسير ما وردفيهمامن أحكام طورت نفسها مع تطور مظاهر الحياة الحضارية، التي تتجدد في اطار من التغيير، وسارت هذه الاحكام وفق أصول الفقه الإسلامى، ومن هنا استمرت هذه الأحكام المحور الأساسي الذي تدور فى فلكه حياة المجتمع في المدينة الإسلامية، طوال فترات التاريخ

الاسلامي، حتى بداية العصر الحديث، عندما حلت القوانين الوضعية محل الشريعة الإسلامية، وعندما فصلت السلطة بين الدين والسياسة، وهو اتجاه يجد حاليا مقاومة في كثير من البلاد الإسلامية التي مازالت تسير في نفس الاتجاه، وتمثل هذه المقاومة تيارا قويا له اعتباره في حياة بعض المدن الإسلامية المعاصرة.

ولما كانت حياة المدينة الإسلامية مرتبطة ارتباطا أساسيا وكاملا بالإسلام كمنهج وطريقة في الحياة فإن أي دراسة علمية سليمة للمدينة الإسلامية لابد من أن تضع في اعتبارها أن الإسلام ونظمه وأحكامه هي المحور الأساسى الأول الذي تدور حوله حياة المدينة بأسرها بكل تفاصيلها وجزئياتها، بجوانبها المختلفة اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية، وأيضا في شكلها المادى الذي يمثل «وعاء المدينة». وستركز هذه الدراسة على الشكل المادي للمدينة الإسلامية مفسرة دلالاته المختلفة في جوانب الحياة الاخرى من اجتماعية واقتصادية وسياسية وغير ذلك ـ وذلك باعتبار التخصص ـ ولعلها تكون بجانب دراسات أخرى متخصصة من جانب الاجتماعيين والجغرافيين والمؤرخين وغيرهم لتبرز الصورة الحقيقية للمدينة الإسلامية. وتدفع عنها اتهامات دراسات بعدت عن المحاور الأساسية لدراستها.

وقد اهتم بعض الباحثين بابراز دور الإسلام في تاريخ التمدن وأثره على المدينة الإسلامية أمثال «لومبارد» الذي أشاد باهتمام الاسلام بالتمدن وازدهار التمدن الإسلامي مقارنا بعصور التمدن الأخرى السابقة عليه. (١) وركزت «جانيت أبو لغد» على دور الاسلام في السيطرة على التمييز الطبقى والتمايز الثقافى وتقليل الأبعاد الاجتماعية بين الجماعات المختلفة(٢). ويقول «بينت»: «إن الاسلام دين تمدن، وله دور فعال في إعادة البناء التمدنى الذي نراه متمثلا في المدن. وإشارة إلى الربط بين المدينة والاسلام عرج على التعريف الفقهى للمدينة(٣)، وأكد سبنسر على انسحاب السمة الإسلامية على المدينة الإسلامية من عصورها المبكرة حتى العصر العثمانى، واكد على أن انشاء المدن كان من مظاهر تمسك المسلمين بدينهم الفريد في خصائصه». (٤)

ويبدو من الآراء السابقة أن الاسلام كان محورا من المحاور التي اعتبرها هؤلاء الباحثون الغربيون في دراستهم للمدينة الاسلامية، وقد اختلفت من باحث الى آخر درجة التعمق والبحث عن العوامل الاسلامية الدافعة إلى التمدن الاسلامى بصورة تجعل تمكين هؤلاء الباحثين من الرؤية الواضحة السليمة أكثر الحاحا، ليس فقط بالنسبة لأصحاب هذه الدراسات، ولكن أيضا بالنسبة لفريق من الباحثين كان لبعده عن فهم دور الاسلام في التمدن أثره الواضح في انكار هذا الدور. فيرى «بلانهول» مثلا أن الاسلام لم يكن مشجعا أو دافعا ايجابيا لحركة التمدن، ومن ثم ينفى أثر الاسلام على تكوين المدينة(٥)، ويعضد هذا الرأى «هاموند» الذي يذكر أن «الحضارة الاسلامية كانت ضد حركة التمدن» رغم ما يذكره عن التطور الكبير الذي أحرزته بعض مدن العواصم الاسلامية. وتكشف وجهة نظره في الإسلام ما يذكره من «أن الإسلام قد اعتبر المدينة مجرد وجود دينى لا سياسى». وقد أدى عدم الفهم الواضح إلى تضارب آراء هؤلاء الباحثين(٦)، والى الوصول إلى نتائج خاطئة تخالف من اتخذ منهم الاسلام محورا أساسيا لفهم المدينة، ونأخذ مثالا لذلك، فقد توصلت «جانيت أبو لغد» بعد دراستها نماذج من المدن الإسلامية كالقاهرة وتونس وغيرهما إلى أن هذه المدن تسير وفق قانون اسلامي يحدد أشكال الملكيات وحقوق الارتفاق تحديدا واضحا، فحدد علاقة الملكيات الخاصة بالمرافق العامة، وينظم علاقة أصحابها بالجهات الرسمية للدولة، وأن هذا النظام يختلف عن نظام القانون الرومانـي الذي كان يحكم مدن أوروبا في العصور الوسيطة(٧)، وفي المقابل يقول «ستيرن» إن المدينة الإسلامية خالية من المؤسسات، لان المجتمع الاسلامي لم يرث أيا من المؤسسات المدنية عن الحضارات القديمة اليونانية والرومانية، كما أن الاسلام لم يطور أيا من هذه المؤسسات. ويرى أن الحضارة الاسلامية كان باستطاعتها السيطرة على ما كان موجودا قبل الفتح الاسلامي من مؤسسات مدنية قديمة وتطويرها غير أنها لم تقم بهذه العملية لانتهاء دور فعالية المؤسسات المدنية القديمة فلم يبق هنالك شيء تسيطر عليه هذه الحضارة»(٨).ويكشف هذا الرأى عن غياب ماهية الإسلام عند

ستيرن، ذلك الغياب الذي تصور معه عدم وجود مؤسسات إسلامية بالمدينة الإسلامية، تعمل وفق القانون الاسلامي الذي أقر ما كان صالحا من العهود السابقة، وأوجد الجديد الذي تصله به حياة المجتمع الإسلامي. وكان لهذا الغياب أثره في بعض الآراء المشابهة التي تذكر «أن سكان المدينة لم يكونوا موجودين إلا في مسألة خضوعهم الجماعي للسلطة، وان وحدتهم هذه لم تنبثق من خلال تماسكهم تجاه القانون كما هو الحال في المدينة الإغريقية والرومانية والأوروبية في العصور الوسطى. فأهالى المدينة الإسلامية منقسمون على أنفسهم دينيا واقليميا وعنصريا إلى جماعات وكتل لكل منها رئيسها وقوانينها، وانهم لم ينتظموا في نقابات أو تنظيمات حرفية»، ويخلص هذا الرأى إلى «أن سكان المدينة مجرد ساكنين فقط ولا يمتون بصلة مدنية لها»(٩)، حتى أن «كلودكاهن» يرى أنه من الخطأ أن نطلق عليها مسمى المدينة الاسلامية. والأحرى أن نسميها مدن «دار الاسلام»، امعانا في تجريد المدينة الإسلامية من أي صفة مدينة مستقلة. وفي سبيل تأكيد ذلك يقول: «إن الكثير من سمات ما يسمى المدينة الإسلامية في الواقع صفات وسمات المدينة البيزنطية والوسيطة وصفات المدينة الايطالية قبل القرن ١١». (١٠)

وقد انعكس غياب المنظور الاسلامي أيضا على نتائج الدراسات المتعلقة بالتكوين المادي للمدينة الاسلامية، فانحرفت انحرافا واضحا لاسيما أنها وضعت المدينة الإسلامية في موازين المدينة الغربية التي تخلفت عنها في مناخ نشأتها وتطورها. ومن هنا ظهرت المفارقات في النتائج التي انتهت اليها هذه الدراسات، والتوجهات البحثية لدى بعض الباحثين الغربيين على وجه الخصوص، تلك التوجهات التي كان المحور الرئيس فيها مقارنة المدينة الاسلامية بالمدينة الأوروبية، لسلب المدينة الإسلامية اصالتها، وتجريدها من هويتها، والاقلال من أهميتها. ولا أدل على ذلك من بحوث سوفاجيه Sauvaget في كتاباته عن مدن سوريا كحلب ودمشق واللاذقية، وجرونباوم .G. Von Grunebaum فيما كتبه عن التركيب المعمارى لمدينة المسلمين، وما أشار إليه

بلانهول Xavier de Planhol في كتابه عن عالم الاسلام وغيرهم. ويدخل في اطار هذه المقارنات تلك الدراسات التي عرضت لموضوع النقابات Form of Association من منظور يفترض أن المدينة الاسلامية، كما لو كانت في نشأتها مرّت بالظروف نفسها التي مرت بها المدينة الأوروبية في العصور الوسطى.

والمحور الثاني الذي يعتبر من أسس دراسة المدينة الاسلامية هو كيفية النشأة والتطوّر، فقد بدأت المدينة الاسلامية مع بداية الدعوة الى الاسلام، وتطوّرت بتطوّر حضارته، ومن ثم لا يمكن أن نغفل هذا الاساس عندما نتعرض للمدينة الاسلامية بالبحث أو الدرس، فهي كائن حي يتأثر ويؤثر، يأخذ ويعطى جريا على سنة الحياة التي اختلفت عصورها وظروفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، واذا ما اعتبر ذلك فان نهج البحث يستقيم، وتتضح الظواهر وضوحا يقينيا لا لبس فيه ولا غموض، ويجنبنا مرة أخرى تقييم المدينة الإسلامية في اطار المعايير والمقاييس التي تقيّم بها المدينة الغربية.

وهذا الاتجاه يساعدنا كثيرا في الكشف عن اصالة المدينة الإسلامية، وعن تميز قيمها، التي شكلت وعاءها المادي من جهة، وهيأت مجتمعها التهيئة الحضارية الراقية في توافق تام بلور في النهاية صورة المدينة الاسلامية.

ويفيدنا هذا التوجه في تتبع نشأة المدينة الإسلامية ومراحل تطورها سواء كان هذا التطور فكريا أو ماديا، ويساعدنا كثيرا في تحديد ملامحها وتفسير ظواهرها تفسيرا علميا سليما، يبعد عن أي تحامل مقصود أو غير مقصود، كما أنه يربط ربطا واضحا بين الفكر الاسلامي وتطوره ممثلا في ذلك التراث الحضاري الضخم، وبين مجتمع المدينة الاسلامية داخل وعائها المادي، الذي شكله أصلا فكر وحياة المجتمع، فأخذ شكلا مميزا يعكس بوضوح هذا الفكر وتلك الحياة، ومن ثم تميزت الهيئة المادية للمدينة الاسلامية عن غيرها من المدن، وحق لها أن توصف بالصفة «الاسلامية» لان هيئتها تبعت وظيفتها التي انشئت من أجلها، ومن هنا تبرز أهمية الكشوف الاثرية التي تبرز لأول وهلة الشكل المادي، وتفسر

الدراسات الاثرية التحليلية بعد ذلك المردود الثقافي والحضاري في اطار استنطاق المادة، وتفسير رجع الصدى، من خلال ما تزودنا به هذه الاثار من معلومات وافكار.

ويدفعنا هذا التوجه أيضا إلى تتبع مصادر مختلفة ومتنوعة. تأتي في مقدمتها مصادر الفكر السياسى والاجتماعي للمسلمين في مراحل تاريخهم المتعاقبة، باعتبار أهميتها في رسم صورة مثالية للنهجين السياسى والاجتماعى في ضوء التجربة والتقييم الحضارى بوضع الصيغ القانونية الاسلامية التي تحكم حياة المجتمع في جميع جوانبها، وبالإضافة إلى ذلك تأتى المصادر الأخرى من تاريخية وجغرافية وعلمية وغيرها، والتي تكشف عن المساهمات الفكرية التي أثرت في تشكيل حياة المدينة الإسلامية في عصورها المختلفة.

وتأثرت المدينة الإسلامية بالأحداث السياسية والاقتصادية والثقافية التي تغيرت على خريطة العالم الاسلامي في عصور دوله المختلفة، لكنها كانت تتميز بصفة «العالمية»، حيث إن الأسس النظرية والأحكام المرعية واحدة، كما أن الدول الإسلامية لم تعرف الحدود والفواصل التي تتأكد على خريطتها اليوم، بالاضافة إلى أن عوامل التقارب والتضامن والاندماج في اطار الدين واللغة كانت أقوى من عوامل العزلة التي نلحظها الان، ومن ثم فإن التشابه والتماثل قائمان يؤكدان هذه الصفة، وإن وجدت اختلافات في التفاصيل فإنما ترجع إلى عوامل البيئة المحلية. ويؤكد عالمية «المدينة الإسلامية» تميزها وانتشارها وأهميتها التاريخية والحضارية، وأثرها الواضح في تاريخ المدينة العالمي باعتبارها ممتدة في عمق التاريخ، مرتبطة بالإسلام ودعوته، قائمة على منهجه وتعاليمه، وباعتبار تأثر غيرها من المدن بها في وقت كانت الريادة لها في العصور الوسطى.

وفي ضوء هذه الأسس يمكن أن تتضح على خريطة دراسة المدن الإسلامية مواضع هذه الدراسات التي تناولتها قربا أو بعدا من الحقيقة، ونظمت هذه الرؤية منهج هذه الدراسة التي يمكن أن نعتبرها مدخلا لدراسة المدن الإسلامية،

فيتضمن محتوى هذه الدراسة مدخلا تمهيديا يتناول الفكر الاسلامي واستراتيجية العمـران من منظور يوضح جوانب هذا الفكر المنطلق اساسا من الكتاب والسنة ثم تتبع أسس هذا الفكر في العصور الاسلامية التاليـة التي تعكسها بوضوح مصادر التراث الاسلامي، ويؤكد تطبيقاتها ما كشف من آثار المدن الاسلامية، وما نراه واضحا في بعض المدن القائمة المحتفظة ببعض أحيائها الاثرية، فيكون هذا المدخل اطارا يجسم هذا الفكر ويكشف عن أسسه.

وفي الفصل الاول: تعرض هذه الدراسة نشأة المدينة الاسلامية وتطورها، مركزة على نشأة تخطيط المدينة، ومراحل هذه النشأة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وعهد الخلفاء الراشدين من بعده، وبعـد ذلك تعـرض مراحـل التطور والنضج التي وصل إليها تخطيط المدينة الاسلامية، والمؤثرات المختلفة التي أثرت فيه من فترة إلى اخرى.

والفصل الثاني: يعرض تخطيط المدينة الإسلامية، وتعرض الدراسة أسس هذا التخطيط ومحاوره الاساسية مع ابراز أثر القيم الاسلامية في ذلك، وربط الجانب النظرى/الفكرى بالجانب التطبيقى/الميدانى من واقع ما هو قـائم من نماذج المدن الاسلامية.

ويختص الفصل الثالث: بدراسة تحصين المدينة الإسلامية من منظور تاريخى وأثرى، يبرز أثر التحصين على تخطيط المدينة، ويكشف عن نظام تأمين المدن والدفاع عنها. ويوضح جانبا من التاريخ الحربى لهذه المدن وأثره المباشر في حياة مجتمعها.

وفي الفصل الرابع: تعرض الدراسة الشوارع والطرق في المدينة الإسلامية، فتبرز الأسس التي قام عليها تخطيط هذه الشوارع ونوعياتها المختلفة، وايضاح العلاقة بين الشوارع والطرقات وتخطيط المبانى المطلة عليها، ثم تلقى الضوء على نظام الحياة في شوارع المدينة الاسلامية في اطار القيم والقواعد الاسلامية مع ابراز أهمية الشارع «كعنصر اتصال».

ويختص الفصل الخامس بدراسة المنشآت والمرافق العامة في المدينةالإسلامية، كالمسجد الجامع والمساجد والأسواق والبيمارستانات والمدارس والأسبلة وأحواض الدواب وغيرها، وارتباط توزيع هذه المرافق بتخطيط المدينة العام ونظام الحياة فيها.

ويخلص الفصل السادس إلى دراسة جوانب ونظم الحياة السياسية في المدينة الإسلامية من منظور يؤكد على مفهوم «السياسة» في تلك العصور التي عاشتها المدينة الإسلامية ويربط بين هذه الحياة وتكوين المدينة ومؤسساتها.

والفصل السابع من هذه الدراسة يعرض جوانب الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية من خلال قراءة تكويناتها المادية ومؤسساتها المختلفة باعتبار أن المدينة الإسلامية بهيكليها التخطيطى والعمرانى ماهى الا صدى لجوانب الانشطة الاجتماعية فيها.

وفي خاتمة هذه الدراسة تبرز النتائج الهامة التي كشفت عنها، والتى تضع المدينة الاسلامية في موضعها الصحيح من تاريخ المدينة العالمى، لاسيما أن الدراسات الهامة التي تعرضت لتاريخ المدينة العالمى أهملت المدينة الإسلامية وأهميتها في ذلك التاريخ الممتد في المدينة والذي يعكس بوضوح تطور حياة الإنسان.

والله ولـي التوفيق.

محمد عبد الستار عثمان

هوامش المقدمة

١ ـ M, Lombard : The Golden Age of Islam translated by Joan Spencer (Nether-land 1975) pp. 18-119, 135.

٢ ـ Janet Abu Lughud : (Varieties of Urban Experience : Contrast, co-experience and Calescence in Cairo) in Middle Eastern Cities, ed. by ar. M. Lapidus, Los Angeles 1969. p. 183.

٣ ـ F. Benet , The Ideology of Is lam Urbanization in International Journal of Comparitive Sociology. Vol. IV, 1963, pp. 211-226.

٤ ـ W. Spencer, Urbanization in North Africa.

٥ ـ Xavier de Planhol , The World of Islam, New York, 1959, pp. 8-29.

٦ ـ Mason Hammond , The City in the Ancient World, Harvard, 1972 , pp. 342-358.

٧ ـ عبد الجبار ناجي : المدينة العربية الاسلامية في الدراسات الاجنبية ـ دراسة نقدية معاصرة ـ مجلة المورد، مجلد ٩، عدد ٤ سنة ١٩٨٠م، ص ١٧٠ .

Janet Abu Lughud : op. cit. , p. 12

٨ ـ S. M. Stern , The Construction of the Islamic City, The Islamic City, Ox-ford, 1972, p. 30.

٩ ـ Jean Combair, Werner. J. Cahnman , How Cities Grew, the Historical Sociology of Cities, New Jersey 1965, 3rd. ed. pp. 6-7.

عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص ٦٠.

١٠ ـ C. Cahen, Ya-t-il eu des corporations professionnelles dans le monde musul-man classique, Quelques reflexions 'in the Islamic city. ed. by. Hourani and Stern, Oxford 1970, pp. 51-63,

عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص ١٥١ .

الفكر الإسلامي واستراتيجية العمران

مَدْخَل تمهيدي
الفكر الإسلامي واستراتيجية العمران

نعرض في هذا المدخل نقاطا أساسية مرتبطة بدراسة المدينة الإسلامية نبدأ بتعريفها، ونظريات الكتّاب المسلمين حول نشأة المدينة بصفة عامة، ومدى ارتباط هذا التعريف وتلك النظريات بالتعريفات والنظريات الحديثة التي حاولت تعريف المدينة، ولاسيما نظريات علماء الاثار التى ركزت على كيفية النشأة، ثم ننتهي إلى تحديد منهج الفكر العمرانى الاسلامى من خلال ماورد فى المصادر وما بقى من آثار، مع الكشف عن أهمية هذه المصادر في دراسة المدينة الإسلامية.

أولا: «تعريف المدينة ونظريات نشأتها»:-

أشار البحث اللغوى الى أن كلمة مدينة ترجع أصلا الى كلمة «دين»، وأن لهذه الكلمة بهذا المعنى أصلاً في الآرامية والعربية أى أنها ذات أصل «سامى». وعرفت المدينة عند الاكديين والاشوريين بالدين أى «القانون»، كما أن «الديان» يقصد بها في اللغة الارامية والعبرية «القاضى»، واضافة الى ذلك فان مصدرها في الارامية «مدينتا» وتعنى «القضاء». وتوافق هذه التفسيرات ما ورد فى القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، وما أشار اليه بعض المعاجم العربية، فقد وضح من التفسير القرآني أن كل المواضع التي أطلق عليها لفظ «مدينة» كان عليها حكام وملوك، وفيها على وجه التحقيق الصيغة القضائية والدينية والإدارية والسياسية، فجاء تمييز المدينة عن القرية في القرآن الكريم على أساس سمة التقاضى التى أشار اليها اللفظ الارامى سلفا(١). وورد في الحديث الشريف «الديان» ويقصد به الملك أو الحاكم، فقد أورد كل من البخارى وابن حنبل حديثا: عن جابر بن عبد الله: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يوم يحشر العباد-أو قال الناس- حفاة عراة عزلا ليس معهم شىء، ثم يناديهم بصوت

يسمعه من بعد كما سمعه من قرب، أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لاحد من أهل الجنة ولا لأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقصه منه. . . » وفي حديث آخر عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: «يأخذ الديان سماواته وأرضيه بيده» وقبض يده وجعل يقبضها ويبسطها. . » ويتفق معنى الحديث مع اشتقاق الكلمة من الدين والملك والقضاء. وهو ما أشار اليه بعض المعاجم العربية من أن كلمة مدينة ترجع الى كلمة دين وهي مشتقة من كلمة «ودنته» وتعنى ملكته فهو مدين مملوك، ويذكر: أن جماعة من الناس ترى بأن كلمة مدينة ترجع في الاصل الى كلمة دين لكونها تملك. (٢)

ويتصل التفسير الفقهى للمدينة أيضا بهذا المفهوم اللغوى حيث إن أبا حنيفة ذكر: أن صلاة الجمعة انما تختص بها الامصار دون غيرها، وأنه لا تجوز اقامتها في القرى، واعتبر أن المصر هو ذلك المكان الذي يوجد فيه سلطان يقيم الحدود وقاض ينفذ الاحكام. (٣) ويسير في الاتجاه نفسه تعريف بعض الجغرافيين للمصر حيث يذكر المقدسى: أنه هو «كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحله أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه». (٤)

ويشير بعض التعريفات اللغوية للمدينة اشارات واضحة الى تحديد كيانها المادى والاجتماعى، كقول ابن منظور إن المدينة هى «الحصن يبنى في اصطمة من الارض وكل أرض يبنى عليها حصن في اصطمتها فهى مدينة»، والاصطمة معظم الشيء وتمامه. (٥) ومن منظور اجتماعى ذكر الفيروزابادى أن «المدينة تعادل الامة»(٦)، وهو أمر يتوافق مع تعريف المدينة وكيفية نشأتها الذي اشار إليه القزوينى الذي ذكر أنه « عند حصول الهيئة الاجتماعية لو اجتمعوا (البشر) في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح، ولو تستروا فى الخيام والخرقاهات لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو، ولو اقتصروا على الحيطان والابواب، كما ترى في القرى التى لا سور لها، لم يأمنوا صولة ذي بأس، فأكرمهم الله تعالى باتخاذ السور والخندق والفصيل فحدثت المدن والامصار والقرى والديار. . . واتخذوا للمدن سورا حصينا، وللسور أبوابا عدة حتى لايتزاحم الناس بالدخول والخروج، بل

يدخل المرء ويخرج من أقرب باب إليه ،واتخذوا لها قهندازا لمكان ملك المدينة ،والنادى لاجتماع الناس فيه . وفي البلاد الاسلامية المساجد والجوامع والاسواق والخانات والحمامات ومراكض الخيل ومعاطن الابل ومرابض الغنم ، وتركوا باقى مساكنها لدور السكان، فأكثر ما بناها الملوك والعظماء على هذه الهيئة ، فنرى أهلها موصوفين بالامزجة الصحيحة ، والصور الحسنة والاخلاق الطيبة ، وأصحاب الاراء الصالحة والعقول الوافرة ، واعتبر ذلك بمن مسكنه لايكون كذلك مثل الديالم والجيل والاكراد ، والتركمان وسكان البحر في تشويش طباعهم وركاكة عقولهم، واختلاف صورهم. ثم اختصت كل مدينة لاختلاف تربتها وهوائها بخاصية عجيبة ، وأوجد الحكماء فيها طلسمات غريبة ، ونشأ فيها صنف من المعادن والنبات والحيوان لم يوجد في غيرها ، وأحدث بها أهلها عمارات عجيبة ، ونشأ فيها أناس فاقوا أمثالهم في العلوم والاخلاق والصناعات(٧) .

ولهذا التعريف دلالاته المتصلة مباشرة بالمقاييس والمعايير الحضارية التى تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان الاخرى ، فهو يشير صراحة إلى أن المدن لا تقام إلا في حالة تواجد «الهيئة الاجتماعية» كما أشار صراحة إلى أن المدينة تتميز بسورها الذي يحصنها ، وفي ذلك تأكيد واضح على الدلالة الحضارية لإقامة السور الذى يعنى الأمن والأمان لساكنى المدينة ، كما ألمح النص إلى وجود سلطة في المدينة ممثلة في الحاكم أو الملك عندما ذكر مقر اقامته وصفته بالمدينة ، وفي الاتجاه نفسه أشار إلى ما تتميز به المدينة الاسلامية من منشآت وتكوينات ارتبطت بحياة ساكنيها وحضارتهم مفرقا في ذلك بين المدينة الاسلامية وما عداها . واضافة إلى ذلك أشار إلى القيمة الحضارية لحياة المدينة باعتبار طبيعة أهلها وسماتهم وخصوصا عندما اعتبر غير ساكنى المدن ممن يعيشون حياة بدائية ، كالديلم والاكراد. وفي النهاية أشار الى أثر اختلاف طبيعة الارض والمناخ على النشاط البشرى ، وتميز مجتمع مدينة عن مجتمع مدينة أخرى بنشاطات يتفوقون فيها ، فوازن تعريفه بين المنظور المادى والمنظور الاجتماعى بصورة تؤكد سبق الفكر الاسلامى في ادراكه المقاييس والمعايير التي تميز المدينة .

وقد اعتبر الاسلام «الهيئة الاجتماعية» المستوطنة وساعد على ابرازها، وتعكس ذلك آراء الفقهاء بعدم اجازة الصلوات الجامعة الا في الامصار، فقد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: «لاجمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى الا في مصر جامع». وفي حديث آخر «الا في مصر جامع أو مدينة عظيمة»(٨). واتفق الفقهاء على أن المصر هو «وطن مجتمع المنازل»، والمدينة تمثل ذلك بصورة واضحة.

ومن منظور اجتماعى ونفسى متقدم يكشف «قدامة بن جعفر» عن جانب آخر من المعايير التي تبين السبب فى نشأة المدن، والتى تعتبر من سماتها الاساسية فيقول: «لما كان ما قلنا أفعال النفس المميزة، وتصاريفها كثيرة مختلفة، وحاجة الانسان بسببها وبسبب الجسم الذي لم يكن للنفس في هذا العالم بد منه، واسعة منتشرة، وتبعت هذه الاحوال والصناعات والمهن فصارت على حسبها في الكثرة، ولم يكن في وسع إنسان واحد استيعاب جميع الصناعات المتفرقة، وكان لابد للناس من ضرورة قادتهم الحاجة الى الترافد ، واستعانة بعضهم ببعض ليكمل باجتماع جميعهم، ولم يكن بد ضرورة منه، لان هذا يبذر لهذا قمحا يتقوته، وهذا يعمل لهذا ثوبا يلبسه، وهذا يصنع لهذا بيتا يكنه و(يستره)، وهذا ينجز لهذا بابا يغلقه على بيته وهذا يخرز لهذا خفا يمنع به الآفات عن رجله،وغير ذلك مما لايكاد العدد يدركه من فنون الصناعات وضروب الحاجات، لأنه لم يكن في استطاعة إنسان واحد أن يكون فلاحا، نساجا، بناء، نجارا، إسكافيا، ولو أنه كان محسنا لهذه الصناعات كلها لم يف وحده بما يحسنه منها، ثم يجوز بعد هذا كله أن تأتي صناعات لم يكن يتأتى للواحد من الناس النفاذ في جميعها كالطب والفلاحة مثلا». ويشير الى أن كلا منها يحتاج الى مواصفات جسمية وعقلية خاصة باعتبار العوامل المحيطة بها.ومن هنا تتنوع الوظائف والمهن التي يقوم بها أشخاص مختلفون فتحدث الكثرة والاجتماع في المدينة، وكان علم ذلك ما بقى عند الله سبحانه، فطر الإنسان محباً للمؤانسة مؤثرا للاجتماع مع ذوي جنسه. فاتخذوا المدائن والامصار واجتمعوا فيها للتعاضد والتوازن(٩). وفيها ذكر قدامة

اشارة واضحة الى أن نشـأة المدن مـرتبطة بحـاجات الانسـان التي تختلف من شخص إلى آخر لاختلاف طبيعة النفوس كـما أنه يشـير إلى تركيب الـطبقات الاجتماعية في مجتمع المدينة، وحاجة كل منها الى الاخرى، سواء كانت هـذه الطبقة منتجة للغذاء مباشرة، أو أنها توفر حاجـات ضرورية أخرى، ومن ثم تتضح الرؤية الواسعة لتكوين مجتمع المدينة وحتمياته، اذا ما قارنا ذلك بما اشار اليه بعض الدراسات الحديثة عن نشأة المدينة المـرتبطة بحـدوث ثورة تقنيـة، حدثت كما يقال في الالف الخامس قبل الميلاد، أدت إلى زيادة الانتاج الزراعي ووفرته، فمكن ذلـك من نشأة طبقـات من التجار والمفكـرين والقادة والجنـد وأصحاب الحرف والصناعات شكلت مجتمع المدينة وجعلته مميزا عن المجتمعات الريفية وغيرها(١٠)، وتتفق وما اكدته الاكتشافات الأثرية الحديثـة التي ارجعت نشأة المدن إلى ما قبل ذلك بكثير حوالي الالف السابع قبل الميلاد، وأوضحت أن الحضارة المادية بالطبع ذات صفات ومعايير ككثافة عدد السكان، وانتاج فائض من الغـذاء، ووجود سلطة مـركزيـة، وعدم المسـاواة بين النـاس اجتماعيـا، والهندسة المعمارية لابنية ضخمة، والكتابة والتجارة وغير ذلك، واذا كانت هذه المعايير ينطبق معظمها على الحضارة المدنيـة فانه ليس بالضرورة أن تنطبق عليها كل هذه المعايير، كما لا يوجد معيار واحد أو مجموعة من المعايـير ثابتـة في كل حضارة مدنية. وواضح أن ظاهرة المدينة نشأت بطرائق مختلفة في اماكن متعددة من العالم. (١١)

وقد ساق ابن قدامة أفكاره عن نشأة المدينة في اطار فكري واسع يبين منزلة الانسان بين المخلوقات الاخرى، ويشير إلى أن الخالق «جعل الانسان قصـدا لاستكمال القدرة واستيعاب الحكمة ممتزجا من صيغة الملائكة بالتمييـز، ومن صيغة الحيوان غير المميز بالتغذي والتناسل ومايتبعهما مما لايجوز مفارقتها له، فلما حل في الإنسان من بين سائر الحيوان قوة التمييز الغالبة علا شأنه، وقهر الحيوان كله، وصار جميعه مذللا ومتصرفا على مشيئته واختياره، ولما شارك الحيوان بما شاركه فيه حصلت فيه أموال مختلفة، وأسباب متنازعة، اذ كان مركبا من قوة

الأهمية ومادة أرضية، وصار لا في منزلة الملائكة المقربين عاليا، ولا في محلة سائر الحيوان البهيمي مبطوحا(١٢)، وجعله الله لاختلاط أحواله مكلفا مأمورا منهيا، واحتاج بما فيه من كثرة التمييز أن يسوس ما خلط فيه من البهيمة، ولكثرة تصاريف ما في قوة التمييز من الافعال وزيادتها على ما يفي به الواحد من الناس احتيج الى الاجتماع والتمدن، ليكون في المدينة ناس كثير يتصرفون في هذه الافعال المختلفة ومع اختلاف الصيغ الكثيرة، واجتماعهم في المدينة يتصل بذلك الافعال المختلفة الذي يلزم قودها الى حسن السيرة، وسداد الطريقة، فعند ذلك ومن أجله وقع الاضطرار الى «السياسة» التي هي قود الملوك والائمة رعاياهم الذين ينقادون لهم، ويدخلون تحت طاعاتهم إلى الافعال الحميدة المرضية والطرائق السديدة القوية»(١٣). وفي هذا السياق ما يوضح أسباب نشأة المدينة باعتبارها اطارا مرتبطا بطبيعة الانسان وتكييفها وتوازنها وتطويرها، وهو أمر متصل بالضرورة بحاجات مختلفة تؤكد حتمية الاجتماع المدني، الذي لابد له من سياسة انعكست سلوكا في حتمية وجود ملوك وأئمة لقيادة الرعية. وفي ذلك ما يشير الى سبق في ادراك معايير الكثافة السكانية، وتنوع الانشطة واختلاف الطبقات، وضرورة وجود السلطة التي تنظم وتسوس هذه الهيئة الاجتماعية.

وقد سبقت الافكار عن نشأة المدن نظريات روبرت كارنيرو ودياكونوف وفيليب سميث وكويرل يونج ومجواير جبسن وروبرت آدم وجوردن شايلد وغيرهم من أصحاب النظريات الحديثة(١٤) التي حاولت تفسير كيفية نشأة المدن، وتطابقت هذه الأفكار مع كثير من النتائج التي توصلت إليها، واتجهت اتجاهات أوسع وأعمق.

وتعكس كتابات الجغرافيين المسلمين تلك المعايير التي كانت تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان الحضري، وصنفوا هذه المدن وفق المعايير المتنوعة، التي تختلف مظاهرها من مدينة الى أخرى، ويتضح ذلك من خلال أوصاف المدن والمراكز الاستيطانية الاخرى كالبلاد والقرى، وتعكس مسميات المدن وأوصافها

تصنيفا محددا للمدن cities، فقد استخدموا مصطلح «المدينة» ومدينة كبيرة، ومدينة وسط، ومدينة صغيرة، ومدينة وكورة في آن واحد، ومدينة عظيمة وولاية في آن واحد، وقصبة ومدينة عامرة وهي قصبة، أو ناحية وهي قصبة، أو مدينة وقصبة أو قصبة وكورة، أو بلد وقصبة في الوقت نفسه، والاهم من ذلك ورد تعبير «قرية وهي قصبة أيضا» وفي الاطار نفسه صنفوا البلاد .towns فقالوا «بلد أو بلدة وهي موضع أيضا، أو بلدة ولها كورة، وبليدة وهي قصبة، أو بلد عظيم أو بلد صغير»(١٥) ويكشف تصنيفهم القرى أيضا عن الفروق بينها وبين المدن والبلاد فقالوا: «قرية، وقرية كبيرة، وقرية كبيرة كالمدينة، وقرية كبيرة شبيهة بالمدينة، أو قرية كالبلدة». ولاشك أن هذه التصنيفات مرتبطة برؤية واضحة تميز كل منها عن الاخرى وفق معايير حضرية محددة. ومن خلال أوصاف الجغرافيين للمدن أمكن تحديد هذه المعايير كالمعيار السياسي وما يرتبط به، ومن وجود السلطة الإدارية والقضائية، وكبر المساحة، وزيادة كثافة السكان ووجود الأسواق، وتوافر المرافق العامة كالحمامات والمساجد الجامعة، وتوفر مصادر مياه الشرب، وما يرتبط بذلك من عوامل مساعدة على ازدهار حياة المدينة وأمنها، كالحصن والأسوار والمناخ الجيد ووفرة مصادر الغذاء. وصنف الجغرافيون العرب المدن حسب هيئتها ونوعية النشاط الغالب عليها، فهناك المدينة الحصن، والمدينة التجارية. (١٦)

وتكشف أوصاف الجغرافيين للمدن في عصور متلاحقة عن مظاهر التغير التي تحدث فيها، سواء كان هذا التغير تطورا لعمران المدينة وازدهارها، أو انحدارا وتخلفا ربما يؤدي بها الى التحول من منزلة المدينة إلى البلد أو القرية، وربما ينتهي بها الحال إلى الاندراس(٧). ويرتبط هذا التغير والتبدل بعوامل مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية منها ما يؤدي الى ذبول بعض المدن واندراسها، ومنها ما يساعد على بقائها واستمرارها(٨). وتبقى هذه المعايير سابقة لكل ما تلا ذلك من أبحاث ودراسات حاولت وضع معايير معينة تميز المدينة كمركز حضري منطلقة من توجهات بحثية محددة برؤية أو منهج خاص. (١٩)

منهج الفكر العمراني

يكشف ماورد في بطون كتب التراث وما جاء ضمن الوثائق التي عثر عليها عن مستوى فكري متقدم في مجال العمران، وتخطيط المدن وانشائها وتنظيم أعمال الانشاء والبناء التي تصاحب تطور المدن. وتؤكد الدراسة التحليلية التطبيقية لما تبقى من آثار بصورة واضحة على جوانب هذا الفكر وأسسه ومراحل تطوره الحضاري.

امتاز الفكر الاسلامي العمراني بالشمولية في مبادئه العامة وبالتخصصية في جزئيات التطبيق، أي أنه يبدأ بالاعم الاشمل كسياسة عامة، وينتهي الى التخصص الدقيق في كل فرع من الفروع، كانعكاس للنظام الاداري للدولة الاسلامية نفسه، والذي يقوم على رأسه الحاكم ومعاونوه، وينتهي الى القاعدة العريضة من أفراد الامة، وتتدرج هذه المستويات ومسئولياتها بتدرج البحث في الفكر العمراني الإسلامي تدرجا يبدأ من عرض سياسة العمران للدولة بصفة عامة، ثم ينتقل إلى الفكر الموجه لتخطيط المدن، ويتدقق الى أن يصل إلى دراسة دقائق الحرف والصناعات المتصلة بالعمران، وهو كل يعمل في اطار واحد، وتؤثر وتتأثر جزئياته بعضها ببعض.

ومع هذا التنوع والتدرج تنوعت المصادر التي تعرضت للفكر العمراني الإسلامي، ابتداء من تلك المصادر التي اهتمت بالاجتماع السياسي إلى المصادر الفقهية وكتب الحسبة. فالمصادر التاريخية والجغرافية التي تتحدث عن تاريخ المدن وخططها، بالاضافة إلى كتب الآداب التي تمس السلوك الاجتماعي مسا مباشرا في اطار التعاليم الدينية الإسلامية، والوثائق ومصادر القضاء الاسلامي التي تسجل حالات التنفيذ القضائي المنظم لعمليات البناء بالمدن الاسلامية، وغير ذلك من المصادر التي تعكس صورا واضحة لنشاطات الحياة ومظاهرها المختلفة داخل المدينة الإسلامية. ويزيد الكشف على ماجاء بهذه المصادر صورة المدينة الاسلامية وضوحا، فهي تسجل حياة المدينة تسجيلا صادقا. ومن ثم تبرز

أهمية الربط بين دراسة المدن الاسلامية ودراسة التراث الاسلامي المدون في المخطوطات والوثائق باعتبارها مصدرا مهما إلى جانب ما تبقى من آثار هذه المدن، ولاسيما أن كثيرا من الجوانب الاثرية والمعمارية يتأكد فهمها بصورة سليمة في ضوء هذه المصادر التي كانت عنصر الاتصال الاساسي الذي عن طريقه تتناقل الأجيال ثقافتها وخبرتها.

وقد تضمنت كتب تاريخ الاجتماع السياسي عادة «أبوابا» خاصة بالعمران توضح الاسس والنظريات التي يجب على الحاكم المسلم اتباعها فيما يختص بسياسة العمران. وكانت هذه المصادر من وضع علماء على علم واسع بحياة المجتمع والمتغيرات التي تواكبها، بل إن هذه المؤلفات كان يكتبها أصحابها بين فترة وأخرى حرصا منهم على النهوض بالمجتمع، وتقويما لسياسة الحاكم برسم المنهج الصحيح الذي يجب اتباعه، كما أن تواليها يعكس مراحل تبلور الفكر الاسلامي العمراني على مراحل تاريخه المتتابعة، ومن هذه المصادر على سبيل المثال لا الحصر كتاب العلامة «شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع» (ت: ٢٧٢ هـ / ٨٨٥م) «سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال» الذي كتبه للخليفة المعتصم العباسي (ت ٢٢٧ هـ /٨٤٢ م)، وكتاب الاحكام السلطانية للماوردي، وكتاب السياسة لابن حزم، والشهب اللامعة في السياسة النافعة لابن رضوان، ومقدمة ابن خلدون، وكتاب بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق وغير ذلك من المصادر المشابهة التي تنوء صفحات هذا الكتاب بذكرها. ويكفي أن نعرض لبعض ما جاء بها من أفكار تعكس مستوى الفكر العمراني في الإسلام ومنزلته لدى حكام المسلمين الذين سعوا الى تطبيقه في انشاء المدن الإسلامية.

وقد عدت هذه المصادر «تكثير العمارة» من أركان الملك، بل إن بعضها أشار تحديدا إلى أنه الركن الخامس «بعد نصب الوزير واقامة الشريعة واعداد الجند وحفظ المال» (٢٠)، وأشار إلى أهمية العمارة باعتبارها من مظاهر عظمة الملك وواجباته، ووجهت الحكام لذلك، بل اعتبرتها «من مباني الملك وشروط

الاجتماع الإنساني». وقال ابن حزم: «يأخذ السلطان الناس بالتجارة وكثرة الغراس، ويقطعهم الاقطاعات في الارض الموات، ويجعل لكل واحد ملك ما عمر، ويعينه على ذلك لترخص الأسعار، ويعيش الناس والحيوان، ويعظم الأمر، ويكثر الاغنياء، وما يجب فيه الزكاة»(٢١). وهو قول يكشف عن نظرة واعية متكاملة لفكر يدعو الى تكثير العمارة، وتسهيل أسبابها من جانب الحاكم بوضعه السبيل إلى ذلك، والهدف المرام هو هو رخاء العيش وكثرة الاغنياء، وبالتالي كثرة مصادر الزكاة التي هي حق الفقراء، فيحدث النفع للجميع وتحقق العدالة الاجتماعية.

وأكد الفكر الاسلامي على أن العمارة سبيل الملك بما تدره من الأموال عندما اعتبر أن «الملك بالجند، والجند بالمال، والمال بالعمارة». وهذا يشير بوضوح إلى أن العمارة هي المحرك الأساسي للحركة الاقتصادية، ويكشف هذا عن نظرة عميقة الغور بعيدة المدى صادرة عن يقين بجدوى العمارة وتكثيرها. وتردد صدى هذا الفكر في سياسة بعض الحكام الذين اهتموا بالعمارة كالخليفة المعتصم الذي قال: «إن العمارة فيها أمور محمودة، أولها عمران الارض التي يحيا بها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الاموال وتعيش البهائم، وترخص الأسعار ويتسع المعاش، وكان يقول لوزيره: اذا وجدت موضعا متى انفقت فيه عشرة دراهم جاء بعد سنة أحد عشر درهما، فلا تؤامرني فيه»(٢٢).

وفي نظرة شاملة اخرى يذكر «ابن خلدون» أن الدولة والملك للعمران بمنزلة الصورة للمادة، وهو الشكل الحافظ لنوعه لوجودها. وانفكاك أحدهما عن الآخر غير ممكن على ما قرر في الحكمة. فالدولة دون العمران لا تتصور، والعمران دونها متعذر، كما تقدم، وحينئذ فاختلال أحدهما مستلزم لاختلال الاخر كما أن عدمه مؤثر في عدمه». (٢٣)

وأشارت هذه المصادر إلى العلاقة الوثيقة بين زيادة العمارة والرخاء والترف وبين قلتها والبؤس والضيق وتدرج الحال من الرخاء إلى الشدة حسب درجة

العمران. ويضرب ابن الأزرق لذلك مثالا بحال «فاس» مزدهرة العمران و«تلمسان» الاقل شأنا ، وحال «افريقية» و «برقة» اللتين تناقض عمرانهما فتلاشت أحوال اهلها وانتهوا إلى الفقر والخصامة، ثم يخلص إلى أن «الأمصار الصغيرة التي لا تفي أعمالها بضرورتها نجد لذلك أهلها ضعفاء متقاربين في الفقر والخصامة، إلا في النادر إذ لا فضل لهم يتأثلون به كسبا». (٢٤)

ويشير الفكر الاسلامي في هذه المصادر إلى الأسباب التي تساعد على العمارة وحفظها كالعدل، فقالوا لا جباية إلا بعمارة ولا عمارة الا بعدل، وفي «السياسة» بالعدل عمرت الأرض وقامت الممالك.

ودعا هذا الفكر الى الاهتمام بالمزارعين ويصدق على ذلك قول زياد: «أحسنوا إلى المزارعين، فإنكم لاتزالون سمانا ما سمنوا»(٢٥). ويكشف ذلك عن رؤية عمرانية واعية ولاسيما أن كثيرا من المدن في تلك العصور كانت تعتمد على أقاليمها التي تزودها بالغذاء، ولا أدل على ذلك من سياسة الأمويين نحو تطوير مدن الامصار، وماحدث من اختيار مواقع بغداد(٢٦) والقاهرة، وفاس وغيرها. وهو أمر ان كان يتفق مع النظرية التي تربط نشأة المدن بتوفر الغذاء الزائد عن حاجة المنتجين، والذي يكفي لاعاشة طبقات أخرى تكوّن وتميز الهيئة الاجتماعية للمدن التي تعمل فئاتها في مجالات اخرى من النشاط، يوضح أن نشأة كثير من المدن الاسلامية كانت في مناطق متوسطة من اقاليم زراعية تزود هذه المدن بحاجاتها الغذائية، وعدَّ ذلك شرطا أساسيا من شروط اختيار موقع المدينة. ولذلك أكدت المصادر على أهمية المزارعين بدعمهم، وحذرت من إضعافهم، وذلك انه «إذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين، فيتركونها فتخرب الارض ويهرب الزراع، فتضعف العمارة ويضعف الخراج، وينتج من ذلك ضعف الأجناد، واذا ضعف الجند طمع العدو». (٢)

وفي رؤية نقدية أشار الفكر الإسلامي الى: «أن أقوى الاسباب في الاعتمار هو تقليل الوظائف على المعتمرين ما امكن، فذلك منشط النفوس إليه، ليقينها ادراك

المنفعة فيه، وذلك غاية التوازن الدافعة الى كثرة الانتاج، فيزذهر العمران أكثر وأكثر». كما أشار إلى «أن الظلم يؤدي إلى خراب العمارة، فاذا كان الظلم بتوجيه الأموال الى غير مستحقها أدى ذلك إلى ترك العمارة، والنظر في العواقب وما يصلح الضياع... ووقع الحيف على من بقى من أرباب الخراج وعمار الضياع فانجلوا عن ضياعهم، ودخلوا ديارهم، وآووا إلى بعد، أو تعذر من الضياع فسكنوها، فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الاموال، وهلكت الجنود والرعية». (٢٨)

وإذا كان الظلم واقعا على الناس وأموالهم فإنهم «يقعدون عن المعاش وتقبض ايديهم عن المكاسب، فتكسد اسواق العمران ويخف سائر مظهره فرارا عنه لتحصيل الرزق في غير أيالته، فتخرب أمصاره وتقفر دياره، وتختل باختلاله الدولة والسلطان». وفي قياس جيد لحالات نقص العمران واسبابها يشير الفكر الاسلامي إلى أن خراب العمران يكون سريعا بسبب أخذ اموال الناس مجانا، والعدوان عليهم في الحرم والدماء والابشار والأعراض لما ينشأ عن ذلك من الهرج المفضى إلى ذلك، وان كان هذا الظلم تدريجيا بأخذ الأموال عن طريق الوظائف الباطلة والمكوس المحرمة، أو تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بها، لأن ذلك يؤدي إلى اغتصاب قيمة عملهم، ويذهب بمعاشهم بالجملة، وتكرار ذلك يؤدي إلى افساد آمالهم في العمارة، فيقعدوا عن السعي فيها جملة، فيؤدي ذلك الى خرابها لا محالة. كما ان من اعظم المظاهر التي تؤدي الى الخراب التسلط على الناس في شراء ما بأيديهم بأبخس ثمن، ثم فرضه عليهم بأرفع قيمة، وعندما يعم ذلك تجار المدينة يقع الكساد، ويبطل المعاش وتنقص الجباية أو تفسد ويؤول الى خراب العمارة». (٢٩)

مما سبق يتضح إدراك الفكر الاسلامي الناضج لأسباب العمارة وازدهارها وأسباب انحلالها وضعفها، في اطار يربط ببراعة بين الشكل المادي والهيئة الاجتماعية ربطا عضويا، يكشف عن نضج في الفكر وارتقاء في المستوى

الحضاري الذي افرزته الحضارة الإسلامية، ليرسم المبادىء العامة لسياسة تكثير العمارة المنوط بها الحكام باعتبار تكثيرها من أركان الملك.

ويلاحظ المتتبع لتاريخ المدن الممتد عبر عصور تاريخ المجتمعات المتحضرة أن ظهور الإسلام كقوة سياسية جديدة على خريطة العالم كان له أثره الواضح في ظهور مدن اسلامية كانت بمثابة مراكز حضارية حملت لواء الحضارة بعد سقوط روما(٣٠). وتمثل هذه المدن المستوى التطبيقي لتكثير العمارة التي عدت الركن الخامس بين أركان الملك، ويعكس ذلك قول الخليفة العباسي المتوكل الذي قال بعد بنائه المتوكلية: «الآن علمت أني ملك اذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها»(٣١). ويؤكد هذا أيضا اهتمام الحكام المسلمين بالعمارة والعمران ومشاركتهم أنفسهم في اختيار مواضع المدن، ومتابعة عمليات انشائها، واوضح مثل على ذلك ما فعله الخليفة المنصور (٧٥٤ـ ٧٧٥م) عندما انشأ بغداد(٣٢). وفي اطار الاهتمام بادارة ومتابعة حركة الانشاء أنشىء ديوان للعمارة في العصر المملوكي على يد الناصر محمد بن قلاوون الذي عرف بحبه للعمارة والانشاء.

وتبلور مصادر التراث الاسلامي في عصوره المتعاقبة ما انتهى اليه الفكر الاسلامي في مجال تخطيط المدن، وتعكس المصادر العديدة التي كتبت عن تاريخ المدن وخططها كثيرا من الحقائق التي توضح إلى حد كبير التطور الفكري المتعلق بتخطيط وانشاء المدن الاسلامية.

وتختلف المدن وتتنوع باختلاف وظائفها وظروف انشائها ومواقعها ومواضعها، والمؤثرات التي تؤثر على نموها وتطورها، وهو أمر يظهر جليا عندما نتعرض بالدراسة لمدينة بعينها دراسة تفصيلية، ولكن من خلال مصادر التراث الاسلامي يمكن أن نعرض لمفاهيم نظرية أساسية أشار المفكرون المسلمون الى ضرورة الاخذ بها عند اختيار مواقع المدن وتخطيط مواضعها. ويعد «ابن الربيع» من أوائل الذين عرضوا لذلك. فقد حدد مثلا شروطا ستة تجب مراعاتها في اختيار موقع المدينة، وهي «سعة المياه المستعذبة، وامكان الميرة المستمدة، واعتدال

المكان وجودة الهواء، والقرب من المرعى والاحتطاب، وتحصين منازلها من الاعداء والذعار، وأن يحيط بها سور يعين أهلها» ثم يحدد شروطا ثمانية أخرى يجب أن يراعيها الحاكم عند تخطيط موضع المدينة وهي : «أن يسوق اليها الماء العذب ليشرب أهلها. ويسهل تناوله من غير عسف، وأن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق، وأن يبنى جامعا للصلاة في وسطها ليتعرف على جميع أهلها، وأن يقدر أسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم عن قرب، وأن يميز بين قبائل ساكنيها بألا يجمع أضداداً مختلفة متباينة وان اراد سكناها فليسكن أفسح اطرافها، ويجعل خواصه محيطين به من سائر جهاته، وأن يحيطها بسور مخافة اغتيال الاعداء لانها بجملتها دار واحدة، وأن ينقل اليها من أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكانها حتى يكتفوا ويستغنوا بهم عن الخروج الى غيرها»(٣٣). وتكشف هذه الشروط عن رؤية تخطيطية للمدينة الاسلامية اهتمت بالجوانب الوظيفية والاجتماعية والسياسية لمجتمع المدينة الاسلامية مما يؤكد أصالة المدينة الاسلامية، وعمق الفكر الاسلامي ورؤيته السليمة في تخطيط المدن، وهو فكر تبلور ونضج مع تقدم العصر، مستفيدا في ذلك بالتجربة.

وبعد ذلك بحوالي ستة قرون يعرض ابن خلدون(٣٤) وابن الازرق افكارا متطورة، مستفيدة من التجربة، تتعلق باختيار مواقع المدن وتخطيطها. فعن اختيار الموقع يشير ابن الازرق: الى أن ما تجب مراعاته في أوضاع المدن أصلان مهمان: دفع المضار، وجلب المنافع، ثم يذكر أن المضار نوعان: أرضية «ودفعها بادارة سياج الأسوار على المدينة، ووضعها في مكان ممتنع، إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها الا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف تحصينها»، والنوع الثاني من المضار سماوي ودفعه باختيار المواضع طيبة الهواء لأن ما خبث منه بركوده أو تعفن بمجاورته مياها فاسدة، أو منافع متعفنة، أو مروجا خبيثة يسرع المرض فيه للحيوان الكائن فيه لا محالة، كما هو مشاهد بكثرة(٣٥). قال ابن خلدون: «قد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بافريقية». وفي ثنايا

الحديث عن السبب في الامراض التي تحدث بسبب ركود الهواء يكشف الفكر الاسلامي عن أن ركود الهواء يساعد على سرعة تعفن الاجسام وانتشار الحميات، وأن حركته تقلل من ذلك الاثر، ثم يكشف عن أن هناك علاقة طردية بين كثرة ساكني البلد وحركة الهواء فيها، ويضرب لذلك مثلا بفاس التي كانت «عند استبحار العمران بافريقية كثيرة السكان فكان ذلك معينا على تموج الهواء وتخفيف الأذى عنه، فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض، وعندما خف ساكنوها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض، ويضرب مثلا عكسيا ببلاد أخرى وضعت، ولم يراع فيها طيب الهواء. وكانت أمراضها كثيرة لقلة ساكنيها، وعندما كثروا انتقل حالها من ذلك. كدار الملك بفاس لهذا العهد المسمى «فاس الجديد» وكثير من ذلك في العالم». (٣٦)

والأصل الثاني، وهو جلب المنافع، يتأتى بمراعاة أمور منها: توفر الماء كأن يكون البلد على نهر أو بازائه عيون عذبة لأن وجود ذلك يسهل الحاجة إليه وهي ضرورية، وطيب المرعى للسائمة وقربه، إذ لابد لذي قرار من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ومتى كان المرعى الضروري لها كذلك كان أوفق من معاناة المشقة في بعده، وقرب المزارع الطيبة لان الزرع هو القوت. وكونها كذلك أسهل في اتخاذه واقرب في تحصيله، والشجر للحطب والخشب، فالحطب لعموم البلوى به في وقود النيران، والخشب للمباني، وكثير مما يتحصل فيه ضروري أو كمالي، وقربه من البحر لتسهيل الحاجة القصية من البلاد النائية، ولا خفاء في أن هذه الأمور تتفاوت بحسب الحاجة وما تدعو اليه ضرورة الساكن. (٣٧)

واذا كانت هذه الشروط واجبة الاعتبار بالنسبة لاختيار مواقع المدن بصفة عامة فقد أشار الفكر الاسلامي الى اعتبارات خاصة تجب مراعاتها بالنسبة لاختيار مواقع المدن الساحلية، منها: «أن تكون في جبل وبين أمة موفورة العدد، ومتى لم تكن كذلك طرقها العدو البحري في أي وقت أراد، لأمنه اجابة الصريخ لها، وعدم غناء حضرها المتعودين على الدعة في الدفاع». ويضرب ابن خلدون مثلا لذلك بالاسكندرية في المشرق، وطرابلس وبرقة وسلا في المغرب. ثم يشير الى

أن المدينة البحرية اذا كانت متوعرة المسالك وحولها القبائل بحيث يبلغهم الصريخ تمنعت بذلك من العدو ويئس من طروقها كما في سبته وبجاية(٣٨) . وفي ضوء هذا الاعتبار يفسر لنا تسمية الاسكندرية باسم «الثغر» في عهد الدولة العباسية- وهي التسمية التي تطلق على البلاد التي على الحدود- رغم أن الدعوة كانت من ورائها لبرقة وافريقية، اعتبارا للمخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها، الذي أغرى الاعداء بمهاجمتها هي وطرابلس مرات عديدة . (٣٩)

وسار منهج تخطيط المدن الاسلامية ومراحل انشاء تكويناتها المعمارية في توافق تام مع احكام البناء التي اقرها فقهاء المسلمين(٤٠) استنادا الى الكتاب والسنة . وتزخر المصادر الفقهية بهذه الاحكام، ومن ثم فان هذه المصادر تعد جانبا هاما من جوانب التراث الاسلامي الذي يقعد لاسس العمارة بتلك الاحكام التي تشتمل عليها كتب الفقه العامة التي صنفها علماء المذاهب على اختلافهم، وتدخل احكام البنيان في جميع ابواب الفقه تقريبا، أو كتب الفتاوي والنوازل التي تتضمن أجوبة المفتين عما سئلوا عنه من اسئلة كان اكثرها في احكام البنيان، ومن هذه المصادر أيضا كتب الحسبة. وهناك العديد من الكتب والرسائل الصغيرة التي اختصت بمسائل البنيان وأفردتها بالبحث ككتاب «الإعلان بأحكام البنيان» لابن الرامي، و«كتاب الجدار» لعيسى بن موسى التطيلي وغيرهما. وهي مصادر تتابع حركة البناء والعمران الاسلامي في عصورهما المختلفة، وتعرض تفصيلا للتعريف بالبناء وأدلة مشروعيته، كما أنها تحدد ماليته من حيث هو عقار أو منقول، ثم تعرف العقار. كما أنها تعرض لاحكام البناء من حيث ذاته فتعرض للبناء الواجب من مساجد وأربطة وحصون وأسوار وجسور وقناطر وسدود وغيرها، والبناء المندوب كالمآذن والأسواق، والبناء المباح كالمساكن والحوانيت للاستغلال مع بيان القواعد التي تحكم هذا النوع من البناء باعتبار أن للسلطة شأنا فيه، والبناء المحظور كبناء القبور والكنائس، والبناء على أرض الأخرين وغير ذلك. كما تعرض هذه المسائل لحكم التوسع في البناء والتطاول فيه وزخرفته . (٤١)

وتـزودنا هـذه المصادر بتفصيـلات أكثر تتعلق بتخـطيط وانشاء الـوحدات المعمارية الدينية على وجه الخصوص. فمنها ما يتعرض للشروط الحاكمة لبناء الميضآت و «بيوت الخلاء»، ومنها ما يتعلق بحكم بناء المساجد في المدن والقرى والبناء عليها، واتخاذ الحوانيت أسفلها «المساجد المعلقة». وكذلك الحاق «الاسبلة» «ومكاتب» تعليم الاطفال بها، وبناء بعضها على القبور أو الحاق «الاضرحة» بها، بل إن من هذه الاحكام ما يتعلق بأسلوب الزخارف الجدارية في المساجد.

ومن منظور آخر تعرضت هذه المصادر لصلاحية البناء من حيث طهارة مواد البناء، وتناسبها في النوع والمقـدار لنوع المبنى، وقيـام العمال بـالبناء كـل فيما تخصص به دون غيره، وفي هذا سيطرة تامة ومباشرة واضحة تؤديان إلى اتقان عمليات الانشاء المعماري، فلا يحدث ضرر لصاحب البناء أو الآخرين الذين قد يتضررون من خلل الإنشاء. وفي تفصيل واضح أشارت هذه المصادر إلى ذكر مواصفات البناء المطلوبة، ومواصفات مواد البنـاء المرغـوب فيها التنفيـذ عند التعاقد على انشاء بناء معين، وأوضحت هـذه المصادر المـواصفات والمقـاييس المعتبرة في المواد المختلفة المستخدمة في الانشاء، بل إنها تمتد لتحدد كمية الماء المطلوبة اثناء خلط مواد البناء، ومقادير المواد المطلوب خلطها فلا تكون زائدة أو ناقصة فتؤثر في قوة البناء ومتـانته. وأشـارت المصادر الفقهيـة إلى أن الجنس والجودة والقدر شرط فيما يتفق عليه المتعاقدان(٤٢). كما أنها أشارت إلى وجوب ذكر المواصفات التي يريدها صاحب البناء في منشآته، وتحديد مقاييسها المختلفة طولا وعرضا وارتفاعا، ونوعية مادة البناء التي تبنى بها سواء كانت طينا أو لبنا أو آجرا، وكذلك صفة البناء من حيث كونه منضدا أو مجوفا أو مسنما. (٤٣)

ولا تغفل المصادر الفقهية مباشرة السلطة وتوجيهها لعمال البناء، وأشارت إلى أنه على الوالي أو نائبه أن يأمرهم باتقان صنعتهم، والنصيحة للمسلمين وعدم التغرير بهم، فإن منهم من يشجع الرجل على البناء، ويقدر له تكاليف البناء تقديرا ضعيفا، فإذا بدأ في البناء وجد أن التكاليف اكثر مما قدره البناء فيلحقه ضرر عظيم، وربما افتقر وركبه الدين أو باع الدار قبل إتمامها. (٤٤) كما أن على

الوالي الزام البناء استخدام الادوات اللازمة لعملية البناء التي تساعد على إحكامه، من زوايا وموازين وخيوط الى غير ذلك، كما أنه يلزم البنّاء إعادة البناء إذا جرى فيما يعمله زيغ أو انحراف. كما يأخذ عليه المواثيق ألا يأخذ من الجباسين رشوة مقابل تواطئهم على قبول الجبس الرديء، كما يحث البناءين على ألا يستعملوا الجبس الرجيع ولا من الاجباس الا ما كان مفلكا فهو أصلح الجبس(٤٥).

والنتيجة المباشرة لهذا الحرص الشديد على اتقان البناء واستخدام مواد الانشاء بالمواصفات المطلوبة هي متانة البناء، والمتانة شرط اساسي من شروط أربعة يجب توافرها في العمارة، وهي المنفعة «والمتانة» والجمال والاقتصاد، ومتانة البناء تعني أداءه لوظيفته بكفاءة واستمرار ذلك مدة طويلة، كما أنها ترغب في توفير الأموال التي يتكلفها إعادة البناء أو ترميمه من فترة الى اخرى إذا ما فسد بناؤه، كما أنها تمنع أي ضرر قد يحدث سقوط البناء بسبب الخلل في بنائه أو الغش في مواد بنائه.

وفي سبيل عدم الاضرار بالآخرين أوضحت هذه المصادر القواعد والأحكام التي تكفل ذلك، كعدم الارتفاع بالبناء على الجيران، وعدم فتح نوافذ تطل على حريمهم، وحكم بناء الافران والمصانع والمدابغ التي يتضررون منها، وعدم منع الجار من وضع عروق البناء على بنائه، وحكم اخراج الميازيب والشرفات إلى الطريق، وغير ذلك من المسائل الدقيقة التي تدخل ضمن هذا الاطار من حقوق البناء، ومن أشهر الأمور المتعلقة بذلك والتي عرضت كثيرا للفقهاء حقوق الجدار المشترك، وحق المرور والارتفاق بالطرق والشوارع التي حدد الفقهاء نوعياتها المختلفة، وحكم كل نوع في الارتفاق والبيع وغير ذلك مما يتعلق «بالشوارع الخاصة».

وتمشياً مع التطور في البناء والامتداد الرأسي للبنيان كانت الأحكام الفقهية التي تختص بحل المشاكل المتعلقة بحقوق «صاحب السفل وصاحب العلو». وتلبية لحاجات المجتمع الناتجة من زيادة العمران بدت الحاجة ملحة بين الحين

والحين لتوسيع بعض المنشآت العامة على حساب الممتلكات الخاصة. فحددت الاحكام الفقهية المنهج والشروط التي تتبع في مثل هذه الحالات. وانطلاقا من الحاجة إلى إعادة تعمير البناء لخلل يخشى منه عرضت الاحكام الفقهية لحكم الجدار المائل، واحكام الضمان فيه حتى تتحدد المسؤولية، اذا ما امتنع عن هدم الجدار وحدث ضرر لاحد به.

واطراداً مع الرغبة في زيادة العمران وتحديدا للاحكام التي تحكم ذلك كانت الاحكام الفقهية التي تتصل بالبناء في الأرض الموات، كما اوضحت حكم البناء في أرض الأخرين وكذلك الأرض الموقوفة.

ومن منظور آخر تعرض المصادر الفقهية تفصيلا لاحكام التصرفات في بيع البناء، وحالاته المختلفة لحل ما ينشأ عن ذلك من مسائل، كما أنها تعرض لعملية تأجير المباني وعلاقة المالك بالمستأجر، كما أنها تعرض للشفعة في البناء اذا بيع من دون الارض، ولاحكام قسمة البناء.

وتؤكد المصادر الفقهية خضوع البناء لأحكام السياسة الشرعية. فلوليّ الأمر أن يمنع البناء في أماكن معينة، ويبيحه في أماكن أخرى، وله أن يمنع التطاول في البنيان إلى حد معين، وأن يقصر البناء على بعض الارض ونحو ذلك مما تحتمه المصلحة العامة للامة. (٤٦)

مما سبق تتضح أهمية المصادر الفقهية في التعريف بالقواعد والاحكام التي تحكم تخطيط المدينة وتكويناتها المعمارية المختلفة، تلك الاحكام التي كانت بمثابة القانون الذي يُحتكم اليه في كل ما يتصل بعمارة المدينة، والذي كان يقوم على تطبيقه سلطات المدينة القضائية التي تفصل في هذه الأمور وتعاونها السلطة التنفيذية في ذلك(٤٧). وفي ذلك ما يكشف عن أن المدينة الاسلامية وتطور عمارتها ومباشرة مرافقها كان من مسؤولية ادارتها المحلية بما تمتلكه من سلطات قضائية وتنفيذية، ادارت عمران المدينة وفق الاحكام الفقهية الاسلامية التي لاحقت بدورها عجلة التطور الحضاري.

كما أن الدراسة المعمارية لاحكام البناء في الاسلام توضح ترابط التكوين المادي للمدينة الاسلامية، والاسس والقواعد التي تحكم هذا التكوين وتنظمه تنظيما مستمرا يلاحق مراحل النمو والتغير التي تطرأ على المدينة الاسلامية. وتوجُّه بعض الدراسات العلمية الجادة نحو الاستفادة من هذه المصادر(٤٨) دليل واضح على أهمية هذه المصادر التي توازي أحكام البناء فيها، وماكان يحكم مدن الحضارات القديمة من قوانين مدنية Civil Law ساعد فهمها على وضوح رؤية التكوين المادي لهذه المدن، وتأخر الانتباه إلى هذه المصادر، والاستعانة بها في فهم التكوين المادي للمدينة الاسلامية، فضلت كثيرا من الدراسات التي حاولت تفسير «التكوين المادي للمدينة الاسلامية، وكيلت الاتهامات للمدينة الاسلامية في بعضها، وجردت من اصالتها في بعضها الاخر. وكانت البداية مع دراسات «سوفاجيه» لحلب ودمشق واللاذقية تلك المدن القديمة التي فتحها الاسلام، والتي أشارت إلى أن المسلمين لم يضيفوا شيئا لهذه المدن، بل ابقوها على حالها، وأن ما أضافوه من خطط في هذه المدن قد ادى الى اضطراب وحدتها وتشويه تركيبها الداخلي، ثم تنتهي الى نتيجة مؤداها أن المدينة الاسلامية ما هي الا تقليد للمدينة الأوروبية القديمة(٤٩). ونهج «بلانهول» على الدرب ذاته فيرى أن الصفة الرئيسة في المدينة الإسلامية هي الفوضى في التخطيط وعدم وجود وحدة تركيبية، كما يشير إلى أنها ضعيفة التماسك على عكس المدن الرومانية ومدن أوروبا في العصور الوسطى، ويرى أن الإسلام لم يفلح في أن يأتي بالبديل للمدن التي خضعت لفتوحاته، ويرى أن الإسلام ببساطة قلد تلك المدن الموجودة. فالسوق Bazar ما هي في الحقيقة الا .. Colonnaded avennue الروماني، والقيسارية ما هي الا البازيليكا .... Basilica الرومانية، حتى الحمام .. Therma الروماني القديم قلده المسلمون في بناء حماماتهم(٥٠). وهو الرأي الذي مال اليه أيضا «جرونباوم»، وان خالف «بلانهول» في موضوع الحمام حيث يرى أن الحمام اليوناني الروماني مختلف عن الحمام الاسلامي(٥١). وكذلك «ستيرن» الذي أشار الى أن خطط المدينة الاسلامية مأخوذة من المدينة اليونانية القديمة كالشوارع والسوق المركزية،

وكرر نفس لاتهامات التي تصف المدينة الاسلامية بعدم التماسك في تراكيبها(٥٢). وانعكاسا لتأثير هذه الاراء نجد من الباحثين من يشبه تخطيط شوارع «سدوس» في نجد ـ بالجزيرة العربية ـ بالمدينة الهلينستية. (٥٣) رغم ما يلاحظ من اختلاف محاور الشوارع الجانبية المتفرعة من الشارع الرئيس.

وفي ضوء هذه الاحكام الفقهية التي تمثل الفكر الاسلامي الموجه لحركة البنيان والعمارة في المدن الإسلامية يمكن تفسير تخطيطات المباني الأثرية وتحديد وظائف وحداتها المختلفة. واستنتاج المدلول الحضاري لها، فتزداد المعرفة بتخطيط المدن الاسلامية وتكويناتها المعمارية المختلفة، وهو جانب أهمله تقريبا كثير من الدراسات الأثرية للعمارة الإسلامية، فقصرت عن تفسير المضمون الحقيقي لما تعكسه العمارة الإسلامية من دلالات حضارية اسلامية كان لغياب تفسيرها أثر واضح في عدم وضوح الصورة الحقيقية للمدينة الإسلامية.

ويفسر الربط بين دراسة تخطيط المدن الاسلامية وتكويناتها المعمارية بتفاصيلها المختلفة وبين احكام البنيان الفقهية كثيرا من الملامح والظواهر التي تميز المدينة الاسلامية عن غيرها، ويؤكد هذا التفسير خطأ من يبتعد عن هذه الاحكام أو يتجاهلها عندما يعرض بالدراسة لاي جانب من جوانب المدينة الاسلامية، ثم يتعرض بالنقد والاتهام دونما سابق معرفة بالحكمة والغاية الاسلامية من هذا الامر أو ذاك. ويكفي أن نشير هنا الى ما اتهمت به شوارع المدينة من «ضيق والتواء» كحكم عام أصدره جل الدراسات الاثرية الحضارية التي تعرضت لشوارع المدينة الاسلامية، وما توصلت اليه من دلالات مرتبطة بهذا الحكم تقلل من شأن المجتمع الاسلامي(٥٤) دون اعتبار لما ورد عن أسس تخطيط شوارع المدينة الاسلامية ودراسة قياساتها عند التخطيط، ودون النظر الى تصنيف هذه الشوارع في نوعيات رئيسة وثانوية، عامة وخاصة، مرتبطة بنشأة المدينة ومتأثرة بالعوامل التي تحكم الانشاء بها، والتي تعكس حياة الحرية التي عاشها المجتمع الاسلامي، وما يصاحب الحياة الاسلامية من علاقات وقوانين إسلامية كالتأريث والقسمة والبيع والشراء وعلاقة التجاور، إلى غير ذلك من

أمور تنعكس بصورة قوية على هيئة الشوارع الخاصة بالمدينة، تلك النوعية التي تتغير من فترة الى أخرى، وتتفرع جيلا بعد جيل في اطار المعاملات والظروف التي تحكم المجتمع الإسلامي.

ولا يقتصر أثر الأحكام الفقهية للبنيان على تخطيط المدينة وشوارعها، بل إنه يمتد إلى شكل المباني نفسها تحقيقا للنظرية المعمارية التي تقول إن الشكل يتبع الوظيفة، ومن هنا نجد تخطيطات اسلامية خاصة نراها بوضوح في المنشآت الدينية الاسلامية، ونرى بعض التكوينات المعمارية الأخرى التي نشأت مع نشأة التحضر الإنساني والتي وجدت قبل الاسلام، فقد تطورت تخطيطاتها وتعدلت لتتمشى مع الأطر والأحكام الإسلامية، ومن أمثلة ذلك الحمامات والمنازل وغيرها.

أوضحت أحكام البنيان كذلك العلاقة بين التكوينات المعمارية المختلفة تجاذبا أو طردا، اتصالا أو استقلالا، ونلحظ ذلك من خلال نظرة فاحصة لتوزيع الوحدات والتكوينات المعمارية على مخطط المدينة، ذلك التوزيع الذي حكمته اعتبارات من أهمها تحقيق الأهداف الوظيفية للمباني في سهولة ويسر يكفلان تخطيط الشوارع والطرقات، ويحكمه بعد ذلك المبدأ الاسلامي «لا ضرر ولا ضرار».

وقراءة واحدة لواجهات المباني الاثرية في المدينة الاسلامية تعكس لنا واقعا اجتماعيا لاصحابه، وتحدد لنا نوعية الشارع واتساعه وذلك في ضوء شكل السلالم المؤدية إليها، ومطلات هذه المباني ومشربياتها، وما قد يخرج من حيطانها من ميازيب، وما قد يوجد بها من عناصر معمارية أخرى يرتبط انشاؤها وشكلها وتوزيعها بقواعد فقهية محددة تجعلنا نقر بهذه المواصفات والحقائق للمجتمع الذي يقطن أو يستغل هذه المباني.

وكان لهذه الأحكام دورها في استقرار الهيئة الاجتماعية للمدينة الاسلامية، واقرار المبادىء الاسلامية وتأصيلها بقيم المجتمع حتى أصبحت في حكم «العرف

العام»، وأصبح تطبيقها سلوكا عاما أدى في النهاية الى شيوع الصفة الاسلامية على التكوينات المعمارية للمدينة(٥٥) من جهة، وعلى سلوك أفراد مجتمعها من جهة أخرى. وهو نوع من التوافق يؤدي إلى الشعور «بجمال وظيفية المدينة الإسلامية» ويعكس من منظور آخر ذلك التشابه بين المدن الاسلامية في تخطيط شوارعها وتفاصيل تكويناتها المعمارية.

وإذا كانت المصادر السابقة للتراث الاسلامي تكشف عن بعض جوانب الفكر الاسلامي التي ترسم السياسة والاطار الشامل للحكام المسلمين والقائمين على تخطيط المدن الاسلامية، وتحدد القواعد والاحكام التي يجب أن تتبع في انشاء المباني وعمارتها، فإن ما ورد في بعض المصادر الاخرى وخصوصا تلك التي تخاطب العامة لترقى بهم الى مرتبة الكمال في السلوك الاجتماعي يتدرج ليغطي مستوى قاعدة الهرم الذي يمثل مجتمع المدينة. وهذه المصادر تتحدث عن الآداب العامة المتعلقة بجميع مناحي الحياة في ضوء الكتاب والسنة. (٥٦)

وفي مجال البناء والعمارة تعرض هذه المصادر ما يختص بالتوجيه الفردي لعامة المجتمع، ومن ثم تتكامل مع المصادر السابقة التي كشفت عن السياسة العامة للعمران بمفهومه الشامل للمستويات العليا التي من شأنها التخطيط العام للمدينة، وتنفيذ مرافقها العامة وتكويناتها الاساسية تاركة حرية انشاء المباني الخاصة للعامة يقومون بانشائها حسب متطلباتهم وامكاناتهم، ورغباتهم في اطار القواعد والاحكام التي تحدد العلاقة بين هذه المنشآت وتخطيط المدينة ككل وهذه المنشآت بعضها ببعض آخر. وهذه الحرية انعكست على الهيئة المادية لمنشآت المدينة الاسلامية، فلم تكن قوالب جامدة أو انماطا متكررة كرقع الشطرنج التي نلاحظها في المدينة اليونانية أو الرومانية. ويبقى فقط التوجيه نحو الأصلح.

ومن أمثلة النصوص الجيدة التي وردت بهذه المصادر والتي تكشف عن هذا التوجيه ما ذكره «الدينوري» في عيون الاخبار ما نصه: «قال يحيى بن خالد لابنه جعفر حين اختط داراً ليبنيها: هي قميصك فان شئت فوسعه، وان شئت

فضيقه»(٥٧). ولهذا القول مضامينه العديدة التي تتلخص في الربط بين الانسان وما يبنيه لنفسه وحريته في ذلك، بل إنه يصل إلى أساس النظرية المعمارية التي تقول إن الشكل يتبع الوظيفة، وما تطور عنها من أن «الشكل هو الوظيفة نفسها». فالغرض الوظيفي هنا ليس مقيداً، ولكنه متسع ليشمل اختلاف الميول والاغراض ولكنه في النهاية يؤكد «النظرية الوظيفية» بتحقيق هذه الميول والاغراض.

ومما يدل على الربط بين الاستخدام والانشاء، وهو من أهم أسس النظرية الوظيفية في العمارة، ما جاءت به الاخبار من أن «ابن التوأم» دخل «على بعض البصريين وهو يبني دارا واسعة الذرع، واسعة الصحن، رفيعة السمك، عظيمة الأبواب، فقال: اعلم أنك قد الزمت نفسك مؤونة لا تطاق، وعيالا لايحتمل مثلهم، ولابد لك من الخدم والستور والفرش على حسب ما ابتليت به نفسك، وان لم تفعل هجنت رأيك»(٥٨) .ويؤكد هذه الصلة بين الانسان والعمارة ما ذكر من أنه: «مر رجل من الخوارج بدار تبنى، فقال: من هذا الذي يقيم كفيلا؟(٥٩) وقد عكست الروايات والاقوال تأكيد هذه الصلة كقول أحدهم عن الدار «ليكن أول ما تبتاع وآخر ما تبيع» وهو قول يؤكد أهمية الدار بالنسبة للانسان، وبالتالي الاهتمام بعمارة المنازل والمساكن التي تمثل جانبا هاما من تكوينات المدينة.

وعكست هذه النوعية من مصادر التراث الاسلامي وغيرها استفادة الفكر الاسلامي من خبرات الأمم السابقة اضافة إلى خبرتها. فقد اعتمد الفكر الاسلامي قول حكماء الروم: إن «أصلح مواضع البنيان أن يكون على تل أو كبس رثيق ليكون مطلا، واحق ما جعلت إليه أبواب المنازل وافنيتها وكواؤها المشرق واستقبال الصباح، فان ذلك اصلح للابدان بسرعة طلوع الشمس وضوئها»(٦٠). ويصدق على هذا ما ذكره اليعقوبي من أن «الملوك الماضية لما أرادوا بناء المدن، أخذوا آراء الحكماء في ذلك، فالحكماء اختاروا افضل ناحية في البلاد، وأفضل مكان في الناحية، واعلى منزل في المكان من السواحل والجبال ومهب الشمال، لأنها تفيد صحة أبدان اهلها وحسن أمزجتها واحترزوا من الآجام والجزائر

وأعماق الارض فانها تورث كربا وهما»(٦١).وهذه الأقوال التي تمثل توجيهات تتعلق بالتخطيط وعناصر الانشاء والتهوية والاضاءة وغيرها واختيار أنسب المتاح منها، تمثل ثقافة هامة رأت هذه المصادر نقلها الى العامة لترتقى حالة العمارة ويزدهر العمران. وهو هدف سعى اليه الفكر الاسلامي ابتداء بعرض سياسة العمران وواجبات الحكام نحو ذلك، وانتهاء بتوعية العامة بمناحيه وقواعده وأساليبه.

وتعكس المصادر التاريخية بصفة عامة وكتب تاريخ المدن وخططها على وجه الخصوص مدى اهتمام الفكر الاسلامي بالمدن. فقد كثرت المؤلفات التاريخية المتصلة بتاريخ المدن وخططها كثرة ملحوظة حتى أننا لا نكون مبالغين اذا قلنا إنه قلما نجد مدينة من المدن الاسلامية دون أن يؤلف لها تاريخ خاص ان لم يكن اكثر من كتاب(٦٢). وتعرض هذه المصادر إما لتاريخ المدينة السياسي وإما لتاريخها الاجتماعي، وإما يؤرخ لاعلامها البارزين، وفي ذلك ما يلقي الضوء على هذه الجوانب من حياة المدينة، ومن هذه المصادر ما يختص بخططها وتكويناتها المعمارية وهو ما يكشف عن الجوانب المعمارية والانشائية للمدينة الإسلامية بصورة مباشرة، ويعرض للمستويات الحضارية والاجتماعية والثقافية لمجتمع المدينة في ضوء الدلالات التي تعكسها هذه التكوينات المعمارية، وهذا يعني أنها بصفة عامة تعكس صورة واضحة للمدينة الإسلامية يمكن للمدقق فيها أن يبرز المدينة الإسلامية، ويدفع عنها اتهامات الصقت بها لقواعد خاصة في التقييم. كما أن الربط بين ماورد في هذه النوعية من المصادر وما تبقى من آثار المدن التي اشارت اليها يكشف عن الحقائق ويؤكدها واقعا ملموسا.

ومن جهة أخرى فان هذه المصادر تعكس المستوى الحضاري للفكر الاسلامي الذي حرص على تسجيل تاريخ مدنه واعلامها وخططها، وباعتبار أهمية وظيفة الكتاب «الاتصالية» في العصور الوسطى فان هذه المصادر التي كتبت عن تاريخ المدن بما تتضمنه من ثقافة حضارية عمرانية، وبما تشتمل عليه أحيانا من رؤى نقدية، بالاضافة إلى ماورد في غيرها من المصادر، بلورت تجربة المدن اللاحقة

ويحقق افادتها من المدن السابقة في تواصل مستمر، كفلته مصادر تراثنا التي عرضنا لبعض ماورد ببعضها بايجاز، لبيان أهمية الفكر الاسلامي في عمارة المدن.

ويعكس هذا الفكر من منظور آخر اهتمام المسلمين بالعمران، ومساهمتهم الواضحة في تاريخ التمدن الانساني ذلك الاهتمام وتلك المساهمة اللذين أشادبهما بعض الدراسات التي اقتربت من هذا الفكر مثل «جويتاين» الذي أشار بفضل المسلمين في اتخاذ المدن، وتشييد المراكز العمرانية الاخرى، ويشير الى أن ما أحدثه الاسلام من مظاهر التمدن يعتبر ثورة في تاريخ التمدن العالمي(٦٣). ودفع «لابيدوس» اتهام «سوفاجيه»، فقد قال: (إن الفتح الاسلامي لم يؤد الى هدم المدن القديمة، ذلك لان هذه المدن كانت قد انتهت مهمتها كمدن «بوليس» قبل أن يأتي هذا الفتح بمدة طويلة(٦٤). والحقيقة أن العرب بعثوا الحياة من جديد الى هذه المدن، وحافظوا على هيئتها القديمة خصوصا فيما يتعلق بهيئة شوارعها العامة باعتبارها من المرافق العامة التي تولت سلطة المدينة المحافظة عليها(٦٥). ويشير «لابيدوس» إلى أن العرب قد اوجدوا عددا من المدن الجديدة ارتبط انشاؤها بحاجات الجيوش الفاتحة للاستقرار، وبعد ذلك دفعت الدول العربية الحاكمة حركة التمدن دفعات قوية بما اتبعته من سياسات تنمية النشاطات الزراعية والتجارية، كما ساعدت الظروف الإدارية والسياسية على نمو المدن والتمدن الاسلامي. كما تشير إلى أن المسلمين بصفة عامة كانوا محبين للعيش في المدن، وكانوا يتفاخرون بها فكانت لها منزلة خاصة(٦٦). والدليل الواضح على ذلك ما نراه في تراثنا الاسلامي من مؤلفات عديدة اتجهت لتاريخ المدن وابراز حضارتها سواء منها من ركز على الجانب التاريخي أو الخطط أو تراجم العلماء والادباء أو غير ذلك. وقد أثبتت الدراسات الاثرية «لروبرت آدمز» عن الاستيطان في وادي ديالي في العراق أن نسبة التمدن الاسلامي في العراق تعادل أربعة أضعاف نسبة التمدن في العصر الساساني. (٦٧)

هوامش المدخل التمهيدي

١ ـ مصطفى الموسوي : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢، ص ٣٥٥.

٢ ـ عبد الجبار ناجي : مفهوم العرب للمدينة الإسلامية ـ مجلة المدن العربية، نشر المنظمة العربية للمدن، العدد ١٤ ـ السنة الثالثة، ١٩٨٤، ص ٥٠.

٣ ـ محمد جمال الدين القاسمي : اصلاح المساجد من البدع والعوائد ـ نشر المكتب الاسلامي ـ الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٩هـ، ص ٤٩ ـ ٥٤، عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص ٥٣، وقد اعتبر بنيت Benet إقامة الصلاة الجامعة في المسجد الجامع بالمدينة، وما يشترط لإقامتها من شروط فقهية من المظاهر التمدنية التي ميزت المدينة الاسلامية .F. Benet : op. cit., p. 215

٤ ـ المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ طبعة ليدن ١٩٠٦، ص ٤٧.

٥ ـ ابن منظور : لسان العرب : بيروت ١٩٧٠، جـ ١٧، ص ٢٨٨، ٢٨٩، راجع مادة «صطم».

٦ ـ الفيروز ابادي : القاموس المحيط، بولاق ـ القاهرة ١٢٨٩هـ، جـ ٤، ص ١٩٥.

٧ ـ القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ـ بيروت، من دون تاريخ، ص ٧ ـ ٨.

٨ ـ عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص ٥٢ ـ ٥٣.

٩ ـ قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة ـ شرح وتعليق : محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر ١٩٨١، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

١٠ ـ كافين رايلي : الغرب والعالم ـ ترجمة : د. عبد الوهاب المسيري ود. هدى عبد السميع حجازي، مراجعة : د. فؤاد زكريا ـ سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٥، ص ٧٥ ـ ٧٨.

١١ ـ بيتر فارب : بنو الانسان : ترجمة زهير الكرمي ـ سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ١٩٨٣، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

١٢ ـ من الجدير بالذكر أن نشير الى أن ما يشبه هذه المعاني كان ضمن ما كتب «بيكو جيوفاني ديلامير اندولا»، أحد الشخصيات البارزة في اكاديمية افلاطون في فلورنسا في عصر النهضة (د. حسين فوزي : تأملات في عصر الرينسانس)، نشر دار المعارف ١٩٨٤، ص ١٠)، ولما كانت ايطاليا من معابر انتقال الحضارة الاسلامية إلى أوروبا فمن المحتمل أن يكون «بيكوجيوفاني» متأثرا بهذا القول باشعاعات الثقافة الإسلامية الواسعة.

١٣ ـ قدامة بن جعفر: المرجع السابق، ص ٤٢٦ـ ٤٢٧.

١٤ ـ Charles L. Redman : The Rise of Civilization from Early Farmers to Urban Society in the Ancient Near East, W. H. Freeman and Company San — Francisco, 1978, pp. 215-242.

١٥ ـ يلاحظ أن جرونباوم «يتقصد» أو يهمه أن يطلق على المدينة الاسلامية كلمة Town يعني «بلد»، والكلمة اذا ما رجعنا إلى التصنيف الالماني للمدينة تكون أقل مرتبة من city من حيث عدد السكان والمؤسسات، (عبد الجبار ناجي: المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الاجنبية، ص ١٥٢).

١٦ ـ عبد الجبار ناجي: مفهوم المدينة الإسلامية. (٢) مجلة المدينة العربية عدد ١٥ السنة الثالثة ١٩٨٤، ص ٥٨ـ ٦٢.

١٧ ـ عبد الجبار ناجي: مفهوم المدينة الإسلامية(٣)، مجلة المدينة العربية، عدد ١٦، السنة الرابعة، ١٩٨٤، ص ٦٤ ـ ٦٦.

١٨ ـ أشار بعض الدراسات عن المدن الاسلامية إلى وقتية هذه المدن وعدم استمرارها إذا ما قورنت بالمدن الأوروبية، ومن هذه الدراسات ما ربط بين وجود السلطة المنشئة وبقاء المدينة، ثم موت هذه المدينة لترك السلطة الجديدة الإقامة فيها ,.F. Benet , op. cit) p. 212, Mason Hammond , op. cit. p. 342) ويتعارض هذا الرأي مع الواقع، إذ إن كثيرا من المدن الإسلامية باقية، كما أن بعض الباحثين أثبت عكس هذه الآراء، وأشار الى أن كثيرا من مناطق الاستيطان الإسلامي باق حتى الآن في حالة من الازدهار والرخاء، . Lupidus , op. cit. , p. 25

عبد الجبار ناجي: المدينة العربية الاسلامية في الدراسات الأجنبية، ص ١٦٢.

١٩ ـ انظر الفصل الاول عن نشأة المدينة.

٢٠ ـ ابن الأزرق: بدائع السلك في طبائع الملك ـ تحقيق د. محمد عبد الكريم، نشر الدار العربية للكتاب، ١٩٧٧، جـ ١، ص ٢٢٣ـ ٢٣١.

٢١ ـ المسعودي: مروج الذهب، بيروت ١٩٦٥، جـ ٤، ص ٣٤٤ـ ٣٤٥.

٢٢ ـ ابن رضوان: الشهب اللامعة في السياسة النافعة ـ تحقيق د. سامي النشار، نشر دار الثقافة، الدار البيضاء ١٩٨٤، ص ٢٣٢، ابن الازرق: المرجع السابق، جـ ١، ص ٢٢٣.

٢٣ ـ ابن خلدون: المقدمة، جـ ٣، ص ٨١٣، ٨١٤، ابن الازرق: المرجع السابق، جـ ١، ص ٢٢٣.

٢٤ ـ ابن الازرق: المرجع السابق، جـ ١، ص ٢٢٥.

٢٥ ـ ابن الازرق: المرجع السابق، جـ ١ ، ص ٢٢٥.

٢٦ ـ اهتم بعض الدراسات الاثرية بتأكيد هذه الحقيقة. راجع كتاب روبرت آدم، تاريخ الاستيطان في سهول ديالي. ترجمة د. صالح أحمد العلي، د. علي محمد المياح، د. عامر سليمان. نشر المجمع العلمي العراقي. بغداد، ١٩٨٤ .

٢٧ ـ ابن رضوان: المرجع السابق، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

٢٨ ـ ابن الازرق: المرجع السابق، جـ ١ ، ص ٢٢٥ .

٢٩ ـ ابن الازرق: المرجع السابق، جـ ١ ، ص ٢٢٥ .

٣٠ـ Quentine H. Stanford and Norrn Norman , Geography . A Study of Its Elements, p. 335.

٣١ ـ اليعقوبي: البلدان. ط . ليدن، ص ٣٣٦ـ ٣٣٧ ، الطبري: تاريخ بغداد، جـ ٨ ، ص ٢٣٨ .

٣٢ ـ اليعقوبي: المرجع السابق، ص ٢٥٠ .

٣٣ ـ ابن الربيع: المرجع السابق، ص ١١٨ ، ١٢١ـ ١٢٢ .

٣٤ ـ ابن خلدون: المقدمة، ص ٣٠٧ وما بعدها، ابن الازرق: المرجع السابق، جـ ٢ ، ص ٧٦٤ـ٧٦٥ .

٣٥ ـ ابن الازرق: المرجع السابق، جـ ٢ ، ص ٧٦٤ـ ٧٦٥ .

٣٦ ـ ابن الازرق: المرجع السابق، ص ٧٦٥ـ ٧٦٦ .

٣٧ ـ ابن الازرق: المرجع السابق، ص ٧٦٦ ، ابن خلدون: المقدمة، ص ٨٣٨ـ ٨٣٩ .

٣٨ ـ ابن الازرق: المرجع السابق، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ ، ابن خلدون: المرجع السابق، ص٨٣٩ـ٨٤٠ .

٣٩ ـ ابن خلدون: المرجع السابق، ص ٨٤٠ .

٤٠ ـ من أهم الدراسات الحديثة التي تعرضت لأحكام البناء في الإسلام تلك الدراسة التي قام بها محمد بن ابراهيم بن يوسف الفائز بعنوان «البناء وأحكامه في الفقه الإسلامي»، وهي رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة الامام محمد بن سعود سنة ١٤٠٦ هـ.

٤١ ـ ابن الرامي: الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق: عبد الرحمن بن صالح الاطرم: رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الشريعة جامعة الامام محمد بن سعود ١٤٠٣ هـ، والكتاب فريد في نوعه فقد جمع كل المسائل المتعلقة بالبنيان واحكامه التي أفتى وحكم فيها فقهاء وقضاة المالكية .

٤٢ ـ محمد الفائز: المرجع السابق، ص ١٧ .

٤٣ ـ محمد الفائز: المرجع السابق، ص ٣٨٠ .

٤٤ ـ الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوي علماء افريقية والأندلس، بيروت. دار الغرب، جـ ١ ، ١٩٨١م، ص ١٤ .

٤٥ ـ ابن الاخوة: معالم القربة في احكام الحسبة ـ تحقيق محمد محمود شعبان، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦، ص ٣٤١ـ ٣٤٤.

٤٦ ـ محمد الفائز، المرجع السابق، ص ١٧.

٤٧ ـ ابن الرامي: المرجع السابق، ص ٢٠، ٣٥، ٣٩، ص ١٠١، ١١٧، ص ٢١٤، ص ٢٥٤، ٢٥٧، ٣٤٥، د. عبد اللطيف ابراهيم: سلسلة الدراسات الوثائقية: الوثائق في خدمة الاثار «العصر المملوكي» مقال نشر في كتاب: دراسات في الاثار الاسلامية ـ نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ القاهرة ١٩٧٦، ص ٤٢٠ـ ٤٢١.

٤٨ ـ Saleh Ali Hathlaul : Tradition, Continuity and Change in the Physical Environment : The Arab Muslim City. Ph. D. submitted to the department of architecture at M. I. T. 1981, pp. 20 - 136.

٤٩ ـ Sauvaget J. , Alep. (Paris 1941 pp. 78-79, 104- 109, Adem , La plan de Laodicee sur mer in Bulletin d'etudes orientales 1934, pp. 99-102.

٥٠ ـ Xavier de Planhol : op. cit. , pp. 22-23.

٥١ ـ Von Grunbaum : The Structure of the muslim town. in Islam : Essays in the nature of cultural tradition, London, 1955, pp. 141-158.

٥٢ ـ Stern : op. cit. , p. p. 29-30.

عبد الجبار ناجي: المرجع السابق، ص ١٥٥.

٥٣ ـ Geoffrey King : Examples of the Secular Architecture of Najd. Arabian Studies, Cambridge, 1982, IV, p. 16.

٥٤ ـ Xavier de planhol : op. cit. pp. 15 - 16, 22 - 23 .

٥٥ ـ يجب التنويه إلى أن هذه الاحكام اتصلت بكل طرز العمارة سواء كانت الطرز المعمارية الضخمة أو الطرز المعمارية المحلية البسيطة التي يحلو لبعضهم أن يسميها بالطرز التقليدية تميزا لها عن الطرز السابقة (Geoffrey King : op. cit., p. 113). وقد استخدم مصطلح التقليدية من منظور أن عمارة هذه المباني سارت وفق تقاليد معمارية محلية انتقلت عبر الأجيال في العصور السابقة وتختلف عن الطرز الأوروبية والامريكية الحديثة، التي غزت العالم الإسلامي في العصر الحيث وحلت محل هذه الطرز المحلية التقليدية.

٥٦ ـ تتضمن كتب الفقه عادة أبوابا تتصل بالآداب وتخصص بعض المصادر في ذلك ككتاب «مكارم الاخلاق» لرضى الدين ابي نصر ابن الامام أبي علي فضل الدين الطبرسي ـ المطبعة الخيرية، مصر، وكتاب «عيون الاخبار» لابن قتيبة عبد الله مسلم الدينوري. هذا بالاضافة إلى شيوع كتب السيرة النبوية التي وضحت المثل الاعلى للسلوك الانساني.

٥٧ ـ الدينوري : عيون الاخبار، جـ٣، ص ٣١١.

٥٨ ـ الدينوري : المرجع السابق، جـ٣، ص ٣١٢.

٥٩ ـ الدينوري : المرجع السابق، جـ٣، ص ٣١٣.

٦٠ ـ الدينوري : المرجع السابق، جـ٣، ص ٣١٣.

٦١ ـ القزويني : المرجع السابق، ص ٨.

٦٢ ـ عبد الرحمن زكي : المدينة الاسلامية ـ مجلة الفيصل عدد ٢٧، ص ٩٤.

٦٣ ـ Goitein : (The Rise of Middle Eastern Bourgeoisie) in Studies in Islamic History and Institutions, p. p. 218 .

٦٤ ـ راجع أيضا عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص ١٦٥ .

Lapidus I. M. , Middle Eastern Cities : in : A Symposium on Ancient Islamic and Contemporary Middle Eastern Urbanism, Berkeley , Univ. of California Press, 1979, p. 5.

٦٥ ـ ابن الرامي : الإعلان بأحكام البنيان: تحقيق صالح بن الأطرم، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

٦٦ ـ Lapidus : op. cit. , pp. 22 - 25.

٦٧ ـ Robert Mc. Adams , Land Behind Baghdad. A History Settlement on Digala Plains Chicago, 1965, pp. 62 - 75.



الفصل الأول

نشأة المدينة الإسلامية

حدد اليوناني باوسينياس Pausanias «ت ١٧٦» ماهية المدينة فقال: «إنها» السلطة والجمنازيوم، والمسرح والسوق وماء الشرب، وتحديد الحدود، وأعضاء أو ممثلون عن المدن في المجلس (١). وأشارت المصادر التراثية الاسلامية إلى مفهوم المدينة بصفة عامة والمدينة الاسلامية على وجه الخصوص، كما أنها تحدثت عن نظريات نشأتها بمنظور يوافق مجموع النظريات الحديثة التي حاولت في اتجاهات متعددة وضع تعريفات للمدينة في اطار ظروف نشأتها. (٢)

تعددت النظريات الحديثة التي حاولت تفسير كيفية نشأة المدن (٣)، ومن ثم المعايير التي تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان الأخرى، ومن هذه النظريات نظرية كارل وايت فوجل Karel Wittfogel (٤) وهي متأثرة بأفكار جوليان ستوارد. . Julian Steward، وفحوى هذه النظرية أن نشأة المدينة ارتبطت بالحاجة إلى تنظيم استغلال الماء، وتنظيم أعمال الري، وقيام مشروعاته التي تحتاج بدورها إلى إدارة تنظم هذه الأعمال، وإلى قيام انشاءات لاستغلال الماء في الزراعة، وتطلب هذا الأمر من جهة أخرى اهتماما بالتقويم، وكان هذا التقويم مرتبطا بتوقيت صدور الماء. واستضوأت هذه النظرية بنشأة الحضارات القديمة في أحواض الأنهار في الصين والعراق ومصر وغيرها.

وتقوم نظرية تشايلد . . Gordon Child(٥) على تحديد معايير تميز المدينة، وتقسم هذه المعايير إلى معايير أساسية هي: الحجم والكثافة والتخصص الكامل في العمل، وتركيز الفائض الانتاجي، وطبقية بناء المجتمع مع وجود طبقة حاكمة مستفيدة، سواء كانت دينية أو سياسية أو عسكرية، ووجود مؤسسات رسمية. ويضاف إلى ذلك معايير ثانوية تتمثل في انشاء اعمال بنائية عامة ضخمة، واقامة تجارة مع المناطق البعيدة، وتقييم أو تعبير الأعمال الفنية الضخمة كالنصب

التذكارية والتماثيل وغيرها، بالاضافة الى الكتـابة، وتقـوم علوم الريـاضيات والفلك وما يتبعها على نشأة علم الهندسة، الذي يوظف حل المشاكل وتـطوير اساليب الحياة.

وهناك أيضا نظرية الضغط في الكثافة وتكوين الدولة. وأصحاب هذه النظرية وهم: روبـرت كـارنيـرو. . Carneiro R .L، وديـاكـونـوف . Diaknof . I .M، وفيليب سميث. . Philip Smith، وكويرل يونج . Young . Jr، ومجواير جيبسون .. McGuire-Gibson(٦)، وتشير هذه النظرية إلى أن الزيادة في التقنية وموارد العيش تؤدي إلى زيادة في الانتاج، يتبعها زيادة في السكان، ومن جهة أخرى فان الزيادة في التقنية تؤدي إلى نشأة مراكز ادارية تقوم على الثروة والسلطة، وكل ذلك يدفع إلى الغزو الاستعماري ومحاولة السيطرة على أقاليم أخرى.

أما نظرية روبرت آدمز. Robert Adams(٧) فتقول إن الزيادة في الزراعة تؤدي إلى الاختصاص في الانتاج، واختلاف مصادر الثروة، والحصول عـلى أراض جيـدة، وهذا بـدوره يؤدي الى ظهور طبقـات اقتصـاديـة، وزيـادة في الحروب، وينتج عن ذلك الحاجة إلى التنظيم واعادة التوزيع بواسطة نخبة دينية، ومن جهة أخرى فإن زيادة الحروب يتبعها قيام دولة ذات قوة وتنظيم جيد، فتنشأ المدينة الدولة.

والحقيقة أن الحضارة المدنية بالطبع حضارة ذات صفات ومعايير تنطبق على معظم المعايير التي اشارت اليها النظريات السابقة، غير انها لاتنطبق بالضرورة على كل ماورد، كما لايوجد معيار واحد أو مجموعة معايير ثابتة في كل حضارة مدنية، وواضح أن ظاهرة المدينة نشأت بـطرائق مختلفة في أمـاكن متعددة من العالم. (٨)

ويكشف البحث في نشأة المدينة الإسلاميـة عن صحة هـذا الاتجاه، فقـد ارتبطت نشأتها وتطورها بمعايير حضارية اسلامية تأثرت إلى حد كبـير بتاريـخ

الاسلام وتطور حضارته، ويعكس هذا الارتباط والتأثير أسباب وعوامل تطورها.

وتبدأ نشأة المدينة الإسلامية من «يثرب» بعد هجرة الرسول إليها والتي حولتها إلى «مدينة» بمفهوم حضاري واضح، انسحب على تسميتها، فأصبحت تسمى «المدينة». فبعد الهجرة حدث تغيير واضح، سعى إلى تحقيقه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، أساسه الدعوة إلى الاسلام، ذلك الدين الذي بدأت في ضوء قيمه وتعاليمه عملية تهيئة المجتمع الاسلامي الجديد لحياة حضارية تلازمت تماما مع اهتمامه بالكيان المادي للمدينة فأدى ذلك تدريجيا الى تكامل المراكز الحضارية الاسلامية.

وكانت خطة رسول الله صلى الله عليه وسلم لتحقيق ذلك واضحة منذ البداية، فدعا إلى تذويب القبلية بدعوته إلى التآخي في الاسلام، وأكد في الوقت ذاته على رابطة ذوى الأرحام، وهي تنظيم يجمع عددا من البطون والعشائر في قبيلة واحدة تحت راية واحدة في محيط رابطة القرابة، وفي اطار اوسع أكد الرسول صلى الله عليه وسلم على الرابطة العامة بين المسلمين، وهي رابطة تعني توحيد عامة القبائل في تنظيم حربي واجتماعي تحت راية واحدة. وكان التفاعل بين هذه الاتجاهات المتدرجة المختلفة قويا، فأدى إلى خلق مجتمع واحد متماسك بعيد عن النزعة القبلية، تربطه روابط قوية، تساعده على تحقيق قيم الإسلام وتطبيقها.

ومن مستوى أنضج اتجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ابدال العصبية القبلية بعصبية الموطن والأرض، وذلك بابراز أهمية الوطن والارض وتنمية الشعور بالانتماء لهما، واتجهت تطبيقاته نحو تأكيد هذا الاتجاه فبدأنا نسمع مسميات أخرى بدل مسميات القبائل «كأهل قباء» «وأهل المدينة» «وأهل الطائف»، ولهذا الاتجاه دلالاته الحضرية الاستيطانية.

كما أنه أقر مبدأ الاستخلاف على المدن والاقاليم، فعندما كان يخرج غازيا كان يستخلف على المدينة من يضبط أمورها في غيبته، وكذلك فعل في اليمن عندما

استعمل عمالا لأقاليمها نظرا لاتساعها كزبيد وعدن وأعمالها. وكذلك استعمل على نجران عمارة بن حزم الانصاري، وعلى صدقات صنعاء المهاجر بن أبي أمية المخزومي، ولم يخضع اختيار العمال على الأمصار- غالبا- للتقليد القبلي.

وقد أثمرت هذه السياسات المختلفة في تحقيق أهدافها نحو خلق مجتمع إسلامي مترابط بعيد عن النزعة القبلية المتعصبة، متجه نحو تطبيق تعاليم الدين الاسلامي، مرتبط بالأرض والوطن. ولاأدل على ذلك مما نراه في مدن الامصار التي انصهرت فيها القبائل المهاجرة من الجزيرة العربية، وتعصبت تعصبا شديدا لمدنها وتفاخر رجالها بعلمهم وعلمائهم وفقهائهم وأدبائهم بعد ذلك (٩).

ومن الناحية المادية فإن موضع «المدينة عبارة عن سهل فسيح تحيط به الحرات من جهاته الأربع ويتميز بخصوبة التربة وكثرة المياه، وكانت المدينة قبل هجرة الرسول اليها مقسمة إلى محلات سكنية منفصلة، تسكنها البطون والقبائل اليهودية والعربية، وكل محلة تضم بالاضافة إلى منازلها وحقولها- التي تمثل مراكز النشاط في الأحوال العادية- آطاما حصينة يتحصن بها القوم عندما يتعرضون للخطر، بلغ عددها تسعة وخمسين أطما (١٠)، وكان لكل قبيلة آطامها التي تحتمي بها، فتعددت الاطام بتعدد القبائل وحاجتها إليها، وكان ذلك نتيجة طبيعية لتوزع المحلات السكنية(١١).

وإضافة إلى ذلك وجدت الاسواق التي تعددت امثلتها، وتباينت أهميتها كانعكاس لانفصال المحلات السكنية، واختلاف قوة القبائل ونشاطها، ويلاحظ أنها كانت تقع على أطراف المحلات، أي أنه كان هناك نوع من الانفصال بين المنطقة السكنيةوالسوق،ولعل ذلك يعود إلى اسباب دفاعية واجتماعية. (١٢)

ومن المنشآت الخاصة بالقبائل تلك «السقائف» التي لعلها كانت بمثابة ديوان القبيلة «كسقيفة بني ساعدة» و «سقيفة الريان» في منازل بني بياضة(١٣)، وكانت هذه السقائف مكانا لاجتماع القبيلة للتشاور في أمورها. وكذلك كان للقبائل اليهودية بيوت المدارس، وهذه البيوت كانت أشبه ماتكون بمساجد المسلمين،

من حيث وظائفها الدينية والسياسية والاجتماعية.(١٤)

وبعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب بدأت تتغير معالمها العمرانية تغيرا جمع شتاتها، ووحد كيانها، وجعلها مركزا حضاريا متكاملا، يتناسب وذلك التغير الذي طرأ على مجتمعها الاسلامي الجديد الذي بدأ يستجيب للتشكيل الحضاري الجديد الذي يدعو إليه الاسلام. ومع استقرار الرسول في المدينة أضحى رأس الحكومة الاسلامية الناشئة، وبهذه الهجرة صارت للنبي -صلى الله عليه وسلم- صفة جديدة هي صفة رئيس الدولة الإسلامية بجانب الصفة الأساسية الاولى وهي صفة النبوة(١٥)، ومن ثم أصبحت مركزا سياسيا واداريا فاكتسبت بذلك الصفة المدنية. وكان لذلك أثره المباشر في تكوينها المادي الذي بدأ يتغير تلبية لتلك المتغيرات المدنية.

وتوفرت للمنطقة التي نزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي منازل أخواله من بني النجار، ميزات أمنية هامة لتقارب منازلها، وهي ميزات لم تكن تتوفر في منازل الأنصار الاخرى، وفي هذه المنطقة كانت بداية العمل الانشائي للتكوينات المعمارية الجديدة، وكان نواتها «المسجد الجامع، ومن حوله انشئت منازل للمهاجرين الموزعين في احياء الانصار، وفي هذا تجميع للمسلمين ليكونوا كتلة واحدة في مجابهة الاخطار المحدقة بهم، وهكذا جمع الرسول بين قوة ومنعة بني النجار، وقوة ومنعة المهاجرين وبقية الانصار(١٦) من حوله في هذا المركز العمراني الناشيء.

وبدأت أعمال الإنشاء بالمسجد الجامع، وبجواره من جهة الشرق بنى منزل الرسول شارعة أبوابه على المسجد، وبنيت قبلته أولا في اتجاه الشمال نحو بيت المقدس، وفي سنة ٢هـ عدلت القبلة نحو مكة تلبية للامر السماوي، ومع تزايد أعداد المسلمين باتت الحاجة ملحة لتوسعة المسجد من فترة الى اخرى، وكانت أول توسعة بعد غزوة خيبر سنة ٧ هـ.

ومن حول المسجد الجامع اختطت منازل المهاجرين في الأرض التي وهبها

الانصار الرسول ، وقد جاء اكثر اقطاعات الرسول صلى الله عليه وسلم في الارض الموات، فقد ذكر ابن سلام : أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة جعل له اهل المدينة «كل أرض لايبلغها الماء يصنع بها مايشاء»(١٧) ومن هنا شغلت الاراضي الفضاء بالتكوينات المعمارية الجديدة من المنازل والمساجد وغيرها، والتي قام على انشائها المهاجرون بعد أن أقطعهم اياها الرسول صلى الله عليه وسلم، فتواصل عمران المدينة، واتصلت مبانيها، واصبحت كيانا معماريا واحدا، بعد ان كانت منفصلة، وخصوصا بعدما خرج اليهود منها.

ولهذه السنة دلالتها الهامة فهي تعني أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان هو المسؤول الاول عن توزيع الارض وتوطين الناس في المدينة، ويؤكد ذلك ياقوت بقوله: «فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة مهاجرا أقطع الناس الدور والرباع، فخط لبني زهرة من ناحية مؤخرة المسجد، فكان لعبدالرحمن بن عوف الحصن المعروف به، وجعل لعبدالله وعتبة ابني مسعود الهذليين الخطة المشهورة بهما عند المسجد، واقطع الزبير بن العوام بقيعا واسعا، وجعل لطلحة بن عبيدالله موضع دوره، ولأبي بكر رضي الله عنه موضع داره عند المسجد، واقطع كلا من عثمان بن عفان وخالد بن الوليد والمقداد وعبيد والطفيل وغيرهم موضع دورهم، يقطع أصحابه هذه القطائع فمن كان في عفا من الارض فانه اقطعهم اياه، وماكان من الخطط المسكونة العامرة فإن الانصار وهبوه إياه، فكان يقطع من ذلك من شاء»(١٨). ويشير هذا النص إلى أن الرسول اقطع القطائع للاشخاص، واتجه الى الجمع بين ذوي القربى في موضع واحد، ويؤكد ذلك ماذكر عن تلك المنازل التي اقتطعت للمهاجرين من بني الليث بن بكر، وبني عمرة، وبني الذهيل ومزنة وجهينة(١٩) وبلى وغيرهم، وهو أمر يوضح أن المدينة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمنت خططا عدة، وكل خطة قطنها أفراد ينتمون إلى قبيلة أو عشيرة. (٢٠)

ولم توضح النصوص التي أشارت إلى منح الاقطاعات للقبائل كيفية تقسيمها بين أفرادها، ويبدو أن تقسيم الخطة بين أفراد القبيلة كان متروكا لها، ويبدو أيضا

أن لتزايد أفراد الأسر المهاجرة علاقة بهذا التقسيم وامتداد العمران في الاقطاعات والخطط الممنوحة لهذه القبائل، ويدلل على ذلك ماذكره «ابن شَبّه» من احصاء للدور في خطة ابن الزبير، والتي بلغ عددها ستا، كانت لورثته. في حين ان «ابن زبالة» عندما تحدث عن سوق المدينة في عهد هشام بن عبدالملك «١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٤-٧٤٣م»، أشار إلى وجود فضاء في بقيع الزبير. وهو أمر منطقي حيث إن الاقطاعات اختلفت مساحاتها فمنها ماتم بناؤه كله لصغر مساحته، ومنها ماتواصل فيه العمران في مراحل لاحقة لاتساعه كبقيع الزبير، فقد أقطعه الرسول ركض فرسه في موات البقيع، فأجرى الزبير فرسه ثم رمى بسوطه رغبة في الزيادة، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم أعطوه منتهى سوطه، وتقول أسماء بنت أبي بكر، وهي زوج الزبير رضي الله عنه: كنت انقل النوى من ارض الزبير التي اقطعه إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم على راسي وهي مني على ثلثي فرسخ»(٢١)

مما سبق يتضح أن مسؤولية توزيع الخطط كانت في يد الرسول باعتباره الحاكم، وأن منهجه في توزيع الخطط هدف إلى تجميع كل قبيلة في خطة خاصة بها، وتركت حرية تقسيم الخطة للقبيلة وفقا لظروفها وامكاناتها في الانشاء والتعمير، ومدى الحاجة إلى ذلك، فكأنما روعيت النظرة المستقبلية لامتداد العمران كما حدث في اقطاع الزبير.

وعلى هذا الأساس سار اقطاع الخطط والمنازل في المدن الاسلامية الناشئة، ومن أمثلة ذلك ماحدث في البصرة سنة ١٤ هـ/٦٣٥م، والكوفة سنة ١٧هـ /٦٣٨م، والفسطاط سنة ٢١ هـ / ٦٤١م، والقيروان سنة ٤٥هـ/ ٦٦٥م، والعسكر بمصر سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠م، وبغداد سنة ١٤٥هـ/٧٦٢، وسر من رأى سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٥م، وقطائع احمد بن طولون بمصر سنة ٢٥٦هـ/ ٨٦٩ والتي انسحب هذا النظام «نظام الاقطاعات» على تسميتها، والقاهرة سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م الى غير ذلك من امثلة المدن الاسلامية، وبذلك أصبح نظام تقسيم المدينة إلى خطط تربط بين سكان كل خطة منها صلات معينة محورا أساسيا بين المحاور

التي قامت عليها أسس تخطيط المدينة الاسلامية الناشئة . (٢٢)

يتضح من ذلك أن تقسيم المدينة الاسلامية الى خطط «محلات سكنية» ، كان انعكاسا للصياغة الاسلامية التي حاولت الموافقة بين الطبيعة القبلية العربية ، والتأكيد على رابطة صلة الرحم بين القبيلة الواحدة وجمع هذه القبائل في خطط متعددة تجمعها مدينة واحدة ذات كيان مادي متكامل ، واطار اجتماعي أشمل وأعم ، وهو اطار التآخي الذي وجه إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ليذوّب النزعات القبلية ، ويخلق المجتمع الواحد . ويكشف ذلك عن خطأ ماذكر من أن الاسلام لم يبتدع فكرة تقسيم المدينة الى محلات ، وأن هذه الفكرة أوروبية الاصل . (٢٣)

وتوزعت «المساجد» على خطط المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغ عددها تسعة في خطط المهاجرين ، وكان المصلون يسمعون آذان بلال في مسجد الرسول «المسجد الجامع» . ويدلل ذلك على أن هذه المساجد كانت قريبة منه . وفي ذلك إشارة واضحة إلى اشتمال خطط المدينة التي هي بمثابة «الاحياء السكنية» على مساجد تلبي حاجات المصلين في هذه الخطط للصلوات الخمس فقط ، أما الصلوات الجامعة فكانت تقام في مسجد الرسول باعتباره المسجد الجامع .

وكان لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أثرها الواضح في اشتمال المدينة على ساحة فضاء تقام عليها صلاة العيد عرفت «بمصلى العيد» يخرج اليها أهل المدينة لصلاة العيد . وبذلك تكاملت هيئة التكوينات المعمارية الدينية بالمدينة ، ووضح توزيعها على خطط المدينة ، وإن ذلك كان محكوما بتحديد وظائف كل منها ، وهو اتجاه في التخطيط أصبح اساسا متبعاً فيما انشىء من المدن الإسلامية الجديدة ، وانسحب على المدن القديمة التي فتحها المسلمون كدمشق وقرطبة وغيرهما .

وكان لكل قبيلة في خطتها مقبرة خاصة بها حسب التقليد القبلي ، وبالرغم من

أن البقيع أصبحت سنة ١٠هـ / ٦٣١م أرض دفن جامعة، فإن كل قبيلة عرفت لها جزءاً من ارضها استخدمته للدفن. (٢٤)

واستكمالا لمرافق المدينة العمرانية اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بانشاء السوق، ومقارنة بين اسواق يثرب في الجاهلية التي تعددت أمثلتها، وكانت تقع على اطراف المحلات السكنية، وسوق «المدينة» في الاسلام تكشف عن الحكمة من التخطيط الاسلامي الجديد. فقد جعل الرسول للمدينة سوقا واحدة، أراد أن يتخذها أولا في موضع بقيع الزبير، واعترض كعب بن الاشرف أحد زعماء اليهود المناوئين للاسلام، وقطع اطناب الخيام التي وضعها الرسول في ذلك الموضع، فنقلها الرسول الى موضع سوق المدينة وقال: «هذا سوقكم فلايضيق ولايؤخذ فيه خراج»(٢٥). ويبدو من هذه الرواية أن انشاء سوق للمسلمين بالمدينة كان يؤثر في اسواق اليهود فيها مما أثار كعبا، فاعترض على اختيار الرسول الموضع الاول، كما يبدو من أن انشاء سوق للمسلمين بالمدينة كان ليكفيهم أذى اليهود الذين أخذوا في الاعتداء على المسلمين ومضايقتهم بأسواقهم(٢٦)، ثم إن السوق مرفقا ضروريا لحياة المجتمع المسلم النامي في المدينة، يغنيهم بحاجاتهم، ويقوم على اسس اسلامية جديدة جددها الرسول عندما قال: «هذا سوقكم فلا يضيق ولايؤخذ فيه خراج».

وأقر الرسول نظام المراقبة في الاسواق، فكان يمر بنفسه في السوق ويوضح الاسس الاسلامية في التعامل(٢٧). وتأكيدا لوجوب مراقبة السلطة للاسواق استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم عمر على سوق المدينة، وبعد فتح مكة سنة ٨هـ استعمل سعد بن العاص على سوقها. (٢٩)

وكانت سوق المدينة فضاء واسعا لا بناء فيه، يضع التجار سلعهم، والمكان لمن سبق، وضربت فيها الخيام، يبيع فيها أصحابها مايعرضون من حاجات مختلفة. وكان الراكب ينزل بسوق المدينة فيضع رحله ثم يطوف بالسوق ورحله أمام عينه لايحجبه شيء. وبقي الحرص شديدا من جانب الخلفاء الراشدين على

أن تبقى السوق بهذه الهيئة، مفتوحة خالية من البناء، كما كانت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يبدأ البناء بالسوق الا في بداية العهد الاموي عندما كانت المحاولات الاولى في عهد معاوية بن ابي سفيان.

وربطت الشوارع والطرقات ـ باعتبارها شرايين الاتصال ـ بين هذه التكوينات المعمارية. فقد كشفت الروايات التاريخية عن أن المدينة خط بها شوارع رئيسة تمتد من المسجد ـ باعتباره نواة المدينة ـ الى أطرافها، فقد أشارت الروايات التاريخية الى طريق يمتد من المسجد ويتجه غربا حتى يصل الى جبل سلع، وطريق من المسجد يخترق منازل بني عدي بن النجار ويصل الى قبا جنوبا، ومن قبا وجد طريق يتجه شمالا الى البقيع. (٢٩) وقامت على جوانب هذه الشوارع الرئيسة التكوينات المعمارية المختلفة، وتفرعت منها شوارع فرعية تتوغل داخل خطط الانصار والمهاجرين، لتسهل التوصل الى مسجد الرسول في المركز، وهكذا ربطت هذه الشوارع خطط المدينة ومحلاتها المختلفة ربطا عضويا حولها من «محلات سكنية متناثرة الى مدينة تتصل اطرافها بطرقات رئيسة بمركز المدينة وبالذات المسجد الجامع (٣٠). وتخطيط الشوارع بهذه الهيئة واتصال اطراف المدينة بالمسجد الجامع في وسطها ووسطية المسجد الجامع ليكون أقرب الى كل موضع في المدينة، اعتبر اساسا واضحا في تخطيط المدن الاسلامية بعد ذلك. وظل هذا الاتجاه سائدا طوال الفترة التي لم يكن يسمح فيها باقامة اكثر من خطبة، ومع نمو المدن كان لابد من تكرار هذا التخطيط، ولا أدل على ذلك مما حدث في بغداد بعد انشاء الرصافة والكرخ. ومع اتساع المدن وتعدد أرباضها تعددت المساجد الجامعة، وكان أن أفتى الفقهاء بجواز اقامة اكثر من خطبة في المدينة الواحدة، فكثرت المساجد الجامعة كثرة تفوق الحاجة اليها، واصبح تحويل المساجد والمدارس والخانقات الى مساجد جامعة أمرا ميسورا يتم بتعيين خطيب واقامة منبر بالمنشأة الدينية، واعتبر ذلك في المنشآت الدينية الجديدة من مدارس وخانقات ومساجد وأربطة، وخير مثل على ذلك ماحدث في القاهرة منذ اوائل العصر المملوكي (٣١)، وكان لهذا الاتجاه أثره المباشر في تفكك أثر وجود مسجد

جامع واحد في المدينة في تخطيط شوارعها، وارتبط تخطيط شوارع الامتدادات العمرانية للمدن باعتبارات اخرى.

وقد اختلفت مقاييس شوارع المدينة في عهد الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ لنوعياتها وحاجة المرور فيها، فكان عرض الطريق الاعظم أو البلاط الاعظم الذي يمتد من باب السلام بمسجده صلى الله عليه وسلم الى مصلى العيد يبلغ عشرة أذرع (٣٢) «٥ امتار تقريبا»، بينما تراوح عرض الطرق الجانبية بين خمسة أذرع وست وسبع . (٣٣)

وأشار البخاري الى أن رسول الله عليه وسلم كان يخالف الطريق في يوم العيد(٣٤)، أي أنه اذا خرج الى مصلى العيد رجع من طريق غير الذي سلكه في الذهاب. وكان لذلك صداه فيما يبدو بعد ذلك، حيث إن الخلفاء الفاطميين تأسوا بهذه السنة، وجعلوها من رسومهم عند الخروج الى صلاة العيد في المصلى الذي كان خارج أسوار القاهرة، فكان الخليفة يخرج من باب النصر ويرجع من باب الفتوح، ولما كانت القاهرة مخططة أصلا على الرسم الملكي (٣٥) فمن المحتمل أن يكون ذلك موضوعا في الاعتبار عند تخطيط شارعها الاعظم الذي يتفرع إلى فرعين في قطاع القاهرة الشمالي، احدهما ينتهي الى باب النصر والاخر ينتهي الى باب الفتوح.

وعندما الحت الحاجة الى حفر الخندق للدفاع عن المدينة وتأمينها من جهة الشمال،اضعف جهات المدينة التي تحميها الحرات من الجهات الاخرى، أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بمشورة «سلمان الفارسي» في ضرورة حفره، وباشر العمل بنفسه، وقسم الصحابة الى مجموعات يتكون كل منها من عشرة أشخاص كلفوا بحفر أربعين ذراعا، ولما كان طول الخندق حوالي «١٢٠٠٠ ذراع»، فانه يكون قد اشترك في حفره ثلاثة آلاف مسلم، وخط الرسول الخندق من حصن الشيخين قرب خطة بني حارثة حتى بلغ «المذاذ» وهو حصن بني خزام من بني سلمة غربي مسجد الفتح (٣٦) . وحفر هذا الخندق عمل معماري حربي ضخم

انجز في فترة وجيـزة بلغت في أقصى تقدير اربعة وعشرين يوما. وكان لحسن تنظيم العمل ومخافة هجوم الاعداء بسرعة أثره في ذلك. واستكمـالا لاعمال التحصين حصنت جدران المنازل التي قرب الخندق والتي بينها وبين العدو مسافة قصيرة. (٣٧)

واتخذ الرسول المعسكرات لجنده خارج المدينة على مسافة منها، ومن امثلة ذلك معسكر الجرف الذي يبعد عن المدينة ثلاثة اميال في اتجاه الشمال، وهو معسكر أسامة عندما أرسله إلى الشام، وهو الذي عسكر به الجند عند ذهابهم إلى مؤته. (٣٨)

ويعني ذلك أن هجرة الرسول الى المدينة اعقبها اهتمام بالشؤون الدفـاعية والحربية رمى الى الدفاع عن المدينة وحمايتها من اعدائها، فكان حفر الخندق، وكان ذلك بمثابة اقرار وسنة بانشاء مثل هذه المنشآت التي عدت من البناء الواجب شرعا(٣٩). كما أنه رمى الى الاهتمام بالجند وعرضه استعدادا للغزو والجهاد في سبيل الله وهو فريضة لنشر الدين. وكان في ذلك سنة حميدة تأسى بها الحكام المسلمون فأنشأوا ميادين وساحات لاستعراض الجند خارج أسوار المدن، تلك التي يطلق عليها في مدن الشمال الافريقي والأندلس اسم «المصارة».

ومن طريف ما يذكر أنه بعد أن توحدت المحلات السكنية في المدينة بعد هجرة الرسول اليها، وبعد أن اصبح مجتمعها في هيئة اجتماعية واحدة يربطها الدين الاسلامي انزوت اهمية الحصون والاطام التي بنتها القبائل المتفرقة لحماية محلاتها واللجوء اليها وقت الخطر.

وسن رسول الله صلى الله عليه وسلم انشاء مقار للعلاج والتطبيب، فقرر بعد رجوعه من غزوة الخندق وضع خيمة في المسجد للتداوي، وتأسى الحكام وأهل البر والخير بهذه السنة، وسعوا إلى إنشاء «البيمارستانات» التي توفر العلاج لأهل المدينة والقادمين إليها، وأوقفوا الاوقاف الكثيرة عليها فبلغت مستوى متقدما في العلاج والتطبيب.

وخصصت بالمدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم- دور للضيافة واستقبال الوفود كان من أهمها دار عبد الرحمن بن عوف الكبرى، وكانت تسمى «دار الضيفان» أو «دار الأضياف»، ونزل بها وفد النخع سنة ١١ هـ(٤٠)، ودار رملة بنت الحارث الانصارية التي نزلتها وفود غسان وبني ثعلبة وعبد القيس وبني فزارة، وعذرة وبني حنيفة(٤١)، وفي هذه الدار حبس رسول الله رجال بني قريظة قبل إعدامهم بالسوق(٤٢)، وهو ما يشير من جهة اخرى الى اقرار اتخاذ «الحبس» بالمدينة، وكان في هذه السنة اقرار باشتمال المدينة الإسلامية على دور للضيافة لاستقبال الوفود الرسمية الزائرة لها، وسجون لحبس المخالفين والمعاقبين، وفي هذا ما يسحب على المدينة الصفة السياسية باعتبار أهميتها، والادارية باعتبار نظام ادارتها.

وكان لتوجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم الاثر الكبير في نظافة المدينة، فحددت مواضع لقضاء الحاجات تسمى «المناصع» اضافة الى بيوت الخلاء الملحقة بالمنازل. (٤٣) كما أنه دعا إلى اماطة الاذى عن الطريق باعتبار أن تلك شعبة من شعب امان، فكان في هذه السنة ما يدعو الى تنظيف الشوارع، وازالة العوائق منها وتجميلها. وفي هذا الاطار اختار مواضع الذبح بعيدة عن المواضع التي تزدحم بالمارة، فقد «ضحى عند طرف الزقاق قرب دار معاوية»، وضحى أيضا عند طرف زاوية أبي يسار (عند أصحاب المحامل بناء بأعلى السوق). (٤٤)

مما سبق تتضح التكوينات المعمارية الجديدة بالمدينة، وكيفية تخطيطها وتوزيعها على مخططها بطريقة تجعلها كلا متماسكا، وان هذه التكوينات كانت تفي بحاجات المجتمع، الفردية والجماعية، المادية والروحية. كما يتضح الأساس الذي قام عليه توزيع الاقطاعات لانشاء المحلات السكنية التي تشتمل عليها المدينة، والتي تركت حرية تقسيمها وتخطيطها مكفولة للأفراد والقبائل، واكتفى الرسول بالتوجيه والارشاد.

ومن أمثلة هذه التوجيهات الهامة في مجال الانشاء والعمارة، والتي أثرت في

شكل التكوينات المعمارية السكنية وتخطيط شوارعها، ما رواه أبو هريرة من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره»، ثم يقول ابو هريرة مالي أراكم معرضين؟ والله لأرمين بها على اكتافكم. رواه الجماعة الا النسائي. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا ضرر ولا ضرار للرجل أن يضع خشبة في حائط جاره، واذا اختلفتم في الطريق فاجعلوها أذرعاً»(٤٥) ويكشف هذا التوجيه عن نظرة اقتصادية ترمي الى تقليل تكاليف الانشاء، بتوفير تكاليف انشاء الجدر التي تحمل السقف اذا ما أمكن وضع الخشب على جدار الجار كما يدعو الحديث، كما انه يكون أدعى الى تلاصق المباني والمتجاورات السكنية تحقيقا لهذا الهدف، ومن الناحية الاجتماعية فان تطبيق ذلك يؤكد على تمتين العلاقة بين جدران الجنب. وفيما يتعلق بالشوارع ففي الحديث اشارة الى تحديد أدنى اتساع للشارع (٣,٥ متر) اذا ما اختلف حوله حتى لايضيق. وهو اتساع معقول بالنسبة لطريقة الارتفاق في تلك العصور.

ودعا الرسول دعوة عامة في ثنايا أحاديثه الى فضل المنزل الواسع، إذا ما سمحت الظروف بامتلاكه أو انشائه، كما أنها وجهت الى الوقاية من أعين الناس. وانعكس ذلك بصورة مباشرة على تخطيط المنازل الاسلامية، ويكشف لنا تصميم حجرات زوجات النبي صلى الله عليه وسلم عن أن كل بيت كان عبارة عن مربع طول ضلعه من ٨- ٩ أذرع (٤- ٥ ,٤ متر) وفي كل بيت حجرة طول ضلعها (٦- ٧ أذرع) ٣- ٣,٥ متر صنعت حيطانها من اكسية من الشعر مربوطة بخشب عرعر(٤٦)، أي ان كل بيت له مدخل صغير، قبل الولوج الى الحجرة، يوفر نوعا من الوقاية لمن بداخلها، حتى لايدخل الى الحجرة مباشرة. وفي اطار الوقاية من أعين البشر فرض الحجاب على نساء المؤمنين، وكان لذلك أثره في الحاق «بيوت الخلاء» ببيوت المدينة(٤٧) حتى لاتخرج النساء الى الخلاء لقضاء حاجتهن، وتكتمل الخدمات الصحية بالمنزل.

وتحت رعاية الرسول تواصلت عملية العمران الجديدة التي سارت بخطى حثيثة للتسييرات المتعددة التي صاحبتها، واقرت من خلالها سنناً في العمران،

كانت تتبع بعد ذلك في عمارة المدن الجديدة، ومن اهمها نظام اقرار إحياء الأرض الموات وفق قواعد واصول ساعدت على زيادة العمران. فقد روى أبو يوسف: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من احيا أرضا ميتة فهي له، وليس لعرق ظالم حق. وعن طاووس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عاري الارض لله وللرسول ثم لكم من بعدي، فمن أحيا أرضا ميته فهي له، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين(٤٨). ويبين الحديث الاول أن من أحيا أرضا ليست مملوكة لاحد فهي له يملكها لما بذل في احيائها، اما اذا كانت مملوكة لاحد فان احياءها يعتبر ظلما، وليس للظالم حق مهما انفق على احيائها، والحديث الثاني يدل على أن الأرض غير المملوكة هي لله وللرسول أولا ثم للمسلمين ثانيا، فمن احياها فهي له وليس له ان يحتجرها اكثر من ثلاث سنوات، وفي ذلك حث على عمرانها، واذا لم تعمر يأخذها غيرهم فيعمروها. وفي حديث آخر اقر الرسول هذا المنهج ووجوب اتباعه، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «عاري الارض لله وللرسول، ثم هي لكم، ولما سئل صلى الله عليه وسلم عما يعني بذلك، قال صلى الله عليه وسلم تقطعونها الناس (٤٩). وفي احياء سياسة الموات كما يقول أبو يوسف فائدة مزدوجة فهي «أعمر للبلاد واكثر للخراج(٥٠). واستمر الاقطاع الاسلامي كنظام تشريع يهدف للاصلاح العام من قبل الحكومة المركزية القوية، حتى وصل الى أقصى مراحل تطوره ونضجه في عهد الايوبيين والمماليك. وظل الاقطاع الاسلامي نظام تملك وارتفاق يحوز المقطع فيه كما يحوز وظيفة وراثية، وهو خاضع تمام الخضوع لتصرف ولي الامر من حيث ازالة الاقطاع أو ارتجاعه أو انقاصه أو نقله الى مقطع آخر. (٥١)

واقر الرسول كذلك نظام الوقف(٥٢) في المدينة، وتعتبر بئر رومة في المدينة خير مثال على ذلك، فقد روى عن عثمان رضي الله عنه انه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة، وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة، فقال: من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه منها مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة، فاشتريتها من صلب مالي وجعلتها للمسلمين. وكان للوقف صدى كبير بعد ذلك في تعمير المدن

الاسلامية- كما سنعرض- اعتمادا على ما سنّه الرسول صلى الله عليه وسلم.

مما سبق يتضح أن ملامح تكوينات المدينة الاسلامية العمرانية، ومنهج تخطيطها بدآ اصلا في مدينة الرسول وفي عهده، واتبع هذا المنهج فيما اختط من مدن كانت اوائل نماذجها ما يطلق عليه اصطلاحا «مدن الهجرة» أو مدن الامصار»(٥٣) التي كان قوامها اهل الهجرة الذين كانوا بدوا في الغالب، ووجدوا في هذا الاتجاه سبيلا نحو حياة افضل، وحملوا لواء الجهاد فريضة لنشر الاسلام. وانعكس ذلك على نشأة هذه المدن ومراحل تكوينها، فقد كانت حياة منشئيها كرا وفرا انطلاقا من هذه القواعد، ثم آلت الى الاستقرار، وبدأت هذه المدن تعتمد على اقاليمها وعلى الجزية والخراج والمكوس الآتية من البلاد المفتوحة، وفي كل ذلك اشارات واضحة الى عوامل جديدة، ومقومات مختلفة، أدت الى نشأة هذه النوعية من المدن الاسلامية.

بعد حروب الردة اتجهت الفتوحات الاسلامية إلى الاقاليم المجاورة ونشطت هذه الفتوحات نشاطا كبيرا في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى اصبحت الدولة الاسلامية تضم سورية والعراق ومصر، وباتت الحاجة ملحة لادارة هذه الاقاليم، واتخاذ قواعد متقدمة بها تكفل استمرار قوة الجيوش الاسلامية الفاتحة في الشرق والغرب، فانشئت تلك المدن التي كانت بمثابة معسكرات متقدمة لهذه الجيوش، ومراكز ادارية لادارة الاقاليم المفتوحة، أي أن هذه المدن التي ارتبطت وظيفتها بنشأتها والتي كان السبب فيها دواعي الفتح العربي الاسلامي على هوامش الصحراء جهادا في سبيل الله، ونشر دعوته، وأصبحت مع الزمن مدنا. «ما هي الا معاقل لتوكيد الفتح وحاميا لتغذية جهات القتال بالرجال والمؤن، ونقاط ارتكاز لحركة الفتح العربي، ودور هجرة ومنازل جهاد ومعالم لنشر الدين، وبذور بعث جديد للحضارة الانسانية باختيار الزمان والمكان، كما انها اقرت التزام الدولة تجاه المجاهدين في السكن والوظيفة، وفي اللقمة والهدمة، في حين احالت نسيب البدوي الى ساكني المدن، وهنا وضع الاساس لما نراه في العصور التالية من تقديم العلم على السيف فيصبح العالم نمطا مقبولا في المجتمع»(٥٤).

وبدأت هذه المدن بالبصرة، التي اسست كمعسكر حربي سنة ١٤هـ/٦٣٤م أسسها عتبة بن غزوان بأمر الخليفة عمر، وبدأ بتخطيط المسجد الجامع باعتباره نواة المدينة، وبجواره عن قرب دار الامارة، ثم اقطعت القبائل خططها حول المسجد ، وخططت الشوارع فجعلوا عرض شارعها الاعظم ستين ذراعا،وجعلوا عرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعا، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع، وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لمربط خيلهم وقبور موتاهم، وتلاصقوا، ولم يفعلوا ذلك الا عن رأي اتفقوا عليه، أو نص لايجوز خلافه(٥٦). وتركت حرية تقسيم الخطط للقبائل التي اختطت وبنت منازلها(٥٧)، وكانت المنازل من القصب الذي كان اذا غزوا نزعوه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، فاذا رجعوا اعادوا بناءه.(٥٨)

وازدادت اهمية البصرة باتساع جبهتها في الفتوح التي ترتب عليها زيادة اعداد المهاجرين اليها، وأدى ذلك الى تطورها الذي بدأت مراحله الواضحة في ولاية ابي موسى الأشعري سنة ١٧ـ ١٩ هـ (٦٣٨ـ ٦٥٠ م) . فقد كان اجتماع القبائل المهاجرة اليها في مكان واحد تجربة مثيرة، بما تنطوي عليه من احتمالات الصدام وانشقاق بين الجماعات المتنافرة. والواقع أن حدة النزاع كانت قد بدأت ترتفع قبل وصول أبي موسى، وتشير الى ذلك كلمات الخليفة عمر التي وجهها اليه وهو يعينه واليا عليها حيث قال: «اني ابعثك إلى أرض قد باض فيها الشيطان وفرّخ فالزم ما تعرف، ولا تستبدل فيستبدل الله بك». ويشير ذلك إلى حالة التكوين الاجتماعي الجديد للقبائل في هذه المدن الناشئة. وأثره في حالها.

وشرع أبو موسى في تغيير هيئة منشآت البصرة الدينية والادارية والمدنية فبنى المسجد ودار الامارة باللبن والطين، وأمر الناس بالبناء في الخطط التي صرفت لهم. واتجه لحل مشكلة تزويد المدينة بالماء الصالح للشرب ولاسيما ان المياه التي تصل اليها كانت مالحة، فبدأ مشروع حفر نهر الابلة الذي تم في عهد عبد الله بن عامر (٢٥ـ ٣٦ هـ/٦٤٦ـ ٦٥٧ م) هو وغيره من مجموعة الانهار التي زودت

المدينة بـالماء الـلازم، ووصلتها تجـاريا بـالاقاليم المجـاورة فدفـع ذلك نمـوها وازدهارها.

وساهم عبد الله بن عامر في تطوير البصرة بسياسته التي هدفت الى تشجيع العمران بالمدينة، بمنح الاقطاعات الاشخاص لزيادة الانتاج، واتخاذ الاسواق وتأسيسها بالمدينة، فقام بشراء عدد من الدور وبنى في موضعها سوقا ولاسيما أن سوق المربد لم تعد قادرة على سد الحاجات الجديدة للمدينة. (٥٩)

ويكشفُ هذا التطور عن ازدياد أهمية البصـرة التي اصبحت مركـزا اداريا ارتبطت به البحرين والمناطق المفتوحة من بلاد فارس، وقد جلب هذا التطور رخاء اقتصاديا متمثلا في تزايد واردات البصرة من غنائم الفتح، في الوقت الذي كان وضعها الاقتصادي أقل من الكوفة، ويؤكد ذلك رواية الطـبري التي جاء فيها أن عمر بن سراقة كتب في سنة ٢٢ هـ الى الخليفة عمر بن الخطـاب «يذكر له كثرة أهل البصرة وعجز خراجهم عنهم ويسأله ان يزيـدهم أحد «المـاهين» أو «ماسيذان». وحديث وفد أهل البصرة للخليفة يوضح هذا الحال أيضا حيث قالوا له: «دارنا فعمة، ووظيفتنا ضيقة، وعددنـا كثير، فزدنـا وظيفة تـوظف علينا ونعيش بها». وقد شجع هذا التطور أيضا على زيادة سكان المدينة زيادة ملحوظة وهجرة العناصر البشرية العربية وغير العربية اليها لمزاولة الاعمال بهـا وكسب العيش، حتى بلغ تعداد سكانها من العرب وفقا لسجل المقاتلين العرب ستين ألفا، ويؤكد ذلك رواية الطبري التي يذكر فيها: «أن الإمام عليـا بعث لاهل البصرة عبد الله بن عبـاس لحث أهل البصرة على مساعدته، وقال ابن عباس لاهل البصرة لائما: انه لم يخرج منكم الا الفـ وخمسمائة رجل، وانتم ستون ألفا سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم . . .».

ثم مرت البصرة بمرحلة تالية من مراحل تطورها في عهد زياد بن أبيه الذي كان أول من بنى بها بالآجر والجص، فأعاد بناء الجامع ودار الامارة بهذه المواد التي تمثل تطورا ماديا بنائيا في تاريخ عمارة المدينة، كما أنه أعاد تنظيم المدينة وتحديد

تقسيماتها الطبغرافية والسكنية متبعا النظام نفسه الذي اتبع في الكوفة، فقسمها الى خمسة أخماس ضم كل خمس مجموعة من العشائر التي تنتمي الى قبيلة واحدة، ويرأسه رئيس من تلك القبيلة، يتمتع بسلطات واسعة. وقد سهل ذلك ادارة المدينة، وسهل استنفار الجند، وهي الغاية التي هدف اليها هذا التقسيم.

وتمشيا مع ازدهار الحياة الاقتصادية شجع زياد على تأسيس الأسواق، ويشير الطبري إلى أنه بنى «مدينة الرزق» وهي عبارة عن سوق واسعة لها أربعة أبواب، وتحتوي على نشاطات اقتصادية فاعلة، كما أنه اهتم بانشاء الوحدات العمرانية المتصلة بزيادة عمران المدينة، كالمحلات والمربعات والحمامات. (٦٠)

وصاحب هذا التطور زيادة في عدد سكان المدينة زيادة كبيرة، ولا أدل على ذلك مما قاله عبد الله بن زياد الذي خطب أهل البصرة عندما كان واليا عليها سنة ٦٤ هـ قائلا: «لقد وليتكم وما أحصى ديوان مقاتليكم الا سبعين ألف مقاتل، وما أحصى ديوان عملكم الا تسعين ألفا». ومما يؤكد اتساع عمران المدينة ما فعله زياد الذي «جعل الشرط أربعة آلاف» مع استتباب الأمن في عهده وهيبة الناس إياه. (٦١)

وتكشف هذه المراحل من التطور عن أن البصرة تحولت خلال هذه المراحل من مجرد معسكر حربي إلى مدينة ذات معايير مدنية واضحة، تمثلت فيها الحياة العربية، مرتبطة بأحداث التاريخ الإسلامي ارتباطا وثيقا في كل مراحلها بعد ذلك. وعلى المنهج نفسه سارت مدن الامصار الاخرى التي انشئت بعد ذلك.

وأست الكوفة كمعسكر حربي أيضا سنة ١٧ هـ / سنة ٦٣٨ م على يد سعد ابن ابي وقاص بعد موافقة الخليفة على انشائها، ووفقا لتوجيهاته التخطيطيه التي حددت اتساع شارعها الرئيس بأربعين ذراعا، والشوارع الثانوية بثلاثين ذراعا، والتي تليها بعشرين ذراعا، وحدد أيضا اتساع الازقة والسكك الفرعية بسبعة أذرع. ومنحت القطائع للقبائل وفقا لما قرره «أهل الرأي» الذين تولوا تحديد مساحات القطائع. (٦٢) وانشيء المسجد في وسط المدينة وبجواره دار الإمارة،

ومن هذه المنطقة التي تمثل مركز المدينة امتدت الشوارع «المناهج» خمسة في اتجاه الشمال، وأربعة في اتجاه الجنوب، وثلاثة في اتجاه الشرق، ومثلها في اتجاه الغرب، وقد اطلق الطبري على هذه الشوارع «مناهج أهل العزم». وأشار الى أن الشوارع الثانوية كانت تسير موازية للشوارع الرئيسة السابقة، وأحيانا متقابلة معها، واطلق عليها «مناهج الدهناء»(٦٣). ثم يلي ذلك الشوارع الفرعية التي كانت اقل اتساعا، وتربط التكوينات المعمارية بالشوارع الثانوية والرئيسة، ثم يصف الطبري المحلات السكنية للقبائل وصفا يدل على توزيعها في خطط، عرفت بالقبائل التي تكون النسيج البشري للمدينة، ومع ازدياد أعداد القبيلة فانها كانت تمتد عمرانيا في أكثر من خطة، واذا ما كانت القبيلة محدودة العدد كجهينة فانه كان يشترك معها في الخطة هؤلاء الذين لا ينتمون الى قبيلة، والذين كان يطلق عليهم «الاخلاط». (٦٤)

وبالنسبة لتقسيم الخطة بين أفراد القبيلة، فان اليعقوبي يقول: «إن كل قبيلة كانت تقسم الخطة المخصصة لها»، أي أن الامر كان متروكا لحرية تصرف اختيار القبيلة، مثل ما حدث قبل ذلك ـ كما أشرنا ـ وتوزعت المساجد في خطط القبائل، وكان لكل قبيلة مقبرتها المعروفة بها. (٦٥)

ويستشف من الرواية التاريخية أن سوق المدينة كانت في منطقة الوسط، وكانت عبارة عن ساحة فضاء كما هو الحال في سوق المدينة المنورة، حيث إن الخليفة عمر كان حريصا على أن تظل السوق بالهيئة التي أقرها الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة، وأشار اليعقوبي أيضا اشارات تؤكد هذه الهيئة، فذكر أن مساحة السوق في الكوفة كانت فضاء لا توجد بها مبان أو سقف، اللهم الا تلك الظلل التي عملت لتظل البائعين في اماكنهم التي اختاروها. واستمرت السوق على هذه الهيئة حتى عهد هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥ ـ ١٢٥ هـ / ٧٢٤ ـ ٧٤٣م) عندما قام عامله على الكوفة خالد القسري بانشاء الاسواق على هيئة معمارية جديدة، تشتمل على حوانيت سفلية، ومساكن علوية للسكنى. (٦٦) ومما سبق

يتضح أن تخطيط الكوفة سار على المنهج نفسه الذي وضع في المدينة ثم في البصرة.

وسار تخطيط الفسطاط على النمط نفسه كذلك، فقد أسسها عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر سنة ٢١ هـ / ٦٤١م(٦٧)، وكان عمرو يريد أن يتخذ من الاسكندرية مركزا له، لكن الخليفة أمره أن يبني في موضع لا يفصله عنه ماء، فاختار موضع الفسطاط على الشاطىء الشرقي للنيل بجوار حصن بابليون. وبدأ عمرو بانشاء المسجد الجامع، وخط في المنطقة المحيطة به سوقا، ومن حول ذلك اختطت الخطط للقبائل وجعلت خطة «أهل الرأي» قريبة من المسجد(٦٨). ويشير وصف هذه الخطط الى أن بعضها اختص بقبيلة واحدة، وأن القبائل كبيرة العدد كان لها أكثر من خطة، والقبائل محدودة العدد ضمت مع بعضها في خطة واحدة.

ويكشف حديث المقريزي عن خطة «أهل الراية»، وخطة «أهل الظاهر»، وخطة اللفيف من خطط الفسطاط، عن أن هناك علاقة واضحة بين الخطة في المدينة وسجل القبائل في الديوان، وان ترتيب المحلات السكنية «الخطط» يتبع في الغالب ترتيب قطاعات الجيش(٦٩)، وفي ذلك تسهيل لادارة المدينة واستنفار الجيوش - كما أشرنا - وهو أمر يشير الى تأثر تخطيط المدينة بظروف نشأتها الحربية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ تخطيط المدينة الاسلامية.

وبدأت الفسطاط بداية قوية في عمرانها حتى إن خططها بلغت سبعا وأربعين خطة عند انشائها(٧٠)، واطلقت عليها اسماؤها بعد أن استقرت القبائل فيها، وتركت حرية تقسيم كل خطة لافراد القبيلة، كما حدث في البصرة والكوفة. وتوزعت «مساجد الخمسة» في الخطط فكان بكل خطة مسجد أو اكثر، وتضمنت الخطط ساحات فضاء أو رحاب(٧١) استغلت في اغراض مختلفة. (٧٢)

يتضح مما سبق أن الخطة كانت في الفسطاط كما في البصرة والكوفة أساس نظام تخطيط المدينة، فهي وحدة تخطيط أساسية. وان هذا النظام قام على أساس

القبيلة باعتبارها هيئة اجتماعية أو «مؤسسة» قائمة ، وكانت هذه الهيئة مرنة تمتد أو تنكمش لتناسب العدد القياسي من السكان الذين تتسع لهم خطة، كما أن اتحاد القبائل لتناسب العدد القياسي من السكان الذين تتسع لهم خطة، كما أن اتحاد القبائل الصغيرة في سبيل تكوين خطـة أوضح أن القلة لاتستطيع أن تقوى وحدها، وان انقسام القبائل ليكونوا اكثر من خطة أمر محتمل لان القبيلة قد تكون كبيرة جدا. فكان هذا النظام مرنا، ويدل على ذلك «خطة أهل الـرأي» التي جمعت بين أناس لم تكن بينهم روابط قبلية، ولكنهم تألفوا في اطار النظام. ومما يؤكد «ديناميكية» هذا النظام ما يذكر عن «خطة اللفيف» التي توضح أنه ليس لكل مجموعة أن تكون خطة بدون موافقة أقاربهم في المدينة. (٧٣)

ومن منـظور آخر يعكس هـذا النظام أهميـة التكيف الاجتماعي وعـوامله ومقوماته المختلفة، فقد أدى هذا النظام بصورة مباشرة إلى عـدم جمع أضـداد مختلفة اجتماعيا في موضع واحد، لأن ذلك ربما يتسبب في خلافات اجتماعية، تنعكس على حياة المدينة بأسرها. وهو أمر أشير اليه صراحة في توزيع القبائل حول أبواب بغداد، وفي رؤية «ابن الربيع» التي وجه اليها الحـاكم(٧٤) الذي يرغب في انشاء مدينة، ألا يجمع فيها اضدادا مختلفة، وكان انشاء سامراء من أسباب ذلك الخلاف الذي حدث بين اجناس العرب والفرس والترك في بغداد، كما أنه أيضا من منظور اجتمـاعي كانت دينـاميكية النـظام التي لم تسمح لأي مجموعة أن تكون لها خطة دون موافقة اقاربهم في المدينة، ومن ثم يتضح أن النظام القبلي لخطط المدينة الاسلامية في عهدها المبكر اتسم بالديناميكيـة التي تسمح بانشاء اكثر من خطة للقبيلة الكبيرة، وتجمع القبائل الصغيرة والافراد في خطة واحدة، في اطار يهدف إلى تسهيل ادارة المدينة، واستنفار الجيوش، ويمنع من تفتت الوحدة الاجتماعية سواء في محيط القبيلة الواحدة التي تربط بينها رابطة صلة الرحم، أو في محيط مجتمع المدينة الذي يربط بين أفراد قبائله جميعا رباط الاخوة، الذي دعا اليه الرسول، تذويبا للنزعة القبلية وهو اتجاه تدعم في العصر الاموي، وتبرزه محاولات زياد بن أبيه في البصرة لاجتثاث التقاليد القبلية(٧٥).

ثم تدعم اكثر في العصر العباسي مع تطور حياة مجتمع المدن، التي افرزت طبقات اجتماعية جديدة بعيدة عن العصبية القبلية.

وفي ذلك ما يوضح الصورة أمام من اهتم بابراز التأثير القبلي في تخطيط المدينة الاسلامية من منظور يؤكد على أثر البداوة في التقسيمات الطبوغرافية للمدينة الاسلامية، ويتصور أن محلات المدينة مغلقة على نفسها، وأن هناك حواجز اجتماعية أساسها هذا التقسيم القبلي دون اعتبار للتغير الذي أحدثه الاسلام في التركيب الاجتماعي القبلي الذي كان سائدا في المدن العربية قبل الاسلام. (٧٦) حتى لاتتفتت الوحدة الاجتماعية وراء تحقيق مآرب مادية معينة، وتصعب ادارة المدينة لهذا التفتت الذي تنتج عنه رواسب وخلافات تهدد كيان المدينة كلها وتقعدها عن دورها الاساسي في الجهاد والفتح.

ومع استمرار الفتوحات الاسلامية ودعم هذه المدن بالجيوش حدث النمو الطبيعي في مدن الامصار، وتمشيا مع توزيع القادمين على خط قبائلهم زادت الحاجة إلى المساحات التي تتسع الى هذه الزيادات السكانية المتتابعة، فشغلت المساحات الفضاء جميعا، وتلاصقت الخطط(٧) وامتدت المباني لتضيق الشوارع الرئيسة والثانوية التي كانت ملكية عامة لم توضع لها علامات أو حدود واضحة، فشكل ذلك الشوارع الملتوية والطرق الضيقة التي اتسمت بها الفسطاط(٧٨). واختلفت طبيعة «الفسطاط» ـ نسبيا ـ عن مدن الأمصار الأخرى من حيث بنائها بجوار مناطق معمورة، والرغبة القوية في الهجرة اليها باعتبارها حاضرة مصر، وكذلك الحاجة إلى تأمينها مما كان سببا في ضيق شوارعها التي لم تكن المقاييس نفسها التي تردد ذكرها عن البصرة والكوفة، كما أن تلاحم الخطط كان واضحا منذ البداية، ولا أدل على ذلك من انشاء «خطة أهل الظاهر» التي سميت بهذا الاسم «لأن القبائل التي نزلتها كانت بالاسكندرية ثم قفلت بعد قفول عمرو بن العاص، وبعد أن اختط الناس خططهم فخاصمت الى عمرو، فقال لهم معاوية ابن خديج ،وكان ممن يتولى الخطط يومئذ، أرى لكم ان تظهروا على اهل هذه القبائل فتتخذوا منزلا، فسمى الظاهر بذلك». ومن طريف ما يذكر أن الامتداد

العمراني للمدينة خارج حدودها الاصلية كان يطلق عليه في اطار هذا المفهوم «ظاهر المدينة» كأن يقال: «ظاهر القاهرة»(٧٩) أو ظواهر القاهرة المعزية على ذلك الامتداد العمراني خارج اسوارها.

ومرت الكوفة والفسطاط وغيرهما من مدن الامصار بالمراحل نفسها، تلك التي حولتها من مجرد معسكرات حربية الى مدن ذات معايير حضارية واضحة، متميزة في تكوينها الاجتماعي الذي كيّف بين عناصر متباينة اجتماعيا وحضاريا، وانعكست مراحل هذا التكيف بصورة أو بأخرى في تكوينات المدينة المعمارية، ونشاطات الحياة المختلفة فيها، كما انه تأثر الى حد كبير بسياسات الدول التي تتابعت على الحكم.

وبدأ هذا التكوين بصياغة عربية عندما خرج العرب إلى الفتوحات على هيئة قبائل، «واستمروا يكونون الجيش العربي الذي نظم في تقسيمات أساسها الوحدات القبلية من قبيلة إلى عشيرة، وسجل العرب في الدواوين المحلية في الامصار وهي «دواوين الجند» على أساس النسب القبلي، وانتظموا في السكن في سكك ودروب على أساس العشائر والافخاذ، واستمرت التقاليد والعادات القبلية سائدة بينهم في البداية، وبقى التأكيد على رابطة النسب قويا. وعملت الظروف الجديدة في الامصار عملها على تعديل هذه الاوضاع التي نقلت مخطط البادية الى مخطط المدن، فهذه القبائل استقرت في مدن، أو معسكرات جديدة وبدأت تسير في حياة مستقرة لا حياة رحيل وغزو، في مجتمع قاعدته المشتركة العطاء والرزق اللذان شملا المحاربين واهليهم، واطاره الفكري والعقائدي الاسلام الذي قوى وتغلغل على مر الايام، ولكن هذا التنظيم القبلي المنسجم في الظاهر كان يخفي وراءه التباين بين عناصر البادية، والعناصر الحضرية التجارية من عرب المدن وخصوصا مكة، ولم يقتصر هذا التباين على الخبرة المالية وعلى القابليات بل إن القيادة في الفتوحات والرئاسة في الادارة كانت لعرب المدن مكة والمدينة والطائف بعدئذ». (٨٠)

وانعكست هذه الاتجاهات على النشاط الاقتصادي بهذه المدن فاهتم أهل المدن بتنمية الثروات بالتجارة واستثمار الارض، في حين مثل اهل البدو الجانب الاستهلاكي المعتمد على ما يحصّلونه من أرزاق تزداد مع استمرار الفتوحات وتقل وتجمد بتوقفها. وأدى ذلك إلى استقرار وتطور في حياة القبائل المدنية، والى خلل وتزعزع في حياة القبائل البدوية، ومن ناحية أخرى أدى الى وضع نظم الحياة التجارية، وانشاء الاسواق التي أصبحت من المؤسسات الرئيسة بهذه المدن الناشئة، بجانب المسجد الجامع، الذي يمثل مركز السلطة الدينية والسياسية ودار الامارة التي تمثل المركز الاداري. (٨١)

ومع انتشار الاسلام زاد عدد المسلمين من غير العرب «الموالي» وأصبحوا جزءا مهما من نسيج المدينة وتكوينها، وشاركوا في الفتوحات، وزادت أعدادهم باتساع الفتوحات ودخول اهل البلاد المفتوحة في الاسلام زيادة ملحوظة وشاركوا، في نشاطات الحياة المختلفة، وتمتعوا بالمساواة مع العرب أيام الخلفاء الراشدين، لكنهم فقدوا هذه الميزة أيام الأمويين، وسعى الموالي الى تحقيق هذه المساواة بالتوفر على دراسة اللغة العربية والدين الإسلامي، والأخذ بناصيتهما، ولكن الامويين لم يمكنوهم من ذلك، وحاولوا القضاء على هذه التطلعات، فبدأ الصراع مع الموالي يأخذ تيارا واضحا في حياة المجتمع الاسلامي وحياة مدنه، التي شكل هؤلاء نسبة كبيرة من سكانها، وانعكس ذلك بوضوح على تشكيل الاحداث السياسية في تاريخ الدولة الاموية والعباسية. (٨٢)

وتنوعت مراتب الموالي فمنهم كتاب الدواوين وهم فئة مختارة، وهناك التجار ولهم شيء من المنزلة الاجتماعية والنفوذ المالي، وتقابلهم النسبة الغالبة لجمهور الموالي، وهم أهل الحرفة والصناعات والفلاحين الذين نزحوا الى هذه المدن، ومع تطور الحياة المدنية في المدن الناشئة شكل الموالي جانبا أساسيا في مجالات النشاط التي تتصل بهم.

ومع استقرار الحياة المدنية في مدن الامصار «مدن الهجرة» ضعفت الروح

العسكرية تدريجيا ولاسيما بعد توقف الفتوحات، وظهر هذا التحول في النواحي الفكرية كما ظهر في النواحي الاجتماعية والاقتصادية. فقد أخذت المبادىء والقيم الاسلامية تتغلغل بالتدريج، وظهر ذلك في محاولة المشتغلين بالفقه والحديث في بث المفاهيم الاسلامية، وفي وزن العرف والتقاليد المحلية السائدة بميزان اسلامي واكسابها وجهة اسلامية. وقد اسفرت هذه المحاولات عن نشأة علم الفقه، وعن ظهور مدارس محلية فقهية تتمثل فيها الجهود الجماعية، وينمو إرثها الفكري بطريق التراكم والتكامل دون أن تنسب لشخص واحد-كما حصل في العصر العباسي- وكان هذا الحال في الكوفة وفي مراكز الأمصار، وهدفها طبع الحياة العامة بطابع إسلامي. وإلى جانب هذا الاتجاه حدث أيضا تطور في المفاهيم السياسية، إذ انتشرت الآراء السياسية للاحزاب من شيعة وخوارج وعثمانية ومرجئة، وصار لها الدور الرئيس في المجتمع، وقد تجلى هذا في الحركات السياسية في الكوفة في سلسلة ثورات منذ فاجعة كربلاء حتى ثورة زيد بن علي، وبهذا تحولت روح المقاومة تدريجيا من قبلية إلى مقاومة سياسية حزبية. (٣)

وقد نسجت هذه التيارات المختلفة والتكوينات الاجتماعية نسج المدن الاسلامية الناشئة، وتدرجت إلى تذويب النزعة القبلية ونشوء تكوينات وطبقات اجتماعية متأثرة بتطور الأحداث التي حركت أسبابها عوامل مختلفة ارتبطت أساسا بهذه التكوينات، وتأثرت بعوامل أخرى خارجية وداخلية صاغتها أحداث التاريخ الاسلامي ودوله المتتابعة حتى عصرنا الحاضر. وأنشأت هذه الدول مدنا تعكس هذه المظاهر بوضوح، وأول هذه المدن «واسط» التي ارتبط انشاؤها بما وقع من أحداث في البصرة والكوفة في العصر الأموي. فقد ذكر بحشل أن الحجاج قال: «أتخذ مدينة بين المدينتين (يعني الكوفة والبصرة) اكون بالقرب منهما، أخاف أن يحدث في أحد المدينتين حدث وأنا في المصر الآخر، فمر بواسط القصب فاعجبته فقال: هذا واسط المصرين، فكتب إلى عبدالملك بن مروان يستأذنه في بناء مدينة بين المصرين فأذن له». (٨٤)

وخططت واسط تخطيطا مرتبطا بظروف نشأتها ووضعها الاداري، فكانت

رؤية تخطيطها واضحة ومتبلورة، فبها من الملامح الاساسية للتخطيط مالاحظناه في مدن الأمصار من حيث اشتمال المدينة على المسجد الجامع ودار الامارة في الوسط، وتضمينها الأسواق اللازمة لحياة مدينة مستقرة، وفيها من الملامح الجديدة ما يعكس ملامح النظام الأموي الجديد الذي استبدل بالخلافة نظاما ملكياً عضوضا، واضفى على مدنه ومبانيه هذا الثوب الجديد الذي يتلاءم وهذه الصفة، وهو أمر نلاحظه في الطفرة المعمارية للعمارة الأموية، مقارنة بالعمارة في عهد الرسول والخلافة الراشدة، وكانت المدن مظهرا واضحا لذلك، وتعتبر واسط من المدن الإسلامية الناشئة التي تمثل هذه المرحلة.

وتعكس الرواية التاريخية لوصف واسط هذه الملامح الجديدة، فبعد أن اشترى الحجاج أرض المدينة سنة ٧٥ هـ أقام فيها، وأمر بالبناء، فبُني القصر والمسجد والسوران وحفر الخندق في ثلاث سنين، وفرغ من بنائها سنة ثمان وسبعين، أنفق عليها خراج العراق كله خمس سنين... ثم نقل اليها من وجوه أهل الكوفة وامرهم أن يصلوا على يمين المقصورة، ونقل من وجوه أهل البصرة وأمرهم أن يصلوا عن يسار المقصورة، وأمر من كان معه من أهل الشام أن يصلوا حياله مما يلي المقصورة، وأنزل اصحاب الطعام والبزازين والصيارفة والعطارين على يمين السوق إلى درب الخرازين، وأنزل البقالين واصحاب السقط واصحاب الفاكهة في قبلة السوق والى درب الخرازين، وانزل الخرازين والروزجاريين (أي العمال بأي عمل بأجرة يومية) والصناع من درب الخرازين وعن يسار السوق الى دجلة، وقطع لاهل كل تجارة قطعة لا يخالطهم غيرهم، وأمر أن يكون مع أهل كل قطعة صيرفي. وجعل لقصره أربعة أبواب عرض كل طريق من ابوابه ثمانون ذراعا. واتخذ لهم مقبرة من داخل الجانب الشرقي، وعقد الجسر، وضرب الدراهم واتخذ المحامل». (٨٥)

وفي اتخاذ الحجاج القصر في وسط المدينة بجوار المسجد الجامع دلالة واضحة على اتخاذ القصور الفخمة مراكز للادارة، فهو بذلك يقلد الخليفة معاوية في اتخاذه القصر الاخضر بدمشق، حتى انه جعل للقصر «قبة خضراء» ترى من فم

الصلح ، وهي بلدة تقع شمالي واسط على نهر دجلة(٨٦) ، مما يدل على ارتفاعها . وهو تقليد تكرر أيضا في بغداد عندما بنى المنصور قصر الذهب في وسطها، وجعل فيه «قبة خضراء» كانت أعلى مباني المدينة ، يراها كل من بالمدينة ، ومن هو قادم اليها .

كما أن الاهتمام بتحصين المدينة كان واضحا في الرؤية التخطيطية لها فأنشئت الأسوار والخندق. ويكشف التوزيع الداخلي لخطط المدينة على الرؤية الهادفة لانشاء مركز حضري متكامل دفعة واحدة ، يصلح تماما ليكون مركزا اداريا يمكن الحجاج من فرض السلطة الأموية على العراق، ويقضي على الفتن والقلاقل والثورات التي تهدد الامويين في هذه البلاد. ومن جهة أخرى يؤمن الحجاج وجنده من الشوام من فتنة أهل الكوفة والبصرة .

ويمثل انشاء العباسيين لبغداد وسامرا نضج وتبلور هذه المرحلة من التطور التي تؤكد لنا بوضوح ظاهرة هامة وهي أن المدينة أصبحت «ثوب العظمة» للحكام ، فقد كان هدف المنصور من بناء بغداد إبراز مكانة الدولة العباسية وترسيخ دعائم حكمها، وكان الهدف من انشاء سامراء مرتبطا بما حدث من تطور في تشكيل وحياة البلاط والإدارة، وفي الوقت ذاته ليعظم الحكم والحاكم بعدما استقرت دعائم الملك العباسي .

وإذا قارنا بين بغداد وسامراء وبين مدن الامصار فإننا نجد كثيراً من المتشابهات ممثلة في اتباع نظام الاقطاعات والخطط كنظام متبع لتنمية عمران المدينة وتخطيطها، وفي كل هذه المدن كانت التنمية الداخلية متروكة للافراد في كل مجموعة . سواء كانوا أعضاء في قبيلة أو فرقة في الجيش أو مجموعة من بلد ما ، وفي كل منها كان المسجد الجامع ودار الامارة في مركز المدينة ، وان كان ذلك غير منطبق تماما على سامراء كما في بغداد، وفي كل من سامراء ومدن الامصار كانت الاسواق بجوار المسجد الجامع وتستثنى بغداد من ذلك .

وتتركز أوجه الاختلاف في أن كلا من بغداد وسامراء خططتا تخطيطا منتظما

واضح الرؤية والهدف، بينما مرت مدن الامصار في مراحل تطور باعتبار ظروف نشأتها وتحولها من معسكـرات حربيـة مؤقتة الى مـراكز استيـطان وادارة تدعم الفتوحات، ثم الى مدن مستقرة صبغت تدريجيا بالصبغة المدنية وتـوافرت لهـا المعايير الحضرية التي أهلتها لتكون مدنا كبيرة ناضجة. (٨٧)

وتعد بغداد باعتبار تكويناتها المعمارية داخل الأسوار مدينة ملكية نمت خارج أسوارها أرباض العامة، وكان لتجربتها أثر واضح بعد ذلك فيما اختطته الدول الناشئة من مدن بدأت مدنا ملكية، وروعى فيها هذا الاعتبار، ثم تطورت بعد ذلك إلى مدن للعامة نتيجة اختلاف ظروف قيامها بانحـلال ملك وقيام ملك آخر، وتتابع حياة الدول الحاكمة التي ترغب في اتخاذ هذه المدينة أو تلك حاضرة لها، أو ترغب عنها فتنشىء لها مدينة اخرى مجاورة لها أو بعيدة عنها. ومن المدن التي تعكس ذلك المهدية والقاهرة وفاس ومراكش والرباط والزهراء وغيرهـا. وتلك المدن التي انشئت للعامـة وتضمنت في الوقت ذاتـه مقرا للسلطة وجب تأمينه، فانعكس على تخطيط هذه النوعية من المدن التي اشتملت على «مُدينة» أو قلعة بداخلها يطلق عليها القصبة كتلك المدن التي انشئت ببلاد الأندلس، أو أن ينشىء بجوار مدينة العامة مقرا للسلطة بذاته تحاط به الأسـوار، ويشتمل على مكونات المدينة كفاس الجديدة. وفي الشرق أصبح اتخاذ القـلاع المستقلة عن المدن المنشأة بجوارها مركزا للسلطة فتكررت النماذج، وأصبح بناء القلعة كمقر للسلطة ملازما للمدينة، وظاهرة تميز هذه المدن، وأصبح لكل مدينة قلعتها التي تتخذ لهذا الغرض.

واختلفت اسباب نشأة المدن الاخرى التي لم تكن حواضر الملك أو مـراكز الادارة، وتنوعت هذه الأسباب وارتبطت بعوامل كثيرة اقتصادية وحربية ودينية وغير ذلك، وكانت تبدأ بنواة عمرانية تتطور وتتشكل لتأخذ الملامح نفسها وان اختلفت في بعض التفاصيل ارتباطا بالنشأة أو بالعوامل البيئية والمحلية. وكذلك الحال بالنسبة للمدن التي كانت قائمة قبل الاسلام وأصبحت تحت لواء دولته،

فإنها بدأت تكيف نفسها وتتشكل هي الأخرى بهذا التشكيل نفسه الذي طور نفسه مع متغيرات العصر من فترة الى اخرى.

وتطورت المدن الاسلامية وازدهر عمرانها، وحكم هذا التطور تلك الاسس التي قامت عليها هذه المدن، وبرز كثير من العوامل والظواهر التي أدت إلى هذا التطور، وعكسه كثير من الشواهد العمرانية التي اتسمت بها المدن الاسلامية.

فقد اتسع عمران بعض المدن الاسلامية اتساعا هائلا بفضل توافر المقومات الحضارية التي توفرت لها، ومن المؤشرات التي تدل على ذلك، زيادة عدد سكان هذه المدن زيادة كبيرة في فترة وجيزة، ولا أدل على ذلك من البصرة التي بلغ عدد سكانها في العصر الاموي ثلاثمائة ألف، ويعتقد آخرون انه بلغ ستمائة الف في عهد ولاية الحجاج(٨٨). وبلغ سكان قرطبة في عهد المنصور نصف مليون(٨٩). وتعكس هذه الكثافة السكانية عدد دورها ومنشآتها، فقد اتصلت العمارة بها في أيام بني أمية ثمانية فراسخ طولا وفرسخين عرضا، وذلك في الأميال أربعة وعشرون ميلا في الطول وستة أميال في العرض، . . . . وعدد أرباضها المحيطة بها واحد وعشرون ربضا، كل ربض منها يزيد عرضه وطوله على الميل، وفي كل ربض منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله، ولا يحتاجون إلى غيره. . . وأحصيت دور قرطبة التي بها وبأرباضها أيام الحاجب المنصور محمد ابن ابي عامر فكانت مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف وسبعة وسبعين دارا، وهذه دور الرعية، أما دور الامراء والاكابر والوزراء والرؤساء والقواد والكتاب والاجناد خاصة الملك فستون ألف دار وثلاثمائة دار سوى(٩٠) مصارى الكراء والحمامات والخانات(٩١). وقد دهش الرحالة الاجانب لاتساع مدينة القاهرة وامتداد عمرانها(٩٢). ويعكس وصف ليون الافريقي مدينة فاس ما كان عليه عمران هذه المدينة، ويؤكد ذلك احصاؤه حوانيتها وأسواقها وفنادقها وحماماتها وطواحينها ومنازلها ومساجدها ومدارسها، وما اشتملت عليه من مرافق تدل على مستوى حضاري متقدم. (٩٣)

ويعكس ارتقاء الصناعة مستوى هذا التطور، فها هي دمشق أصبحت في العهد

الاسلامي «جامعة لصنوف المحاسن وضروب من الصناعات وانواع من الثياب الحرير كالخز والديباج نفيس الثمن، عجيب الصنعة، عديم المثال الذي يحمل اليها من كل بلد، ويتجهز به منها كل الآفاق والامصار، وديباجها بديع ديباج الروم، ويقارب ثياب تستر، وينافس أعمال أصبهان، ويسمو على طرز نيسابور، من جليل الثياب المصرية، وبدائع ثياب تنيس، وقد احتوت طرزها من اعمال الثياب النفيسة فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال(٩٤)، وكدمشق اشتهرت كل مدينة بصناعات ذاع صيتها وبلغت الافاق.

وكان لسياسة الحكام الرامية الى العمران اثرها الواضح في تطور هذه المدن وازدياد عمرانها، وتبلور كثير من النظم الاسلامية التي أدت بدورها إلى زيادة عمران المدن. ولا أدل على ذلك من ظهور المدارس كمؤسسات تعليمية، والخانقات والربط والزوايا كمؤسسات دينية، ارتبطت نشأتها بالتصوف. وكان لظهور هذه المؤسسات في نهاية القرن الخامس الهجري وانتشارها في المدن الاسلامية، واهتمام الجهات الرسمية بانشائها دعما لنشر المذهب السني، ووقف الاوقاف عليها أثره البالغ في تطور المدن وازدياد عمرانها حتى نهاية العصر العثماني.

وقد لعبت الأوقاف دورا خطيرا في حياة المدن، وانتشرت انتشارا ملحوظا حتى خصص لها ديوان يعرف بديوان الأحباس أو الأوقاف(٩٥). وقد عرف الوقف كنظام منذ عهد الرسول ـ كما ذكرنا ـ ولكن أثره في عمران المدن الاسلامية اصبح واضحا بصفة خاصة مع بداية القرن السادس الهجري، واستمر بعد ذلك مؤثرا واضحا من المؤثرات التي دفعت إلى تطور عمران المدينة الاسلامية، وأثرت تأثيرا واضحا في تشكيل حياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

والوقف صدقة جارية من أموال الواقف في حياته ويستمر بقاؤها بعد مماته، تخصص لوجوه البر والخير كاعانة الفقراء، أو بناء مسجد، أو قيام مدرسة وما شابه ذلك شريطة بقائه واستمرار هذه الصدقة، وعلى ذلك يكون تحقيق الخير هو

الغرض الأساسي من عمل الوقف، وإن شملت الاوقاف في كثير من الاحيان الصرف على أسرة الواقف(٩٦). وتضمنت أحكام الوقف مشروعية تنميتها واستثمارها بزيادة المباني والاراضي والمباني الموقوفة عن طريق الشراء أو البناء. (٩٧)

والأوقاف بهذا المعنى تستلزم حركة عمرانية تشكل جانبا هاما من حركة العمران في مراكز الاستيطان ومن أهمها المدن. وأقر الاسلام- كما أشرنا- مبدأ الوقف،وأوضح فقهاء المسلمين الأصول التي تتبع عند الوقف، وصنفوا أنواعه وحددوا شروطه. وظهر أثره في عمران المدينة الاسلامية باعتبارها حيز التطبيق لاوجه نشاطه المعمارية، وتطورت أهمية الأوقاف بتطور حياة المجتمع الاسلامي من عصر إلى آخر، ولعبت الاوقاف دورا اختلفت اهميته من عصر الى آخر. فأحيانا كان دورها محدودا وكانت تمثل حالات خاصة حتى نهاية القرن الخامس الهجري، عندما بدأت تظهر متغيرات جديدة تبعها اهتمام كبير بالاوقاف، وتحول الامر من مجرد حالات خاصة الى ظاهرة عامة لعبت دورا خطيرا في تشكيل حياة الكثير من المدن الاسلامية شرقا وغربا.

وتمثل الاوقاف جانبا تطوعيا في عمران المدن عضد مجهودات الدولة في هذه الفترات من تاريخ العمران بالمدن الاسلامية، وشيوعها كظاهرة أصبحت تلعب دورا أساسيا في عمران تلك المدن. ومن المدن التي توضح أثر الأوقاف وعلاقته بعمران المدينة وتعتبر مثالا جيدا على ذلك «مدينة القاهرة»، تلك المدينة التي كانت مدينة ملكية في عهدها الفاطمي، ومن ثم تقلصت الاوقاف فيها إلى تلك الاوقاف التي وقفها الخلفاء الفواطم على طلبة العلم والجامع الازهر بهدف تنشيط الدعوة الشيعية، والاهتمام بالمنشآت الدينية من مساجد ومزارات باعتبارها منشآت موقوفة لله(٩٨)، وبالاضافة إلى هذه المنشآت الخيرية التي تخدم أغراضا مدنية بالقرافة الكبرى، كالسقايات والآبار وغير ذلك، وقفها اصحابها ليستفيد منها القاطنون بذلك الموضع. ويمثل ذلك جانبا تطوعيا سعى الى اكمال المرافق الهامة سعيا وراء الخير والثواب.

وزادت أهمية الوقف وأثره في التخطيط العمراني في المدينة في العصر الأيوبي الذي كان بداية جديدة لانتشار المذهب السني وعودته مذهبا رسميا للبلاد التي كانت تخضع للدولة الفاطمية ،وهو هدف سعت الدولة الى تحقيقه بطرائق مختلفة ومتنوعة، كان من أهمها انشاء منشآت جديدة ذات طابع خاص انشئت لتخرج اجيالا من الفقهاء والمتصوفة سنّيي المذهب، يصبغون الحياة بالصبغة السنية، ويزيلون كل أثر للمذهب الشيعي وهي منشآت تطلب انشاؤها واستمرارها في أداء وظائفها أوقافا كثيرة تدر ريعا يصرف منه على أرباب الوظائف بها، وعلى ترميم مبانيها إذا ما تهدمت واحتاجت إلى اعادة تعمير.

وكان انتشار المدارس والخانقات والربط والزوايا بالقاهرة امتدادا لحركة سنية كبيرة شهد مولدها شرق العالم الاسلامي الذي أحس بخطر انتشار الدعوة الشيعية التي وصلت إلى بغداد نفسها. وتطوع فقهاء المذهب السني بإقامة المدارس في بيوتهم أو انشائها من حر مالهم لإعداد الأجيال القادرة على نشر هذا المذهب ووقوفا أمام تيار الدعوة الشيعية. ثم أعانهم أهل الثراء ممن يؤمنون بذلك إلى أن تبنت الدولة هذا النظام في انشاء المدارس واصبحت المدارس مؤسسات رسمية انتشرت بداية من عهد السلاجقة وتبعتها من بعدهم كل الدول السنية، وأصبحت المدارس ثم الخانقات من المؤسسات الدينية التقليدية بالمدن الاسلامية.

ومما يشير إلى أهمية تضمين المدينة الاسلامية هذه النوعية من المنشآت ما حدث عند اعادة بناء بعض مدن الشام بعد أن هدمتها الحروب، فروعى في تخطيطها الجديد الاهتمام بهذه المنشآت من مدارس والخانقات قبل أي نوعية أخرى من المنشآت، كما يفسر لنا ذلك كثرة المدارس التي أنشأها الايوبيون في القاهرة والتي بلغت نيفا وعشرين مدرسة. (٩٩)

وتبع المماليك سلفهم من الأيوبيين في السياسة نفسها وإن اختلفت الدوافع. فقد كان دافع المماليك اضفاء نوع من الشرعية على حكمهم، وابراز تمسكهم

بالدين الاسلامي وتعاليم المذهب السني، وازدهرت الحياة الدينية ازدهارا كبيرا، وتدعمت مدارس الفقه السني بعد أن تخرجت أجيال عديدة من الفقهاء الذين أثروا الحياة العلمية والدينية في ذلك العصر، وأصبحت القاهرة مركز اشعاع علمي يجذب إليه طالب العلم ومعلمه من أنحاء العالم الاسلامي شرقه وغربه، طمعا في الإفادة والاستفادة، وكان للرعاية التي تمتع بها أصحاب العلم والعلماء ورجال التصوف في ذلك العصر أثرها الكبير في اجتذاب العديد من هؤلاء إلى مصر، ووقف المماليك أوقافا كثيرة يصرف من ريعها على المنشآت الدينية التعليمية من مساجد ومدارس وخانقات وربط وزوايا وغيرها، وعلى من بداخلها من أرباب الوظائف حتى انه يمكن أن يقال إن هذه الرعاية، التي كان مصدرها الأوقاف، هي العامل الرئيس وراء ازدهار الحياة الدينية والتعليمية في ذلك العصر. ولاشك في أن أجيال الفقهاء والشيوخ والطلاب المريدين كان لهم دور بارز في الحياة والعمران داخل القاهرة، فكان تأثيرهم ونشاطهم في شتى مناحي الحياة في ذلك العصر.

والحقيقة التي تجب الإشارة إليها هي أن المماليك اكثروا من وقف الاوقاف والوقف عليها، وكان لهم من وراء ذلك هدف سعوا إليه، وهو تأمين مستقبلهم ومستقبل ذريتهم من خلال هذه الاوقاف. فقد كان لنظام الادارة والاقطاع المتبع في هذا العصر، وكثرة الفتن التي شاعت أثر واضح في خوف المماليك على مستقبلهم ومستقبل ذريتهم المهدد بضياع الاقطاع المرتبط بشغل الوظيفة، والذي يمثل مصدر دخلهم، ووجدوا الحل في انشاء المساجد والربط والزوايا والخانقات والبيمارستانات والأسبلة، ووقف الاوقاف عليها من عقار وارض بما يزيد كثيرا على حاجة مصارف المنشآت الموقوفة، ووقف الزيادة على الذرية. فكثرت المنشآت الموقوفة والموقوف عليها كثرة بالغة(١٠٠). فازداد عمران المدن في الاقاليم التي حكمها المماليك كثرة واضحة بسبب العمران المرتبط بهذا الاتجاه في استغلال الأوقاف.

ومع كثرة الاوقاف ازدادت أهمية ديوان الاوقاف الذي تولى الاشراف عليها

وادارتها(١٠١)، ولاسيما أنه ظهرت حالات عديدة من التحايل ومحاولة الاستيلاء على الاوقاف. واهتم السلاطين بدعم هذا الاتجاه في المحافظة على الاوقاف، وكان لذلك أثره على عمارة الاوقاف ـ وخصوصا ما كان منها عقارا ـ باعادة بنائها وترميمها. وكان لهذه المحاولات المتعددة أثر في عمران المدينة ولاسيما بعدما شاع نظام الاستبدال في الوقف، وبعدما تأثر القضاة بسياسة الترغيب والترهيب التي تعرضوا لها، وكان لذلك أثره على الحركة العمرانية سلبا أو ايجابا مما يبرز أثر الاوقاف في عمارة المدن في هذه الحقبة من تاريخ المدن الاسلامية.

وتبرز أهمية الوقف في المحافظة على المنشآت الموقوفة والموقف عليها مما أدى الى بقاء الكثير من المنشآت الدينية المملوكية والعثمانية الموقوفة. فمن ريع المنشآت الموقوف عليها كان يعاد بناء ما تهدم وترميمه، وفق الوصف الموثق الدقيق الذي نراه مسطورا في كتب الوقف الخاصة بهذه المنشآت. وكان للوقف أيضا اثره في استمرار هذه المنشآت في أداء وظائفها التي أنشئت من أجلها.(١٠٢)

وكان لشروط الوقف أثرها الواضح في اتجاه التعمير في القاهرة وامتداده. فقد كان للحكم الفقهي الذي يقضي بعدم البناء على الأرض الموقوفة أثره المباشر في عدم بناء المماليك «بالقرافة» التي وقفها عمر بن الخطاب للدفن فقط. فاتجهوا لانشاء أضرحتهم إلى منطقة صحراوية شرقي القاهرة أقاموا عليها العديد من الروائع المعمارية التي تشتمل على أضرحتهم، بالاضافة إلى العديد من المدارس والخانقات والرباع وغير ذلك، فلم تكن مدينة للاموات فحسب، ولكنها كانت «مدينة الاموات الحية».

ومع الثراء الاقتصادي ونظرة المماليك للاوقاف كمخرج لتأمين مستقبل ذريتهم كان لابد من الانطلاق الإنشائي في مناطق أصبحت مهيئة لامتداد عمراني متزايد وسريع، فعمرت منطقة بولاق وباب اللوق وامتدت القاهرة شمالا في اتجاه العباسية «الريدانية»، وعمرت ضواحي كسرياقوس التي امتدت إليها عمارة المماليك وأصبحت من ضواحي القاهرة.

وما ينسحب على القاهرة ينسحب على غيرها من المدن الاسلامية شرقا وغربا،

تلك المدن التي انشئت بها المنشآت الدينية والخيرية المختلفة ووقفت عليها أوقاف كثيرة منها ما هو عقار ومنها اراض زراعية، صرف من ريعها على هذه المنشآت فأدت اغراضها، واستمرت في ذلك باستمرار هذه الاوقاف. وهو أمر يبرز أهمية الوقف في تطور عمران المدن الإسلامية.

ولم يتوقف دور الوقف على الامتداد الانشائي للمدن المتمثل في كثرة المنشآت الموقوفة، بل إنه تعدى إلى جوانب اجتماعية أخرى تمثلت في رعاية أهل العلم من شيوخ ومدرسين وطلاب ومتصوفة، وما ناله الأطفال الايتام من رعاية وتنشئة اجتماعية سليمة من خلال ما يجدونه في «مكاتب الايتام» التي انتشر انشاؤها ووقفها ووقف الأوقاف عليها، لتقوم بهذا الدور الذي يؤهل الايتام إلى حياة علمية أكثر تقدما، أو أن يكون مهيئا لتعلم حرفة إذا ما كانت ميوله لا تتفق والارتقاء العلمي. كما أدت البيمارستانات والأسبلة وغيرها من المنشآت الخيرية الموقوفة دورها في تقديم الرعاية الصحية وتقديم الماء دون تكلفة إلى الارتقاء بمستوى حياة المجتمع.

وامتد الوقف إلى نواحٍ أخرى من مناحي الحياة الاجتماعية، فيذكر ابن بطوطه أن من الاوقاف ما خصص لمساعدة العاجزين عن أداء فريضة الحج لتأديتها، ومنها ما خصص لفكاك الأسرى، ومنها ما خصص لابناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويُردُّون إلى بلادهم، وما خصص لتعديل الطرق ورصفها، وما خصص لغسل وتكفين الموتى، بل إن منها ما خصص لدفع عوض عن الأواني التي تكسر تخفيفا عن صاحبها وهو «ما سمي وقف الأواني». من هنا كثرت الأوقاف كثرة واضحة لتعدد مناحي الخدمات التي تقوم بها. وكانت دمشق من أبرز المدن التي تنوعت أغراض الأوقاف فيها، حتى أن ابن بطوطه يذكر: أن الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها». (١٠٣)

ومع هذه الأغراض المتنوعة للأوقاف كثرت أنواع المنشآت لها كثرة واضحة حتى بلغت أكثر من عشرين نوعا، نحصرها في هذه المباني المتمثلة في المكاتب والكتاتيب، و«المياتم»؛ وهي مكاتب مخصصة لرعاية الايتام وتعليمهم. وعادة ما

كانت تلحق بالمنشآت الدينية الكبيرة كـالمدارس والمسـاجد والخـانقات، ودور القرآن، ودور الحديث، ومدارس الفقهاء الشافعية، ومدارس الفقهاء الحنابلة، ومدارس الفقه الجعفري، ومدارس اللغة العربية، ومدارس الطب، والخانقات والربط والزوايا، والمساجـد، والمكتبات، والتـرب والمدافن -التي شـاركت في الحركة التعليمية والدينية مشاركة واضحة- والبيمارستانات ومغاسل ومصليات الأموات وأحواض الدواب والاسبلة وغيرها.

وارتبـطت كثرة هـذه المنشآت المـوقوفـة بكثرة العقـارات الموقـوفة عليهـا، والاهتمام بعمارتها وترميمها وانشائها، لتغل ريعا يكفل مصارف المنشآت الموقوفة وينميها، وتمثلت هذه العقارات الموقوفة في الدور والحوانيت والخانات والوكالات والقياس والرباع والحمامات بالإضافة إلى الأراضي الأخرى. (١٠٤)

ولا شك في أن رعاية المنشآت الموقوفة وكثرة انشائها ورعاية المباني الموقـوفة عليها وإدارة ذلك كله ادارة جيدة تحقق مصلحة الوقف يكشف عن أهمية نظام الوقف وأثره في عمران المدينة الإسلامية خاصة في الفترات التي ازدهرت فيها الأوقاف ابتداء من العصر الأيوبي.

وارتبط تطور عمران المدن الإسلامية أو انحساره بتغير الخريطة السياسية للعالم الإسلامي في العصور المختلفة توحدا تحت راية خـلافة إسـلامية واحـدة، ثم انقساما إلى ثلاث خلافات، ثم تفتتاً إلى دول مشرقية ومغربية، وما صاحب ذلك من أحداث تعرضت لها أقاليم الدولة الإسلامية شرقا وغربا ممثلة في هجمات الصليبيين، ثم التتار، ثم هجمات المسيحيين على الاندلس التي انتهت بفقدها وضياع أرضها، ومن ثم أصبحت مدنها أثرا بعد عين، وقد أثرت هذه الأحداث المختلفة في أفول نجم مدن وانحسار العمران فيها بعض الفترات، في الوقت الذي نشأت فيه وازدهرت بعض المدن الأخرى التي حالفتها ظروف سياسيـة واقتصادية ساعدت على ذلك. ونظرة إلى بغداد ودمشق وحلب والقدس والقاهرة وفاس ومراكش والرباط وقرطبة والزهراء وغيرها من المدن في ضوء هذه الأحداث

تؤكد فعالية تغير الأحداث السياسية واختلاف شكل الخريطة السياسية للعالم الإسلامي على المدن الإسلامية في نشأتها أو تطور عمرانها.

وطور عمران المدن الإسلامية تلك المشاركة التي اتاحها الحكام للعامة في تعمير المدن وتشجيعها، ويبدأ التمهيد لهذه المشاركة من جانب الحكام باختيار المواضع الصالحة لانشاء المدن وفق مواصفات خاصة تشجع على الاقبال على هذه المدن وعمارتها من العامة، ثم في اقطاع العامة الاقطاعات لبدء الانشاء والتعمير، ثم فيما اتبع في جمع القبيلة في مكان واحد حيث إن هذا الجمع دفع القبيلة إلى بذل قدر طاقتها لإعمار موضعها بمستوى يتناسب ومنزلتها. وقد أدى ذلك في النهاية إلى إعمار الخطة إعمارا متكاملا من جهة، وإلى منافسة الخطط الأخرى في ذلك من جهة أخرى، فازداد عمران المدن وتعددت ارباضها، ويشجع هذه المشاركة وإعمار المدن سياسة الاهتمام بانشاء وتجهيز المرافق العامة التي توفر جهد العامة في توفير هذه المرافق، وتدعو إلى المنافسة على إعمار ما حولها رغبة في الاستفادة منها، وتوفر المرافق الأساسية من ماء عذب وأسواق ومساجد ودور قضاء وجسور وطرق وغير ذلك أدعى إلى عمران المدن كما رأينا في تطوير مرافق البصرة.

ومن أنضج أساليب اتاحة الفرصة لمشاركة العامة في عمران المدن هو ما اتبعه الحكام المسلمون من مساعدة في تنفيذ المشاريع الخاصة التي تعم فائدتها على المجتمع ككل. وبدأ الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) هذه السياسة فقد كتب إليه الحارث بن كلدة يخبره: أنه عزم على تنفيذ مشروع لم يسبقه إليه أحد، وأعلمه أن هذا المشروع يعتمد على تربية الخيل، والخيل مهمة في الحرب، والمسلمون في أشد الحاجة إلى مشروع من هذا النوع. ثم ذهب إليه وأخبره أن بالبصرة أرضا ليست في أرض الخراج، ولا تضر أحدا من المسلمين، يمكن أن يستغلها في تنفيذ هذا المشروع. فاستجاب له عمر وأرسل إلى واليه على البصرة، المغيرة بن شعبة، يخبره باستحسانه لمشروع نافع ويقول له: «أعنه على زرعه وخيله، فاني قد اذنت له أن يزرع، وآته أرضه التي زرع، إلا أن تكون أرضا

عليها الجزية من أرض الاعاجم، أو يصرف إليها ماء أرض عليها الجزية، ولا تعرض له إلا بخير والسلام . . »(١٠٥).

وفي اطار هذا التشجيع وتأكيده أقر الخليفة عثمان بن عفان إمكانية مشاركة الدولة في بناء المساكن الخاصة للفئات التي لا تستطيع ذلك بدعم هذه الفئات بالأرض والمال اللازم لذلك. ولا أدل على ذلك من حادثة العباس بن ابي ربيعة الذي اقطعه الخليفة قطعة أرض ليبني عليها دارا، لكنه لم يستطع بناءها، فأمده بمائة ألف درهم ليبنيها، وليتحقق توفير المسكن لواحد من الرعية. وامتدت هذه السياسة في مساعدة الرعية بتوفير الخدمات التي تمكن الأشخاص من تحقيق الانتاج وزراعة الأرض ومعاونتهم في ذلك بما يعود عليهم بالفائدة باعتبارهم جزءا من المجتمع(١٠٦)، فتكاملت سياسة الإعمار تكاملا واضحا نشأ عن مراعاة المجتمع وخدماته ومرافقه ككل، بالإضافة إلى معالجة الحالات الفردية من منظور خاص أيضا. فتطورت المدن الإسلامية وازداد عمرانها في فترات وجيزة إذا ما قيست بتطور غيرها من المدن. (١٠٧)



هوامش الفصل الأول

١ ـ Edited by.Von Grunebaum,The Mislim Town and The Hellenistic Town, 1955, p. 364.

وعبدالجبار ناجي : المرجع السابق، ص ١٤٤.

٢ ـ انظر المدخل التمهيدي ، من ص ٩ إلى ص١٤.

٣ ـ Charles. L. Redman: op. cit. pp. 215-242.

٤ ـ للاستزادة راجع تفصيلا دراسة Witt Fogel. K.A.
The Hydrolic Approach of Pretory of the Tehuacan Valley, vol 4, Choronology and Irrigation. Ed. Mac Neish. R. S. Austin University of Texas Press, 1972

٥ ـ للاستزادة راجع تفصيلا دراسة Child. V. Gordon, Social Evolution, New York, Henry Schumon, 1951.

٦ ـ Carniro Robert L.: A.Theory of the Origin of the State Science169 - pp. 730 - 733.

Diakonof I. M., Socio - Economic Classes in Babylonia and the Babylonian Concept of Social Stratification. In Gesel lschaftsk Lassen in Alten Zweistroml and in den Ongezenden Gebieten - XVII.Rencontre Assyrio - Logique International. Edited by. D. O. Edzard, pp. 41 - 52.

Smith Philip E.L. and T. Cuyler Young, Jr : The Evolution of Early Agriculture and Culture in Greater Mesopotamia : Atrial Model 'In, Population Growth, Anthropological Implication, edited by B. J. Spooner. M. I. T. Press, Cambridge, Massachusetts, 1972.

Gibson McGuire, The Population Shift and the Rise of Mesopotamian Civilization in the Explanation of Culture Change: Model in pre-history: edited by Colin Renfrew, Duckworth, London, 1973.

٧ ـ للاستزادة راجع دراسة Adams. R. Mc C., The Evolution of Urban Society, Chicago: Aldine, 1966.

٨ ـ بيتر فارب : المرجع السابق، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

Mason Hammond : The City in the Ancient World, Harvard, 1972, pp. 6 - 7.

٩ ـ عبدالله بن ادريس : مجتمع المدينة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، نشر جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات، ١٩٨٢ ، ص ١٣٣ ـ ١٤٧ و Janet Abu Lughud. op. cit. p. 133.

Graber Oleg: 'Cities and Citizen' in Islam and Arab World. ed. by. B. Lewis, 1976, p. 89.

١٠ ـ د. خليل السامرائي وثائر حامد محمد: المظاهر الحضارية للمدينة المنورة في عهد النبوة، الموصل، ١٩٨٤ ، ص١٩ .

١١ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، ١٩٦٨ ، جـ٢ ، ص٤٧٩ . والسمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت ١٩٧١، جـ١ ، ص ٥٣٩، جـ٢ ، ص٧٤٧ ـ ٧٤٨، وابن رسته: الاعلاق النفيسة، طبعة ليدن، ص٢٥ .

١٢ ـ د. خليل السامرائي وثائر حامد محمد : المرجع نفسه، ص٢٦ .

١٣ ـ الطبري : المرجع نفسه ، جـ٣، ص ٢٠١ ، ٢١٨ والسمهودي: المرجع السابق، جـ١ ، ص٢٠٦ .

١٤ ـ د. خليل السامرائي وثائر حامد محمد: المرجع نفسه، ص٢٧ .

١٥ ـ د. ابراهيم طرخان: النظام الاقطاعي في الجزيرة العربية في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين ـ بحث القى في الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، تحت الطبع .

١٦ ـ خليل السامرائي وثائر حامد محمد : المرجع السابق، ص١٦ .

١٧ ـ ابن سلام : كتاب الأموال ـ تحقيق : محمد خليل الهراس، (مكتبة التجليات الازهرية) ـ القاهرة ١٩٧٥ ، ص٣٥٧، ٣٥٨ .

١٨ ـ ياقوت : معجم البلدان، طبعة بيروت، دار صادر ودار بيروت للنشر، جـ٥، ص٨٦ .

١٩ ـ السمهودي : المرجع السابق، جـ٢ ، ص٧٥٧ ـ ٧٦٥ .

٢٠ ـ Hathloul : op. cit., p. 32.

ومما تجدر الاشارة إليه أن خطط القبائل في المدينة على عهد رسول الله (ص) لم تكن قبلية خالصة ، بمعنى أن الخطة لا يسكنها إلا القبيلة نفسها ولاسيما أنه نزل بخطط الانصار كثير من المهاجرين، د. عبدالله بن ادريس: المرجع السابق، ص١٧٠ .

٢١ ـ الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص١٨١ .

٢٢ ـ الكتاني : التراتيب الادارية، ط. بيروت ١٩٧١ ، جـ٤، ص٧٧ ـ ٧٨.

٢٣ ـ Xavier de Planhol: op. cit., pp. 15 - 16.

٢٤ ـ السمهودي : المرجع السابق، جـ١ ، ص ٣٢٦، جـ٣، ص ٨٨٨ ـ ٨٩٢.

٢٥ ـ السمهودي : المراجع السابق ، جـ٢ ، ص ٧٤٧ ـ ٧٤٨.

٢٦ ـ ابن سيد الناس : عيون الاثر في فنون المغازي والسير، تحقيق: لجنة حفظ التراث، بيروت ١٩٨٠ ، جـ١، ص٣٥١.

٢٧ ـ خليل السامرائي وثائر حامد محمد: المرجع السلبق، ص٦٥.

٢٨ ـ حسان علي الحلاق، الادارة المحلية الإسلامية: المحتسب، الدار الجامعية بيروت ١٩٨٠، ص١٥.

٢٩ ـ السمهودي : المرجع السابق، جـ٣، ص٨١٤.

٣٠ ـ د. خليل السامرائي وثائر حامد محمد: المرجع السابق، ص ٨٤.

٣١ ـ محمد عبدالستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية بالقاهرة ـ رسالة دكتوراة مقدمة لجامعة أسيوط سنة ١٩٨٠، ص ٧٨ إلى ص٨٢.

٣٢ ـ السمهودي : المرجع السابق ، ص٧٢٥ ـ ٧٣٢.

٣٣ ـ السمهودي : المراجع السابق، جـ٢، ص ٧٢٥ ، ٧٣٢.

٣٤ ـ السمهودي : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٧٣٦ ـ ٧٤٠.

٣٥ ـ المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، دار صادر ـ بيروت، طبعة مصورة بالاوفست عن طبعة بولاق، جـ٢ ، ص٤٧.

٣٦ ـ الطبري : المرجع السابق، جـ٢ ، ص٥١٨، السمهودي: المرجع السابق، جـ٤، ص١٠٩، خليل السامرائي وثائر حامد محمد: المرجع السابق، ص٦٧.

٣٧ ـ السمهودي : المرجع السابق، جـ٣، ص٩٥١ ـ ٩٥٢، ابن سيد الناس: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٨٧.

٣٨ ـ ابن هشام : السيرة، جـ٤ ، ص٢١٩، ابن سيد الناس، المرجع السابق، جـ٢، ص٤١٩، السمهودي: المرجع السابق، جـ٣، ص٨٤٣، ٨٤٤، جـ٤، ص٩، ١٢٦، د. السامرائي وثائر حامد محمد: المرجع السابق، ص٧٣.

٣٩ ـ محمد الفائز : المرجع السابق، ص ١٢٠ ـ ١٢٢.

٤٠ ـ ابن سيد الناس: المرجع السابق، جـ٢ ، ص٣٢٨.

٤١ ـ السمهودي : المرجع السابق، جـ٢ ، ص٧٣٩.

٤٢ ـ ابن سيد الناس : المرجع السابق، جـ٢ ، ص ٢٩٩، جـ٣، ص ٣١٦ ـ ٣١٧.

٤٣ ـ السمهودي : المرجع السابق، جـ٢، ص٦٩٣، جـ٣، ص٩٦١، عبد القدوس الانصاري: آثار المدينة المنورة، ص١٣١ ـ ١٣٢. خليل السامرائي وثائر حامد محمد :

المرجع السابق، ص٧٠.

٤٤ ـ السمهودي : المرجع السابق، جـ٣، ٧٨٠، ابن سيد الناس، المرجع السابق، جـ١، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨، خليل السامرائي وثائر حامد محمد: المرجع السابق، ص٧١.

٤٥ ـ ابن تيميه : المنتقى، نشر الرئاسة العامة لادارات البحوث والارشاد والافتاء السعودية، جـ٢، ص٣٧١، ابن الرامي : المرجع السابق، ص٣٩٠.

٤٦ ـ صالح لمعي مصطفى: المدينة المنورة تراثها المعماري، ص ٥٧.

٤٧ ـ د. خليل السامرائي وثائر حامد محمد: المرجع السابق، ص٧٠.

٤٨ ـ ابو يوسف: الخراج، ص٦٥، ابن زنجويه : كتاب الأموال، تحقيق : د. شاكر ذيب فياض ـ نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ـ السعودية، ١٩٨٦، ص٦٣٦ وما بعدها.

٤٩ ـ ابن سلام : كتاب الخراج، ص ٣٤٧، أبو يوسف: المرجع السابق، ص٦٣، الماوردي : المرجع السابق، ص١٨١١.

٥٠ ـ أبو يوسف: المرجع السابق، ص٦٤، ابن زنجويه: المرجع السابق، ص ٦٤٤.

٥١ ـ د. ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، سلسلة المكتبة العربية ـ نشر وزارة الثقافة بالاشتراك مع المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم بالقاهرة، ١٩٦٨م، ص١٣ ـ ٦٥.

٥٢ ـ لم ترد كلمة وقف في القرآن الكريم، ولا في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن يفهم من تفسيرات الفقهاء أن الوقف صدقة جارية من أموال الواقف في حياته، ويستمر بقاؤها بعد مماته، د. حياة الحجي: السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده ـ مكتبة الفلاح، الكويت ١٩٨٢، ص٤٥)، وهو ما ينطبق تماما مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» (محمد أحمد دهمان : في رحاب دمشق ـ دار الفكر، ١٩٨٢، ص٣٠٨).

٥٣ ـ يقسم بعض الباحثين المدن الإسلامية إلى نوعين رئيسين من المدن، مدن ذاتية نمت وتطورت عبر فترات تاريخية طويلة لعدة ظروف تتعلق بموقعها الجغرافي ومكانتها التجارية لكونها على طرق النقل والتجارة، ومدن مخلوقة كان انشاؤها مرتبطا بأمر من الدولة أو الأمير كي تكون عاصمة للدولة أو مقرا للأمير، وقد يرتبط وجود هذه المدينة بالدولة أو الأمير، وقد بدأ هذا التقسيم بوتي Pauty، ثم عرج عليه ليسنر Lassner عندما تحدث مدن الامصار (عبدالجبار ناجي : المرجـع السابق، ص١٤٧، J. Lassner: The Topography of Baghdadin Early Middl Ages, Detroit, 1970, p. 164.

٥٤ ـ مصطفى الموسوي : المرجع السابق، ص١٠٣ .
٥٥ ـ عبدالعزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، دار الشروق ـ بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٤، ص٧٦ ـ ٨٧.
٥٦ ـ الماوردي : المرجع السابق، ص ٢٠٣ .
٥٧ ـ البلاذري : فتوح البلدان، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ص ٣٤٢.
٥٨ ـ البلاذري : المرجع نفسه، ص ٣٤٥.
٥٩ ـ عبدالجبار ناجي : المرجع السابق، ص ٦٢.
٦٠ ـ عبدالجبار ناجي: المرجع السابق، ص ٦١.
٦١ ـ عبدالجبار ناجي : المرجع السابق، ص٦٣.
٦٢ ـ الطبري : المرجع السابق، ص٢٤٩ .

Hathloul : op. cit., p. 36.

٦٣ ـ لعله يقصد الدهماء أي عامة الناس. وفقا للسياق.
٦٤ ـ الطبري : المرجع السابق، ص٢٤٨٩ ـ ٢٤٩٠ وكاظم الجنابي: خطط الكوفة، ص٧٤.
٦٥ ـ اليعقوبي: البلدان ، ص ٩٥ ـ ٩٦.
٦٦ ـ الطبري : المرجع السابق ، ص ٢٤٩١.
٦٧ ـ ابن عبدالحكم : فتوح مصر والمغرب، القاهرة ١٩٦١، ص٦٩٧.
٦٨ ـ في هذا تقليد لما كان بالمدينة المنورة حيث إن الرسول جعل منازل أصحابه وخصوصا المهاجرين بجوار المسجد. Hathloul: op. cit. p. 41.
٦٩ ـ المقريزي : خطط، جـ١، طبعة بولاق، ص ٢٩٧.

٧٠ ـ Guest A. R. : The Foundation of Fustat and the Khittas of That Town, J. of R.A.S. of Great Britain and Ireland (January, 1907, p. 83.

٧١ ـ Guest, op. cit., p. 77.

٧٢ ـ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار، طـ. بيروت، ص ١٩، ص٣٦.

٧٣ ـ Hathloul : op. cit., p. 40.

٧٤ ـ ابن الربيع: المرجع السابق، ص٢١.
٧٥ ـ عبدالجبار ناجي : البصرة مراحل تأسيسها وتطورها، ص٦١. و F. Benet: op. cit., p. 182.

٧٦ ـ Mason Hammond : op. cit., p. 392

٧٧ ـ السيوطي : حسن المحاضرة، القاهرة ١٢٩٩هـ، جـ١، ص ٨١.

٧٨ ـ Hathloul : op. cit.,

٧٩ ـ المقريزي : جـ١ ، ص٢٩٧ ، جـ٢ ، ص ١٠٨ وما بعدها.

٨٠ ـ عبدالعزيز الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، دار الشرق ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ص٨٠ .

٨١ ـ عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص٨١ .

٨٢ ـ مصطفى الموسوي : المرجع السابق، ص ٢٧٦ ـ ٢٩٢ .

٨٣ ـ الدوري : المرجع السابق، ص٨٥.

٨٤ ـ بحشل : تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦ ، ص٣٨.

٨٥ ـ بحشل : المرجع السابق، ص ٣٩ .

٨٦ ـ AL-Hathloul, op. cit., p. 52.

٨٧ ـ G. Lassner, op. cit., pp. 138 - 139.

٨٨ ـ سليمان عيسى : المرجع السابق ، ص ٤٨ .

٨٩ ـ ريسلر: المرجع السابق، ص٥٥ .

٩٠ ـ «مصرية» حجرة صغيرة أعلى البيت أو الدكان.

٩١ ـ حسين مؤنس : وصف جديد لقرطبة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ـ مجلد ١٣، ١٩٦٥ / ١٩٦٦، ص ١٦٧ ـ ١٦٩ .

٩٢ ـ عبدالرحمن زكي : القاهرة تاريخها آثارها، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٤ .

٩٣ ـ ليون الافريقي: وصف افريقية، ترجمة د. محمد حجي، د. محمد الأخضر، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣، ص٣٢١: ٢٤٩ .

٩٤ ـ صلاح المنجد . دمشق في نظر الأندلسيين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، مجلد ٦ سنة ١٩٥٨، ص٥٤٢ .

٩٥ ـ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ١٠، ص٤٥٢، ٤٥٣، المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦، وحياة ناصر الحجي: السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، نشر مكتبة الفلاح، ١٩٨٣، ص٥٧ ـ ٧١ .

٩٦ ـ حياة الحجي: المرجع السابق، ص٤٥ .

٩٧ ـ وثيقة وقف برسباي ٨٨٠ أوقاف.

٩٨ ـ المقريزي : خطط، حـ٢، ص ٢٩٥ .

٩٩ ـ أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها، جـ٢، ص ٥١ وما بعدها.

١٠٠ ـ ابن الأزرق: المرجع السابق، جـ٢، ص ٣٤٥.

١٠١ ـ انظر حياة الحجي : المرجع السابق، ص٤٩ك ص ٦٩.
١٠٢ ـ محمد عبدالستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية بـالقاهـرة ـ رسالـة دكتوراة ـ جامعة أسيوط سنة ١٩٨٠، ص ٨٨، ص٨٩.
١٠٣ ـ ابن بطوطه : الرحلة، ص ٦٣ ـ ٦٦.
١٠٤ ـ محمد أحمد دهمان: في رحاب دمشق؛، دراسات عن أهم اماكنها الأثرية ومقالات عن أهم حوادثها المجهولة وابحاث ثقافية، نشر دار الفكر، سنة ١٩٨٢، ص٣٠٨ ـ ٣١٢.
١٠٥ ـ البلاذري: المرجع السابق، ص ٣٤٥.
١٠٦ ـ محمد السيد الوكيل: المرجع السابق، ص ١٢٨ ـ ١٣٠.
١٠٧ ـ عبدالجبار ناجي: المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية، ص١٥٩.



الفصل الثاني

تخطيط المدينة الإسلامية

تخطيط المدينة هو عملية تحديد وتعريف أفضل طريقة لتحقيق أهداف معينة، ثم اختيارها وفقا لاعتبارات معينة، في ظل الموارد المحدودة والقيود التي تفرضها الظروف السائدة في المجتمع، أو أنه عملية ضبط البيئة الطبيعية والبشرية من أجل استخدام أفضل الموارد البيئية، وبالتالي فإن هناك محاولات كثيرة للتخطيط منها التخطيط الاقتصادي والتخطيط الاجتماعي والتخطيط العمراني.

وتخطيط المدينة بهذا المفهوم يختلف عن خطتها، فالخطة تعني مساحة من سطح الارض الكروي، نقلت تفاصيلها على لوحة مستوية وفق إحدى طرائق الاسقاط المناسبة بمقياس رسم كي يسمح بظهور تفاصيلها، مثل الطرق وتقسيمات المباني والميادين إلى آخره، وإذا كان هذا تعريفا عاما للخطة فـإنه بالنسبة للمدينة يمكن أن يعني الشكل الذي تبدو عليه من خلال انتظام شوارعها وميادينها وتجمعاتها السكنية، وفق نظام معين، يعطيها شكلا حضاريا يختلف عن غيرها من المدن التي تنمو وفق خطة أخرى(١)، ويعني ذلك أن الخطة تقترن بالتركيب العمراني فقط، بينما التخطيط يشمل كل ما يتعلق بالمدينة من الناحية الطبيعية والحضارية والسكانية والعمرانية والاقليمية.(٢).

واختلفت الأهداف التي أنشئت من أجلها المدن الإسلامية، فمنها ما بدأ على هيئة معسكرات حربية، ثم تطور إلى هيئة مدينة كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، ومنها ما اتخذ لأغراض ادارية كواسط، ومنها ما انشىء كعواصم أو حواضر للدول المتتابعة كبغداد والقاهرة وفاس وغيرها، ومنها ما كان في بدايته مناطق ارتكاز تحصينية للدفاع، وبمرور الزمن غلب عليها الطابع المدني وتحولت الى مدن كالرباط والمونستير ومجريط «مدريد» وغيرها(٣)، ومنها ما نشأ ونما مرتبطا بعوامل دينية كالنجف وكربلاء والكاظمية وغيرها، ورغم تأثر التخطيط بهذه

العوامل المختلفة تأثرا واضحا ولاسيما في مراحل النشأة الأولى، إلا أنه بصفة عامة يقوم على محاور أساسية توجهه توجيهـا إسلاميـا واضحا صـاغ تخطيط المـدينة الإسلامية صياغة مميزة، وجعلها رغم اختلاف أقاليمها وعصورها تتسم بسمات عامة واحدة.

وكانت الرؤية الإسلامية في تخطيط المدن مراعية لجوانب التخطيط المختلفة، سواء كانت هذه الجوانب عمرانية أو اقتصادية او اجتماعية، ولا يعمم عليها ما يذكره بعض الباحثين من أن «الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لم تكن في اعتبار المخططين للمدن في الحضارات القديمة، وان الاهتمام بهذه الجوانب حـديث العهد». (٤)

ويعكس التخطيط المادي للمدينة الإسلامية المحاور المختلفة التي قام عليها تخطيط المدينة وجوانبه المختلفة. ويبدأ التخطيط باختيار الموقع Situation ونعني بذلك موقع المدينة وعلاقتها بما يحيط بها. وأثر في اختيار مواقع المدن الإسلامية عوامل مختلفة، اختلفت طبيعتها من مـدينة إلى أخـرى ولاسيما تلك العـوامل المرتبطة بالنواحي الحربية أو السياسية، واتفقت في توافر شروط أساسية وجب توافرها بصفة عامة في اختيار اي موقع. وقد أشار ابن الربيع إلى هذه الشروط وحددها بستـة شروط هي «سعـة المياه المستعـذبة، وإمكـان الميرة المستمـدة، واعتدال المكان وجودة الهواء، والقرب من المرعى والاحتطاب»، وتحصين منازلها من الأعداء والذعـار، وأن يحيط بها سـور يعين أهلهـا»(٥). ويتردد ذكـر هذه الشروط بصيغة أو بأخرى فيها ورد بالمصادر الجغرافية، التي تتحدث عن مواقع المدن وصفاتها الحسنة، مما يؤكد عمق الإدراك بهذه المعايير والشروط التي تميـز المواقع الصالحة لإنشاء المدن، فيذكر أبو ذرع: ان «أحسن مواضع المدن أن تجمع بين خمسة أشياء وهي: النهر الجاري، والمحراث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان إذ به صلاح حالها، وأمر سبلها، وكف جبابرتها». ويؤكد على تطبيق هذه الشروط في إحدى المدن الإسلامية التي كان يتحدث عنها، وهي فاس فيذكر أنها «جمعت هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها، وزادت

عليها بمحاسن كثيرة، فلها المحراث العظيم سقيا وبعلا، على كل جهة منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب، وعليها المحطب في جبل بني بهلول الذي في قبلتها، يصبح كل يوم على أبوابها أعمال حطب البلوط والفحم ما لا يوصف كثرة، ونهرها يشقها نصفين ويتشعب في داخلها أنهارا وجداول وخلجانا، فتخلل الأنهار ديارها وبساتينها وجناتها وشوارعها وأسواقها وحماماتها، وتطحن به أرحاؤها، ويخرج منها وقد حمل أثقالها وأقذارها ورماداتها» . (٦) وقد أشار كل من ابن خلدون وابن الازرق ـ في القرن التاسع الهجري ـ إلى هذه الشروط فذكرا: أن ما تجب مراعاته في أوضاع المدن أصلان مهمان، دفع المضار وجلب المنافع»، وفصلا تفصيلا كل أصل منهما، بما يتضمن هذه الشروط تفصيلا مستفيدا من التجربة التي تبلورت بعد إنشاء العديد من المدن الإسلامية طيلة هذه القرون.

وتوفر الماء شرط أساسي في اختيار مواقع المدن فعليه تقوم الحياة، وتوفر الماء يأتي من مصادر مختلفة أهمها الأنهار التي تمثل موردا منتظما للماء، «وسعة الماء» كشرط أساسي من شروط اختيار مواقع المدن، تعني وفرته للوفاء بحاجة السكان وتفيض، وفي ذلك مراعاة للنظرة المستقبلية لازدياد متوقع في عمران المدينة، وتسهل أيضا عملية التخطيط والتنفيذ لتوصيله إلى مرافق المدينة وتكويناتها المعمارية المختلفة، ويضمن الشرط أيضا «عذوبة الماء»، أي صلاحيته للشرب بالإضافة إلى الأغراض الأخرى، ويكفي أن نشير إلى أن ملوحة ماء البصرة حدت من عمرانها، وكانت سببا في شكوى سكانها إلى أن حفرت لها الأنهار التي تزودها بالماء العذب ـ كما أشرنا ـ .

أما الشرط الثاني وهو «امكان الميرة المستمدة» فهو يفسر في إيجاز بليغ النظرية الاقتصادية في التخطيط، فتوفير الغذاء مطلب أساسي لنشأة المدن واستمرار حياتها، ولم يحدد الشرط سبيلا لتحقيق هذا المطلب، وفي ذلك ما يشير إلى امكانية توفر ذلك بأوجه مختلفة، فكانت المدينة تعتمد على إقليمها الذي يمدها بما تحتاج إليه، أو أن تحصل على ما تحتاج إليه عن طريق التجارة والتبادل، أو غير ذلك من الأساليب التي أشارت إليها نظريات نشأة المدن. ومن هنا كانت علاقة المدينة

باقليمها أو بغيرها من المدن علاقة أساسية لتحقيق هذا المطلب.ومن هنا عُدّت «دراسة المدينة ناقصة ما لم تدرس علاقة المدينة باقليمها وريفها المحيط بها، فهناك تفاعل وثيق بين المدينة وريفها يتكون من مجموعة الأفعال وردود الأفعال المتبادلة بينهما، مما يخلق مركبا إقليميا متميزا»(٧).

وفي ضوء ذلك كان اختيار مواقع المدن مرتبطا غالبا بالاقليم، وبالطرق التجارية الهامة التي تمكنها من توفير احتياجاتها، وتصدير انتاجها ولاسيما أن المدينة لا يمكنها أن تعيش على الوظائف المحلية فقط، فلو كانت المدينة تعيش بلا وظائف إقليمية لوجب أن تكفي نفسها بنفسها من حيث الخام والإنسان، ولكانت بذلك مجرد وحدة سكنية بحتة، أو خلية اكتفائية(٨). وقد ازدهر كثير من المدن الإسلامية معتمدة على أقاليمها كبغداد والقاهرة وفاس ومراكش وقرطبة والمريّة وغيرها. (٩).

وكذلك كانت التجارة من العوامل الهامة التي أدت إلى نشأة المدن، واعتبرت من المعايير التي تميزها. ومن هنا برزت أهمية اختيار موقع المدينة على الطرق الرئيسة، وتوسط هذا الموقع ليقرب من أطراف التبادل الأخرى، فينعكس ذلك على اقتصادها رخاء وثراء. ويكفي أن نشير إلى ما فكر فيه الخليفة المنصور عند اختيار موقع بغداد، فقد وضع في اعتباره أهمية الطرق التي تؤدي اليها باعتبار أن لذلك أثره الخطير في حياتها الاقتصادية، فقد أشارت الرواية التاريخية إلى أنه عندما خرج يرتاد الأماكن رأى موضعا طيبا. فقال لجماعة من أصحابه: «ما رأيكم في هذا الموضع؟ فقالوا: ما رأينا مثله، هو طيب صالح موافق. قال: صدقتم هو هكذا، ولكنه لا يحمل الجند والناس والجماعات، إنما أريد موضعا يرتفق الناس به، ويوافقهم مع موافقته لي، ولا تغلو عليهم فيه الأسعار، ولا تشتد فيه المؤنة، فاني ان اقمت في موضع لا يجلب إليه من البر والبحر شيء غلت الأسعار، وقلت المادة واشتدت المؤنة. (١٠).

وأشارت الرواية إلى أنه عندما جاء إلى موقع بغداد قال: هذا موقع معسكر

صالح ، وهذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء ، يأتينا كل ما في البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك ، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة(١١) وما حـول ذلك ، فنـزل وضرب عسكـره على الصـرآة وخط المدينة» ، ومما أكد اختياره لهذا الموقع «أنه بين أربعة طساسيج مخصبة ، وأنه خير موضع لوصول التجارة من البلاد في المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، وأنه قريب من البر والبحر والجبل»(١٢) فقرر اختياره .

وموقع القاهرة كذلك ـ ومن قبلها عواصم مصر الإسلامية الفسطاط والعسكر والقطائع ـ أملته الظروف الجغرافية ، وحددته عند ملتقى طرق عدة ، ذلك أن طريقين رئيسين ، يعتبران من أهم طرق العالم القديم ، كانا يلتقيان عنده ، وكان أحدهما يتجه من الشرق إلى الغرب مارا ببغـداد ودمشق والواحـات الموجـودة في الصحراء العربية وليبيا وبلاد المغرب ، والآخر كان يصل البلاد الأوروبية الواقعة على شواطىء البحر المتوسط ببلاد السودان وشبه الجزيرة العربية والهند والشرق الأقصى ، ولم تستطع هذه الصحاري المحيطة بالقاهرة أن تحد وتقلل من نشاط تدفق الناس عليها ، فأصبحت خدمة القوافل التجارية المارة بالقاهرة من أهم وظائفها ، فعندها تتجمع ثم تبدأ بعد ذلك في الانتشار في مختلف مدن وبلدان العالم القديم . وكذلك أثبت التاريخ أن جوهر كان موفقا في اختيار موقع القاهرة ، حيث يضيق عنده مجرى النيل ، وحيث تتخلل الجزر المكان الذي تشرف عليه القاهرة ، والتي هي أشبه بممر طبيعي يسهل للناس الانتقال من ضفة إلى أخرى ، ويهون عليهم أمر ذلك كثيرا . (١٣) .

وكانت الموصل كما يذكر ياقوت «محط الركبان ومنها يتوصل الى جميع البلدان . فهي باب العراق ، ومفتاح خراسـان ، ومنها يقصـد إلى اذربيجان ، وكثيـرا ما سمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاثة ، نيسابور لأنها باب الشرق ، ودمشق لأنها باب الغرب ، والموصل لأن القاصد من الجهتين قلما لا يمر إلا بها . . وما عدم من خير في بلد من البلدان إلا وجد فيها» . (١٤) .

وقد لاحظ ابن غالب الأندلسي أهمية موقع المرية على البحر المتوسط في ازدهار

التجارة فقال: «هي باب الشرق ومفتاح التجارة والرزق» وأكد كل من ابن سعيد وياقوت هذا المعنى(١٥). وكان ازدهار سلجماسة وثراء أهلها بسبب وقوعها على طريق غانة التي هي معدن الذهب». (١٦).

وكان لتوسط موقع المدينة بين مدن الأقليم الأخرى أو الأقاليم المجاورة أثره الواضح في تحديد اختياره، ولا أدل على ذلك من بغداد والقاهرة، وشيراز التي لاحظ المقدسي أنها تدين بأوليتها كمدينة إلى موقعها المتوسط، فهي كما يقول: على بعد ستين فرسخا من الحدود على اربع نقاط من البيكار، وعلى بعد ثمانين فرسخا من كل زاوية من المقاطعة»، أما ياقوت فقد شبه المدينة «ببطن الأسد»، بمعنى أن البضائع تجلب إليها من جميع النواحي، وهناك شبكة من الطرق تصل شيراز بهرمز واصفهان وكاشان والسلطانية وكرمان. (١٧)

وامتد تأثير الطرق المؤدية للمدينة في تحديد اتجاهات أبوابها، ولا أدل على ذلك من بغداد التي بنى لها أربعة أبواب، فإذا جاء أحد من الحجاز دخل من باب الشام، وإذا جاء أحد من الأهواز والبصرة وواسط واليمامة والبحرين دخل من باب البصرة، وإذا جاء الجائي من المشرق دخل من باب خراسان(١٨). وكذلك وجدت الأبواب الرئيسة في أسوار القاهرة، في سوريها الشمالي والجنوبي وهما الاتجاهان الرئيسان في حركة المرور القادم إليها أو الخارج منها ارتباطا بحركة المرور في الوادي كله.

وحددت أهمية الطرق البحرية مواقع كثير من المدن الإسلامية، وإذا كان الاتجاه في بداية الأمر في اختيار مواقع المدن بعيدة عن ساحل البحر خوفا من اغتيال الأعداء لها، كما حدث في البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، (١٩) فانه بعد أن أصبح للمسلمين قوة بحرية يعتمد عليها في حماية مدن السواحل، اتجه المسلمون إلى اختيار المواقع الملائمة لاقامة مدنهم على السواحل، ولا أدل على ذلك من تلك المدن العديدة التي أقامها المسلمون على ساحل الشمال الافريقي والاندلسي، ومن أمثلتها البارزة المَهْدِيّة والمريّة.

واستتبع تخطيط مدن الموانىء الاهتمام بها بتوفير المراسي الصالحة الآمنة لرسو السفن، ولا أدل على ذلك من مدينة المهدية التي نقرت مرساها في حجر صلد يسع مائتي مركب، وعلى طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة حديد، إذا أريد ادخال سفينة ارسل الحراس أحد طرفي السلسلة لتدخل الخارجة ثم يمدها(٢٠) وكذلك اهتم بانشاء الأرصفة التي تسهل عملية نقل البضائع والركاب كما حدث في بغداد وقرطبة وعكا(٢١) وغيرها، وهناك من المدن الساحلية ما لم تكن مراسيها صالحة تماما فارتبطت بمدن أخرى قريبة منها لتكون بمثابة الميناء الصالح لها كمرباط «وهي مدينة بين حضرموت وعمان، وهي فرضة ظفار لأن ظفار مرساها غير جيد. فيها اللبان يحمل منها الى سائر البلدان وهي غلة للملك».

ويعني ذلك ان اختيار مواقع المدن الإسلامية ارتبط بظروف العصر الذي انشئت فيه، فمنها ما انشىء الى الداخل ومنها ما كان ساحليا، ولم تكن كلها إلى الداخل كما يعتقد بعض الباحثين الذين اتجهوا الى الربط بين كون المدينة ميناء وكبر حجمها وامتداد عمرانها (٢٢).

والشرط الثالث الذي حدده ابن الربيع لاختيار مواقع المدن هو «اعتدال المكان وجودة الهواء»(٢٣). وفي هذا الشرط ما يؤكد على أهمية المناخ والاعتبارات الصحية في اختيار المسلمين لمواقع مدنهم. ولما كانت المدينة مظهرا من مظاهر التفاعل بين الانسان وبيئته الطبيعية، ولما كان المناخ عنصرا من عناصر هذه البيئة(٢٤) فإن إدراك المسلمين أهميته في اختيار مواقع مدنهم يعكس مستوى حضاريا متقدما.

واستفاد الحكام من مشورة الحكماء في اختيار المواقع التي يتوفر فيها هذا الشرط من اعتدال المكان وجودة الهواء «فاختاروا افضل ناحية في البلاد، وأفضل مكان في الناحية، وأعلى منزل في المكان من السواحل والجبال ومهب الشمال، لأنها تفيد صحة أبدان أهلها وحسن أمزجتها، واحتزوا من الآجام والجزائر وأعماق الأرض، فإنها تورث كربا وهماً(٢٥)، وفي هذا ما يدلل على الربط الواعي بين

المناخ وجودة الهواء، وبين الحالة الصحية والنفسية للإنسان الذي تتأثر حياته ونشاطه بذلك تأثرا واضحا. وفي وصف القزويني لمدينة اصفهان ما يعكس ذلك من منظور تطبيقي، حيث يذكر: «أنها «مدينة عظيمة من أعلى المدن ومشاهيرها، جامعة لاشتات الأوصاف الحميدة من طيب التربة، وصحة الهواء، وعذوبة الماء، وصفاء الجو، وصحة الأبدان، وحسن صورة أهلها، وحذقهم في العلوم والصناعات، حتى قالوا كل شيء استقصى صناع أصفهان في تحسينها، عجز عنها جميع البلدان، قال الشاعر:

لست آسى من اصفهان على شيء سوى مائها الرحيق الزلال
ونسيم الصبا ومنخرق الريح وجو صاف على كل حال(٢٦)

ويؤكد القزويني مرة اخرى على الربط بين جودة الهواء وأثرها في الحالة النفسية للانسان فيذكر في حديثه عن الطائف أنها طيبة الهواء شمالية، ربما يجمد ماؤها في الشتاء. قال الأصمعي: دخلت الطائف وكأني أبشر، وقلبي ينضح بالسرور، ولم أجد لذلك سببا إلا انفساح جوها وطيب نسيمها». (٢٧)

وعُدَّت « جودة الهواء » من الميزات التي أشاد بها الجغرافيون المسلمون في حديثهم عن الصفات الحسنة للمدن، ومنهم من دلل على ذلك بأدلة عدت من المقاييس التي كانت تعتبر في معرفة طيب هواء الموقع أو فساده. فقد ذكر القزويني مثلا في حديثه عن صنعاء مدللا على صحة هوائها ان: «اللحم يبقى بها أسبوعا لا يفسد»(٢٨)، وذكر عن طليطلة أنه«من طيب تربتها ولطافة هوائها تبقى الغلات في مطاميرها سبعين سنة لا تتغير»(٢٩)، وعندما تحدث عن أصفهان ذكر: أنه لطيب هوائها «يبقى بها التفاح غضا سنة. والحنطة لا تسوس، واللحم لا يتغير». (٣٠)

ومما يشير إلى أهمية الهواء وجودته في التأثير على الصحة ما لاحظه الخليفة عمربن الخطاب على أفراد الجيش الاسلامي بعد فتح المدائن والنزول بها، وما أصابهم من خور وضعف فأمرهم بعدم سكنى هذه المدينة والانتقال الى موضع آخر يوافقهم، وقال قولته المشهورة: «إن العرب كالإبل لا يصلحها إلا ما يصلح

الإبل» .(٣١)، وكان اختيار الحجاج لموقع واسط بعد التأكد من طيب هوائه، فقد ارسل رجلا ليتأكد من ذلك، فذهب الرجل الى قرية يقال لها واسط القصب، فبات بها واستطاب ليلها، واستعذب انهارها، واستمرأ طعامها وشرابها، فكتب إلى الحجاج بالخبر، ومدح له الموضع. ولإقرار اختيار الموقع المقترح ارسل الحجاج الاطباء للتأكد من صحة ما أخبره به، ففحصوا الموضع، وجالوا في مواضع اخرى غيره ولكنهم رجعوا وقالوا: ما أصبنا مكانا أوفق من موضعك هذا، فهو حفوف الريح واثق البرية .(٣٢)

وكان من وسائل اختيار جودة الهواء المبيت ليلة أو أكثر بالمكان، وفي أوقات مختلفة، كما كان المسلمون يسترشدون بأهل المكان وسؤالهم عن جودة الهواء فيه. ثم يقررون اختيار الموقع.

وعند اختيار موقع بغداد كان الخليفة المنصور حريصا على الاطمئنان على أحوال الموقع الصحية، وكلف بعض رجاله بالمبيت في موضع المدينة ليدرسوا أحواله، فلما انتهوا من مهمتهم قدموا على المنصور وأجمعوا على أفضلية المكان .(٣)

وتختلف طبائع البشر وقدرتهم على التكيف مع الظواهر المناخية التي تختلف من إقليم إلى آخر، بل من فصل إلى آخر، ولا أدل على ذلك من ذلك الهزال الذي أصاب الجند الفاتحين عندما استقروا بالمدائن، ولاحظ الخليفة عمر ذلك فأمرهم بالانتقال إلى مواضع أخرى تتفق وطبيعتهم. وربما تقتصر شدة العوامل المناخية على فترة محددة من العام، وتم التغلب على ذلك بانتقال بعض أهل المدن إلى خارجها صيفا لاشتداد الحرارة، وعدم القدرة على تحملها. ومنهم من بقى وكيّف مسكنه مع طبيعة المناخ بوسائل اختلفت اساليبها واشكالها من مدينة إلى أخرى متأثرة بظروفها البيئية والطبيعية.

ولجودة الهواء أو فساده علاقة وطيدة بانحسار الأمراض أو انتشارها، ومايمس مباشرة النواحي الصحية للمجتمع المقيم فيها، وقد أشارت إلى ذلك مصادر

التراث الاسلامي، مادحة تلك المدن التي تتميز بطيب هوائها الذي لـه صلة مباشرة بقلة الآفات والحشرات التي تنقل الأمراض، ولا أدل على ذلك من وصف القزويني لصنعاء: بأنها «قليلة الآفات والعلل، قليلة الذباب والهيام، إذا اعتل انسـان في غيرهـا ونقل إليهـا يبرأ، وإذا اعتلت الابـل وأرعيت في مـروجهـا تصح»(٣٤) وقد أشار كل من ابن خلدون وابن الازرق إلى أهمية اعتبار جـودة الهواء في اختيار مواقع المدن، بعيدة عن مناطق ركـوده الذي يساعد على تعفن الاجسام، وانتشار الحميات، «فإذا تخللها الريح ونفثت وذهب بها يمينا وشمالا، خبث شأن العفن ومرض الحيوان منه». (٣٥)

مما سبق يتضح أن « اعتدال المكان، وجودة الهواء»، كانا شرطا معتبـرا في اختيار مواقع المدن، واهتم به الحكام القائمون على انتشار المدن الاسلامية وانتقد المفكـرون المسلمون الحيـدة عنه، أو إهمـاله رغبـة في التقويم والاستفـادة من التجربة.

وقد أثر المناخ تأثيرا مباشرا وفعالا في تخطيط التكوينات المعماريـة للمدينـة الإسلامية، كما كان له أثره الواضح في تخطيط شوارعها، وتحديـد اتجاهـاتها، وتشابهت هذه التأثيرات في معظم المدن الاسلامية، سيما أن أغلبها يقع تقريبا في المنطقة الحارة، فتلاصقت المباني وتدرجت مقاييس الشوارع وأصبح الفناء عنصرا رئيسا في تخطيط التكوينات المعمارية المختلفة، وأخذت الواجهات والمظلات والعناصر المعمارية الأخرى المتصلة بالتهوية والاضاءة أنماطا متشابهة، فتكررت أمثلتها في المدن الاسلامية المختلفة.

ويذكر ابن الربيع شرطا رابعا وهو: «القرب من المرعى والاحتطاب»(٣٦)، ويفصل ابن خلدون وابن الازرق هذا الشرط تفصيلا يوضح أهميته: فيذكران أن من أصول اختيار مواقع المدن «جلب المنافع» ومن أصول جلب المنافع (طيب مرعى السائمة وقربه، إذ لابد لكل ذي قرار من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ومتى كان المرعى الضـروري لها كـذلك تسهـل الحاجـة إليه وهي

ضرورية» ،ومنها قرب المزارع الطيبة، لأن الزرع هو القوت، وكونها كذلك أسهل في اتخاذه، وأقرب في تحصيله، ومنها: «الشجر للحطب والخشب فالحطب لعموم البلوى به في وقود النيران، والخشب للمباني، وكثير مما يستعمل فيه ضروري أو كمالي»(٣٧). وتوفر المرعى والوقود والغذاء والاخشاب اللازمة للبناء، تحقيقا لهذا الشرط، يدفع بعمران المدينة التي كان لابد لها من أن تعتمد على إقليمها والبلاد المجاورة لها في تحقيق هذه المطالب، وهو ما أكد على ارتباط المدينة باقليمها ـ كما أشرنا ـ. ومن المدن ما تحقق لها ذلك بوفرة، فكانت تمد به غيرها من المدن، كالموصل التي كانت تمد بغداد بحاجتها من الميرة، فكانت تمونها بالغذاء أربعة أشهر من كل سنة(٣٨) لسعة سوادها، كما يذكر ذلك المقدسي(٣٩). وواسط التي أفاض المؤرخون والبلدانيون العرب في ذكر توافر هذه المقومات فيها: فيذكر الاصطخري أنها «خصيبة، كثيرة الشجر والنخيل والزرع، ليس لها بطائح، وأراضي رساتيقها متصلة معمورة.(٤٠) ووصفها ابن حوقل والمقدسي بالصفات ذاتها التي تؤكد حسن التوفيق في اختيار موقعها، تطبيقا سليما لهذا المعيار في اختيار مواقع المدن. وأشار القزويني أيضا إلى كثرة خيراتها ووفرة غلاتها التي كان من الممكن أن تؤدى إلى ازدهارها، وتفوقها على جميع البلاد، لولا أن «حاصلها يحمل إلى غيرها».(٤١)

ووفرة المرعى والحطب والغذاء من مصادر قريبة، وتأمين مصادرها، كان لها تأثير مباشر في هيئة تخطيط المدن مثلا في شرق العالم الاسلامي والتي يلاحظ أنها كانت تشتمل في الوسط على مقر السلطة والحكم مؤمنا في قلب المدينة، ويحيط بها سور ويدعى «الشهرستان»، يليه دائرة أوسع تمثل المدينة العظمى يحيط بها سور هي الأخرى، ثم يلي ذلك دائرة أوسع تضم البساتين، ودائرة رابعة أوسع تشمل المزارع التي تغذي المدينة بحاجتها الغذائية اللازمة(٤٢) وتكون في متناول الدفاع عنها وتأمينها. ومن أمثلة ذلك مرو وبخارى وسمرقند وغيرها.(٤٣)

ولسنا في سبيل حصر المدن الاسلامية التي تؤكد هذا التطبيق لان جلها كان اختيار موقعها ملتزما بتحقيق هذه المطالب، والأهم من ذلك أن نناقش اختيار

مواقع المدن الإسلامية الأولى «مدن الأمصار» والتي أشار ابن خلدون إلى أنه لم يراع فيها هذاالاعتبار، متهما العرب بأنهم كانوا بدوا غير حضاريين لأنهم لم يراعوا مثل هذه الشروط الصحيحة في اختيار مواقع هذه المدن.

وقد أشرنا الى أن ظروف نشأة هذه المدن كانت مرتبطة بأهداف معينة كالجهاد والفتح فكانت كمعسكرات حربية، ثم تحولت الى مراكز ادارية لادارة الاقاليم المفتوحة تعتمد في اقتصادياتها في المقام الأول على الخراج والغنائم الواردة من البلاد التي تفتحها الجيوش، ثم بعد ذلك تحولت الى مدن مستقرة عادية فتطلب عمرانها تخطيطا آخر، يكسبها حاجاتها بالاعتماد على نفسها. فبدأ الأمويون هذه السياسة الداعية الى توفير الماء وتشجيع الزراعة، وتنمية التجارة المرتبطة بتطور الصناعات والحرف في استخدام أمثل، وفر لها ما نقص، نتيجة اختيار مواقعها على أطراف الصحراء، حيث لم يكن للعرب قوة بحرية تمكن من الدفاع عن مثل هذه المدن في تلك الفترة المبكرة، وعندما توفرت للمسلمين هذه القوة انطلقوا في اختيار مواقع المدن في المناطق الساحلية التي تتوفر لها ميزات أفضل. ومما سبق يتضح أن الظروف المصاحبة لاختيار المواقع تختلف باختلاف العصر. وهناك مؤثرات أخرى تتدخل لتوجه هذا الاختيار توجيها معينا، وباستثناء ذلك فان اختيار مواقع المدن مرتبط بتوفير المرعى والحطب والغذاء كان وراء ازدهار بعض المدن الاسلامية ازدهارا مرتبطا بوفرة خيراتها كشيراز وفاس والموصل وواسط وغيرها.

وتحكم في اختيار موقع المدينة ما يتمتع به الموقع من تحصين يعين على دفع الأخطار التي تحدث عند هجوم الأعداء عليها، وبرزت الحاجة إلى تحصين المدن منذ عهد قديم، عندما نشأت المدن وزاد عمرانها وثراؤها، وبدأت تتعرض لهجمات الاعداء، الذين يطمعون في السيطرة عليها أو نهب ثرواتها، مما أدى الى بناء الاسوار حول المدن، واتخاذ الجند والقادة الذين يتولون الدفاع عنها.(٤٤) ومن هنا كان اتخاذ السور حول المدينة أمرا هاما، وتبلورت الدلالة الحضارية للسور ـ الذي يعنى أمن وأمان سكانها ـ وتأمين المدينة يكفله بناء الأسوار والابراج

والقلاع، التي يزيد من كفاءتها وسهولة انشائها والاقتصاد فيها ما يتوفر للموقع من ميزات تحصينية طبيعية، «كأن يكون على هضبة متوعرة من الجبل أو باستدارة بحر أو نهر، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف تحصينها». (٤٥)

وحددت الرغبة في تأمين المدن الإسلامية وحمايتها مـواقع الكثير من المدن الإسلامية وتغيرت الرؤية من عصر إلى آخر، مرتبطة بتطور قوة الدفاع عن تلك المدن وتوفرها، واختلاف وتطور اساليب الدفاع، كما أنها ارتبطت أيضا بالظروف السياسية التي صاحبت نشأة المدن، واختلاف هذه الظروف بين فترات اشتد فيها الصراع والحروب وفترات سادها الأمن والسلام، وانعكست هذه المتغيرات على اختيار مواقع المـدن وتحصينها انعكاسا مباشرا.

ففي بداية العصر الإسلامي بـرزت أهمية الموقع المحصن تحصينا طبيعيا في الدفاع عن المدينة وحمايتها، فالمدينة المنورة محصنـة تحصينا طبيعيـا من جهاتهـا المختلفـة فيما عدا الناحية الشمالية التي اضطر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفر حولها الخندق عندما واجه خطر الهجوم عليها من هذا الاتجاه، وأصر الخليفة عمربن الخطاب رضي الله عنه عند انشاء «مدن الهجرة» أن تكون في مواقع لا يفصلها فيها عن جنده ماء، فكان اختيار مواقع البصرة والكوفة والفسطاط ثم القيروان في العصر الأموي محكوما بهذا الاعتبار مخافة اغتيال العدو البحري إياها، خصوصا وأنه لم يكن للمسلمين في ذلك العصر قوة بحرية تمكنهم من الدفاع عن تلك المدن، وحتى لا تكون الموانع المائية عائقا في العمليات الحربية التي تستدعى الكر والفر، وتزويد الجيوش بالامدادات اللازمة، ولما توفرت هذه القـوة كان اختيار مواقع المدن مطلة على ساحل البحر أمرا مرغوبا فيه لاعتبارات أخرى، بل من المدن ما شكل شبه جزيرة ممتدة كالكف في البحر كالمهدية، وكان الهدف من اختياره ما يتمتع به الموقع من تحصين طبيعي لاحاطة الماء به من جهات ثلاث، بالاضافة الى ميزات الموقع الاتصالية الاخرى.

ويكشف عن هذا الاتجاه في اختيار مواقع المدن ما يذكر للخليفة المنصور -

عندما اختار موقع بغداد ـ من ان نهر دجلة والفرات بمثابة خندق مائي يزيد مدينته تحصينا. (٤٦) وكذلك انتقاد المعزلدين الله الفاطمي قائده جوهر في عدم اختيار هضبة «اسطبل عنتر» ـ جنوب الفسطاط ـ أو «المقس» في موضع مباشر على النيل كموقع لمدينته بدلا من الموقع الذي انشئت عليه مدينة القاهرة. (٤٧)

ووجهت المصادر الى اعتبارات معينة تختص باختيار مواقع المدن الساحلية كأن «تكون في جبل أو بين أمة موفورة العدد، وإذا لم تكن كذلك طرقها العدو البحري في أي وقت أراد، لأمنه اجابة الصريخ لها، وعدم غناء حضرها المتعودين على الدعة في الدفاع». ويضرب ابن خلدون مثلا على ذلك: بالاسكندرية وطرابلس وبرقة وسلا التي تعرضت للهجمات الكثيرة بسبب عدم مراعاة هذه الاعتبارات في اختيار مواقعها، ويشير إلى مدن أخرى كانت «متوعرة المسالك وحولها القبائل بحيث يبلغهم الصريخ، تمنعت بذلك من العدو، ويئس من طرقها، كما في «سبته» وبجاية(٤٨) وغيرهما. ومن خلال هذه الرواية تتضح أهمية العامل البشري باعتباره مؤثرا هاما يكفل للمدن حصانتهاوقوتها فيمنع عنها الهجوم والاعتداء.

ولم يمنع عدم توفر ميزات التحصين الطبيعي في مواقع توافرت لها شروط الاختيار الاخرى أن تقام بها المدن، حيث إن إنشاء التحصينات اللازمة كان أمرا تقليديا، اعتبر من لوازم التخطيط لانشاء المدن، وتأثر تخطيط أسوار المدن وتحصيناتها الاخرى من ابراج وقلاع بطبيعة الموقع، واختلاف هذه الطبيعة من موقع إلى آخر قوة وضعفا.

ومن طريف ما يذكر أن كثيرا من المواضع الاستراتيجية التي انشئت عليها نقاط أو مراكز دفاعية، تحولت ـ فيما بعد ـ إلى مدن لتوفر الشروط الأخرى في هذا الموقع أو ذاك والتي تمكن من إنشاء مدينة، ولا أدل على ذلك من الرباط ومدريد «مجريط العربية» وغيرهما.

ولم تكن هذه الشروط لتتوفر جميعا في موقع واحد، ولكن توفر أكثرية منها كان يعني حسن موافقته لنشأة مدينة. وتكشف أوصاف الجغرافيين المسلمين عن ذلك من واقع ملموس من خلال مايقررونه من وصف هذه المدن، فقد وصفت واسط

بأنها «كثيرة الخيرات وافرة الغلات، وأنها في فضاء من الارض، صحية طيبة الهواء عذبةالماء». ووصف المقدسى أيضا الموصل فذكر أنها «بلد جليل حسن البناء طيب الهواء، صحيح الماء، كبير الاسم، قديم الرسم، حسن الاسواق والفنادق كثير الملوك والمشايخ، لايخلو من أستاذ عال وفقيه مذكور، منها ميرة بغداد واليها قوافل الرحاب ولها مفازة وخصائص وثمار حسنة وحمامات سرية ودور بهية ولحوم جيدة وأمور جامعة»(٤٩) . ويصف القزويني شيراز فيذكر أنها «طيبة الهواء عذبة الماء، كثيرة الخيرات وافرة الغلات، قصبة بلاد فارس» ويعود ليصف تونس بوصف مشابه فيقول: إنها «قصبة بلاد أفريقية،اصلح بلادها هواء وأطيبها ماء واكثرها خيرا». ويأتي تشابه أوصاف الجغرافيين والبلدانيين المسلمين للمدن مؤكدا على رسوخ هذه المعايير في اختيار المواقع الحسنة لانشاء المدن، ويؤكد سلامة هذه المعايير أيضا استمرار كثير من هذه المدن التي توفرت لها هذه الشروط في حالة من العمران جيدة، بل إن بعضها يمثل حواضر كثير من الدول الاسلامية حتى الان كبغداد ودمشق وصنعاء والقاهرة وطرابلس وتونس والرباط وغيرها.

وبالاضافة الى هذه العوامل البيئية والطبيعية التي تحكم اختيار مواقع المدن يعتبر الدين عاملا مهما في نشأة المدينة، فالعلاقة بين الدين والمدينة علاقة قديمة، فالدين بطبيعته عملية جماعية، تؤدي في الغالب الى نشأة مراكز مدينة خصصت لهذا الغرض. ولهذا كان الدين عاملا أساسيا في نشأة كثير من المدن، وكلما ضربنا أبعد في القدم اشتدت هذه العلاقة. فعند السومريين انشئت المدن للعبادة كمدينة نيور وأريدو، فالمدينة عندهم نظام مقدس (٥٠)،كذلك كان للمدن صبغة دينية عند البابليين والآشوريين والمصريين حتى أن المدن في مصر كانت تسمى باسماء الآلهة كبوصير وهي بيت الالهـ أوزيرسـ، وبويسطة بيت الاله يسط، وميرمانتو بيت الاله مانتو، وتوت آمون مدينة آمون، وبرمين أو خنت مين أي بيت الاله مين والتي حرفت فيها بعد الى أخميم الحالية. وفي اليونان بدأت أثينا كمعبد للالهة آثينا. (٥١)

واستمر تأثير الدين في المدينة في العصور الوسطى، ولعبت المدن دورا هاما

في نشر المسيحية، واهتمت الكنيسة بعمارة المدن (٥٢)، وتكيف هذا التأثير مع العوامل البيئية والطبيعية الاخرى في تحديد مواقع المدن.

وفي العصر الاسلامي طورت الفكرة الدينية المؤثرة في المدينة تطورا مرتبطا بطبيعة الدين الاسلامي الذي هو في أساسه دين يهتم بالجوانب الدينية والمدنية اهتماما متعادلا متكاملا.

وقدس الاسلام مدنا قديمة لها اعتبارات دينية خاصة، ومنها ما نشأ بعيدا عن توافر الشروط الطبيعية لاختيار الموقع، وكان تحديد موضعها توقيفيا كمكة التي انشئت في «واد غير ذي زرع»، ومنها ما نشأ قديما نشأة طبيعية مرتبطة بالتجارة أو الانتاج، وعايشت أحداثا اسلامية مرتبطة بالبعثة والرسالة المحمدية كمدينة القدس التي أسرى اليها الرسول وعرج الى السموات العُلى، وبها المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين. ومنها ماكان موطن الرسول بعد الهجرة وتحولت من مجرد قرية أو مجموعة من المحلات السكنية المستقلة إلى مدينة متكاملة حضريا كالمدينة المنورة.

وفي مرحلة لاحقة ظهر بعض المدن التي نمت حول مدافن أئمة وعلماء، فكانت هذه المدافن نواة مدن كبيرة ككربلاء والنجف والكاظمية والأعظمية وغيرها. ويدرج بعض الباحثين هذه المدن في عداد المدن الدينية، ولاسيما أنها اتخذت مسرحا لإقامة شعائر وطقوس دينية يقيمها من يعتقد في هؤلاء الائمة والعلماء. (٥٣)

وبعد اختيار الموقع يأتي تخطيط الموضع، وموضع المدينة يعني تلك المساحة التي تقف عليها مشتملة على المعالم الدقيقة للأرض التي يبدأ الاستقرار فوقها، وينتشر عليها ويؤثر فيها، وتخطيط هذا الموضع يعني تنسيق النظام المادي الطبيعي للمدينة التي تمثله كتلتها المبنية، وارتباطها بمجتمعها الحضري، ومرافقها وخدماتها، في انسجام وتوافق مع الحاجات الاجتماعية والاقتصادية لسكانها. (٥٤)

والمدينة الاسلامية في نشأتها وتطورها انطلقت من محاور أساسية في التخطيط،

بلورها ابن الربيع في شروط ثمانية أوجب على الحاكم اتباعها عند تخطيط المدينة. وهذه الشروط هي: أن «يسوق اليها الماء العذب ليشرب حتى يسهل تناوله من غير عسف، وأن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولاتضيق، وأن يبنى فيها جامعا للصلاة في وسطها ليتعرف على جميع أهلها، وأن يقدر أسواقها لينال أهلها حوائجهم عن قرب، وأن يميز بين قبائل ساكنيها بألا يجمع أضدادا مختلفة متباينة، وإن اراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها، وأن يجعل خواصه محيطين به من سائر جهاتها، وأن يحوطها بسور خوف اغتيال الاعداء لانها بجملتها دار واحدة، وأن ينقل اليها من أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكانها حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج الى غيرها»(٥٥). ويلاحظ أن هذه الشروط تحدد الهيكل العام والاساسي للمدينة الإسلامية، وتركزت على توافر المرافق العامة باعتبار أن السلطة مسؤولة عن توافرها، كما نلاحظ المنهجية المنطقية في ترتيب هذه الشروط، وأنها تكفل الاحتياجات لحياة اسلامية مستقرة، بالاضافة الى النظرة العضوية لكيان المدينة الاسلامية، فهي بجملتها «دار واحدة». ويكشف هذا التناول، بالاضافة الى اعتبارات التخطيط التي أشرنا اليها عند اختيار الموقع عن أن تخطيط المدينة الاسلامية اهتم بالجوانب العمرانية والاقتصادية والاجتماعية، إن هذه الجوانب المختلفة برز تأثيرها -كما سيتضح- في المحاور التي حكمت تخطيط المدينة الاسلامية، وتوضح هذه الشروط التكامل الواضح بين شروط اختيار الموقع وتخطيط موضع المدينة.

ومع نشأة المدن الاسلامية وضحت المحاور الرئيسة التي تميز تخطيطها، وتؤثر فيه بصورة أقوى من بقية العناصر التخطيطية الأخرى، وهذه المحاور هي «المسجد الجامع»، و«دار الامارة»، و «الخطة»، وهي محاور ثلاثة قامت معها محاور أخرى مع تطور عمران المدن الاسلامية، وبمرور الزمن اختلف تأثير هذه المحاور في تخطيط المدينة الاسلامية قوة أوضعفا، وبالرغم من ذلك ظلت التكوينات المعمارية الأساسية والثانوية للمدينة الاسلامية، والتي تمثل الانعكاس المادي لرؤية التخطيط ثابتة مميزة للمدينة الإسلامية عن غيرها للالتزام بقواعد وأسس

اسلامية محددة لنظام التخطيط والانشاء.

وفي اطار ماعرضه ابن الربيع من شروط تخطيط الموضع نعرض لرؤية تخطيط المدينة الإسلامية بصفة عامة. وأول شرط ساقه هو أن على الحاكم «أن يسوق اليها الماء العذب ليشرب ويسهل تناوله من غير عسف» ، أي أن تكون مصادر المياه متوفرة بأي صورة من الصور سواء كانت عيونا أو انهارا أو غير ذلك. وتسهيل وصول الماء العذب الى سكان المدينة مرتبط في الاساس بتخطيط شبكات توصيل الماء إلى تكويناتها المختلفة كيفما كان ذلك: سواء أكان بالقنوات أم بالأنابيب،أم بحفر الجداول، أم بنقل الماء على ظهور الدواب، أم بغير ذلك من الوسائل. كما أن ذلك مرتبط بنوعية مصدر الماء وقربه أو بعده، ومستوى وجوده انخفاضا أو ارتفاعا، ومايتبع ذلك من انشاء «قناطر المياه» ووسائل رفعه من سواق وغيرها، ووسائل تخزينه من صهاريج «ومصانع» وغير ذلك. ويختلف التخطيط المادى لتحقيق هذا الشرط من مدينة إلى اخرى، لكنه في النهاية يوفر حاجة أساسية بسهولة ومن غير عسف، وجاء توفير الماء ووضع اعتباره في تخطيط المدينة في مقدمة الشروط لان تأخره يحدث تعارضا مع عناصر التخطيط الأخرى، ويسبب خللها، أو ينقص كفاءتها، كما أن غيابه يعد من عوامل النقص في تخطيط المدينة كما حدث في بغداد التي انشئت بها قنوات لتوصيل الماء بعد انشائها وتخطيط شوارعها. (٥٦)

والشرط الثاني في الترتيب هو «أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولاتضيق»، وفي صياغة هذا الشرط مايحدد المعيار الأساسي لمقاييس الشوارع، فتقدير الشوارع مطلوب حتى تتناسب مع حركة المرور وكثافتها وحتى لاتضيق بهذه الحركة أو تلك الكثافة. ويلاحظ أن صياغة الشرط تعني أيضا النظرة المستقبلية. وتكفي الإشارة الى أن تحديد هذه المقاييس كان التأكيد عليه صريحا وقويا في تخطيط المدن الاسلامية الأولى، وكانت هذه المقاييس تؤكد هذه النظرية التخطيطية، كما أنها أوضحت تنوع المقاييس،وبالتالي نوعية الشوارع. فمنها ماهو رئيس ومنها ماهو فرعي، مع ترك تخطيط «الخطة» لحرية القبائل والفئات التي

اقتطعت الارض، فوجدت السكك والازقة التي تنوعت هي الاخرى بين طرق نافذة وغير نافذة عامة وخاصة، كونت جميعا شبكة الطرق الرئيسة في المدينة الاسلامية بطريقة تأثرت الى حد كبير بالتكوينات العامة في المدينة الاسلامية كالمسجد الجامع وغيره، وبالاحكام الفقهية التي تحكم نظام هذه الشوارع ونوعيتها.

ويعرض الشرط الثالث لمحور أساسي في تخطيط المدينة الاسلامية وهو «أن يَبنى فيها جامعا للصلاة في وسطها ليتعرف على جميع اهلها». والمسجد الجامع كان أول ما يختط من تكوينات معمارية في المدينة الاسلامية، وهو من وجهة نظر فقهية من الميزات الحضرية للمدينة الإسلامية، ولم يكن يقام اكثر من خطبة في المدينة الاسلامية الواحدة، ومن ثم وضحت العلاقة بين صفة المدينة الاسلامية ومسجدها الجامع الدال على حدودها. ومع تطور عمران المدن، وتعدد أرباضها تكررت الوحدات المدنية بهذا المفهوم، وأصبح انشاء مسجد جامع في الربض أمر واقع. وحكم هذا التكرار قواعد فقهية، وضعها الفقهاء، يمكن في اطارها انشاء مسجد جامع بالربض، ومن اهمها وجود حدود مادية فاصلة كنهر أو سور أو مثل ذلك (٥٧). فقد أنشيء في الكرخ ثم الرصافة مسجد جامع، وكان لفاس مسجد في عدوة القرويين وآخر بعدوة الاندلسيين، ثم انشيء مسجد آخر في فاس الجديدة.

ومما يشير إلى التمسك بالأحكام الفقهية ماكان في القاهرة ومصر حيث كان فيهما أربعة مساجد جامعة هي: جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر وجامع الحاكم، وكان تناوب الصلاة الجامعة فيها قائما، حتى أفتى الفقهاء بجواز إقامة اكثر من صلاة جامعة في المدينة، فتعددت الخطبة وكثرت المساجد الجامعة كثرة واضحة مع بداية العصر المملوكي. وكان لهذه الكثرة أثرها في انفكاك تأثير المسجد الجامع في تخطيط شوارع امتدادات المدينة بعد ذلك.

وتوسطَ المسجد الجامع المدينة الاسلامية في الوقت الذي اقتصرت فيه المدينة

على خطبة واحدة، وقد اشار الشرط الى وجوب هذا التوسط ليتعرف على جميع أهلها، ويكون قريبا من كل موضع في المدينة، فيسهل التوصل إليه من أطراف المدينة المختلفة للصلاة الجامعة، وهذا يعني توجه تخطيط شوارع المدينة إلى المسجد الجامع توجها رئيسا. وقد ظهر ذلك واضحا في تخطيط المدن الاسلامية وأرباضها(٥٨)، ومن امثلة ذلك المدينة المنورة، والبصرة، والكوفة، والفسطاط، والقيروان، وواسط، وبغداد، وفاس وغيرها. كما اتخذ المسجد الجامع في المدن المفتوحة الموضع نفسه لتحقيق الهدف نفسه، بالإضافةإلى أنه كان رمزا للدولة الاسلامية الجديدة التي اصبحت تحكم هذه المدن، ومن ثم برز التوجه إلى اختيار أوسط مواضعها، تحقيقا لهذا الهدف الوظيفي، وغالبا ماكانت تشغل هذه المواضع مؤسسات دينية للدول السابقة، فحول بعضها الى مساجد جامعة، ومع الإستقرار أنشئت المساجد الجامعة في هذه المواضع من المدن في اطار القواعد والأحكام الفقهية المرتبطة بطبيعة الفتح عنوة أوصلحا،ومن أبرز الأمثلة على ذلك المسجد الجامع في دمشق ومسجد قرطبة.

مما سبق يتضح أن وسطية المسجد في تخطيط المدينة نابعة أصلا من مفهوم وظيفي إسلامي، مرتبط بوظيفة «المسجد الجامع» باعتباره تكوينا معماريا رئيسا عاما يتوجه إليه جميع من يؤدي الصلاة الجامعة، وحتى يكون عَلَما واضحا وقريبا من كل أطراف المدينة، فكانت وسطيته لتكوينات المدينة الأخرى، وتختلف بذلك المؤثرات التي أدت الى وسطية المسجد الجامع وإبرازه عن المؤثرات التي أدت مثلا إلى وسطية وارتفاع الاكربول في المدينة اليونانية، أو الكابتول في المدينة الرومانية وان تشابهت الهيئة.

ومع الأهمية الدينية والسياسية للمسجد الجامع كانت الحاجة أساسية إلى تضمين «المدن الملكية» كالقاهرة، والمهدية، وفاس الجديدة، وغيرها مسجدا جامعا مجاورا لمقر السلطان أو الحاكم، وحدث ذلك أيضا في القلاع التي اتخذها الحكام مقرا لحكمهم خارج مدن العامة، قريبة منها، كما في قلعة صلاح الدين

بالقاهرة، واعتبرت هذه القلاع في حكم «المدينة» من وجهة النظر المعمارية والفقهية فاجيزت إقامة الخطبة بها.

والشرط الرابع أن «يقدر أسواقها لينال حوائجهم عن قرب». والسوق من المرافق الأساسية العامة في المدن، وقد أشرنا إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان حريصا على انشاء سوق المدينة، وفي مدن الأمصار انشئت الاسواق على هذا النهج، وتطور انشاؤها في العصر الأموي تطورا انطلق بعد ذلك مع تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدن الإسلامية، وتأثر بالأوضاع السياسية والاقتصادية للدول الاسلامية المتتابعة، وتطور نظم التجارة وغيرها. وبدأ تخطيط الأسواق وتصنيفها في العصر الاموى. وكانت واسط من المدن التي خططت اسواقها متبعة هذا التصنيف، وطورت أسواقها «مدن الهجرة» وتبلورت التجربة في تخطيط بغداد وسامراء، ومع تصنيف التجارات نتيجة ارتباط التجارة بالصناعة ظهرت تصنيفات الحرف مرتبطة بنظام مراقبة أهل التجارات والحرف. ومع تطور النشاط التجاري تنوعت الاسواق، ومنشآت التجارة وتوزعت على تخطط المدينة، توزيعا حكمته القواعد الإسلامية، في اطار يمنع الضرر، ويسهل حركة المرور في شوارع المدينة، ويكفل توصيل الخدمات الى أهل المدينة وصبغ هذا التخطيط والتوزيع المدن الاسلامية بصبغة واحدة انسحبت فيها بعد على أسماء أحيائها كالنحاسين والخيميين والزجاجين والصاغة وغيرها.

وأدى تطور النشاط التجاري في أسواق بعض المدن إلى التأثير على حياتها، وعلى من يسكنها من الحكام. وتحت هذا التأثير وضح الاتجاه نحو انشاء مدن للعامة تتسع لأنشطتهم التجارية منعزلة عن قصر السلطة لتحقيق أغراض أمنية، وبدأ هذا الاتجاه بانشاء الكرخ بجوار بغداد، ثم انشاء زويلة بجانب «المهدية»، المدينة الملكية، وأنشأ الفاطميون القاهرة كمدينة ملكية، واعتبرت عواصم مصر السابقة الفسطاط والعسكر والقطائع بمثابة المدينة العامة التي تتسع للنشاطات التجارية.

ومع اتساع النشاطات التجارية الخارجية واتصال المدن بغيرها من المدن التي

لاتتبع الدولة الاسلامية أنشئت الفنادق الخاصة بالتجار الأجانب، بل إن منها ماكان مقرا لقنصليات هذه الدول، وخضعت هذه المؤسسات للأحكام الإسلامية.

ويأتي الشرط الخامس ليؤكد على أهمية التخطيط الاجتماعي فيشير هذا الشرط إلى أن على الحاكم أن «يميز بين قبائل ساكنيها بألا يجمع أضدادا مختلفة متباينة»، ويبرز هذا الشرط الذي اكد عليه ابن الربيع مشكلة كانت قائمة عندما كتب ابن الربيع كتابه للخليفة المعتصم وهي مشكلة صراع الأجناس المختلفة في بغداد، والتي كان الترك من جنود المعتصم محركا رئيسا فيها، وخصوصا بعدما أهمل الخليفة الجنسين العربي والفارسي، وبعدما وجد الاتراك الحظوة. وكان هذا الخلاف سببا واضحا من اسباب انشاء مدينة سامراء، واتخاذها مقرا للخلافة على يد هذا الخليفة. غير أننا إذا رجعنا الى تخطيط المدينة المنورة على عهد الرسول والى مدن الامصار نجد أن «الخطة» تبلورت كوحدة أساسية في تخطيط المدينة، فتجمّع القبيلة في موضع واحد كان يعكس من منظور اجتماعي رؤية سهولة وسرعة التكيف الاجتماعي بالإضافة الى تسهيل ادارة المدينة، فقد كان لكل قبيلة شيخها الذي يتولى أمورها ويسهل تعاملها مع السلطة في المدينة.

ومع رؤية الإسلام للمساواة بين الاجناس، ودعوة الرسول عليه السلام لاعتبار الاخوة رابطة عامة تربط أفراد المجتمع جميعا كان التمهيد لتذويب التعصب القبلي المغرض. وبمرور الزمن ظلت «الخطة» وحدة التخطيط الاجتماعي في المدينة، سواء أكانت للقبيلة كما كان الحال في المدن الاسلامية المبكرة، أم كانت لفئة من الناس ربطت بينها مصالح مشتركة بعدما تم تذويب النزعة القبلية بفعل تطور الحياة في المدينة، فكان هذا التكيف الاجتماعي المخطط له. فزادت سرعة عمران ونمو المدينة، وساعد على ذلك مؤسساتها المختلفة التي تقوم على أساس أحكام وقيم الإسلام.

ثم يشير ابن الربيع إلى مايجب أن يكون عليه تخطيط المدينة التي يسكنها الحاكم

بقوله : «إن أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها، وليجعل خواصه محيطين به من سائر جهاته»(٥٩). وتمثل«المدن العواصم» أهم نوعيات المدن الاسلامية لما تناله من رعاية واهتمام يفوق غيرها من المدن(٦٠)، باعتبار أهميتها السياسية، فقد اعتبرت السلطة السياسية الحاكمة من المعايير الحضرية التي تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان. وبدأت المدينة المنورة كعاصمة للدولة الاسلامية ومركز ادارتها، ومع اتساع الفتوحات كانت الحاجة ملحة لانشاء مراكز إدارية، أو عواصم للأقاليم المفتوحة يعين لها الولاة من قبل الخلافة في المدينة، وانعكس هذا النظام على تخطيط المدن الاسلامية الناشئة كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان. فأنشىء في كل منها دار للإمارة تمثل المركزين السياسي والإداري للمدينة واقليمها. وأصبحت دار الامارة محورا من المحاور الرئيسة في تخطيط المدينة الاسلامية.

وجرت العادة أن تكون دار الإمارة مجاورة للمسجد الجامع، قريبة منه أو ملاصقة له، وذلك باعتبار التكامل الوظيفي لكل منهما(٦١)، وأصبح هذا التخطيط تقليديا في المدينة الاسلامية (٦٢) وإن تغيرت اشكاله وفقا للظروف السياسية والأمنية التي تغيرت بعد ذلك، ولاسيما بعد أن تحول نظام الحكم من نظام الخلافة القائم على أساس الشورى إلى نظام ملكي عضوض في بداية العصر الأموي. واستتبع هذا التغير تغييرا كبيرا في كل المظاهر، وطغى الشكل المادى ليضفى على الملوك والحكام لباسا من العظمة يتناسب وهيبة الدولة من هذا المنظور، واستمرت المتغيرات في هذا الاتجاه، واستدعى ذلك الحرص الشديد على تأمين الحاكم والجهاز الإدارى للدولة خوفا من اغتيال الأعداء وقيام الثورات بالإضافة إلى أنه يضفي على الدولة والحاكم نوعا من المهابة رغب فيه، وانعكست هذه الاعتبارات انعكاسا مباشرا على تخطيط المدينة العاصمة، سواء كانت عاصمة دولة كدمشق وبغداد والقاهرة، أو مركز إدارة الاقليم كواسط وغيرها.

ثم بدأت تظهر بين المدن الاسلامية نوعية من المدن وجه تخطيطها توجيها ملكيا بحتا، متأثرا بالاعتبارات التي أشرنا اليها، وظهر ذلك في واسط التي أنشأها

الحجاج كمركز إدارة يمكنه من ادارة دفة الأمور بالعراق خصوصا الكوفة والبصرة، ويظهر قوة الأمويين، ويؤمن جيشه وجنده وادارته فكان تخطيط واسط بأسوارها وخندقها التى تحيط بقصره والمسجد الجامع الذي يجاوره. وحدث ذلك في بغداد التي انشىء في وسطها المسجد الجامع مجاورا لقصر الذهب، ومن حوله الدواوين يحيط بذلك سور يعزل هذه المنطقة عن منطقة سكن القادة والموالين للخليفة، ويحيط بذلك سور يليه يتصل بسور خارجي يليه خندق، وفي خارج أسوار المدينة تقطن العامة، وكانت تمارس في المنطقة السكنية خارج المنطقة المركزية أنشطة الحياة اليومية، وازدحمت الأسواق وبات الامر ملحا في تأمين المدينة من خطر الفتنة، فأنشىء الكرخ ونقلت إليه الاسواق ليبتعد هذا الخطر.

واستفادة من هذه التجربة ظهر الاتجاه بعد ذلك لانشاء «مدن ملكية خاصة» تجاورها مدنا للعامة يزاولون فيها حياتهم ويقيمون فيها، وتقتصر المدن الملكية على سكنى الحكام وأعوانهم، ومن أوائل المدن التي تمثل ذلك المهدية التي انشئت كمدينة ملكية بجوار «زويلة» التي كانت مدينة العامة، ثم القاهرة التي انشئت كمدينة ملكية بجوار مدن العامة ممثلة في عواصم مصر الاسلامية السابقة وهي الفسطاط والعسكر والقطائع (٦٣).

وفي مدن الاندلس اتخذ التخطيط شكلا آخر عبارة عن «مدينة» صغيرة في الوسط، في أعلى موضع من المدينة، تشتمل على القصور والدواوين تحيط بها الاسوار، وكان يطلق عليها «قصبة المدينة»، ثم يلي ذلك منطقة سكنى العامة بتكويناتها المعمارية المختلفة تحيط بها الاسوار. ولم يمنع ذلك من انشاء مدن ملكية خاصة كالزهراء.

وفي مدن الشرق اتخذت السلطة في بعض المدن مراكز إدارتها في قلاع محصنة أنشأتها قريبة من مدن العامة على مواضع تشرف عليها. وقلعة صلاح الدين بالقاهرة نموذج جيد لذلك، وتعددت الأمثلة في مدن الشام والعراق كما هو الحال في قلعة الموصل.

وفي كل هذه الحالات كان الاتجاه واضحا لتأمين مـركز السلطة بعـزله عن مواضع سكنى العامة، وكان الأعوان يقطنون في مراكز قريبة من الحاكم في تطبيق عام اختلفت صوره كما اشترطه ابن الربيع الذي اشترط على الحاكم أن يسكن في افسح اطرافها، ويجعل خواصه محيطين به من سائر جهاته حتى لاتتسبب مواكبه ورجاله في أذى العامة والمارة، وحتى لايتعرض لأذى من اهل الفتنة والثائرين، ويكون أعوانه حماية له بسكناهم في جواره، ويعكس هذا التوجه خللا حدث ببغداد بعدما زاد عمرانها وزادت خطورة الجند الترك بها، وأصبحوا يتراكضون في شوارع المدينة ويسببون قلقا لأهلها، فحرص على أن يكون ذلك معتبرا في تخطيط المدن القادمة. وفي هذا الشرط رؤية اجتماعية تجمع الحاكم وأعوانه قريبين منه، فهم فئة واحدة ذات ميول واحدة، ومستوى اجتماعي متقارب يسهل تآلفهم في موقع واحد، ولايتسبب انتشارهم في المدينة في التأثير في فئاتها الاخرى. كما أن لهذا الشرط فائدته المتعلقة بحركة المرور ولاسيما عند خروج مواكب الخليفة، أو الحاكم وغير ذلك من المراسم المتبعة.

واختلفت أشكال نظم الحكم في المدن الاسلامية من عصر الى آخر واختلفت أوضاع المدن، وتخطيط مراكز الحكم فيها باختلاف الأوضاع السياسية، وبالتالي اختلفت سياسات الحكام في توطين الأعوان، فمنهم من خط لهم خططهم بجوار قصره قريبا منه كالمنصور في بغداد، والمعتصم في سامراء والمعز في القاهرة. وفي فترات أخرى لم يكن مركز السلطة يتسع لسكنى كل الاعوان خصوصا في تلك المدن التي اتخذت من القلاع المحمية مركزا لها، كما حدث في عصر المماليك بالقاهرة، والتي لم تكن لتتسع لكل أمراء المماليك، كما أن ظروف العصر وما اشتملت عليه من مؤامرات وفتن كانت أدعى الى تجنب سكنى هؤلاء الامراء في القلعة بجوار السلطان، وأدعى للامراء أن يؤمنوا انفسهم ويسكنوا خارجها. وحدث الشيء نفسه في العصر العثماني عندما توزع سكنى الامراء خارج أسوار القلعة في المدينة التي عمروا مواضع منها اختاروها وفقا لميولهم، وعكست مستواهم الاجتماعي والارستقراطي.

وكان لتوزيع هؤلاء الامراء في سكنى المدينة أثـر في زيادة عمـرانها وامتداد أحيائها حيث أنهم كانوا يميلون الى سكنى مناطق ذات ميزات خاصـة أوجبت تعمير مساحات جديدة أضيفت الى عمارة المدينة. (٦٤)

كما كان لميول بعض الحكام للنزهة والخروج من نطاق المدينة أثر في امتداد العمران الى ضواحيها بانشاء البساتين والقصور والمناظر وغيرها، ولادل عـلى ذلك من انشاء الظاهر ميدانا بظاهر القاهرة. القاهرة والامتداد العمراني في منطقة بولاق وخانقاة سريقاس وأرض بولاق وغيرها، تلك الامتدادات التي أصبحت أحياء من المدينة أو ضواحيها.

وبالرغم من أن انشاء المدن الملكية مرتبط الى حد مابنشأة دولة جديدة، يؤكد على حفظ أمنها، وتدعيم تأسيسها فان هذه المدن خططت على «الرسم الملكي في توزيع قصورها ومناظرها وميادينها ومساجدها ودواوينها، وأبرز الامثلة على ذلك مدينة القاهرة الفاطمية». فقد خططت لتكون قصر الخلافة الفاطمية في مصر، وَوُجه تخطيطها أصلا وفق المنظور، ومايتبعه من مراسم، واستخدمت مرافقها استخداما محكوما بهذا المنظور، فلم تكن مدينة مفتوحة للعامة، وكانت محكومة بنظم ومراسم خاصة.

وتأثر تخطيط مدن العامة التي تشمل على مقر السلطة بموضع مركز السلطة، وحركة المرور منه واليه، وسواء كان هذا المركز بادئا مع انشاء المدينة أو لاحقا لها لظروف واعتبارات سياسية خاصـة كما حدث في اتخاذ قلعة الجبل مقرا للحكم في العصر الأيوبي بدلا من القصر الفاطمي داخل أسوار المدينة، كما أن تحويل مدينة ملكية الى مدينة عامة يحدث تغييرا وتعديلا تخطيطيا يعكس هذا التحول.

وتمثل مدن العواصم أهم نوعية من المدن الاسلامية باعتبار أهميتها السياسية المنعكسة في ازدياد عمرانها، فهي تنال من الحظوة والرعاية مالا يناله غيـرها من المدن، وقد يتأثر عمران هذه المدن بزوال أهميتها السياسية لزوال دولتها كبغداد بعد سقوط الخلافة العباسية، والقاهرة بعد انتهاء دولـة المماليـك، والقيروان

والمهدية وقلعة بني حماد وغيرها من المدن. وقد تسقط الدولة التي تتخذ من هذه المدينة او تلك عاصمة لها، وتتخذها الدولة الجديدة أيضا مقرا للحكم، فتستمر في عمرانها متأثرة بالوضع السياسي الجديد، وأروع مثل على ذلك القاهرة التي كانت عاصمة ملكية في العصر الفاطمي، واتخذها الايوبيون والمماليك مقرا لحكمهم وعاصمة لدولتهم، وحولوها من مدينة ملكية إلى مدينة عامة بعدما أنشأوا القلعة مركزا للإدارة والحكم. ومن أمثلة ذلك أيضا مدينة فاس. (٦٥)

وفي اطار تأمين الحاكم والرعية يأتي شرط آخر من الشروط التي يشترطها ابن الربيع على الحاكم في تخطيط المدينة، وهو «أن يحيطها بسور خوف اغتيال الأعداء إياها فهي بجملتها دار واحدة». وقد أشرنا في شروط الموقع إلى أهمية الموقع المحصن تحصينا طبيعيا، وأشرنا إلى أن انشاء الاسوار كان يكمل هذا التحصين ويدعمه، ويمكّن أهل المدينة من الدفاع عنها. واعتبر السور في العصور القديمة من المعايير الحضرية التي تميز المدينة، لأنه يوفر الأمن والأمان لساكنيها. وهي قيمة حضرية كبيرة تدفع بالعمران وتؤدي إلى ازدهار المدن. وسار التخطيط الاسلامي للمدن على هذا النهج مستفيدا من خبرة الحضارات السابقة في انشاء الاسوار والابراج والقلاع، وطور عمارتها تطويرا كبيرا مستفيدا من التجربة، وتمثل العمارة الحربية في عمارة المدن الاسلامية جانبا هاما من جوانب الابداع المعماري الذي يعكس أساليب وطرق الدفاع عن هذه المدن، ويعكس من منظور آخر جانبا هاما من جوانب تاريخ مدننا الاسلامية.

وتأثر تخطيط المدينة الاسلامية بانشاء الأسوار تأثيرا مباشرا وخصوصا فيما يتعلق بمساحتها، وخلو كثير منها من المساحات الفضاء كالميادين المتسعة والحدائق الواسعة، وانشاء بعض التكوينات المعمارية خارجها، ولاسيما تلك التي تشغل مساحات كبيرة كمصلى العيد أو الشريعة أو المصارة «أماكن عرض الجند»، والأسواق الاسبوعية، وغير ذلك من المنشآت التي تضطر ظروف المساحة وغيرها إلى انشائها خارج أسوار المدينة، كما أن لسور المدينة وأبوابه ارتباطا بشوارعها، وضرورة بعد منازلها عنه لتوفير «الفيصل» اللازم للدفاع، ولذلك أثره أيضا في

الارتفاع الرأسي لمساكنها، وضيق شوارعها، وامتداد المطلات عليها.

وبدأ إنشاء الخنادق والأسوار في المدن الاسلامية منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما حفر الخندق شمالي المدينة، ولم تنشأ لمدن الامصار أسوار لانها كانت في بداية نشأتها بمثابة معسكرات حربية، ثم ظهرت الأسوار لتأمين المدينة ومركز سلطتها؛ ووضح ذلك في واسط وبغداد والقاهرة والمهدية وفاس وغيرها، ودعت الحاجة - من فترة إلى أخرى - إلى انشاء أسوار للمدن التي لم تكن لها أسوار كالمدينة المنورة، أو تجديد الأسوار وتوسيع نطاقها لتضم الامتدادات العمرانية خارج الأسوار القديمة، كمدينة القاهرة. واستتبع التطور العمراني توسيع نطاق الأسوار ووصلها ببعضها عن طريق أبواب تربط الأرباض مع المدينة الأم وتربط الأرباض بعضها ببعض.

ودعا تأمين داخل المدينة إلى تقسيمها إلى دروب وسكك تُغلق عليها الأبواب ليلا، فتعزل كل قطاع منها عن الآخر عزلا تاما، وتؤمنه من خطر اللصوص، وتمكّن الحراس من السيطرة على الحالة الأمنية. وكانت بغداد من أهم المدن التي تبلور فيها هذا النظام الذي اتبع بعد ذلك في كثير من المدن الاسلامية كالقاهرة وقرطبة وفاس وغيرها. واتبع هذا النظام في الامتدادات المعمارية التي تمثل «ظواهر المدن» والتي لم تكن لتحيط بها الأسوار رغبة في تأمينها، واجتهد العامة في انشاء هذه الدروب تأمينا لمنازلهم ومبانيهم.

وتأمين المدينة في صياغة ابن الربيع تأمين كيان عضوي واحد، فهي «بجملتها دار واحدة»، ويكشف هذا عن النظرة المتكاملة لتخطيط المدينة وارتباط تكويناتها المعمارية ارتباطا عضويا باعتبارها «دار واحدة»(٦٦).

ومن الشروط المرتبطة بالتخطيطين الاجتماعي والاقتصادي للمدينة الاسلامية شرط ابن الربيع على الحاكم أن «ينقل إليها من أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة إلى سكانها، حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج إلى غيرها» وقد أشرنا إلى حاجة المجتمع المدني لهذه الخدمات التي كانت من المبررات التي أدت إلى نشأة المدينة، وهي من المقاييس التي تميز مجتمعها الحضري، ونشأة المدينة نشأة

طبيعية كفلت توفير هذه الخدمات، لكن إنشاء مدينة جديدة دفعة واحدة يستدعي توفير هذه الخدمات المتمثلة في نشاط أهل العلم والصنائع الذين يكفون المدينة حاجتها. ولا أدل على ذلك مما فعله الحجاج عند انشاء واسط عندما جلب إليها أهل العلم والصنائع والتجارات، وأقطع كلا منهم اقطاعا في المدينة لتقوم الحياة بها، وكذلك فعل المنصور في بغداد، وهناك من الحكام من كان يشجع على قدوم الفئات ودعمها ماديا لأنها تشكل النسيج الحي للمدينة بما تقدم من خدمات لا تعتبر المدينة مدينة بغيرها. وحتى في المدن الملكية سُمح لهذه الفئات بممارسة نشاطها نهارا والعودة إلى بيوتها ليلا لتحقيق فائدة مزدوجة هي تأمين المدينة، وتوفير خدماتها التي يقدمها هؤلاء. أبرز الأمثلة على ذلك ما فعله الخليفة المهدي حيث كان يسكن هو وأهله بالمهدية، وأسكن العامة في زويلة، وكانت دكاكينهم وأموالهم بالمهدية، وبزويلة مساكنهم، وكانوا يدخلون بالنهار المهدية للمعيشة، ويخرجون بالليل إلى أهاليهم فقيل للمهدي: إن رعيتك في هذا في عناء فقال: لكن أنا في راحة لأني بالليل أفرق بينهم وبين أموالهم، وبالنهار أفرق بينهم وبين أهاليهم، فآمن غائلتهم بالليل والنهار. (٦٧).

ودفعت هذه الفئات بتطور المدينة الإسلامية، فتقدمت الصناعات وازدهرت التجارات وارتقت الخدمات ارتقاء واضحا في اطار النظم والقوانين التي تقوم على تنفيذها المؤسسات في المدينة الإسلامية، تلك المؤسسات التي تمثلت في السلطة الادارية ممثلة في الوالي وأعوانه، وفي السلطة القضائية، وأجهزة الأمن والمراقبة كجهاز الشرطة والمحتسب. وهي المؤسسات التي قامت على ادارة المدينة. ورعاية شؤونها، وتوجيه تخطيطها، وحل مشاكلها تطويرا وارتقاء في اطار القوانين الاسلامية التي صاغت القواعد السليمة لمراحل التطور، وتابعت متغيراتها، فاستمرت حتى غابت هذه الرؤية الاسلامية بحلول القوانين الوضعية في جل المدن الإسلامية، ففقدت المدينة الاسلامية هويتها وبدأت تسير في فلك نظم غريبة عنها تعكس تجربة أخرى غير التجربة الاسلامية فانعكس ذلك مباشرة على تخطيطها وتكويناتها المعمارية التي نلاحظها في المدن المعاصرة.

مما سبق تتضح الأسس والمحاور الرئيسة التي حكمت تخطيط المدينة الاسلامية، والتي تميزت في هيئتها المادية عن المدن الأخرى باعتبار ما تشتمل عليه من تكوينات معمارية أساسية وهامة، مرتبطة بحياة المجتمع الاسلامي داخلها، (٦٨) وباعتبار الأسس التي تحكم توزيع هذه التكوينات على خطة المدينة باعتبار النظم التي تسير وفقها حياة المجتمع في المدينة الاسلامية والمؤسسات المختلفة التي تضبط حركة الحياة وفق هذا النسق.

وتأثر تخطيط التكوينات المعمارية تأثرا واضحا بتلك الأسس والمحاور التي حكمت التخطيط العام للمدينة الاسلامية، ولما كانت المؤثرات واحدة فان الأثر أيضا تشابهت ملامحه العامة، واختلفت تفاصيله باختلاف نوعيات التكوينات عامة أو خاصة، رئيسة أو ثانوية، وتأثرت تفاصيل التخطيط أيضا بالأحكام الفقهية الاسلامية، وساير هذا التأثر أسس التخطيط العام في توافق تام تظهره الدراسة التفصيلية لهذه التكوينات المعمارية. (٦٩).

وتُعد هذه الأحكام الفقهية بمثابة القانون العام الذي ينظم البناء في المدينة، وانطلقت هذه الأحكام من مفاهيم أساسية اسلامية كحق الملكية الخاصة، وحرية التصرف بها وتعرضها للتغيير تبعا للمعاملات الاسلامية المختلفة؛ كالقسمة للتأريث والبيع والشراء والتبادل وما إلى ذلك، ولهذه الحرية حدودها المنطلقة أساسا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا ضرر ولا ضرار». وفي اطار ذلك حددت مواضع التكوينات المادية للعمارة بالمدينة الاسلامية، وتحددت الشروط العامة التي تحكم اشكالها في اطار التوافق بين حق التصرف في الملكية وعدم التسبب في أذى الاخرين.

ونلمح ذلك واضحا في اتجاه أسواق الشوارع نحو الشوارع العامة الواسعة النافذة حتى لا تسبب ضررا يكشف المنازل، وفي تصنيف الأسواق بالمدينة؛ ذلك التصنيف الذي روعي فيه ألا يتأذى أهل تجارة أو حرفة بما جاورهم من تجارات وحرف أخرى، وأن تلبى حاجات العامة في سهولة ويسر، والا يؤثر ذلك على

حركة المرور بشوارع المدينة وطرقاتها، كما يتضح أثر ذلك في تحديد العلاقة بين مواضع السكن والمناطق الصناعية، فسمح بأن تجاور المنشآت الصناعية التي لا تتسبب في أذى المباني السكنية أو أن تشغل بعض وحداتها، ومنع ما تسبب في حدوث الضرر، وحُددت مسببات الضرر في أنواع ثلاثة: هي الدخان والرائحة الكريهة والصوت المزعج، وكان لذلك أثره المباشر في دفع نوعيات المنشآت الصناعية التي تتسبب في هذا الضرر إلى أطراف المدينة، وتأثر موضعها(٧٠) باتجاه الريح إلى حد كبير تأكيدا في منع وصول الأذى والضرر إلى تكوينات المدينة، ويمكن أن نرى أمثلة ذلك واضحة في وجود أفران الجير والفخار عند الأطراف الخارجية للمدن بعيدا عن تكويناتها المعمارية، وأمثلة ذلك عديدة في الفسطاط والقاهرة وفاس والمدينة المنورة(٧١) وغيرها من المدن الإسلامية. ويعني ذلك أن المنشآت الصناعية التي تسبب ضررا لما يصدر عنها من دخان أو رائحة كريهة أو صوت مزعج كانت توضع عند أطراف المدن بعيدة عن المناطق السكنية، متوافقة مع اتجاه الرياح - التي تهب على هذه المدينة أو تلك - توافقا يمنع وصول الضرر بفعلها.

ومع النمو العمراني المستمر للمدن تمتد الارباض الجديدة في اتجاهات مختلفة يحكمها موضع المدينة ومرافقها وتخطيطها القديم إلى حد ما، وتطبق على تخطيط هذه الامتدادات نفس القواعد التي تحقق النفع وتمنع الضرر. فتكرر الهيئة الأولى لتخطيط المدينة بالاسلوب نفسه، وتكون منشآتها الصناعية التي يتسبب دخانها أو رائحتها الكريهة أو صوتها المزعج في أطراف هذه الارباض أو الامتدادات العمرانية.

وربما تدعو الحاجة إلى انشاء الامتدادات العمرانية الجديدة ملاصقة أو مجاورة للمنشآت الصناعية التي انشئت عند أطراف المدينة الأم. وفي هذه الحالة لا يسمح القانون الاسلامي بازالة هذه المنشآت لأن ضررها «مدخول عليه»، و«الضرر القديم» يبقى على حاله، لأن المتضررين منه كان بوسعهم تجنبه بالبناء بعيدا عنه. وأصبح بقاء الضرر القديم على ما هو عليه قاعدة أساسية في حل ما

ينتج من مشكلات يكون سببها الضرر بأنواعه المختلفة سواء تمثل هذا الضرر في الدخان أو الرائحة الكريهة أو الصوت المزعج، أو في كشف حرمات المنازل وغيرها(٧٢). ولم يسمح بتوسعة مصادر هذا الضرر عما كان الحال عليه قديما وإلا كانت هذه التوسعة ضررا محدثا تتم إزالته.

وفي ضوء هذا القانون الذي يحكم نظام انشاء المنشآت الصناعية في المدينة الإسلامية يمكن الاسترشاد به في تفسير مراحل واتجاهات النمو والامتداد العمراني للمدينة بتحديد مواضع هذه المنشآت في المدن الاسلامية الباقية والمندرسة التي يتم كشفها.

مما سبق تتضح المحاور والأسس والقوانين العامة التي تحكم تخطيط المدينة الاسلامية بطريقة تثبت أن تخطيط المدينة الاسلامية قام على أسس معينة نابعة من قيم الدين الاسلامي، تفي بحاجات مجتمعه المادية والروحية الفردية والجماعية، مستفيدة مما صلح من التراث المدني الذي سبقها. وانعكس تطبيق هذه الأسس والقواعدعلى صياغة وحدتهاالتركيبية الاسلامية التي تميزها عن غيرها من المدن، والتي تشابهت في كل المدن الاسلامية ولاسيما أن الأسس واحدة.

وفي ذلك ما يدفع اتهامات بعض الدراسات الغربية للمدينة الاسلامية التي انكرت «وجود أسس تخطيطية ثابتة للمدينة الاسلامية وخلوها من أي وحدة تركيبية لما اصابها من فوضى في التخطيط على عكس ما كانت عليه المدن الرومانية ومدن أوروبا في العصور الوسطى، وهي آراء بدأها سوفاجيه(٧٣)، وكررها جرونباوم(٧٤) وبلانهول الذي يذكر أن الاسلام لم يأت بالبديل للمدن التي خضعت للفتوح التي ورثت تمدنا قديما، فالاسلام ببساطة قد قلد تلك المدن القديمة الموجودة. فالسوق Bazar ما هي في الحقيقة إلا Colonaded Avenue الروماني، والقيصرية ماهي إلا البازليكا الرومانية Basilica، حتى الحمام هو «الترما» Therma(٧٥) وهو في ذلك ينكر الصياغة الاسلامية لهذه التكوينات المعمارية في المدينة، كما انه ينكر أسس توزيعها على مخطط المدينة. ويبدو أن ذلك راجع إلى المنظور الذي حاول تفسير تركيب المدينة الاسلامية ومؤسساتها من

منطق المدينة الأوروبية. وكان لغياب معرفته بالأسس التي تحكم تخطيط المدينة الاسلامية أثرها أيضا، ولاسيما أنه أقر بأن أثر الاسلام الوحيد كان على تخطيط الدور». (٧٦).

وقد واصلت الدراسات الأوروبية والأمريكية المعاصرة البحث في دراسة التمدن الاسلامي، ولاسيما الدراسات الأمريكية التي تركز على النواحي الاجتماعية وفقا للنظريات الاجتماعية الحديثة، واعتمدت في تغطية الجوانب التاريخية على نتائج الدراسات الأوروبية السابقة التي بعد بعضها عن التصور الحقيقي لأسس تخطيط المدينة الاسلامية ومراحل تطورها، وما يتبع ذلك من مظاهر التغير في الجوانب التمدنية والاجتماعية والاقتصادية. (٧٧)

وفي مقابل ذلك اتجهت بعض الدراسات الأخرى اتجاها منطقيا حاول التعرف على المدينة الاسلامية من منطلق آخر يربط المدينة الاسلامية بظروف نشأتها ومراحل تطورها، ويحاول فهم المؤثرات والأسس التي قام عليها تخطيطها، وثما فيها تركيبها المادي. فانتهوا إلى كشف بعض الحقائق التي وضحت من خلال هذه الدراسة لتخطيط المدينة، فعلى سبيل المثال يذكر ليسنر «أن القصر والجامع أصبحا سمة أثرية من سمات المدينة الاسلامية بدأت مع الفتوحات الاسلامية»(٧٨). وهومحور في التخطيط بدأ في المدينة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أنشأ منزله ملاصقا للمسجد الجامع.

وانتهى لابيدوس إلى أن المدن الاسلامية نشأت وتطورت عمرانيا، ولم تعد مدنا مفردة، لكنها أصبحت مدنا مركبة، بمعنى أنها تضم أكثر من مدينة ـ على حد قوله ـ كبغداد التي احاطت بها الحربية من الشمال والكرخ من الجنوب، وتقابلها الرصافة على الضفة الأخرى من نهر دجلة، وكذلك القاهرة التي أصبحت تشتمل على الفسطاط والعسكر والقطائع(٧٩). وهي رؤية تتضح أكثر في ضوء ما أشرنا إليه من مراحل النمو المعماري للمدينة الإسلامية التي تنمو في هيئة أرباض ظاهر المدينة، تتصل عمرانيا بالمدينة متأثرة بالاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تمر بها المدينة. فقد انشئت بغداد كمدينة مستقلة، ثم انشأ

المنصور الرصافة لابنه المعتصم بالله هو وجنده، وكان لها كيانها المستقل أيضا، وأنشىء الكرخ لنقل التجارة من بغداد إليه، وانشىء له مسجد جامع ليمنع دخولهم إلى المدينة، وفي مرحلة لاحقة أدمجت التكوينات الثلاثة وأصبحت تشكل كيانا واحدا ولاسيما بعد أن الغيت صلاة الجمعة في الأرباض الجديدة، وكذلك الحال بالنسبة للفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة، فلم يحدث هذا الدمج إلا بعد القضاء على الدولة الفاطمية، وكان جانبا من خطة صلاح الدين التي رمت إلى القضاء على الاثر الفاطمي، وتحويل القاهرة إلى مدينة عامة.

ويرى «روجز» أن تخطيط سامراء نموذج لمدينة اسلامية يختلف عن أي مدينة هلينية(٨٠) وهو أمر يكشف عن محاولة بحثية لمعارضة الاتجاه الذي أكد تأثر تخطيط المدينة الاسلامية بالمدن الهلينية. وسامراء نشأت في ظروف خاصة دفعت إلى انشائها، ففكر في انشائها المعتصم لتكون مقر جنده وقواده من الترك وعاصمة دولته بعيدا عن بغداد التي ضاقت بالاتراك لما يحدثونه من مشاغبات، كما أنها نشأت في ظروف سياسية واقتصادية مختلفة عن الظروف التي انشئت فيها بغداد مثلا. ومن ثم انطلق عمرانها وتخطيطها من ظروف نشأتها، فأقطعت الخطط للقواد بعيدا عن منطقة سكنى العامة التي تركزت حول المسجد الجامع في الشمال. فكان الفصل الاجتماعي بين الاتراك والعامة مقصودا في هذا التخطيط، وما عدا ذلك سار التخطيط منطلقا من المحاور الأساسية في أي مدينة. فالمسجد الجامع والخطة وقصر الخليفة قائمة، لكنها بتوزيع يتفق ونشأة المدينة وامكاناتها وظروف انشائها. ويلاحظ أيضا أن العمر المحدود لهذه المدينة لم يكن من إعمال مظاهر التغيير التي نلحظها في غيرها من المدن المعمرة.

واكد «جورج مارسيه» على بعض ملامح المدينة الاسلامية وحاول ابرازها كالتوزيع الطبوغرافي للسكان، وموضع المقبرة في خارج السور، وأكد على أثر الاسلام في المدينة الاسلامية ووحدة تركيبها وانعكاس ذلك على تشابه المدن الاسلامية بصفة عامة.(٨١).

مما سبق تتضح جوانب التخطيط الاسلامي للمدن ابتداء من اختيار الموقع ثم

تخطيط الموضع تخطيطا يحقق غايات المجتمع الفردية والجماعية المادية والروحية انطلاقا من القيم والمبادىء الاسلامية، فبرز إلى حيز الوجود التكوين أو التركيب المادي للمدينة الإسلامية الذي تحكمه قوانين إسلامية خالصة تنظم عناصره ومكوناته تنظيما خاصا متميزا صاغ في النهاية الهيئة الواحدة التي نراها في جميع المدن الإسلامية، وواكبت هذه القوانين ما كان يحدث من نمو معماري لهذه المدن في هيئة ارباض اخذت الهيئة نفسها التي شكلت المدينة الأم وارتبطت بها ارتباطا عضويا ووظيفيا. وفي اطار ذلك أيضا تمت كل حالات التغير والتعديل التي تطرأ على المدينة من فترة إلى أخرى استجابة لسنة التطور، وتكيفا مع ظروف الحياة في هذه المدينة أو تلك.

وهكذا تتضح الرؤية التخطيطية للمدن الاسلامية ويصح أن توضع في الاعتبار عند دراسة وتحليل التكوين المادي للمدينة الإسلامية.



هوامش الفصل الثاني

١ ـ أحمد ابراهيم حسن: مدينة الكويت، رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة القاهرة، سنة ١٩٧٧، ص٣٣٩ ـ ٣٤١.

٢ ـ حمدي الديب: مدينة قنا، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة القاهرة، سنة ١٩٨٠، ص٢٧٤.

٣ ـ د. محمود علي مكي: مدريد العربية، وزارة الثقافة ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص ١٣ ـ ١٧.

٤ ـ حمدي الديب: المرجع السابق، ص ٢٧٤.

٥ ـ ابن الربيع: المرجع السابق، ص ١١٨.

٦ ـ د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الاسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص ٤٤١ ـ ٤٤٢.

٧ ـ جمال حمدان: جغرافية المدن، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٣٢٤.

٨ ـ جمال حمدان: المرجع السابق، ص٣٢٤، حمدي الديب: المرجع السابق، ص٢٤١.

٩ ـ القزويني: المرجع السابق، ص١١١، ليون الافريقي: المرجع السابق، ص٢٢٠.

د. حسين مؤنس: الخبر عن أقاليم قرطبة ص١٧٠، ١٧٣ ـ ١٧٥، ومن الدراسات الأثرية التي أثبتت ذلك دراسة روبرت آدم.

١٠ ـ الطبري: المرجع السابق، جـ٨، ص ٢٣٩، ٣٠٥، ٣١٥.

١١ ـ الطبري: المرجع السابق، جـ٨، ص ٢٣٨، اليعقوبي: المرجع السابق، ص٢٣٦ ـ ٢٣٧.

١٢ ـ الطبري: المرجع السابق، جـ٨، ص ٢٤٠.

١٣ ـ د. نيازي مصطفى: القاهرة دراسات تخطيطية في المرور والنقل والمواصلات، ص٩ ـ ١٠.

١٤ ـ ياقوت: المرجع السابق، جـ٥، ص ٢٢٣.

١٥ ـ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، جـ٢، ص ١٩٢، ياقوت: المرجع السابق، جـ٥، ص ١١٩، محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية في العصر الاسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٦٩.

١٦ ـ القزويني: المرجع السابق، ص ٤٢.

١٧ ـ ياقوت: المرجع السابق، جـ٣، ص ٣٨٠، آرثر أريري: شيراز مدينة الأولياء والشعراء: ترجمة سامي مكارم ـ سلسلة مراكز الحضارة، بيروت، ص٦٩.

١٨ ـ البغدادي: المرجع السابق، جـ١، ص ١٢.

١٩ ـ راجع الطبري: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٤٥، ياقوت: المرجع السابق، جـ٦،

ص٤٧٩، جـ٦، ص ٢٧٩، المقريزي: خطط جـ٦، ص٢٩٦، القزويني: المرجع السابق، ص٢٣٦.

٢٠ ـ القزويني : المرجع السابق، ص ٢٧٦.

٢١ ـ القزويني : المرجع السابق، ص٦١.

٢٢ ـ Charles Issawi : Economic Change and Urbanization in the Middle East 'in the Middle Eastern Cities,' pp. 106 - 107. د. عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص١٦٦.

٢٣ ـ ابن الربيع : المرجع السابق، ص١٨.

٢٤ ـ حمدي الديب : المرجع السابق، ص٣١.

٢٥ ـ القزويني : المرجع السابق، ص٨.

٢٦ ـ القزويني : المرجع السابق، ص ٢٩٦.

٢٧ ـ القزويني : المرجع السابق، ص ٩٧.

٢٨ ـ القزويني : المرجع السابق، ص ١٧٣.

المقدسي : أحسن التقاسيم، ص١١٨، خطط واسط: مجلة سومر: عدد ٣٤ سنة ١٩٧٨، ص١٨٢.

٢٩ ـ القزويني : المرجع السابق ، ص ٥٠.

٣٠ ـ القزويني : المرجع السابق، ص٥٤٥، ص٩٧.

٣١ ـ البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٧٥، والسيد الوكيل: المرجع السابق، ص٩٩.

٣٢ ـ ياقوت : المرجع السابق، جـ٣، ص ٧٥٩.

الموسوي : المرجع السابق، ص١١٨.

٣٣ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ، جـ٢، ص ٢١٥.

الموسوي : المرجع السابق، ص١٣٣.

٣٤ ـ القزويني : المرجع السابق، ص ٥٠.

٣٥ ـ ابن الأزرق : المرجع السابق، ص ٧٦٥.

٣٦ ـ ابن الربيع : المرجع السابق، ص ٢١.

٣٧ ـ ابن الأزرق : المرجع السابق، ، جـ٢، ص ٧٦٦.

٣٨ ـ سعيد الديوه جي: المرجع السابق، ص٦.

٣٩ ـ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٢٨.

٤٠ ـ القزويني : المرجع السابق، ص ٤٧٨.

٤١ ـ القزويني : المرجع السابق، ص ٤٧٨.

٤٢ ـ القزويني : المرجع السابق، ص ٤٣٤ .
٤٣ ـ بارتولد : تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ـ ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت سنة ١٩٨١ ، ص١٤٥ ـ ٢٩٦ .
٤٤ ـ بيتر فارب : بنو الانسان ـ ترجمة زهير الكرمي ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت سنة ١٩٨٠ ، ص١٣٩ .
روبرت ماك أومز : أطراف بغداد ـ تاريخ الاستيطان في سهول ديالي، ترجمة د. صالح أحمد العلي، د. علي محمد الميع ، د. عامر سليمان، نشر المجمع العلمي العراقي، سنة ١٩٨٤م، ص١١٣ وما بعدها.
٤٥ ـ ابن الأزرق: المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٦٤ .
٤٦ ـ الطبري : المرجع السابق، جـ٨، ص٢٣٨ ، ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية في الدول الاسلامية، ص ١١٨ .
٤٧ ـ القلقشندي : صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٥١ .
٤٨ ـ ابن الأزرق : المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٦٧ .
٤٩ ـ سعيد الديوه جي : الموصل، ص٧ .
٥٠ ـ جيمس هنري برستد : انتصار الحضارة، ترجمة أحمد فخري، القاهرة سنة ١٩٦٩ ، ص ١٥٧ .
٥١ ـ طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ـ بغداد سنة ١٩٥٥ ، ص١٦٧ .
د. محمد عبد الستار عثمان: اخميم في العصرين القبطي والإسلامي ـ دراسة تاريخية أثرية، سنة ١٩٨٢ ، ص٤ ـ ٥، الموسوي: المرجع السابق، ، ص١٥٧ .
٥٢ ـ ج.ج. كلستون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ـ ترجمة د. جوزيف نسيم ـ القاهرة ١٩٦٧ ، ص١٢٣ ، الموسوي: المرجع السابق، ص١٥٧ .
٥٣ ـ الموسوي : المرجع السابق، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ـ حاول توينبي في اطار تفسيره الديني لدراسة التاريخ أن يبرز أهمية العامل الديني في نشأة المدينة حتى أنه اعتبر كل المدن التي انشئت قبل عصر التصنيع الحديث مدنا دينية، لكنه صحح هذا الرأي في كتابه حول المدن Cities on the Move حيث ذكر أنه ليس هنالك في أي وقت ومكان مدينة تجارية أو صناعية أو سياسية أو عسكرية أو دينية بصورة كلية والأصح أن المدن تختلف فيما بينها بتخصصها المتزايد بواحدة من هذه الاتجاهات. «د. عبدالجبار ناجي : المرجع السابق : ص ١٤٣».
٥٤ ـ حمدي الديب: المرجع السابق، ص ٢٧٤ .
٥٥ ـ ابن الربيع : المرجع الاسبق، ص ٢١ .
٥٦ ـ اليعقوبي : المرجع السابق، ص ٢٥٤ .

٥٧ ـ عبدالعزيز الدوري: المؤسسات الحكومية ـ مقال بكتاب المدينة الاسلامية، اشراف أ. س. سيرجنت ـ ترجمة محمد تغلب، اليونسكو سنة ١٩٨٢ .

٥٨ ـ كان ذلك قبل أن تنتشر ظاهرة اقامة أكثر من خطبة في المدينة الواحدة وقبل أن تتعدد بالتالي مساجدها الجامعة.

٥٩ ـ ابن الربيع : المرجع السابق، ص١٢١.

٦٠ ـ ابن خلدون : المقدمة ، ص٨٢٩، ٨٣٠، ابن الأزرق: المرجع السابق، جـ٢ ص ٧٢٣.

٦١ـ الموسوي : المرجع السابق، ص١٠٠.

٦٢ ـ Geoffrey King, op. cit. P

٦٣ ـ المقريزي : خطط، جـ١، ص ٣٦٢.

٦٤ ـ اندريه ريمون : الأحياء الارستقراطية ، ص ٨٣ ـ ٨٤.

٦٥ ـ ابن الأزرق المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٦٣.

٦٦ ـ ابن الربيع : المرجع السابق، ص ٢١.

٦٧ ـ القزويني : المرجع السابق، ٩٤.

٦٨ ـ القزويني : المرجع السابق، ٨.

٦٩ ـ نتناول ذلك في الفصول القادمة موضحين علاقة التأثير والتأثر بين هذه التكوينات بعضها ببعض وعلاقة ذلك بتخطيط المدينة ككل.

٧٠ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص٩٧.

٧١ ـ Hathlaul, op. cit.

٧٢ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص ١٠٢.

٧٣ ـ Sauvaget, op. cit., pp 104, 105.

٧٤ ـ Grunebaum, op. cit.

٧٥ ـ Xavier de Planhol: The World of Islam, New York, 1959, pp. 22 - 23.

د. عبدالجبار ناجي: المرجع السابق، ص ١٤٨ ـ ١٥٠.

٧٦ ـ Ibid., pp. 22 - 23.

٧٧ ـ عبدالجبار ناجي: المرجع السابق، ص ١٧٠.

٧٨ ـ J. Lassner, The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages, Detroit, 1970, p. 180.

٧٩ ـ Lapidus, Muslim Cities in the Later Ages, pp. 106 - 199 - 200.

د. عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص ١٦٦.

٨٠ ـ J. M. Rogers, Samarra A Study in Medieval Town Planning in the Islamic City, p. 127.

د. عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص ١٦٨.

٨١ - G. Marcais : L'urbanisme Musulman in Melange d'Histoire et d'Archaeo giede de L'accident Musulman, (I - 1957) pp. 219 - 231.

والمعروف أن جورج مارسيه واخاه وليم مارسيه كانت لهما جهود موفقة في عمل تنقيبات لبعض مدن الشمال الافريقي ودراسة بعض آثارها، اعتمدا على كل ما تحقق لهما من كشوف ودراسات اثرية في الوصول إلى هذه الحقائق.



الفصل الثالث

تحصين المدينة الإسلامية

يمثل الأمن والأمان قيمة أساسية لنشأة المجتمع الحضري المستقر، ويعكس ذلك بوضوح دعوة أبي الأنبياء ابراهيم «رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات»، فسبق الدعاء بالأمان الدعوة بطلب الرزق سبقا يؤكد هذه الأهمية.
وعكست نشأة المدينة أهمية التحصين لحماية وجودها وتنمية عمرانها، وأيا ما كانت أسباب النشأة، فإن التجارة لعبت دورا أساسيا فيها، وكانت وراء تطور المدينة ونموها، وتضمنت التجارة في ثناياها امكان النهب والسلب، اللذين أوجبا انشاء تحصينات دفاعية تمكن من دفع الخطر، وفي سنة ٦٣٠٠ ق.م حدث تغير رئيس في الشرق الأدنى تمثل في بناء ثكنات للجند بالاضافة إلى القلاع والتحصينات، وتدل تلك الثكنات على وجود طبقة متخصصة من الجند جعلت العمليات الحربية بذلك العنف الشديد الذي امتد خلال آلاف السنين. وحماية للمدن ظلت الأسوار والاستحكامات والخنادق من خصائص المدن حتى القرن الثامن عشر في أوروبا بل حتى اليوم في أجزاء قليلة من العالم.(١)

وانطلاقا من أهمية الأمن الذي يتوفر بتحصين المدينة اعتبر السور من المعايير الحضارية التي تميز المدن.(٢) واعتبر الاسلام بناء الأسوار والابراج والقلاع والحصون من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض وهي من مقاصد الاسلام. ومن هنا صنفها الفقهاء تصنيفا يضعها في عداد «البناء الواجب»، ولاسيما إذا كانت الحاجة ملحة لاستخدامها في الدفاع عن حرمات المسلمين. ووقفت عليها الأحباس لترميمها وتقويتها، وحكم الفقهاء بالتزام العامة في المشاركة في بنائها مادامت تتحقق مصلحتهم بانشائها وخصوصا إذا دعت الظروف إلى ذلك، واحتاجت السلطة إلى مثل هذا العون. ودعت هذه الأحكام أيضا إلى المحافظة عليها وعدم هدمها وإزالتها حتى لو انتفت الحاجة الملحة

اليها، لأنه ربما احتيج إليها في وقت لاحق، ونظمت هذه الأحكام كل ما يتعلق بالاسوار سواء كانت مستقلة، أو كانت تشكل أجزاء من حوائط البيوت المتصلة بها من حيث وجوب الاهتمام بها وعمارتها لأن ذلك يحقق الهدف الأصلي من وراء بنائها، وأي خلل في عمارتها يمنع تحقيق هذا الهدف.(٣) كما أنها نظمت قواعد التعاون بين العامة لاحاطة محلاتهم السكنية بالاسوار والدروب الخاصة التي تكفل حمايتهم.(٤)

ويبدأتحصين المدينة باختيار الموقع الذي اشترط المفكرون المسلمون فيه أن يكون حصينا بطبيعته، كأن يكون على «هضبة متوعرة من الجبل أو باستدارة بحر أو نهر حتى لا يوصل اليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف تحصينها. «واشترط ابن خلدون وابن الازرق في المدن الساحلية أن تكون «متوعرة المسالك وحولها القبائل» التي تساعدها على الدفاع إذا ما تعرضت للهجوم.(٥) ومما يكشف عن أن هذه المواصفات في اختيار الموقع الحصين كانت معتبرة في اختيار مواقع المدن، ما قاله الدهقان للمنصور عند اختيار موقع بغداد حيث ذكر أن: «التدبير في المدن أن تتخذ لها الأسوار والخنادق والحصون، ودجلة والفرات خنادق لمدينة أمير المؤمنين»(٦) كما يكشف عن ذلك انتقاد المعزلدين الله قائده جوهر في عدم اختيار هضبة «اسطبل عنتر» جنوب الفسطاط، أو «المقس» في موضع مباشر على النيل كموقع لمدينته بدلا من الموقع الذي انشئت عليه القاهرة.(٧)

ويساعد الموقع المحصن تحصينا طبيعيا على سهولة الدفاع عن المدينة، لكن ذلك لا يمنع من اقامة الأسوار حولها لتحقيق هذه الغاية تحقيقا سليما في ضوء الأساليب الدفاعية والهجومية وآلات الحصار المستخدمة(٨) في العصور المختلفة، حيث إن تخطيط الأسوار والقلاع والحصون والابراج، وتطوير هذا التخطيط من فترة إلى اخرى كانا مرتبطين ارتباطا وثيقا بتطور وسائل الدفاع والهجوم وأساليبهما.

وبصفة عامة كان « التدبير في المدن أن تتخذ لها الأسوار والخنادق والحصون»،

واختلفت هذه الانشاءات الحربية باختلاف مواقع المدن، فمنها ما استدعى انشاء قلعة تحميها على تل قريب لوقوع المدينة في واد منخفض كحلب، ومن المدن ما استدعى انشاء المحارس والنواظر لمراقبة السواحل التي قد يهاجم منها الاعداء هذه المدن، ولا أدل على ذلك من مدن الثغور الاسلامية في الشام، وبعض مدن ساحل الشمال الافريقي. ومن المدن ما اتجه تحصينها الحربي مباشرة لانشاء الخنادق والاسوار والفياصل، كما كان حال واسط وبغداد والقاهرة والمهدية وغيرها. وتكاملت النوعيات المختلفة من الانشاءات الحربية لتفي بالغرض من انشائها. وفي الغالب الأعم كان السور أهم هذه الانشاءات الحربية التي ميزت المدن الاسلامية(٩)، وأثرت في تخطيطها تأثيرا واضحا.

وكان المحور الأساسي الذي يحكم بناء الحصون في العصور القديمة يقوم أساسا على «تنظيم العراقيل بين المهاجمين والمدافعين لمنع المهاجمين من المضي في سبيلهم، ولوقاية المدافعين من شر مقذوفاتهم، وتمكين المدافعين في الوقت نفسه من أن يمطروا المهاجمين وابلا من مقذوفاتهم». وبناء على ذلك اقيمت الحصون الأولى التي كانت اولى مراحلها اقامة سور من الردم بارتفاعات مختلفة حول الخندق، أو القناة التي كانت تستعمل المواد الناتجة من حفرها في اقامة آكام الحصون نفسها، وكانت تعلو هذا كله «مستقيمات حجرية» للاختفاء خلفها وتسمى أيضا «المتاريس»، وكانت متقاربة لتمكن المدافعين من الاختباء خلفها وارسال سهامهم إلى المهاجمين. (١٠)

ومن خلال هذا الوصف السريع تتضح فكرة الاعاقة للعدو المهاجم من خلال مانعين اساسيين متمثلين في «السور» الترابي وفي «الخندق» الغائر الذي يكلف العدو مشقة الهبوط والصعود، ويسهل على المدافعين خلف «الدراوى» الحجرية، والتي تمثل نقاطا دفاعية أساسية متعددة ومتقاربة. ثم تطور الأسلوب نتيجة التجربة والممارسة، فحتى تكون الاعاقة تامة للجيوش المهاجمة، وحتى لا تصل بسهولة الى المدن نتيجة امكانية تسلق الحصون المتمثلة في السواتر الترابية كانت الفكرة في انشاء حصون عالية يصعب تسلقها بجعلها عمودية تماما عند أسفلها،

وكان تحقيق ذلك ببناء «السور» الذي بنى أولا باللبن، كما تشهد بذلك آثار العصر الهكسوسي والهيثي والفرعوني، ثم رغبة في زيادة متانته لمقاومة ضربات المهاجمين بنى «السور بالحجر». وكان هذا التطوير محققا لامكانات أكبر في الدفاع، ويزيد من امكانية الارتفاع اختيار موقع مرتفع للمدينة أصلا ليحقق رؤية افضل، وليمكن من «ركوب» العدو المهاجم، ثم رُئى أيضا أن يكون هذا السور موقعا هاما في الهجوم على العدو، ولا يقتصر على موقف «الدفاع السلبي». وحتى يحقق السور هذا الغرض صمم على أن يكون اعلاه على هيئة ممر أو ممشى يمكّن الجند المدافعين من تأدية عملهم بمستوى عال، ويحقق للجند المشاة أوالركبان رؤية أفضل ومرمى أبعد وأوسع.

والسور بهذه المواصفات أصبح خطا دفاعيا هجوميا متكاملا، وحتى يستطيع هذا الخط الدفاعي الهجومي أن يحقق مهمته بكفاءة كان لابد من سهولة تزويده بما يحتاج إليه من عتاد، وتقوية بعض نقاطه على مسافات مختلفة بأبراج، وكان لابد من سهولة الاتصال بين الجند المدافعين عنه، وتنظيم العمل بينهم بالصورة المطلوبة، وهو أمر استدعى أن يخطط السور بمواصفات وقياسات دقيقة تفي بهذه المتطلبات، وقد انعكست هذه الأمور على عمارة وطريقة انشاء الأسوار، بما اشتملت عليه من عناصر معمارية مختلفة. (١١)

ومع الخبرة المكتسبة وادراك مواطن القصور ومحاولة معالجتها حدث التطور التالي في أسلوب التحصين، فقد تبين أنه «كلما ازداد طول الحصن ازدادت مساحة الأرض الحافة بأساسه، والتي كلما ارتفع هذا السور تعسر على المدافعين من فوقه أن يصيبوا هدفا واقعا في تلك المساحة، لأنهم مضطرون الى القاء مقذوفاتهم حسب ميْل معين، لاضطرارهم إلى البقاء خلف المتاريس دون التمكن من إلقائها إلا إذا خرجوا من بين المتاريس، وحينئذ يعرضون أنفسهم لمقذوفات المهاجمين، وهذه المنطقة التي لم يكن يمكن اصابة العدو فيها هي التي سميت بالمنطقة الميتة Angle Morts، وفي وجودها خطر كبير على كيان أساس السور، ولاسيما عندما يتعرض للنقب والثقب بالآلات الثاقبة، أو حرق

أحجاره(١٢)، فاخترعت «السقاطات» Machi Coulis، وهي عبارة عن بناء بارز عن سمت السور من أعلـى في أرضيته «فتحات» يمكن منها اسقاط الزيت المغلي والحمم والضرب بالسهام لمن يتجرأ على الوصول إلى هذه المنطقة، ويتمكن من الالتصاق بالسور. (١٣)

وطور استخدام هـذه الفكرة في الجـزء العلوي من البوابـات التي تفتح في الأسوار، ومكّنت هذه الفتحات الأفقية من ضرب حواف أساس السور عموديا تماما أو في اتجاه مواز للسور. وبذلك تمكن المدافعون من أن يمنعوا اقتراب العدو من الحصن، ولكن لما كان الرماة من داخـل هذه البـروزات التي تشتمل عـلى الساقطـات لم يستطيعوا الاشراف على زوايا منفرجـة، ونظرا لضـرورة عمل ارضيات وجدران سميكة لا يمكن فتح ثقوب واسعة فيها كان لابد من البحث عن طريقة تمكّن المدافعين من تطهير حافة الاسـاس بالقـاء المقذوفـات عليهم جميعا، وكان ذلك مدعاة لتطوير آخر مؤداه أن تحولت الابراج المربعة والمستطيلة التي كانت بارزة عن سمت السـور إلى شكل مقـوس مدبب من الامـام وأكثر بروزا، أو إلى شكل بيضاوي، ثم صارت الابراج مضلعة كنوع من نوعيـات الحلول البـديلة، وبذلـك أمكن التغلب على هـذه المشكلة. وزودت الابراج بمزاغل Arrow Slits أو فتحات رأسية تمكن المدافعين من ضرب سهامهم من مستويات متعددة بتعدد طوابق الابراج.

وعكست عناصر العمارة الحربية تطور أساليب الدفاع المتلاحقة، ويرى ذلك بوضوح في أبراج المراقبة، وفي قلاع الثغور والموانىء، وفيـما اشتملت عليه من عناصر ووحدات معمارية كالمزاغل والسقاطات والشرافات والسلالم والممرات وأساليب التغطية ومواد البناء وأساليبه، وهو أمر برع فيه «المعمار الاسلامي من خلال ما أنشأه من أسوار وقلاع وأبراج تمثل وسائـل مختلفة لتحصـين المدينـة الاسلامية.

فمنذ البداية أخذت المدن الاسلامية الناشئة مظهرا حربيا، فقد كانت بمثابة معسكرات حربية تفي بمتطلبات الجيوش الفاتحة، وكانت مراكز للانطلاق نحو

فتوحات أخرى، وكانت استراتيجية اختيار مواقع هذه المدن هي أن تكون على اتصال بري مباشر بمركز القيادة في المدينة المنورة، لا يفصلها عنها موانع مائية، وكانت هذه رؤية الخليفة عمربن الخطاب الذي أكد على هذا الأمر في اختيار موقع البصرة والكوفة والفسطاط. ثم اتبع هذا النهج في اختيار عقبةبن نافع موقع مدينة «القيروان» ،فجعلها بعيدة عن البحر داخل الصحراء حتى لا تكون في مرمى الاساطيل المعادية ولاسيما أن المسلمين في هذا الوقت لم تكن لهم القوة البحرية التي تمكنهم من الدفاع عن مدن ساحلية. ولكن بعد أن توفرت هذه القوة وأنشئت الاساطيل الاسلامية اختلف الاتجاه، فانشئت المدن الساحلية، بل كان الاتجاه نحو انشاء هذه النوعية من المدن .ومن أروع الأمثلة على ذلك المدن الاسلامية بالشمال الافريقي وبلاد الاندلس والتي ازدهرت ازدهارا كبيرا يؤكد نجاح المسلمين في هذا التوجه.

ولم تكن الحاجة ملحة لانشاء الأسوار حول هذه المدن الأولى، ولاسيما أن دواعي الأمن والأمان في أقاليم الدولة الاسلامية الناشئة كانت متوفرة، كما أن قوام سكان هذه المدن كانوا من الجند الفاتحين. وبدأ انشاء الأسوار للمدن الإسلامية بعد ذلك لتحقق أهدافا أمنية للقاطنين فيها، واختلفت دواعي وأسباب إنشاء هذه الأسوار باختلاف أسباب انشاء المدن وظروف إنشائها، بالإضافة إلى اختلاف مواصفات مواقعها ومواضعها. ومن أولى المدن الإسلامية التي اهتم بتحصينها «واسط» التي اتبع في تخطيطها نهج يؤكد على أهمية تحصينها، فحفر لها خندق يحيط بأسوارها ووضعت في الأسوار أبواب أربعة، يحكم غلقها وفتحها، تؤدي إلى أربعة شوارع رئيسة تنتهي إلى المسجد والقصر في قلب المدينة(١٤). وكان اختيار موقع المدينة بين الكوفة والبصرة للسيطرة عليهما، وابعاد جند الحجاج «الشوام» عن الاختلاط بأهل البصرة والكوفة مخافة الفتنة، وتأمين مركز الادارة الناشىء من أي ثورات يحدثها أهل البصرة والكوفة ضد الأمويين.

وبغداد من أروع أمثلة المدن الاسلامية التي روعى في تخطيطها متانة

تحصيناتها، وتمثل مرحلة متقدمة في التخطيط الحربي لأسوار المدن في القرن الثاني الهجري، فقد جاء تخطيط هذه المدينة مستديرا(١٥) فأوفى بالغرض الحربي باعطاء رؤية متكاملة وواضحة للجند المدافعين عن أسوار المدينة(١٦) عما لو كانت المدينة مستطيلة أو مربعة، كما أن هذا التخطيط المستدير حقق غرضا اقتصاديا من ناحية التوفير في تكاليف البناء. فمحيط قطعة من الأرض على شكل دائرة أقل من محيط المربع المساوي لها في المساحة بمقدار ٢٧ , ١١٪(١٧). ولاشك أن التوفير في تكاليف الانشاءأمر مرغوب فيه، ويدعم الموقف الحربي بصورة غير مباشرة، بالاضافة إلى أن الاقتصاد شرط من الشروط الأساسية التي يجب توافرها في العمارة بمعناها الصحيح.

وكان التخطيط الحربي لمدينة بغداد يقوم أساسا على عدة خطوط دفاعية متتابعة تحقق اعاقة المهاجمين وتمكّن المدافعين من ضربهم. فقد حفر حول المدينة «خندق» يحيط بأسوارها بعمق ستة أمتار واتساع مثل ذلك، كان يملأ بالماء عن طريق قناة في وقت الخطر، وكان أمام كل باب من أبواب المدينة الأربعة قنطرة تمكن من عبور هذا الخندق في حالة السلم، وكانت ترفع في أوقات الحرب، ومع رفعها تصبح المدينة معزولة لا يصل إليها أحد إلا بعبور الخندق الذي يملأ بالماء اثناء الحرب، كما أن سور المدينة الخارجي المجاور للخندق بنيت لحماية اساسه من الماء «مسناة» يصعب التسلق عليها من قاع الخندق، وكان هذا الخندق بمثابة أول عائق اساسي لمن يهاجم المدينة. ومن المعروف أن هذه الفكرة استخدمت في عهد الرسول (ص) في المدينة أشار عليه بها سلمان الفارسي «عندما أراد الرسول تحصين المدينة ضد المشركين، وانسحب اسم الخندق على هذه الغزوة. وهي فكرة قديمة ـ كما أشرنا ـ استمرت في العصر الاسلامي، واتبعت في كثير من المدن الاسلامية منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويلي الخندق « السور الخارجي » الذي يمثل خطا دفاعيا واقيا.وكان بهذا السور أربعة «مداخل منكسرة» (باشورة) (Bent Entrance) اتخذت تصميما معماريا يضطر الداخل في أي منها إلى الانعطاف يسارا فتتكشف يمينه، وهي نقطة

الضـعف التي يمكن اصابتها لعدم حمايتها بادوات الحماية المستخدمة باعتبارها الذراع الضاربة المتحركة، ويمكن اصابتها اصابـة مباشـرة. وكان هـذا السور بارتفاع عشرين مترا، وسمكه خمسة وعشرون مترا عند القاعدة، وعشرة امتار من أعلاه، وهذه المقاييس مرتبطة بتحقيق أهداف معينة، فالسمك يساعد على متانة الانشاء من ناحية، وعلى عدم تمكين العدو من ثقبه بسهولة من ناحية ثانية، ومن ناحية ثالثة يوفر ممشى للجنود في أعلاه، كما أن الارتفاع محكوم بارتفاع السور الكبير الداخلي، الذي كان أعلى منه، ليكشف المحاربون من خلالـه الساحـة خارج المدينة، كما أنه بهذا المستوى المذكور، يحقق رؤية أفضل لأبعد مدى ممكن.

وكان للمداخل أبواب صفّحت مصاريعها بالحديد لمقاومة ضربات العدو إذا ما استطاع الوصول إليها، وهو أسلوب شاع استخدامـه في جل أبـواب المدن الإسلامية،ومن أمثلة ذلك: أبواب المهدية والقـاهرة(١٨) وغيـرهما. وكـان بين السورين الخارجي والداخلي الكبير مساحـة خاليـة تصلح للدفاع عن السـور الأخير. وهذه المساحة تسمى «الفيصـل»، ويمكن اصطيـاد العدو فيهـا إذا ما استطاع اجتياح السور الخارجي.

أما السور الداخلي الكبير فهو أكبر الخطوط الدفاعية قوة، تؤكد ذلك مقاييس بنائه، حيث يبلغ سمك السور عند قاعدته خمسة وثلاثين مترا، وعرضه في أعلاه إثنيعشر مترا، وزود بأبراج عددها مائة وثلاثة عشر برجا نصف مستدير، وأبواب هذا السور مزودة بسلالم يصعد منها إلى مجلس يعلو كل باب يمكن من خـلاله مشاهدة المنطقة خارج المدينة ومراقبتها باعتبار ارتفاعه واشرافه على الساحات خارج المدينة.

وخططت مداخل المدينة الأربعة تخطيطا حربيا دقيقا يمكن من خلاله التحكم الجيد في الدخول والخروج من المدينة، والسيطرة على كل جزء منها، وكان يشرف عليها الجند والحرس، وزودت هذه المداخل بغرف بلغ عددها في كل مدخل مائة وثماني غرف، منها مائة للجند، تتسع كل غرفة لعشرة، وبذلك يكون عدد الجند ألف جندي، أما الغرف الثماني الباقية فخصصت للقـادة. أما قلب المـدينة،

الذي اشتمل على الدواوين وقصر الخلافة والمسجد الجامع، فكان محاطا بسور داخلي مركزي، يُعد الخط النهائي لحماية مركز السلطة داخل المدينة.

وتكشف دراسة أسوار القاهرة الباقية التي ترجع إلى أعوام ٤٨٠ ـ ٤٨٥هـ عن تطور عمارة أسوار المدن وتحصينها سواء من ناحية تزويد السور بخطين للدفاع في وقت واحد بعمل خط دفاعي داخل السور بالإضافة إلى الخط الدفاعي أعلاه، أو بتطوير تصميم المزاغل، ودراسة حركة الاتصال بين الجند والقادة ومراعاة اجراءات التزويد والامداد بصفة مستمرة للجند عن طريق عناصر الاتصال المختلفة، هذا إلى جانب البراعة في استخدام الحجر في بناء الأسوار(٩)، واستخدام عناصر انشائية قوية كالتغطية بالأقبية الطولية والمتقاطعة والقباب الضحلة، واستخدام الروابط الرخامية Marble ties على ارتفاع معين من أساس السور لتمنع من انهيار السور في حالة ثقبه من أسفله، وهو أسلوب استخدم قبل ذلك في مدينة المهدية، ولم نر له مثْلا قبل ذلك في أسوار المدن.

وتكشف دراسة السور الشمالي من أسوار القاهرة عن التركيز الواضح في الاجراءات الدفاعية لصد أي هجوم عن غيره من اضلاع السور الأخرى، وكان ذلك لتوقع الهجوم غالبا من هذا الاتجاه، بالاضافة إلى توفير المواقع الطبيعية والبشرية في الاتجاهات الاخرى. وهو أمر يكشف عن تأثر تخطيط الأسوار بمؤثرات تتعلق بظروف الموقع وطبيعته. وكان لتخطيط أسوار القاهرة أثر واضح في أسوار مدن المرابطين والموحدين في الشمال الافريقي وبلاد الاندلس.

وفي عمارة قلعة صلاح الدين نرى تطورا أكثر، فقد استخدمت المداخل المنكسرة استخداما شائعا لميزاتها الحربية، وتطور شكل المزاغل بحيث أصبحت المزاغل في الخط الدفاعي في قلب السور تمتد فتحاتها إلى أرضية الممر، لتمكن الرامي من رمي سهامه إلى أسفل لاصابة من يلتصق بالسور، بالاضافة إلى امكاناتها في الضرب في اتجاه الأمام والجنب.

وتكشف دراسة الابراج في هذه القلعة عن مكر حربي متقدم حيث إن الأبراج

بدت مستقلة في الدفاع عن نفسها، كما أن الوصول إليها كان من أبواب في الطابق الثاني يصعد إليها بسلالم متحركة، وكان الوصول إلى الطابقين السفلي والعلوي من سلالم داخلية، وفي هذا حيلة حربية لضرب العدو الذي ربما يحاول غزو هذه الأبراج، وتظل حصينة كنقاط دفاعية مستقلة حتى في حالة اختراق الأسوار.

ونلاحظ في أسوار المدن والقلاع في شمال افريقية وبلاد الأندلس(٢٠) أنماطا متعددة من الأبراج التي اشتملت على الكثير من الحيل المعمارية التي تساعد على ضرب العدو، مما يكشف عن براعة المخطط، فعندما أراد عبدالرحمن الناصر تحصين قرطبة بنى لها أبوابا سنة ٣٠١هـ(٢١) لتسهيل الدفاع عنها واتاحة الفرصة للحراس لمضاعفة الحراسة. ومن هذه الحيل ما استخدم في أبراج أبواب المدن في عهد المرابطين والموحدين، ومن أبرز أمثلتها ما يطلق عليه «الأبواب ذات المرافق». وتعتبر هذه الأبواب من الأمثلة المبتكرة التي ابتدعها المرابطون. فقد اختلفت عن نظام تخطيط أبواب المدن البيزنطية ذات العقدين المتقابلين اللذين يفتح أحدهما إلى داخل المدينة والآخر إلى خارجها. فهذه الأبواب المبتكرة تجعل الممر الواصل بين فتحتي الباب منحنيا بزاوية منكسرة قائمة في شكل «المرفق»، ويمتاز هذا التخطيط بأنه يضع العراقيل والعقبات وراء انحناء الممر أمام المهاجمين، وقد عقد الموحدون هذا النظام إذ انشأوا أبوابا ذات مرفقين، وأخرى ذات ثلاثة مرافق، ولم يسقفوا أجزاء من الممرات الواقعة بين مداخل الأبواب ومخارجها، حتى يساعد ذلك المدافعين على قذف المهاجمين بالنبال أو النار الأغريقية. ومن أروع الأمثلة الباقية التي تمثل هذه المراحل «باب أغناو» بسور مراكش ٥٤١ ـ ٥٥٨هـ، و«باب الرواح» بسور رباط الفاتح الذي يلتوى الطريق بمدخله التواءات أربعة، وباب قصبة رباط الفاتح ٥٥٨ ـ ٥٩٥هـ.

ومع استخدام أسلحة متطورة في العصر العثماني أخذت ملامح العمارة الحربية تتواءم وهذا التطور الجديد في التسليح، عكس ما كان عليه الحال في العصور السابقة، فأصبحت ارتفاعات الأسوار والأبراج أقل، بعد أن أصبح في

استطاعة آلات الحرب الحديثة هدم الحصون والأسوار المرتفعة مهما بلغت من الارتفاع والضخامة، ومع بداية القرن العاشر الهجري ـ السادس عشر الميلادي ـ حدث تحول كبير في بناء الحصون بسبب انتشار المدفعية واتقان فنها في فرنسا وتركيا، وبعد انتشار المواد المفرقعة في ايطاليا أيام النهضة الايطالية وتطورت المفرقعات تطورا بالغا أصبحت معها المدفعية من الأسلحة الرئيسة التي انزوت بجانبها اسلحة العصور الوسطى من مجانيق وسيوف وغيرها، وأصبحت المدفعية أساسا قويا في التعامل الحربي والمحك الرئيس في إحراز النصر.

وكان لهذا اثره على التحصينات التي جرت العادة على انشائها لحماية المدن، فلم تعد الاسوار الحجرية العالية قادرة على تحمل ضربات المدفعية وكان لا بد من تقوية هذه الجدران بميل كثيف من الرمال، وامعانا في حمايتها خفضت ارتفاعاتها لحجبها بقدر الامكان عن متناول العدو، كما اتجه التخطيط إلى تعميق الخندق أمامها. وهكذا بدأت تزول أهمية الحصون المرتفعة لتصبح، فيمابعد، خصونا أرضية مختبئة شيئا فشيئا. ويمكن مشاهدة ذلك فيما تخلف من قلاع واستحكامات حربية سارت على هذا النمط كما في طوابي مدن الساحل بمصر،وما انشىء من استحكامات في منطقة «عسير» بالسعودية التي يرجع انشاؤها إلى العصر العثماني. (٢٢)

ومع استخدام «البنادق» و«المدافع»، بدلا من اسلحة الرمي التي شاع استخدامها في العصور السابقة، اخذت فتحات الرمي في الأسوار والابراج اشكالا تتناسب وهذه الاسلحة، فأصبحت فتحات المدافع ضيقة من الداخل متسعة من الخارج، عكس المزاغل، لتسمح بحرية الحركة لتوجيه فوهة المدفع، كما أن الفتحات التي زودت بها الابراج للقناصة المسلحين بالبنادق أصبحت فتحات دائرية صغيرة تسمح فقط بالحركة لفوهة «ماسورة» البندقية، ونرى أمثلة واضحة في ابراج العمارة العثمانية، وما عاصرها من منشآت حربية انتشر بناؤها في المدن والبلاد الاسلامية .وبقى الكثير من أبراج المدن في المملكة العربية السعودية التي انشئت في مراحل متأخرة، والتي صممت فتحات للرمي فيها تبعا

لاستخدام البنادق، ومن امثلتها ابراج قصر المصمك بالرياض القديمة، وبعض الابراج في المنفوحة وسدوس وشقرا وغيرها من مدن نجد، التي انتشر فيها وفي غيرها هذا النمط من الابراج.(٢٣).

علاقة التحصين بتخطيط المدن الإسلامية

أثرت ظاهرة التحصين في المدن الاسلامية تأثيرا واضحا على جوانب تخطيطها المادي، فكان لها تأثير مباشر في مساحتها التي أصبحت محدودة بالقدرة على انشاء هذه التحصينات وتكاليف انشائها الضخمة، وتوفير الجند والعتاد اللازمين لحمايتها، هذا بالاضافة إلى أن نظام التحصين يكون أوفق كلما صغرت المساحة ليسهل الدفاع عنها، ومحدودية مساحة المدينة تؤثر بدورها في تكويناتها المعمارية بصفة عامة. والمقارنة بين بغداد والقاهرة كمدينتين مسورتين وبين سامراء التي لم تقيد مساحتها بالاسوار(٢٤) تكشف عن أثر تقييد مساحة المدينة بالاسوار واثره في تخطيط شوارعها، وتخطيط وهيئة تكويناتها المعمارية الأخرى من مساجد وقصور ومنازل وغير ذلك. فمدينة بغداد مثلا كانت مساحتها محدودة(٢٥). واتخذت تخطيطا دائريا يساعد على سهولة الاتصال، ويوفر تكاليف بناء الاسوار عما لو كان التخطيط مربعا، وذلك لأن محيط مساحة دائرية محدودة يقل عن محيط مثيلتها التي تأخذ شكلا مربعا بنسبة ٢٧ , ١١٪، ومن خلال الروايات التاريخية عن بناء بغداد - ولاسيما فيما يتعلق بهدم ايوان كسرى واستخدام احجاره في بناء الاسوار، ثم الإحجام عن ذلك لما علم أن تكاليف الهدم ونقل الاحجار تزيد على تكاليف عمل لبن لبناء الاسوار - نلاحظ مدى الحرص على الاقتصاد في النفقات، وهو أمر يدلل على أن تكاليف التحصينات حول المدن له أثر كبير في محدودية مساحة هذه المدن، وبالتالي في تخطيطها. كذلك تعد أسوار بدر الجمالي التي أنشأها حول مدينة القاهرة بعد اضافة مساحة محدودة تقدر بحوالي ١٥٠ مترا شمالا ومثلها جنوبا وثلاثين مترا شرقا(٢٦) وخمسة عشر مترا غربا، مثلا آخر على ذلك.

ويلاحظ أن نمو المدن الاسلامية المسورة كان يمتد خارج الاسوار في مدة قصيرة

لازدحام المدينة بسكانها، وكان هذا الامتداد يأخذ هيئة محلات سكنية متكاملة تسمى «أرباضا» بنيت لها أسوار خاصة بها، كانت تربطها بأسوار « المدينة الأصل» مناطق اتصال، فتحت بها الأبواب التي تيسر الاتصال بين المدينة وارباضها المختلفة، واشتمل كل ربض على كل التكوينات المعمارية التي تستلزمها حياة ساكنيه. ومن أمثلة المدن الاسلامية التي تمثلت فيها هذه الظاهرة بصورة واضحة مدينة قرطبة(٢٧). مما سبق يتضح أن احاطة المدينة بسور كان له أثره المباشر على محدودية مساحتها، تلك المحدودية التي تولد عنها امتدادات سريعة خارج الاسوار أخذت نمطا متكررا من هيئة المدينة الاصل فظهرت الأرباض المحصنة أيضا، والتي أثر تحصين كل منها بسور في مساحة كل منها، مما أدى إلى تكرارهاباالهيئة نفسها، بالاضافة إلى القيمة الحضارية التي يعكسها بناء «أسوار المدن الاسلامية في العصور الوسطى؛ فان اسوار كل مدينة تحكي بصدق جانبا هاما من تاريخها السياسي والحربي، وما تعرضت له من أحداث.

وكان للأحداث السياسية والحربية العامة التي تعرضت لها خريطة العالم الاسلامي في عصوره المتتابعة أثرها المباشر في الاهتمام ببناء التحصينات المختلفة التي تمكن المدينة من الدفاع عن نفسها «والاهتمام بانشاء الأسوار حول أرباضها التي تمثل الامتدادات العمرانية خارج أسوارها القديمة». واختلفت طبيعة هذه الأحداث شرقا وغربا، واختلفت درجات تأثر المدن الاسلامية بها. فقد اهتم الامويون بانشاء التحصينات اللازمة لحماية ثغور الدولة الاسلامية ومدن الشام من غارات الروم المتوقعة على هذه الثغور والمدن، فاستغلوا الحصون البيزنطية القديمة، ورمموا ما تهدم منها، وبنوا ما كانوا في حاجة إلى بنائه لتدعيم الدفاع عن هذه المدن، «وتدلنا الاخبار المجموعة عن المدن المحصنة على طول الساحل الشامي، وعن المدن الثغرية التي بنتها الدولة - في القرنين الأول والثاني الهجريين - على حسابها، من شمال انطاكية إلى طرطوس، وعن المدن الثغرية التي أقامتها الدول على خط الفرات، وعن أن الدفاع الساحلي اعتمد على ثماني عشرة مدينة مسورة، ابتداء من انطاكية إلى عسقلان منذ عهد الراشدين. وأن

التحصينات البرية الواقعة شمالا على طول الفرات الأعلى أو على خط الساحل شمال انطاكية، أو فيما بين هذين الخطين بلغت حين تمت سبعة وثلاثين حصنا ومسلحة وجسرين، والدلالة الإحصائية لا تتم إلا إذا أحصينا «المناظر» أيضا، وتفترض وجود نحو خمس عشرة منظرة على الأقل غير مجاورة للمدن فيصل مجموع ذلك كله نحو سبعين عملا حربيا صغيرا وكبيرا. »(٢٨).

وكانت هذه المنطقة أيضا مسرحا للحروب الصليبية، وانعكس ذلك انعكاسا مباشرا على تحصيناتها، فاهتم المسلمون بتحصين قلاعهم وحصونهم وأسوار مدنهم. وانشأ الصليبيون قلاعا جديدة في المواقع التي احتلوها لتكون مرتكزا لقواتهم التي تحاصر المدن الساحلية الحصينة الضخمة، أو خطوط انطلاق للحملات الجديدة والغارات السريعة داخل الأراضي العربية، بالاضافة إلى اهتمامهم باعادة بناء وتقوية القلاع وأسوار المدن التي استولوا عليها. وبنوا هذه القلاع والابراج والاسوار حسب التقاليد النورماندية التي ساهمت في تطور العمارة العسكرية في المشرق العربي، وكانت قلاعهم تتألف ـ كما هو حالها في شمال فرنسا وانجلترا ـ من برج متعدد الطبقات منيع للغاية وهو «البرج المحصن»، يحيط به سور ساتر وحيد متطاول ومعزز في أكثر الأحيان بابراج زاوية مع «خندق» عريض (ditch) أو «قناة مائية » عريضة (Fosse). ومن أمثلة ذلك تل الصافية وصافيتا وقلعة يحمور، كما كانت تشاد أبراج محصنة من هذا الطراز في القلاع الكبرى مثل قلعة صهيون لتعزيز النقاط الضعيفة بشكل خاص(٢٩).

وبالإضافة إلى هذه القواعد الهجومية التي كان معظمها يحتل مواضع الخطوط الخارجية أقيمت قلاع فرنجية عديدة على الشريط الساحلي، وعلى المنحدرات الغربية للجبال المتاخمة للساحل. وفي المناطق الداخلية شرع عدد كبير من الاقطاعيين ـ كبيرهم وصغيرهم ـ يبتنون مقرات ثابتة لانفسهم في مواقع كانت محصنة في الغالب استولوا عليها من الأمراء العرب بقوة السلاح أو بالمكيدة مثل: قلعة الحصن، وقلعة صهيون، وقلعة المرقب، ولايعرف إلا القليل عن المخطط الاصلي لهذه المعاقل ومظهرها لأن معظم القلاع التي بناها الاقطاعيون قبل نهاية

القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين انتقلت فيها بعد إلى حيازة طوائف الرهبانيات الفرسانية Knighty orders ، وخضعت لاعادة بناء وتعديل جذريين نتيجة ذلك . (٣٠) .

وفي المقابل كان للحالة الاقتصادية السيئة التي عانى منها الامراء الايوبيون أثناء مقاومتهم الصليبيين أثرها، فانهم لم يقدروا على انشاء تحصينات قوية جديدة فاضطروا إلى اصلاح المعاقل القديمة التي أصبحت بالية، وتعديل المباني المناسبة القديمة لاغراض الدفاع كتحويل المسرح الروماني في بصرى إلى قلعة، وتحويل «الهيكل» في بعلبك إلى قرية محصنة واعتبارا من اواسط القرن الثاني عشر الميلادي فصاعدا أصبح في مقدور المسلمين البدء في بناء قلاع أكثر مناعة مثل: قلعة شيزر، بل إقامة قواعد هجومية مثل قلعة عجلون التي شيدت قبالة قلعة كوكب Belvior في سنة ١١٨٤م، وذلك عندما توحدت قواهم تحت حكم سلسلة قوية من الحكام الأقوياء.

واعتبارا من منتصف القرن الثاني عشر الميلادي تمت قوة المسلمين، وتوقفت توسعات الصليبيين وتحولوا إلى موقف الدفاع، وتبعا لذلك اخذت التحصينات الصليبية تفقد دورها الهجومي، وتحولت إلى الطابع الدفاعي بصورة مضطردة، وبدأ الصليبيون في الاهتمام باسوار المدن والقلاع التابعة لهم، وتعتبر قلعة صهيون من الامثلة التي توضح ذلك، حيث أعيد بناؤها في الثلث الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، كما تمت تقوية الاجنحة المعرضة للهجوم منها بجدران متينة وابراج حصينة، بحيث تصبح منيعة على أدوات الحصار المُحسَّنة، التي أخذ المسلمون في استخدامها. (٣١).

ومما يبرز أثر سير الحروب على تحصينات المدن ما شهدته أسوار المدن التابعة للصليبيين في القرن الثالث عشر الميلادي، حيث خضعت لتحصينات مستمرة ابتداء من منتصف هذا القرن فصاعدا. وساعد على هذا الاهتمام أن هذه المدن في هذه الفترة زادت كثافتها، وأصبحت تمثل مقرا للسلطة الروحية والمدنية، بالإضافة إلى تعاظم أهميتها الاقتصادية كمراكز للحياة الاقتصادية وطرق

المواصلات التجارية. فبعد أن كانت تحصن المدينة بأسوار بسيطة تحيط بها إلى درجة تجعلها آمنة ضد أي هجوم مباغت ـ حيث يدل الدفاع عن طرطوس وجبيل على سبيل المثال على أن القلعة وحدها هي التي كانت قوية لدرجة تكفي لمقاومة حصار فعلي ـ اهتم بتحصين المدن تحصينا قويا لمواجهة الظروف الجديدة المتمثلة في تحول المسلمين من الدفاع إلى الهجوم، وتحول الصليبيين من الهجوم إلى الدفاع، ولم يتبق من هذه التحصينات سوى القليل . وربما تكشف الحفريات يوماً ما عن اسوار هذه المدن التي خربت وهجرت بعد أن طرد الصليبيون منها كعسقلان وارسوف وقيسارية وطرابلس. أو تلك التي أزيلت بقايا اسوارها بعد ذلك كعكا وصور وصيدا وبيروت. وتبقى أوصاف أسوار بعض هذه المدن مثالا يمكّننا من الاستدلال على قوة هذه التحصينات، فالأسوار الثلاثة التي شيدت على الجانب البري من «صور» تتمتع بشهرة خاصة، ومثلها تحصينات مدينة عكا التي كانت تتألف من سور مضاعف تخفره أبراج على امتداده، وكانت الأسوار التي تحيط بهذه المدن تعزز بحصون بارزة(Bastions)، أو ابراج مستطيلة الشكل عادة، مقامة على فواصل منتظمة إلى حد ما(٢٥ ـ ٤٠ مترا). وتتحدد هذه الفواصل بمدى رمي السهام أو القذائف، وتحف بالاسوار من جهة الخارج خنادق أو قنوات عريضة تملأ بالماء غالبا، مع بعض التحصينات الخارجية البسيطة في بعض الأحيان، وكانت بوابات المدن بصورة عامة جيدة التحصين رغم أنها كانت نادرا ما تحظى بمظهر التعقيد المعماري الذي للقلعة، أو معاقل الحراسة فيها، وغالبا ما كانت تحرسها أبراج ملاصقة لها، أما الوصول إلى الداخل فكان محميا بمنعطف (مدخل منكسر)، أو منعطفات بزوايا قائمة (ابواب ذات مرافق) بالاضافة إلى سلسلة من غرف البوابات التي يمكن إحكام إغلاقها، وترمى النار من أعلى أو من الجوانب على من يهاجمها.

أما تحصينات المرافىء الخاصة بالمدن الساحلية فقد كانت تقام لها حصون أو أبراج دفاعية قوية ومنيعة، تمتد بينها سلاسل حديدية تشكل بوابة الميناء، وكانت تنتصب عندها المجانيق والعرادات لقصف السفن المعادية(٣٢). ويعكس وصف

ابن جبير لمدينة صور مدى الاهتمام بتحصين المدن الساحلية ومرافئها. فقد أشار إلى أنها «مدينة يضرب بها المثل في الحصانة، ولا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة، قد أعدها الإفرنج مفزعا لحادثة زمانهم، أما حصانتها ومنعتها فاعجب ما يحدث به، وذلك انها راجعة إلى بابين احدهما في البر والآخر في البحر الذي يحيط بها إلا من جهة واحدة، فالذي في البر يفضي إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب، وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية اعجب وضعا منه، يحيط بها سور المدينة من ثلاث جوانب ويحدها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص، فالسفن تدخل تحت السور ترسى منها، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها». (٣٣)

ومما تجدر الاشارة إليه أن الصليبيين عندما أعادوا تحصين هذه المدن تحصينا قويا يساعدهم على الدفاع عنها تبنوا أسلوب التحصينات الشرقية المعروف في المنطقة، واستفادوا من مميزاته الدفاعية، واكتفوا بتكرار العناصر التي كانت تستخدم فعلا وبالغوا في استخدامها امعانا في التحصين، واتجهوا إلى تقوية الجدران الساترة التي تعتبر العمود الفقري لأي منظومة دفاعية، بحيث تقاوم القصف أو الحفر تحت اساساتها، وكذلك الهزات الأرضية، فزادوا سمك الاسوار التي تستدق تدريجيا مع ارتفاع السور على الطريقة العربية، واستخدموا الأعمدة القديمة كمداميك في الجدران، وهي أساليب لوحظ استخدامها قبل ذلك في أسوار المهدية وأسوار القاهرة التي بناها بدر الجمالي سنة ٤٨٠ ـ ٤٨٥هـ، ويكشف هذا عن أن الحروب الصليبية أدت إلى تأثير متبادل بين المسلمين والصليبيين في مجال التحصينات الدفاعية، أدى إلى تطوير أساليب تخطيط وانشاء هذه التحصينات بصور أكثر تقدما مما كانت عليه قبل ذلك.

وقد تأثرت هذه المدن وتحصيناتها أيضا بتلك الهجمات التي شنها المغول، والتي مثلت بدورها خطرا شديد الأثر هدد حياة المدن الإسلامية التي تعرضت لهذه الهجمات التي أوقفها المماليك، وواكب أحداث الصراع مع المغول اهتمام كبير

بتحصين دفاعات المدن واسوارها، واعادة ترميم ما يتهدم منها بين فترة وأخرى.
وهو الحال نفسه الذي تعرضت له مدن المغرب والأندلس. فقد كان للحروب التي خاضتها الدول الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس أثرها الكبير في تحصين المدن، وانشاء الموانىء الحربية التي تخدم هذه الأغراض. ولا أدل على ذلك من انشاء مدينة المرية التي انشأها عبدالرحمن الداخل على الساحل الجنوبي للأندلس وأحاطها بالأسوار المنيعة، لتقف أمام الخطر الفاطمي الذي يهدد بلاده. (٣٤) ومنها مدريد «مجريط العربية»، والبسيط، وقلعة رباع، وقلعة أيوب وغير ذلك من الحصون التي كانت تمثل نقاطا دفاعية حصينة عن هذه المدن. (٣٥).

وكان للاعتداءات التي تعرضت لها قوافل الحجيج أثر كبير في حماية منازل الحج وطرقه بانشاء التحصينات والقلاع اللازمة لتأمين الحجيج، ودفع هجمات الاعراب التي يتعرضون لها. وقد اهتم حكام المسلمين على اختلاف دولهم وتتابعها بمرافق هذه الطرق ومحطات الحجيج المختلفة، وزاد الاهتمام بتأمينها وتحصينها ولاسيما في تلك الفترات التي يزداد فيها الخطر الذي يتعرض له الحجيج، ومن جهة أخرى اهتموا بتحصين بعض هذه الطرق بانشاء القلاع اثناء الحروب الصليبية، وخصوصا بعدما ظهرت نوايا الصليبيين لمهاجمة المقدسات الاسلامية، وقد كشفت الدراسات التي تمت والحفريات والمسوحات التي أجريت عن الكثير من المنشآت المحصنة التي انتشرت على طول طرق الحج(٣٦). كما أن ما تبقى من قلاع يعتبر مثلا واضحا على ذلك، كقلعة المويلح، وقلعة تبوك المشرفة على طريق الحج، وغيرها من القلاع التي كانت تمتد على الطريق من القاهرة إلى السويس في محطات الحجيج المختلفة. ثم من السويس إلى الأراضي الحجازية عبر سيناء. (٣٧).

وتعرضت المدن الساحلية كذلك لغارات القراصنة بين وقت وآخر وخصوصا مدن الموانىء الإسلامية على البحر المتوسط مما دعا إلى الاهتمام بتحصينها، وإقامة الأبراج والقلاع التي تحرسها، ولا أدل على ذلك من تلك القلاع والأبراج التي أنشأها المماليك ثم العثمانيون لمدن طرابلس ودمياط ورشيد والاسكندرية، بل

ان هناك حصونا لبعض المدن الساحلية أنشأها أهلها بعيدة عن الساحل يلجأون إليها إذا ما تعرضت مدنهم لمثل هذه الهجمات التي لا يستطيعون مقاومتها، ولا أدل على ذلك من «بنزرت» التي أنشئت لها قلاع حصينة يأوى إليها السكان عندما تتعرض مدينتهم لهجمات الروم . (٣٨)

وفي حالات أخرى أثر فساد الحياة السياسية وانعدام السلطة السياسية القادرة على توفير الأمن في انتشار فكرة التحصين انتشارا واضحا ليساعد الأهالي في المستوطنات السكنية المختلفة سواء أكانت مدنا أم قرى على الدفاع عنها أمام أي هجوم تتعرض له، وتعتبر تحصينات مدن «نجد» في المملكة العربية السعودية التي بقيت تحصيناتها صورة جيدة تمثل هذا الواقع، فقد استمرت هجمات القبائل مهددة لمناطق الاستقرار الحضري والعمراني في هذه المنطقة الصحراوية، وشاعت حالة الفوضى والصراع بين قاطني المنطقة، والتي أدت إلى حرب مستمرة بين المناطق والبلدان والقرى الصغيرة قبيل قيام الدولة السعودية الأولى. وهي حالة من الصراع لم يكن يعترف فيها إلا بقانون القوى سواء في البادية أو داخل أسوار البلدان، وكانت الحرية غير المحدودة للقبائل البدوية وحروبها لا تنتهي. وغزواتها ذات السلب والنهب قد جعلت نجدا وما حولها مسرحا للفوضى الدائمة وسفك الدماء(٣٩)، وكان لهذه الحالة أثرها الواضح في الاهتمام بتحصينات وأسوار المدن والقرى، وشارك أهالي هذه المستوطنات من قرى ومدن في انشاء هذه التحصينات التي نراها مثلا في سدوس وشقرا والدرعية وغيرها من مدن نجد التي دعمت بالأسوار التي تشتمل على الأبراج بالإضافة إلى وجود أبراج مراقبة انتشرت في الطرق والمسالك المؤدية إلى هذه المدن، لتمكن المدافعين من مقاومة المهاجمين ورصد تحركاتهم قبل الوصول إلى المدينة . ومن أوضح الأمثلة على ذلك الأبراج التي على المسالك المؤدية إلى مدينة الدرعية . (٤٠)

وكان لهذه التحصينات والأسوار وتوجيه تخطيطها توجيها مرتبطا بالأحداث التي تعرضت لها أثر كبير في التأثير في تخطيط المدن، فمنها ما أعيد تخطيطه بعد أن تعرض لحالة شديدة من الهدم والتدبير كمدن الشام التي خطط بعضها من

جديد، وروعي في تخطيطها انشاء المدارس العديدة كتكوينات معمارية دينية جديدة ظهر الاهتمام الواضح بها في العصرين الأيوبي والمملوكي لاعتبارات دينية وسياسية، ومنها ما تحكمت القلاع والأسوار في تحديد اتجاهات امتداداتها العمرانية بعد ذلك، ولاسيما أن هذه المدن مرت بعد ذلك بحالة من الاستقرار والأمن دفعت إلى نموها وتطورها، وإلى ضمور أهمية تحصيناتها وأسوارها التي انتفت أهميتها باختراع الأسلحة المنظورة التي أغنت عن استخدام الأسوار والتحصينات كوسائل دفاعية في العصر الحديث، وأصبحت الأسوار مباني صامتة تحكي التاريخ، وظل أثرها في تخطيط الامتدادات العمرانية خارجها واضحا عندما يتم الربط بين هذه الامتدادات الجديدة و«المدينة القديمة» التي تأثر تخطيطها وتوجيه شوارعها ومقاييسها تأثرا مباشرا بتخطيط الأسوار والقلاع والبوابات وغير ذلك من العناصر المكملة لتحصينات المدينة، ومنها ما احتفظ بأسواره أو ببعضها في المراحل المختلفة من تاريخ المدينة، وكانت في ذلك متأثرة بأحكام الفقهاء المسلمين الذين رأوا ضرورة بقاء هذه الاسوار والحفاظ عليها وعلى أوقافها، لعلها تحقق فائدة أمنية للمدينة وأهلها في أي وقت(٤١). فقد سئل القاضي أبو الفضل غياض عن سور تهدم أكثره، هل يبقى ما بقى منه لعدم الحاجة إليه وفي هدمه بعض منفعة؟ فأجاب: «وقفت على سؤالك، وأسوار المسلمين من مصالحهم بجراها مجرى أحباسهم وأوقافهم التي لا يجوز تغييرها أو نقلها من مواضعها ولا هدمها ولا هدم شيء منها، ولا تغير عن حالته المتقررة، وما ذهب إليه من ذهب من هدم ساحته واجزائه أو بيعه فباطل لا يجوز. وهو حق للمسلمين أن يستغنى عنه اليوم فربما احتيج إليه، مع أنه لو رم على حاله والاستغناء عنه لكان زيادة نفع وقوة بلا مرية، كبناء سور خلف سور فكيف يهدم ما بقى منه؟ هذا مالا يجوز ولا تبيحه الشريعة. ولا يقتضيه النظر والسياسة»(٤٢). وحديثا تعرض كثير من اسوار المدن للإزالة والهدم في سبيل اعادة تخطيطها تخطيطا حديثا يلائم وسائل الحياة العصرية رغم ما تمثله من قيم حضارية مثلما حدث أخيرا في الكويت والرياض وغيرهما.

وامتـد تأثـير التخطيط المحصن للمـدينة الاسـلامية إلى تخـطيط شوارعهـا وطرقاتها، فتشير رواية الطبري عن بغداد إلى الهدف من وراء تخطيطها تخطيطا مستديرا فيقول: إنها «بنيت مدورة لئلا يكون الملك إذا نزل إلى وسطها في موضع أقرب منه إلى موضع آخر، وجعل أبوابها أربعة على تدبير العساكر في الحروب، وجعل لها سورين. فالسور الداخل أطول من السور الخارج، وبنى قصرها في وسطها والمسجد الجامع حول القصر»، وتشير رواية المقريـزي إلى أن «القاهرة خططت على الرسم الملكي» ومعنى ذلك أن «المدن الملكية» كان تخطيطها يتوجه أساسا لحماية الحاكم الذي يتخذها مقرا له، ويظهر في هذه المدن الأثر الواضح بين تحصيناتها القوية التي اهتم ببنائها اهتماما خاصـا لتأمـين الحاكم والسلطة وتخطيط شوارعها وتكويناتها المعمارية الأساسية ممثلة في المسجد الجامع والقصر، أو دار الإمارة، والدواوين، وكذلك تكويناتها الثانوية ممثلة في المنازل الخاصـة بالأعوان من القادة والجند والأسواق والحوانيت والمرافق الفرعيـة الأخرى التي تكفل حياة مستقرة في هذا النوع من المدن.

ونأخذ بغداد مثالا على ذلك فقد خططت المدينة تخطيطا يكفل الأمن للخليفة في وقت الخطر، ويسهل التوصل إليه في وقت الأمان، وأثر ذلك تأثيرا واضحا في تخطيط المدينة بصفة عامة، وشوارعها وطرقها على وجه الخصوص، فقد حكم بناءالسورين الداخلي والخارجي للمدينة ومداخلها الأربعة نظام الطرق الرئيسة فيها، فقد كان الوصول إلى المدينة من الخارج من أحد مداخلها عن طريق عبور الجسر الذي يعلو الخندق، وتخطيطه في الأصل ذو مغزى حربي ذلك أنه يمكن دفعـه في وقت الخـطر، ثم يصـل الـداخـل إلى المـدخـل المنحني. . - Bent entrance الذي خطط بهذه الطريقة ليكشف عن يمين الداخل ليسهل ضربه إذا كان عدوا، وانعكس التخطيط الحربي على الرحبات التي تؤدي إليها المداخل، فمقاييسها التي تتدرج من الاتساع إلى الضيق كانت هدفاً مقصورا على حصار العدو، وكذلك كان الفيصل الذي بين السورين بمثابة مصيدة، وحاذى الطريقان الرئيسان في المنطقة السكنية السور الداخلي الكبير، والسور الذي يحيط بالمنطقة

المركزية، فأخذا الشكل الدائري تأثرا بشكل هذه الأسوار، ولم يسمح بأن تلتصق المباني بالسور لتسمح للمدافعين بحرية الحركة بالنسبة للسور الداخلي الكبير، ولتؤمن المنطقة المركزية بالنسبة للسور المركزي. وحكم هذان الطريقان المرور من المنطقة السكنية إلى داخل قلب المدينة أو إلى خارجها، كما أن السكك الفرعية التي تصب في كل منهما كان لها دروب يحكم غلقها وقت الحاجة لتزيد المدينة تأمينا.

كما أن تخطيط الأبواب ومقاييسها وارتباط هذه المقاييس بالأسوار من جهة وارتباطها بحق الطريق والارتفاق به من جهة أخرى على اعتبار أن هذه البوابات تعلو طرق المدينة وتتحكم في شكل الطريق وحركة المرور فيه توضح العلاقة بين التحصين وشوارع المدينة.

وإذا كان للتحصين أثر واضح في محدودية مساحة المدينة لاعتبارات اقتصادية وحربية فإن أسوار المدن والقلاع داخلها، بابراجها وأبوابها شغلت جزءا من هذه المساحة أيضا، هذا بالإضافة إلى تلك المساحات التي تركت خالية من البناء بمحاذاة الأسوار لتسهل مهمة المدافعين عن المدينة في حرية الحركة والتزود بالمؤن والمعدات، والتي منع من البناء فيها(٤٣)، وهو أمر كان له أثره الواضح في استغلال المساحة الداخلية المحدودة استغلالا مكثفا وصحيحا في الوقت ذاته. وظهر ذلك واضحا في الامتداد الرأسي(٤٤) للبناء مع ضيق الشوارع الفرعية الذي أدى بدوره إلى الاستغناء عن الشارع كمصدر أساسي للضوء والتهوية، والاعتماد على الفناء الداخلي المكشوف الذي استغل كذلك في بعض الأغراض المعيشية بالإضافة إلى وظيفته الأساسية في الاضاءة والتهوية لاجنحة المنزل المختلفة(٤٥)، كما كان لذلك أثره في تنويع مقاييس الشوارع وتدرجها من شوارع رئيسة إلى سكك وأزقة أدق، واتصل الأمر كذلك بما اتسمت به المدينة الاسلامية من تلاصق دورها ومنازلها توفيرا للمساحة، ثم إن الامتداد بالاجنحة والرواشن في الطوابق العليا المطلة على الشوارع تؤكد محاولات استخدام المساحة بصورة واضحة.

ومن جهة أخرى يلاحظ أن المدينة الاسلامية لم تتضمن بداخلها بعض المرافق التي تحتاج إلى مساحات واسعة، والتي لا يحدث أي ضرر من وجودها خارج أسوار المدن، كمصليات العيد والمقابر وميادين استعراض الجند والاسواق الاسبوعية وغيرها، والتي ارتبطت مواضعها إلى حد بعيد بداخل المدينة بطريق الشوارع الرئيسة وبواباتها الخارجية بالأسوار.

ومما يرتبط بأثر نظام التحصين والتأمين إنشاء طرق تحت الارض «أنفاق أو سراديب» تستخدم بواسطة الحكام الذين يقطنون المدينة، ويخشون استخدام الطرق العادية لسبب أو لآخر، وقد تنوعت هذه الانفاق والسراديب، فمنها ماكان يربط بين القصور داخل المدينة كتلك الممرات التي كانت تربط بين قصور بغداد؛ ومثال ذلك الممر الأرضي الذي انشأه المعتمد ليربط بين قصر الحسن وقصر الثريا، وهو ممر قبوي بلغ نحو الميلين، مكّنه من التنقل بين القصرين دون أن يراه أحد(٤٦). كذلك ربطت قصور الفاطميين ممرات قبوية كان يتنقل فيها الخليفة وهو ممتط بغلته أو حمارته. (٤٧).

ومن هذه السراديب أو الانفاق التي كانت في تخوم الارض ماكان يربط المدينة بخارجها، ولاأدل على ذلك من «النفق» الذي كان ببغداد، والذي عمل للخليفة المنصور، وذكر أنه انشىء لكى يمكنه من الخروج من بغداد عند حصارها وينتهي بالخليفة إلى بعد فرسخين منها(٤٨). كما كان هناك ممر أرضي بقاهرة الفاطميين يربط بين القصر الشرقي الكبير ومنظرة اللؤلؤة على الخليج أشار المقريزي إليه حيث ذكر أن: الخلفاء الفاطميين الآمر بالله والحافظ لدين الله والفائز كانوا من الخلفاء الذين ماتوا بهذه المنظرة فحملوا الى القصر الشرقى الكبير من خلال السراديب(٤٩). وقد كشف عن احد هذه السراديب سنة ١٩٠٣م ـ بمحض الصدفة ـ أحد سكان حارة السيارج عندما كان يحفر بئرا في منزله. وتشير المعاينة الاثرية إلى أن هذا السرداب عبارة عن قبو منخفض عن أرضية حارة السيارج بنحو عشرة أمتار، ويتجه من الشرق الى الغرب، وكان يؤدى بالسالك فيه إلى موضع منظرة اللؤلؤة، وهو أمر يعني أن هذا السرداب كان يصل بين القصر

الفاطمي وهذه المنظرة، مما يؤكد رواية المقريزي.

ويلورت التجربة والخبرة فكرة تأمين الحاكم في المدينة الاسلامية، وتعكس ذلك المصادر التاريخية والادلة الاثرية، فقد كانت واسط من أولى المدن الاسلامية التى روعي فيها ذلك، ثم عزلت المنطقة التي يقطنها الخليفة في بغداد بسور مركز عن بقية اقسام المدينة التي يسكنها الموالون والقادة، وخارج الاسوار قطن العامة في خططهم التي خصصت لهم. وسارت مدن الغرب الاسلامي في الاتجاه نفسه الذي حرص على تحصين قصر الحاكم ودواوين الادارة تحصينا قويا فاختير لها أحصن مواضع المدينة، واحيطت بالاسوار، وزودت بالقلاع التي تدعم ذلك، واطلق على هذه المنطقة المحصنة في المدينة «القصبة»، وأطلق عليها أيضا «المُدْينة» بالتصغير، على اعتبارها كانت أشبه ماتكون في تكوينها بالمدينة الصغيرة، ولاسيما انه كان يلحق بالمبانى في هذه المنطقة مسجد جامع(٥٠). وتبلورت هذه الظاهرة بصورة واضحة ومميزة في مدن الاندلس التي ضمت غالبا منطقة شبه مستقلة ومحصنة يقيم فيها الحاكم وتكون مقرا له اطلق عليها في هذه المدن «القصبة»(٥١). وفي العادة كانت تقع في أمنع مواضع المدينة(٥٢)، وامعانا في زيادة تأمين الحاكم عُمل للمدينة أبواب خاصة تساعد على مبارحتها والهرب منها إذا نشبت ثورة مفاجئة. ومن طريف مايذكر أن ظروف استخدام هذه الأبواب انسحبت على مسمياتها فسمى هذا الباب في قصبة مدريد « باب الخيانة»(٥٣)، وسمى أحد أبواب المرية التي تؤدى هذا الغرض كما ورد في إحدى الخرائط التي ترجع الى سنة ١٨٥٥م باسم «باب النجدة»، ولعله كان يسمى «باب النقبة» كأحد أبواب فاس، وكان يسمى «بـاب الغدر» في سبته وغرناطة والإسكندرية. (٥٤)

وهذه الأبواب الخاصة كانت الأساس الذي قام عليه انتشار «باب السر» بعد ذلك وخصوصا في تلك العصور التي سادتها الفتن والاضطرابات كالعصر المملوكي، فلم يقتصر انشاء أبواب السر على القلاع ومراكز السلطة، ولكنه ساد قصور وبيوت الامراء المنتشرة في المدينة، بل إنه امتد إلى المنشآت الدينية في

منشآت السلاطين التي تمكنهم من الهرب اذا ماتعرضوا للحصار. ونرى لذلك مثلا في مدرسة وخانقاة السلطان برقوق ومدرسة برسباى بشارع المعز بمدينة القاهرة.

وامعانا في تأمين الخليفة وتدعيها لتأسيس الدولة ظهرت المدن الملكية التي خططت تخطيطا ملكيا على الرسم الملكى، ومن أهم مظاهره تأمين الخليفة. ومن أمثلة ذلك المهدية والقاهرة(٥٥) وفاس الجديدة، وقامت القلاع المحصنة المبنية على إحدى الروابي المجاورة للمدن مقام المدن الملكية في بعض المدن، ومن أروع الامثلة على ذلك قلعة صلاح الدين في القاهرة التي اتخذها مقرا للحكم بعد إسقاط الفاطميين وتحويل القاهرة الى مدينة عامة، وظلت كذلك طوال العصور الايوبية والمملوكية والعثمانية إلى أن نقل قصر الحكم الى قصر عابدين في عهد سعيد باشا مما ادى إلى نمو هذه القلاع وتعدد أسوارها باتساع مساحتها، واصبحت كهيئة المدن الملكية، وتمثلت هذه الظاهرة في غير ذلك من المدن كالموصل(٥٦) وغيرها، وكان لعلاقة المجاورة بين المدن الملكية أو القلاع التى اتخذت مقرا للحكم ومدن العامة المجاورة لها أثر كبير في اتجاهات العمران وتخطيط الشوارع في تلك المناطق التي تفصل أو تصل بينها، وظهر التأثير كذلك في تركيز الطبقات الارستقراطية قربا أو بعدا من مركز السلطة في هذه المدن، أو القلاع التي مثلت مراكز الحكم. واثرت الاوضاع السياسية في ذلك تأثيرا واضحا.

وامتد أثر تأمين الحاكم في المدينة على تخطيط منازلها التي وزعت في حارات تقفل عليها دروب، ويسهل التحكم في عزلها بعضها عن بعض والسيطرة على أي اضطراب أو حوادث تؤثر في حالة الامن بها. وقد اتبع ذلك في حارات وسكك بغداد(٥٧)، كما أنه اتبع أيضا في الامتدادات العمرانية خارج أسوار المدن لتأمين العامة من حوادث السرقة والنهب، كما حدث في القاهرة عندما صدرت الأوامر بانشاء هذه الدروب لتأمين الحارات التي انشئت خارج الاسوار(٥٨)، وكذلك كانت حارات فاس(٥٩) وغيرها من المدن الإسلامية، وهناك من الاحداث

التاريخية التي تؤكد هذه الوظيفة الامنيةلابواب المدن ودروبها، فعندما حدثت الاضطرابات في بغداد، وكسرت الحبوس، أغلقت أبواب المدينة والدروب، وتمكن الحراس والشرطة من القبض عليهم بسرعة وسهولة. (٦٠) كما أن تسمية «باب القراطين» -احد ابواب مدينة القاهرة- الباب المحروق كان مرتبطا بحادثة حرق هذا الباب وهروب المماليك منه ليلا(٦١).

وانعكس تأمين الحاكم بالمدينة على الاهتمام بحراستها وتكثيف الجند والشرطة القائمين على ضبط الامن فيها، وأثر ذلك في تخطيط المدينة بصفة عامة للسيطرة على أمنها، وتطلب ذلك توفير مواضع الحراسة في أبواب المدينة الرئيسة وشوارعها المؤدية إلى قصر الحاكم، ويعد تخطيط أبواب مدينة بغداد منطقة «الطاقات الكبرى» من أوضح الأمثلة على ذلك، وكذلك تخطيط ميدان بين القصرين في القاهرة ووضع السلاسل به في الليل وترتيب الحراسة بالمدينة، مرتبط بهذه الحاجة لتأمين الخليفة أو الحاكم الذي يسكن المدينة. (٦٢)

وارتبط تأمين المدينة وتحصينها ارتباطا وثيقا في بعض المدن بالحاجة الى انشاء نقاط دفاعية متينة، سواء كانت هذه النقاط للحراسة والاستطلاع، وهو مااطلق عليه «النواظير» أو «المناظير»(٦٣). أو انشاء قلاع في مواضع حصينة تمكن من الدفاع عن المدن والطرق الموصلة إليها(٦٤). ومن امثلة ذلك مدينة حلب التي انشىء لها في «جانب السور قلعة حصينة لأن المدينة في منخفض من الأرض»(٦٥) وهو أمر يوضح أن مظاهر السطح لموضع المدينة تؤثر تأثيرا مباشرافي اتخاذ تحصيناتهاكهيئة تعوض النقص في التحصين الطبيعي.

وكانت جل القلاع التي انشئت خارج المدن لتحقيق دفاعات ايجابية تتمثل في اتخاذ هذه القلاع والحصون للدفاع عن اي هجوم تتعرض له المدن، وكانت هذه القلاع في بعض المدن بمثابة المأوى الحصين الذي يلجأ اليه وقت وقوع الهجوم(٦٦). فقد تحدث القزويني عن بنزرت وذكر أن لها «قلاعا حصينة يأوى اليها أهل النواحي اذا خرج الروم غزاة». (٦٧)

وايجاد المناظر والقلاع والمحارس والحصون لحماية المدن تخطيط قديم وجد في المدن القديمة، وأقره المسلمون وطوروه وأجادوا تطويره، وارتبط هذا التطوير بالظروف السياسية والحربية التي مرت بتاريخ الدول الاسلامية. ويبدأ التخطيط للقلاع باختيار موقعها الذي اشترط فيه شروطا عدة تؤكد منعته واشرافه لتحقيق الغرض الذي تنشأ من اجله القلعة، وإرتفاع الموضع من أول هذه الشروط التي تحقق هذه الأهداف، وتكشف رواية بناء قلعة «شاه دز» عن أهمية هذا الشرط فقد ذكر القزويني أن هذه القلعة بنيت بعد أن اشار رجل على السلطان ملكشاه ببنائها وقال له: «لو كان مثل هذا الجبل عندنا لاتخذنا عليه قلعة»(٦٨). كذلك اشترط وعورة المنطقة حولها(٦٩)، وصعوبة التوصل اليها حتى لايمكن «نصب المنجنيق عليها ولاالتسلب يصل اليها» ويبرز هذا الشرط فائدة أخرى من فوائد ارتفاع الموضع.

وتكشف أوصاف البلدانيين المسلمين عن هذه الميزات في اختيار الموضع من خلال وصفهم القلاع الذي يؤكد ادراكهم الواعى بهذه الميزات التي اعتبرت عند تخطيط القلاع الاسلامية. فيصف القزويني «قلعة كوزا» بطبرستان أنها الدنيا. وقال الأبيّ: «هي تناطح النجوم ارتفاعا، وتحكيها امتناعا، حتى لاتعلو الطير في تحليقها، ولا السحب في ارتفاعها فتحتف بها الغيام، وتقف دون قلتها، ولاتسمو عليها، فيمطر سفحها دون اعلاها، والفكر قاصر عن ترتيب مقدمات استخلاصها». ويصف قلعة مذيخره «قرب عدن على قلة جبل، لاسبيل للفكر في استخلاصها، اذ لا مصير اليها الا من طريق واحد، وهو صعب جدا «وقلعة الشرف» باليمن قرب زبيدَ لايمكن استخلاصها قهرا لانها بين جبال لايوصل اليها إلا من مضيق لايسع الا رجلا واحدا مسيرة يوم أو بعضَ يوم ودونه غياض». (٧٠)

وكان بعض القلاع ذا تخطيط حربي مضعف متمثل في انشاء «قلة» للقلعة في أعلى موضع منها محصن تحصينا خاصا فتبدو القلعة ذات القلة كأنها «حصن على حصن. وبعد استخلاص الطبقة السفلى منها تبقى قلتها حصنا حصينا لايسهل استخلاصها» مثل قلعتي سرجهان وفنك وغيرهما من القلاع (٧١). وكان

لهذا التقليد المتبع في اختيار الموضع المرتفع لبناء القلعة أثره في اعادة بناء قلاع قديمة سابقة على الاسلام أو البناء على أساساتها، لما تتميز به مواضعها من ميزات استراتيجية.

ومن القلاع التي تشهد ببراعة المسلمين قلعة المرقب، وهي «قلعة حصينة مشرفة على ساحل الشام. قال ابو غالب المغربي في تاريخه: عمر المسلمون حصن المرقب فجاء في غاية الحصانة والحسن حتى تحدث الناس بحسنه وحصانته، فطمع الروم فيه، وطمع المسلمون في الحيلة بالروم بسببه، فمازالوا حتى بيع الحصن منهم بمال عظيم، وبعثوا شيخا وولديه الى انطاكية لقبض المال وتسليم الحصن، فبعثوا المال مع ثلثمائة رجل لتسلم الحصن واخروا الشيخ عندهم، فلما وصل المال الى المسلمين قبضوه، وقتلوا بعض الرجال، واسروا آخرين، وباعوهم بمال آخر وبالشيخ وولديه، وحصل الحصن والمال للمسلمين وقتل كثير من الروم»(٧٢). وتكشف هذه الرواية عن مدى اعجاب الروم بحصن المرقب الذي بناه المسلمون.

وفرضت الحاجة الى القلاع انشاء اكثر من قلعة للمدينة الواحدة كمدينة اللاذقية التي أنشىء فيها «قلعتان متصلتان على تل مشرف على ربضها»(٧٣) وتؤكد امثلة القلاع الباقية والحصون والمناظر وابراج المراقبة هذه الروايات من منظور تطبيقي واضح، ومن أوضح الامثلة على ذلك تلك القلاع التي ظلت بقاياها في مدن الشام(٧٤). ومابقى من امثلة في مدن شمال افريقية والاندلس والتي تحول بعضها الى مدن بمرور الزمن كالرباط ومدريد «مجريط العربية» وغيرهما من المدن(٧٥). وتنتشر القلاع في معظم المدن الاسلامية الاخرى كظاهرة تقليدية ارتبطت بالحاجة الى تأمين المدن واتخاذها أحيانا قصراً للحكم والسلطة. وبقى الكثير من هذه القلاع التي تعكس بوضوح جانبا هاما من جوانب التاريخ السياسي والحربي للمدن الاسلامية.

مما سبق يتضح أن تحصين المدن الإسلامية كان معيارا حضريا أساسيا في تكوينها المادي لما يوفر من أمن لساكنيها، وكانت الأسوار والقلاع، وما تشتمل

عليه من ابراج من أهم وسائل التحصين المتبعة، واضيفت اليها المحارس والمناظر وأبراج المراقبة في الحصون في المدن التي حتمت طبيعة موضعها وجود هذه التكوينات الحربية، واختلفت الظروف التي أدت إلى الاهتمام بانشائها وترميمها والمحافظة عليها، وتطوير أساليب بنائها من عصر الى آخر، وكان لهذه التحصينات بصورها المختلفة ولاسيما التي تحيط بها، أثر مباشر في تخطيط المدينة الاسلامية وخطتها وتوزيع التكوينات المعمارية فيها وهيئتها.

وفي المدن التي كانت سريرا للملك أو مقرا للسلطة وجه التخطيط توجيها خاصا لحماية الحاكم، ووقايته من الأخطار الخارجية أو الداخلية، وأدت المبالغة في هذا التأمين الى انشاء مايسمى «المدن الملكية»، أو القلاع الحصينة أي اتخذت كمقار للحكم والادارة. وكان لذلك أثره أيضا في تكوينات مدن العامة المجاورة لها. وتكشف هذه النتائج عن أهمية التحصينات في المدن الاسلامية باعتبار أهميتها في التكوين المادى للمدينة بجوانبه الوظيفية والعضوية.



هوامش الفصل الثالث

١ ـ بيتر فارب: بنو الانسان، ص ١٤٠ـ ١٤١.
٢ ـ القزويني: المرجع السابق، ص٧ـ٨.
٣ ـ ابراهيم الفائز: المرجع السابق، ص ١٢٥ـ ١٢٦.
٤ ـ ابن الرامى: المرجع السابق،
٥ ـ ابن الازرق: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٧٦٦ـ ٧٦٧.
٦ ـ الطبري: المرجع السابق، جـ ٨، ص ٢٣٩.
٧ ـ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ ٣، ص ٣٥١.
٨ ـ من اهم آلات الحصار المستخدمة في العصور الوسطى الكبش Ram، والنقاب «الحفار» Bore، وبرج الحصار Siege tower، والدبابة، وبرج الحصار المتحرك Mobile Siege tower، وسلالم تسلق الاسوار. Scaling Ladder وغيرها.
٩ ـ Oleg Graber, 'Cities and Citizens' 'The Growth and Culture' of Urban Islam in Islam and Arab World,ed. by B. Lewis, U.S.A.,1976, p. 106.
١٠ ـ عبدالمنعم عبدالعزيز رسلان: بعض استحكامات منطقة عسير في العصر العثماني ـ مجلة كلية الشريعة، صديق شهاب الدين: تخطيط المدن وتاريخ الحصون ـ مجلة العمارة، سنة ١٩٣٩ القاهرة.
١١ ـ محمد عبدالستار عثمان: العمارة الحربية الاسلامية بين النظرية والتطبيق، مجلة كلية الملك خالد العسكرية، عدد ٧ سنة ١٤٠٥هـ، ص ١٦٩.
١٢ ـ كان من وسائل التغلب على الأسوار نقبها بآلات الثقب، أو بحرق احجارها لتتحول الى جير وتتصدع، أو تسلقها عن طريق الأبراج الخشبية التي ينصبها الاعداء والسلالم المتحركة. راجع القزويني: المرجع السابق، ص ٢٢٢، ٢٩٣.
١٣ ـ عبدالمنعم رسلان: المرجع السابق، ص ٣٩٠.
١٤ ـ بخشل: المرجع السابق، ص ٣٨.
١٥ ـ قال البغدادي: إن المنصور اختط بغداد «وجعلها مدورة ويقال: لايعرف في اقطار الدنيا كلها مدينة مدورة سواها» (البغدادى: المرجع السابق، جـ ١، ص ٦٦). والحقيقة أن التخطيط المستدير يرجع الى ماقبل العصور الاسلامية، وتكرر وجوده في مدن عدة كسنجرلى ٨ ق.م. وهجمطانه ويطلق عليها الاغريق اكباتانا في النصف الأول من القرن ٧ق. م. ومدينة هرترا في القرن الاول الميلادى، وحران وترجع الى العصر البيزنطي،

ودارابجر في مقاطعة فارا الفارسية، التي يمكن أن يكون تخطيط بغداد مشابها لها إلى حد بعيد، «محمد حماد: تخطيط المدن، ص ١٠٥».

١٦ ـ الميزات الحربية لهذا التخطيط استخدم في تخطيط المنصورية بشمال افريقية، ابن حماد: أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم/ تحقيق ودراسة د. التهامى نقره، د. عبدالحليم عويس، دار العلوم ـ الرياض، ١٩٧٧م، ص ١٠٥.

١٧ ـ محمد حماد: المرجع السابق، ص ١٠٥.

١٨ ـ كان تصفيح الأبواب بالحديد من الوسائل المستخدمة لتقويتها امام الضربات والنار، ومن المدن ماجعلت أبوابها من الحديد ابن حماد: المرجع السابق، ص ٤٢»، وادى ذلك إلى ثقل الابواب وصعوبة فتحها وغلقها، وحلت هذه المشكلة في ابواب القاهرة بأن عمل لكل من مصراعى الباب «سكرجة» من زجاج يرتكز عليها عقب المصراع، سهلت حركة الباب، «المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٣٨١».

١٩ ـ واستخدمت «الطابية» في بناء أسوار بعض المدن في عهد المرابطين والموحدين باعتبارها أقوى من اللبن، وعد ذلك من تطوير استخدامات مواد الانشاء لزيادة متانة الاسوار. د. السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب الاسلامى، ص ٧٧٤.

٢٠ ـ د. السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الاسلامى، نشر مؤسسة شباب الجامعة، ص٧٧٥ـ ٧٧٦.

٢١ ـ محمد عبدالعزيز الحسينى: قرطبة درة الاندلس، مجلة المدن العربية، عدد ١٤، السنة الثالثة، ١٩٨٤، ص ٤٤.

٢٣ ـ Geoffrey King , Examples of the Secular Architecture of Najd , Arabian Studies, Cambridge, 1982, PP. 126 - 128.

٢٤ ـ عيسى سليمان وآخرون: العمارات العربية الإسلامية في العراق، نشر دار الرشيد العراق، سنة ١٩٨٢، جـ ١، ص ١٠١.

٢٥ ـ اختلف المؤرخون في تحديد مساحة بغداد، فحسب رواية اليعقوبي تقدر المساحة بـ ٥ر٧كم٢، وحسب رواية إسحق الازدى يمكن حساب مساحة المدينة بحوالى ٥ر٤كم٢، وحسب رواية كل من الخطيب البغدادى وابن الجوزى وياقوت الحموى فان قطر المدينة يبلغ ٢٦١٥ مترا ومحيطها ٨١٣٢ مترا أي أن مساحتها ٥ر٢٦٢ر٣١٤ مترا مربعا. ويلاحظ الاختلاف البين بين التقديرات المختلفة وهو أمر يحدده عمل حفريات أثرية لكشف معالم السور بأكمله، «راجع شريف يوسف: تاريخ فن العمارة العراقية ـ دار الرشيد للنشر، سنة ١٩٨٢، ص ٢٧٢ـ ٢٧٧.».

٢٦ ـ كشف عن بقايا سور القاهرة جنوب باب البرقية بمحاذاة هذا الباب، واتضح من خلال هذه

البقايا أنها مبنية باللبن وبالمقاييس التي ذكرها المقريزي عن أسوار جوهر، مما يدعو إلى الاعتقاد بأن بدراً ربما رمم السور القديم في هذا الاتجاه، وبنى له فقط بوابات من حجر.

٢٧ ـ د. السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم بالاندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة العربية، سنة ١٩٨١، ص ٣١٢.

٢٨ ـ د. محمد عبدالهادى شعيرة: من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الاول والثاني للهجرة، مقال في كتاب دراسات الآثار الإسلامية، للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سنة ١٩٧٩، ص ٣١.

٢٩ ـ فولفغانغ مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية. ترجمة وليد الجلاد، مراجعة سعيد طيان، نشر دار الفكر، بلا تاريخ، ص ١٦ـ ١٧.

٣٠ ـ فولفغانغ مولر: المرجع السابق، ص ١٧.

٣١ ـ فولفغانغ مولر: المرجع السابق، ص ٢٠.

٣٢ ـ فولفغانغ مولر: المرجع السابق، ص ٢٨.

٣٣ ـ ابن جبير: الرحلة، نشر دار صادر، ص ٢٧٧ـ ٢٧٨.

٣٤ ـ د. السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤١٣.

٣٥ ـ د. محمود على مكى: مدريد العربية، ص ١٤، ود. السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص٤١٣ـ ٤١٤.

٣٦ ـ من أهم الدراسات الاثرية التي تناولت طرق الحج

Saad Al Rashid, Darb Zubaydah: The Pilgrim Road from Kufa to Mecca.

ولنفس المؤلف د. سعد الراشد: الربذة صورة من الحضارة الاسلامية المبكرة في المملكة العربية السعودية، نشر عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، بالاضافة إلى مسوحات إدارة الآثار بالمملكة العربية السعودية التي نشرت تقاريرها في مجلة أطلال في الأعداد من ١ـ ٧.

٣٧ ـ راجع البتانوني: الرحلة الحجازية، الطائف سنة ١٣٩٧ هـ، ابراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين، بيروت، لبنان.

٣٨ ـ القزويني: المرجع السابق، ص ١٥٩.

٣٩ ـ جوهان لودفيج بوركهارت: مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة د. عبدالله العثيمين، نشر شركة العبيكان، السعودية، سنة ١٩٨٥، ص ٢٨.

٤٠ ـ King, op. cit. pp. 126 - 129.

٤١ ـ محمد ابراهيم الفائز: المرجع السابق، ص ١١٤ـ ١٢٧.

٤٢ ـ الونشريسى: المصادر المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى علماء افريقية والأندلس، خرجه جماعة من العلماء باشراف د. محمد الحجى، دار الغرب الاسلامى، بيروت سنة ١٩٨١، جـ ٥، ص ٣٥٢.

٤٣ ـ روجيه لوتورنو: فاس في عهد بنى مرين، ترجمة نقولا زيادة، سلسلة الحضارة، بيروت، ص٤٠.

٤٤ ـ تشير بعض الدراسات إلى أن ارتفاع الدور في بعض المدن الاسلامية بالنسبة لعرض الشارع تراوحت نسبته بين ٣:١ و ٤:١. «صالح لمعى مصطفى: النمو العمراني خصائصه في المدينة المنورة، بحث في كتاب المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامى، نشر المعهد العربي لإنماء المدن، سنة ١٩٨١، ص ١٥٠.

٤٥ ـ شهد لوكوربوزييه في كتابه «طريق التفكير في التخطيط» أن طريقة العرب المسلمين في الاعتماد على الفضاء الداخل في التهوية والاضاءة طريقة ممتازة في الفكر التخطيطى، واعتبر أن التخطيط المعاصر الذي يعتمد على الشارع في التهوية والاضاءة. «على بسيونى: الفناء كعنصر هام في المدينة العربية، مقال بكتاب المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضارى الاسلامى، ص ٨٧.

٤٦ ـ البغدادى: المرجع السابق، جـ ١، ص ١٠١، ياقوت: المرجع السابق، جـ ١، ص ٨٠٨.

٤٧ ـ المسبحى: أخبار مصر، ص ٩٥، القلقشندى: المرجع السابق، جـ ١، ص ٧٨.

٤٨ ـ البغدادى: المصدر السابق، جـ ١، ص ٧٨.

٤٩ ـ المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٦٩.

٥٠ ـ القاضى النعمان: المجالس والمسايرات: تحقيق ابراهيم شبوح، محمد البعلاوي، تونس، ص ٥٤٢.

٥١ ـ يطلق على القصبة بالاسبانية ..Alcazaba أو المُدينة..Almudiana تصغير للفظ مدينة «د. محمود مكى: المرجع السابق، ص ٧٤، ويلاحظ أن كلمة قصبة لها معنى آخر حيث كانت تطلق على الشارع الاعظم في بعض المدن كالقاهرة، وأحيانا اطلقت على قطاع مسقوف من هذا الشارع الاعظم كان له صفة تجارية بارزة كان يقال «قصبة رضوان»، وكانت تطلق ايضا على المدن الكبيرة، والأم في الأقليم كأن يقال صنعاء قصبة بلاد اليمن».

٥٢ ـ د. السيد عبدالعزيز سالم: المرية قاعدة أسطول الاندلس. دار النهضة العربية بيروت، الطبعة الاولى سنة ١٩٦٩، ص ١٢٨.

٥٣ ـ د. محمود مكى: المرجع السابق، ص ٧٧.

٥٤ ـ د. السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٢٨، وللمؤلف نفسه: حضارة الاسكندرية في العصر الاسلامى، سنة ١٩٦٨، ص ٤٢٨.

٥٥ ـ المقريزى: خطط، ص ٣٤٧.

٥٦ ـ سعيد الديوه جى: الموصل أم الربيعين، ص ١٤.

٥٧ ـ اليعقوبي: المرجع السابق، ص ٢٤٠ـ ٢٤١، سعيد عاشور: الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية، ص ٨٨.

٥٨ ـ ابن اياس: المرجع السابق، جـ ٥، ص ٣٣٦.

٥٩ ـ روجيه لوتورنو: المرجع السابق، ص ٤٧.

٦٠ ـ البغدادى: المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٧.

٦١ ـ المقريزى: خطط جـ ١، ص ٣٨٢.

٦٢ ـ الطبرى: المرجع السابق، جـ ٨، ص ٢٦٢، البغدادى: المرجع السابق، جـ ١، ص ٧٧.

٦٣ ـ د. عبدالهادى شعيرة: المرجع السابق، ص ١٤.

٦٤ ـ القزوينى: المرجع السابق، ص ١٦.

٦٥ ـ القزوينى: المرجع السابق، ص ٧١٣.

٦٦ ـ التيجانى: الرحلة، ص ٥٦، ١٢٨، ٣٠٧.

٦٧ ـ القزوينى: المرجع السابق، ص ١٥٩.

٦٨ ـ القزوينى: المرجع السابق، ص ٣٩٦.

٦٩ ـ القزوينى: المرجع السابق، ص ٣٠١.

٧٠ ـ القزوينى: المرجع السابق، ص ٢٥، ٦١، ٥٨.

٧١ ـ القزوينى: المرجع السابق، ص ٣٩٠، ٤٣١ـ ٤٣٢.

٧٢ ـ القزوينى: المرجع السابق، ص ٢٦١ـ ٢٦٢.

٧٣ ـ القزوينى: المرجع السابق، ص ٢٥٨.

٧٤ ـ فولفغانغ مولر: المرجع السابق، ص ٤٧ـ ١٢٩.

٧٥ ـ د. محمود مكى: المرجع السابق، ص ١٤ـ ١٧، د. السيد عبدالعزيز سالم: المسلمون وآثارهم بالاندلس حتى سقوط قرطبة، ص ٤١٢ـ ٤١٤، وللمؤلف نفسه: تاريخ المغرب في العصر الاسلامى، ص ٦٧٦ـ ٦٨٠، ص ٧٧٢ـ ٧٧٥.



الفصل الرابع

شوارع المدينة الإسلامية وطرقاتها

بـرزت الشوارع والـطرق في المدن كمحـور رئيس في التخطيط منـذ فجـر التاريخ ، ونما وتطور تخطيط المدن بنمو الحضارات وارتقائها، وعكس تخـطيط شوارع المدن المستوى الحضاري الذي ساد مراحل التاريخ الإنساني المتعاقبة، وتنوعت تخطيطات المدن بتنوع واختلاف المظاهر الحضارية من عصر الى آخر، وأصبح تخطيط شبكات الطرق في المـدينة من بـين الاسس التي تصنف عليها نوعيات تخطيطات المدن قديمها وحديثها . (١)

وتأصلت العلاقة الوظيفية بين شوارع وطرق المدينة وتكـويناتهـا المعماريـة الرئيسة منها والثانوية على حد سواء، ويكشف هذا عن ضرورة دراسة شوارع وطرق المدينة دراسة وافية لما لذلك من أهميـة كبيرة ليس فقط في الكشف عن الحقائق التي تتعلق بتخطيط هذه الشوارع وما يعكسه من مظاهر حضارية هامة ، بل لتفسير كثير من المسائل والحقائق الأثـرية والمعمـارية المتصلة بـالتكوينـات المعمارية المطلة عليها .

وتشير الدراسات المعمارية والاجتماعية والجغرافية والأثرية إلى أهمية الشوارع بصفة عامة . ويفسر بعض الدراسات الأثرية والمعمارية لتخطيط المدن . إن نشأة المدينة كان لامتداد التعاون والتفاهم من داخل القرية الواحدة إلى القرى القريبة منها والمجاورة لها، فتنشأ طرق القوافل للتبادل التجاري ، واذا تقاطعت الطرق صارت نقطة هامة تجذب إليها الناس، بعضهم جاء للتبادل التجاري ، وبعضهم للشراء، وبعضهم الاخر يتخذها مقره الدائم، ويعتمد في معيشته على خدمة المسافرين أو على حرف يدوية وانتاج، فتتكون عنـد مقاطـع الطرق - Cross Roads مراكز للتبـادل التجـاري Trading - Posts ، وإذا كبرت واشتهرت جذبت اليها اعدادا اكبر من الناس فتنمو الى بلد Town والى مدينة City، وفي

هذه البلدان تتكون العلاقات وتتشابك، وتوضع أصول المعاملة، ويتكون المجتمع Society وتحاط المدن بالاسوار من أجل الدفاع عنها، وكلما كبرت وازداد النشاط والرخاء جذبت اليها اعدادا اكبر من الناس فتتضخم وتكتظ، وتتلاصق المباني على طول الطرقات، وهي التي كانت في الاصل طرق القوافل. (٢)

ويشير علماء الاجتماع إلى أهمية النقل والاتصالات في إحداث التفاعل البشري الذي يؤدي الى نمو المدينة. فالسبب الرئيس لنمو المركز الحضاري واتساعه وامتداده يتمثل في سهولة الاتصالات الدائرة بين الأفراد، وفي يسر الانتقال النسبي من مكان إلى اخر، بل إنهم يذكرون أن هيكل الاتصال أفضل الأسس لتقييم ثقافة مدينة. (٣)

ومن الناحية الاثرية فان بداية ظهور الشارع الذي تصطف على جانبيه المنازل كان له دلالته الاجتماعية والسياسية الهامة،فقد برزت أهمية كشف طريق بمرمده بني سلامه بمصر والتي ترجع الى ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، لما أعطاه من دلالات اجتماعية وسياسية، حيث إن هذا الطريق يبلغ طوله ثمانين مترا، وعرضه خمسة أمتار، تصطف على جانبيه المساكن(٤) بنظام يكشف عن وجود كيان اجتماعي وسياسي كفل هذا التنظيم.

ويعكس أهمية الشوارع في تخطيط المدن- باعتبارها الهيكل الاساسي الذي يحدد تكوينات المدينة المعمارية- ذلك الرمز الكتابي في اللغة المصرية القديمة، الذي يدل على المدينة، وهو رمز عبارة عن دائرة يقطعها شارعان متعامدان. (٥)

وبرزت أهمية الطرق في الحضارات القديمة وآثارها الباقية، ومن أهمها الحضارة المصرية القديمة التي كشفت الدراسات الاثرية عن أهمية الطرق التي تؤدي إلى معابدها، والتي تربط بين وحداتها المختلفة، وأنها كانت ذات اعتبار خاص، حتى أن بعضها اتخذ هيئة خاصة كطريق الكباش، بل إنها صنفت إلى: «طرق محرمة» و «طرق خاصة» و «طرق للعامة»، كما تكشف عن ذلك طرق المعابد في منطقة

سقارة، وارتبط هذا التصنيف بالطقوس والمراسم المتبعة في تلك العصور.

وبرزت في المدن المصرية القديمة فكرة تخطيط الشوارع المستقيمة المنتظمة التي تقطعها شوارع عرضية مستقيمة أيضا، واذا كانت هذه الظاهرة ظهرت في شوارع المصاطب التي خصصت للدفن، فانها شاعت في نماذج المدن المصرية التي كشف عنها، مثل مدينة عمال أهرام خنت كاوس ٢٤٨١ ق. م التي يدل تخطيطها على أنه عمل لها مخطط قبل انشائها، فكان تخطيطها عبارة عن شوارع مستقيمة منتظمة تقطعها طرقات عرضية متعامدة عليها، تحدد جميعها التكوينات المعمارية للمدينة في مجموعها، وكل مجموعة منها متكاملة الخدمات، ومدينة كاهون (١٨٩٧- ١٨٧٩ ق. م). وهي مدينة قسمت الى قسمين: أحدهما خصص للطبقة الممتازة، والآخر للعامة. وسارت على النموذج السابق نفسه من التخطيط «الشطرنجي» فكانت شوارعها مستقيمة متقاطعة في زوايا قائمة، ومن هذه النماذج مدينة العمال بتل العمارنه (١٣٧٥- ١٣٤٥ ق. م.) التي تشبه سابقتها في التخطيط العام للشوارع الى حد بعيد، ويلي هذه المدن المدينة السكنية بالعمارنه آخت آتون (قبيل ١٣٤٥ ق. م) وهي مدينة تميزت بأن تخطيطها حدائقي، لكنها اشتملت على ثلاثة شوارع رئيسة محاذية للنيل تمتد من الشمال الى الجنوب يتوسطها الطريق الملكي، وكانت تمتد امتدادا مستقيما كما تتقاطع وتتعامد معها شوارع أخرى أقل أهمية(٦). وهذه المدن وغيرها تكشف عن أهمية الشوارع والطرق في تخطيط المدن في العصور القديمة، وهو تخطيط ارتقى وتبلور اكثر في الحضارات التالية، مرتبطا بالظواهر الحضارية التي تميز عصر انشائها.

ولا جدال في أن المدن الاغريقية القديمة كان لها تأثير كبير على تخطيط المدن، ومن أوضح الأمثلة على تخطيط المدن الاغريقية «مدينة الاسكندرية» التي خططها المهندس دينوكراتس Dinocrates الذي يقال إنه استعمل أفكار ونظريات التخطيط التي نشرها هيبوداموس Hippodamos من ميلتوس في القرن الخامس ق. م. وهو تخطيط اتبع في غيرها من المدن مثل بيرايوس Peiracios وردوس

Rodos وهاليكارناسوس Halicarnosus . وكان طابع هذا التخطيط الشبكي هو الذي اتبع في الاسكندرية، وهو عبارة عن شوارع مستقيمة تخترق المدينة من الشمال الى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب في خطوط متعامدة تقسمها الى مربعات مما يجعلها أشبه بلوحة «الشطرنج»(٧) . وهكذا يبدو واضحا أن التخطيط الهيبودامى متطور عن التخطيط المصري القديم- الذي أشرنا إلى نماذجه- لكنه تطور وتبلور ليربط اجزاء المدينة ويجعلها وحدة واحدة حول السوق، التي جعلت مركزا للتجارة، وتحقق له هذا الهدف عن طريق تلك الشبكة المنتظمة من الشوارع المستقيمة الواسعة التي تتعامد عليها وتتقاطع معها شبكة من الشوارع الفرعية الجانبية.

وفي العصر الروماني اعتبرت المدينة العادية التي تخطط على هيئة مربع أو مستطيل يخترقه طريقان عموديان في الوسط، ويتجه أحد هذين الطريقين الرئيسين من الشمال إلى الجنوب وهو يسمى «كاردو Cardo» ويعني محورا، أما الطريق الثاني الرئيس الآخر فيتجه من الشرق الى الغرب ويسمى ديكومانوس Decumanus، وكان الشارع الرئيس عريضا على جانبيه رواقان بأعمدة كورنثية عرض كل منهما ستة أمتار، وفي نقطة تقاطع الشارعين الرئيسين كان ينشأ قوس محمول على عمد سامقة(٨).وبعد ذلك التخطيط الرئيس لشارعي المدينة كان يكفي أن تخطط طرق ثانوية على شكل المربعات. وهكذا وجد في المدينة الرومانية شوارع ثانوية تتجه من الشرق إلى الغرب ومن الشمال الى الجنوب مشابهة للمحورين الرئيسين بعد أن تكون قطع الارض المحددة للتكوينات المعمارية قد حددت فتأخذ هذه المربعات المخصصة للتكوينات المعمارية الهيئة الشطرنجية، ومن أمثلة تلك المدن مدينة تمجاد في الجزائر Timgad(٩)، ويعكس هذا التخطيط السلطة العسكرية للرومان، بالاضافة إلى أنه ارتبط بالمراسم والطقوس المتبعة في ذلك العصر. ومن هنا يظهر الارتباط الوثيق بين تخطيط شوارع المدن ومظاهر الحياة فيها، والنظم المتبعة في هذا العصر أو ذاك.

وتعكس هذه الأمثلة من المدن في العصور التاريخية السابقة على العصر

الاسلامي أهمية دراسة شوارع وطرق المدينة الاسلامية باعتبارها حلقة هامة من حلقات تطور المدن تغاضى جل الباحثين عن تناولها بالدرس والبحث، كما أن هذه الدراسة تكشف عن حقائق ومضامين تؤكد أصالة الحضارة الاسلامية النابعة من قيم الدين الإسلامي الحنيف، ومن جهة أخرى فإن هذه الدراسة تكشف عن كثير من الحقائق التي تساعد على تعميق الدراسات الأثرية المتعلقة بتخطيط المدن الإسلامية بصفة عامة، وتكويناتها المعمارية على وجه الخصوص.

وشوارع وطرق المدينة تمثل أهم جوانب تخطيطها الذي يعني تنسيق النظام المادي الطبيعي للمدينة، والذي تمثله كتلتها المبنية، وارتباطها بتجمعها الحضري ومرافقها وخدماتها في انسجام وتوافق مع الحاجات الاجتماعية والاقتصادية لسكانها، واذا كان تخطيط المدينة يتأثر بصفة عامة بمساحة وشكل الرقعة اللتين تقومان وتمتدان عليها- أو بمعنى آخر تتأثر خطة المدينة ومظهرها الخارجي بطبيعة الموضع وانخفاضه وارتفاعه، ووجود المجاري المائية فيه أو عدمه، ووظيفتها والظروف التي تنشأ فيها- فإن المدينة الاسلامية تتأثر بالاضافة إلى ذلك بالقيم الإسلامية التي تترك أثرا واضحا على هذا التخطيط.

وتتنوع وتختلف العوامل التي تؤثر في تخطيط الشوارع والطرق من مدينة إلى أخرى، وترتبط الطرق والشوارع في المدينة الاسلامية ارتباطا وثيقا وعضويا بمنشآتها المختلفة، ومن ثم تبرز العلاقة القوية بين الطرق والشوارع وهذه المنشآت، وهي علاقة توضح مدى تأثر كل منها بالاخر.

وتأثر تخطيط شوارع المدينة الاسلامية المحصنة بنظام تحصينها وأسوارها. فاختيار الموقع الحصين المرتفع أو المحاط بعوائق مائية ينعكس على طرق التوصل إليها، كما أن احاطة المدينة بأسوار حدد مساحتها، وحدد أيضا هيئة امتدادها وأرباضها، مما كان له أثره المباشر على عدد ومقاييس واتجاهات شوارعها، ويمكن أن نلاحظ ذلك في بغداد والقاهرة، ومقارنة كل منها ببعض المدن التي لم تقيد حدودها الخارجية بأسوار كسامراء(١٠).

كذلك تأثرت مقاييس الأبواب وتخطيطها بالأسوار ومقاييسها من جهة، و«بحق الطريق» على اعتبار أن هذه البوابات على طرق المدينة من جهة أخرى. وتتحكم في شكل الطريق ضيقا أو اتساعا، انخفاظا أو ارتفاعا، وما يترتب على ذلك من تسهيل أو اعاقة حركة المرور فيه، ونلاحظ التوافق التام بين اتخاذ الأبواب تخطيطا حربيا معينا في المدينة الاسلامية، ومراعاة حق الطريق. فارتفعت الابواب المؤدية إلى داخل المدن ارتفاع فارس راكبا جواده ورافعا رمحه(١١)، وهو ارتفاع أكدت على تحديده أحكام الفقه الاسلامي عندما تعرضت لبناء بعض العناصر والوحدات على الطريق- كالبوابات والدروب والحجرات والساباط- التي يبنيها من يحق لهم بناؤها فوق الطريق، وحدد الفقهاء هذا الارتفاع بارتفاع شخص يركب جملا يمر بسهولة أسفل البناء، ويكون هناك فراغ يعلوه يؤمن سلامة المارة(١٢). وتمثل بوابات المدن أكبر المنافذ التي تبنى على مواضع اتصال طرق المدينة الداخلية الرئيسة بخارجها، ومن ثم تكون مقاييسها أكبر من مقاييس العناصر والوحدات الاخرى التي تبنى فوق الطرق الداخلية، وتعتبر أوصاف بوابات مدينة بغداد وما بقى من أبواب القاهرة- التي ترجع إلى عهد بدر الجمالي سنة ٤٨٠- ٤٨٥ هـ وغيرها من أبواب المدن الاسلامية الباقية المثل التطبيقي الواضح على هذه البراعة في تحقيق الهدف الحربي وهدف تسهيل الحركة والتوصل بين طرق المدينة وخارجها، فبالرغم من أن البوابات تمثل نقاطا ضعيفة في الأسوار إلا أنها أخذت مقاييس تتوافق وحركة الاتصال وسهولته التي اكدت عليها الأحكام الفقهية الاسلامية، وعولج الضعف لتخطيط حربي ناضج يمكّن من الدفاع عن هذه البوابات، وضرب أي عدو يصل اليها، فاحاطت بها الابراج وزودت بالسقاطات، وجاء تخطيطها المتدرج من الاتساع إلى الضيق، ثم إلى الاتساع، واجبار العدو على الانعطاف يسارا فيها، وتكرار هذا الانعطاف في بعض الأبواب أكثر من مرة من بين هذه الحيل التي أثرت في تخطيط الطريق خلال هذه الابواب واتخاذ هذه الهيئة، لكنه في النهاية كان ليكفل المرور السهل.

وأثرت الاسوار في تحديد مساحة المدينة، التي أثرت بدورها في استغلالها

استغلالا مكثفا، بحلول مختلفة كالامتداد الرأسي، وضيق الشوارع الجانبية الذي أدى بدوره الى الاستغناء عن الشارع كعنصر تهوية واضاءة، والاعتماد على الفناء الداخلي، وأثر ذلك أيضا في تلاصق المباني والامتداد بالاجنحة والرواشن في الطوابق العليا المطلة على الشارع استغلالا لكل مساحة ممكنة.

وكان لضيق مساحة المدينة المسورة أثره في إنشاء المرافق التي تحتاج إلى مساحات واسعة خارج الأسوار إذا كان لا يتسبب في أي ضرر. ومن أمثلة ذلك: مصليات العيد، والمقابر، وميادين استعراض الجند، والأسواق الأسبوعية وغيرها، والتي ارتبطت مواضعها إلى حد بعيد بداخل المدينة عن طريق الشوارع الرئيسة وبواباتها الخارجية بالأسوار.

كذلك أثر نظام تأمين الخليفة أو الحاكم في المدينة في وجود طرق أرضية «أنفاق» تربط بين القصور في المدينة، أو تربط المدينة بخارجها، وفي المدن التي اتخذ الحكام فيها قلاعا كمراكز لحكمهم، أو أنشأوا لهم مدنا ملكية مجاورة لمدن العامة، دعت الحاجة إلى ربط هذه القلاع أو المدن الملكية بمدن العامة بشوارع وطرق تأثرت مقاييسها واتجاهاتها بطبيعة المرور فيها، وموضع هذه المدن والقلاع من مدن العامة، ونلاحظ ذلك في الموصل والقاهرة وفاس الجديدة وغيرها.

كذلك انعكس أثر التحصين وتأمين الحاكم والرعية على تخطيط شوارع وسكك المدينة الفرعية التي عملت لها الدروب التي تغلق عليها، والتي تمكّن من السيطرة على محلات المدينة المختلفة أثناء الفتن والاضطرابات. وتعتبر بغداد من أوضح الامثلة على ذلك.

والمسجد الجامع من التكوينات المعمارية الأساسية بالمدينة الاسلامية، ويمثل محورا رئيسا من محاور تخطيطها، واقتضت وظائفه الدينية والتعليمية والسياسية أن يكون موضعه وسط المدينة ليكون قريبا من كل موضع فيها، ومن حوله خطت الخطط التي توجهت شوارعها الرئيسة إلى المسجد الجامع الذي يتوسطها، وظل المسجد الجامع بوسطية موضعه في المدينة الاسلامية- في الفترة التاريخية التي لم

يسمح فيها باقامة اكثر من خطبة في المدينة الاسلامية- عاملا مؤثرا على تـوجيه شوارع المدينة الرئيسة وبالتالي على الشوارع والسكك والأزقة الفرعيـة المتصلة بها.

وتعتبر المدينة المنورة أولى المدن الإسلامية التي بدأت فيها هذه الظاهرة(١٣)، واستمرت في «مدن الأمصار»: البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، كما أنها استمرت في واسط وبغداد وفاس والقطائع والقاهرة وغيرها من المدن الاسلامية الناشئة. وفي المدن التي فتحها المسلمون اختير للمسجد الجامع موضعا متوسطا أيضا، ووجهت الطرق في الامتدادات العمرانية الجديدة خاصة نحو المسجد. ومن أبرز الأمثلة على ذلك دمشق وقرطبة. وكان لارتباط المسجد الجامع بعلاقة التجاور مع دار الامارة أو القصر أثر في هذا التوجه، حيث إن الحاجة الى التوجه إلى مركز الادارة والحكم قائمة، وسهولة التوصل اليه مطلوبة، وكان وضعها في هذا الموضع مقصودا لتحقيق هذه الغاية.

ومما يؤكد الرغبة في تسهيل اتصال الجهات الإدارية للدولة بالعامة ما يذكره ابن الأخـوة من ان القاضي ينبغي «أن يجلس للحكم في موضع واسع في وسط المدينة يعرفه الناس ويقصدونه، ولا يكون في الجامع ولا في المسجد لأنه ربما دخل عليه الرجل الجنب والمرأة الحائض أو الذمي أو الصبي أو الحافي، ويكثر اللغط عند ازدحام الناس ومنازعتهم للخصوم، وكل ذلك ورد الشرع بالنهي عنه. (١٤) وان كان هناك من يرى أن يتخذ القاضي من المسجد الجامع مقرا ليصل اليه أهل البلد والغريب بسهولة. ويحددون الاجراءات التي تجنب الجامع ما قد يؤذيه من المخالفات التي أشار اليها ابن الاخوة، ولاسيما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يفصل بين الخصوم في المسجد، وكذلك كان الخلفاء الراشدون(١٥). وسواء اتخذ المسجد الجامع مقرا للقاضي- وهو ماجـرت به العـادة في كثير من المـدن الاسلامية- أو اتخذ مقرا آخر(١٦) بوسط المـدينة يتعـرف عليه بسهـولة، فكـلا الامرين يشير الى أهمية وجود المسجد الجامع ومؤسسات المدينة الادارية الاخرى في قلب المدينة، ومن ثم أثر ذلك في توجه الشوارع الرئيسة الى قلب المدينة.

مما سبق يتضح أيضا أن اختيار موضع المسجد الجامع ودار الامارة أو القصر بعد ذلك في قلب المدينة وتوجه الشوارع الرئيسة اليه كان انعكاسا صادقا لحياة المجتمع الاسلامي داخل المدينة، ولم يكن تقليدا لما وجد في بعض المدن القديمة التي ترجع الى ماقبل العصر الاسلامي، والتي ظهرت فيها محاولات لابراز معابدها بجعلها في موضع مرتفع(١٧) أو في وسط المدينة لغايات تختلف وظيفيا عما هو الحال عليه في المدينة الإسلامية. ويؤكد ذلك تلك المدن التي لم يقع فيها المسجد في الوسط كسامراء التي وقع مسجدها في الشمال، والقاهرة التي مال مسجدها الى الجنوب، وكان ذلك مرتبطا بنظام توزيع السكان في كل منهما، وامكانات التوصل إلى المسجد الجامع.

ومع اتساع العمران في المدينة الاسلامية صارت الحاجة ملحة لانشاء مساجد جامعة في الأرباض الجديدة، وأصبحت هذه المساجد النواة التي توجهت اليها الشوارع في هذه الارباض كما حدث في المدينة «الأم». ولعل ما حدث في بغداد بعد انشاء الكرخ والرصافة مثال جيد على ذلك. وظل المسجد الجامع ذا أهمية بالغة في التأثير في تخطيط شوارع المدينة وتوجيهها حتى حدث تطور عندما أفتى الفقهاء بامكانية إقامة أكثر من صلاة جامعة في المدينة الاسلامية الواحدة، فتعددت الخطبة ولاسيما أن الفقهاء أجازوا إقامة صلاة الجمعة بعدد من المصلين يبلغ اثنى عشر مصليا، ومنهم من أجاز بأقل من ذلك(١٨) وبدأ ذلك في مصر مثلا مع بداية العصر المملوكي، مما نتج عنه تحويل «مساجد الخمسة» الفاطمية، والمدارس الأيوبية إلى مساجد جامعة باضافة منبر وتعيين خطيب، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل حولت بعض الزوايا إلى مساجد جامعة. ومما يشير الى شيوع ذلك وسهولته أن أحد المشايخ جعل بداره منبرا، وصار يصلي الجمعة هو واصحابه فيها(١٩)، وصارت بذلك تؤدى وظيفة المسجد الجامع، تلك الوظيفة التي أضيفت لكل نوعيات المنشآت الدينية حسب نص واقفها، فتعددت المساجد الجامعة وكثرت كثرة بالغة. وكان لذلك أثره المباشر في تقلص أثر المسجد الجامع في توجيه شوارع المدينة، فخف التوجيه نوعا في الامتدادات العمرانية الجديدة

لتعدد الخطبة . ولعل مقارنة بين تخطيط الاحياء الجديدة التي أضيفت للقاهرة في عصر المماليك وتخطيط أرباض المدن الاسلامية قبل القرن (السادس الهجري) تبرهن على هذا التقليص وتوضحه.

ولنشاط الأسواق بالمدينة الإسلامية علاقة وطيدة بشوارعها، وأثر كبير في حالة المرور فيها، وقد انعكس ذلك انعكاسا واضحا على خريطة الاسواق في أي مدينة اسلامية، فانشاء الأسواق الاسبوعية خارج أبواب المدينة كان لما تحتاجه من مساحة كبيرة، ومن رغبة في سهولة الانتقال منها واليها، وايضا للرغبة في التخفيف قدر الامكان من شوارع المدينة الداخلية التي حكمت اتساعها ونظامها عوامل اخرى لتوفر لها نوعا من الهدوء والنظافة كان يمكن أن يفتقد لو أن هذه النوعية من الاسواق كانت داخل المدينة.

وكان أهل الريق يأتون إلى هذه الأسواق لبيع منتجاتهم المختلفة، ويدخلون إلى المدن بعد ذلك لشراء حاجاتهم من منتجات المدينة، من اسواقها الداخلية المتخصصة في انتاج وبيع ما يحتاجون إليه من مصنوعات(٢٠). وقد توزعت هذه الأسواق في نوعيات متعددة نظمت تنظيما يحقق الفائدة ويمنع الضرر، ويسهل حركة المرور في شوارع المدينة خصوصا تلك الشوارع التي توزعت على جنباتها الحوانيت والاسواق، وكان للمحتسب دور بارز في الاشراف على حركة المرور في الاسواق ونظافة شوارعها ومباشرة الحركة فيها، واحكام هذه الحركة في اطار القيم والمبادىء الاسلامية، وكان لهذا التوزيع علاقة بحركة المرور في الشوارع وتسهيلها، فتركزت مثلاً أسواق الحبوب وغيرها من اسواق المواد ثقيلة الوزن كبيرة الحجم قرب أبواب المدن حتى لايؤثر نقلها إلى داخل المدينة في حركة المرور في شوارعها. ومن أمثلة ذلك «فاس» التي تركزت فيها أسواق هذه المواد عند باب الجيسه وباب الفتوح وباب المحروق لتجنب نقل المواد الضخمة التي تباع فيها عبر شوارع المدينة. (٢١)

وكان لاساليب توصيل الماء إلى المدينة في بعض المدن أثر في شوارعها خصوصا

إذا ما كان التوصيل عن طريق قنوات متفرعة من نهر أو قناطر محمولة تجلب الماء من مصادر بعيدة مرتفعة، أو قنوات مبنية على تخوم الارض تمتد شبكاتها لتغذي المدينة، وتتجمع في بؤر عقدية في الميادين والرحبات، كما كان الحال في مدينة مدريد «مجريط العربية». (٢٢)

مقاييس الشوارع واتجاهاتها

ترتبط مقاييس الشوارع في المدينة الاسلامية بعوامل مختلفة ومتنوعة، منها ماهو متصل في الأصل بنظام تخطيط المدينة الاسلامية، ومنها ما هـو مرتبط بـطبيعة الموضع والمناخ وطريقة ونوعية الارتفاق، هذا بالاضافة الى ارتباط ذلك بالقيم الإسلامية ،والعادات والرسوم السائدة في هذا المجتمع أو ذاك، وقد تشابهت هذه العوامل وتقاربت في المدن الاسلامية، ومن ثم تشابهت إلى حد كبـير مقاييس شوارعها وأسس تخطيطها.

وفي حـدود هذا الاطـار نعرض لمقـاييس الشوارع في المـدينـة الاسـلاميـة واتجاهاتها، ولاسيما أن جل الدراسات الاثرية والحضاريـة والتاريخيـة للمدينـة الاسلامية وصفت شوارع المدينة الاسلامية وصفا اتسم بالتعميم، وأكد هـذا الوصف على «ضيق شوارعها والتوائها»، بل إن بعض هذه الدراسات اتهـم المسلمين بافساد نظام الشوارع في المدن القديمة التي فتحـوها كـدمشق وحلب وغيرهما. (٢٣)

واتجه تخطيط المدينة الإسلامية إلى تخطيط شوارعها العامة التي تربط خططها وتكويناتها المعمارية الرئيسة وتحديد مقاييسها واتجاهاتها، كما أنه اتجه إلى اقطاع الخطط للقبائل أو الفئات لانشاء مساكنها، وتركت لهم حرية تقسيمها وتخطيطها مع التأكيد على أهمية تخطيط الشوارع الثانوية التي تفصل بين مساكنها بما يتناسب وحاجة الارتفاق. وكانت النتيجة المباشرة لهذا الاتجاه في التخطيط أن وجدت نوعيتان من الشوارع في المدينة الاسلامية، نوعية أطلق عليها الفقهاء «الطريق السابلة»، أو «طريق المسلمين»، أو «طريق العامة»، أو غيرها من المسميات التي

تعني أن هذه النوعية من الطرق ملك للعامة، لهم جميعا حق الارتفاق بها، ووجب على السلطة المحافظة عليها من أي اعتداء يعرضها للضيق أو اعاقة المرور بها. وتتسم هذه النوعية من الشوارع بأنها «نافذة» توصل إلى غيرها من الشوارع تمييزا لها عن «الطرق الخاصة» غير النافذة. وهي النوعية الثانية من الطرق التي تركت حرية تخطيطها وتحديد مقاييسها لأصحاب الاقطاعات أو الخطط، وهي مشتركة الملكية لاصحاب الدور المحيطة بها، ولهم حرية الارتفاق بها دون غيرهم من العامة باعتبارها ملكية خاصة، ومن ثم لم يكن للسلطة في المدينة حق التدخل في شؤونها إلا إذا طلب ذلك أحد من اصحابها، فعندئذ يتدخل القضاء لحل ما يمكن أن يحدث من مشكلات.

وتشير الروايات التاريخية الى مقاييس الشوارع العامة والرئيسة في بعض المدن الاسلامية. ونبدأ من البصرة التي مصرها «الصحابة على عهد عمر وجعلوها خططا لقبائل أهلها، فجعلوا عرض شارعها الاعظم وهو مربدها ستين ذراعا، وجعلوا عرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعا، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع، وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيلهم ومقابر موتاهم، وتلاصقوا في المنازل، ولم يفعلوا ذلك الا من رأى اتفقوا عليه ونص لا يجوز خلافه. وقد روى عن بشير بن كعب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اذا تدارأ القوم في طريق فليجعل سبعة أذرع». (٢٤)

وجرى تخطيط شوارع الكوفة بمقاييس مقاربة، فقد حدد الخليفة اتساع الشوارع بسبعة أذرع، وأمر بأن تتوسط كل خطة ساحة أو رحبة طول ضلعها ستون ذراعا، وبالاضافة إلى ذلك فقد حدد مواصفات الوحدات السكنية بألا تزيد عدد الغرف في المنزل عن ثلاث ولا يرتفع البناء اكثر من طابق(٢٥)، ولاشك أن تحديد ارتفاع المباني بهذه الهيئة يزيد الاحساس باتساع الشوارع بصورة واضحة.

ومع نمو المدن الاسلامية وتحولها الى مراكز حضارية وعمرانية زاد الاهتمام

باتساع شوارعها الرئيسة. ذلك أن «واسط كان بها» عند تأسيسها أربعة شوارع رئيسة تتفرع من أبواب دار الامارة، وكان عرض كل منها ثمانين ذراعا»(٢٦). وعند تخطيط بغداد أمر المنصور بأن يكون «في كل ربض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة ما يعتدل به المنازل. . . وحد لهم أن يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعا بالسوداء، والدروب ستة عشر ذراعا»(٢٧).

واتسمت سامراء باتساع شوارعها حتى أن شارعها الأعظم «شارع السريجة» كان بحدود مائة متر، وهو بذلك يضاهي أعرض الشوارع في العواصم العالمية حتى يومنا هذا. وتوضح الصور الجوية لهذه المدينة شوارعها المستقيمة التي تتقاطع أحيانا، وتربط بينها دروب مستقيمة مصممة بطريقة هندسية واضحة(٢٨). وعكست المراحل البنائية والعمرانية لهذه المدينة مدى الاهتمام بتخطيط شوارعها المتسعة ابتداء من عهد المعتصم الذي أسس المدينة. ففي عهده «جعلت قطائع الاتراك جميعا والفراعنة والعجم بعيدة عن الأسواق والزحام في شوارع واسعة ودروب طوال»(٢٩). وكان الخليفة الواثق حريصا على اتساع الشوارع المؤدية إلى المسجد الجامع، فعمل على عدم تضييقها مستقبلا بزحف حوانيت التجار عليها، ووسع في المساحات المقطوعة لبناء الحوانيت، فجعل الطرق الى جامعه «من ثلاثة صفوف واسعة من الشارع الذي يأخذ من وادي ابراهيم بن رباح، في كل صف حوانيت فيها أصناف التجارات والصناعات والبياعات، عرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء، لئلا يضيق عليه الدخول إلى المسجد إذا حضر الجمع في جيوشه وجموعه بخيله ورجله، ومن كل صف الى الصف الذي يليه دروب وسكك فيها قطائع عامة الناس(٣٠)، أما المتوكل فقد جعل عرض الشارع الذي يربط بين المتوكلية وسامراء مائتي ذراع.

وانسحب اتساع الشوارع الرئيسة في المدن الاسلامية على مسمياتها التي تدل على ذلك، كالمحجة الكبرى والشارع الأعظم، وتدل أوصاف مواكب الخلفاء والسلاطين بهيئة معين على اتساع هذه الشوارع(٣١). وتؤكد ذلك مقاييس بعض الاجزاء الباقية من هذه الشوارع- على حالها- كالشارع الاعظم بالقاهرة الفاطمية

الذي يبلغ في بعض المواضع ١٢ مترا، وبالربط بين هـذه المقـاييس ووسائـل النقل المستخدمة في المدن الاسلامية، وهي الدواب يتضح اتساع هذه الشوارع بالنسبة لكثافة المرور ووسائل النقل المتبعة.

واعتبرت الشوارع الرئيسة في المدن الاسلامية الاصل الذي تتفرع منه وتصب فيه جميع الشوارع الفرعية، والسكك والازقة الجانبية، والتي كان اتساعها اقل بطبيعة الحال عن الشارع الاعظم. فقد روعى التدرج في قطاعات الطرق حسب الأهمية وتدفقات الحركة على كل محور من محاور المرور في المدينة، وارتبط هذا التدرج بالعوامل الاخرى التي أثرت في شوارع المدينة الاسلامية، من حيث تحديد اتجاهاتها ومقاييسها وشكلها العام، بل طريقة توزيع المباني على جانبيها وارتفاعات هذه المباني.

ومن منظور نقدي تعرض المصادر لمقاييس الشوارع سلبا وايجابا بما يـوضح الاهتمام والاشادة باتساع الشوارع، فقد أشاد المؤرخون والرحالة باتساع شوارع المرية وتونس ورباط الفتح(٣٢) وطرابلس والاسكندرية والقاهرة، ومنهم من بالغ في إبراز ذلك،على سبيل المفاضلة، مثل ابن جبير الذي أشـاد باتسـاع شوارع الاسكندرية وذكر انه لم ير «بلدا أوسع مسالك منها»(٣٣)، وعندما وصف التيجاني شوارع طرابلس قال: «رأيت شوارعها فلم أر اكثر منها نظافة، ولا أحسن اتساعا واستقامة، وذلك لان اكثرها يخترق المدينة طـولا وعرضـا الى آخرهـا في هيئة شطرنجية». (٣٤)

وتدرجت الشوارع والطرق في المدينـة الاسلاميـة من الاتساع الى الضيق، وتنوعت هذه الـطرقـ كما أشـرناـ الى شـوارع عامـــة غالبـا ما تكـون متسعة مستقيمة، وشوارع خاصة غالبا ما تتسم بالضيق والالتواء لظروف تخطيطهـا. وكان ذلك فيما يبدو وراء انتقاد بعض المؤرخين والرحالة لضيق الشوارع في بعض المدن الاسلامية، ويؤكد ذلك اختلاف آراء النقاد حول شوارع وطرق مـدينة واحدة. فبينما يصف البغدادي أسواق وشوارع القاهرة بالاتساع(٣٥) يذكر ابن

سعيد أن «أكثر دروبها ضيقة»(٣٦). فالاول يصف الشوارع الرئيسة، ويتجه الاخر الى وصف الدروب التي تمثل غالبا الشوارع الفرعية والطرق الخاصة، ولكن هناك من المدن ما اتسمت شوارعها فعلا بالضيق، واجمع المؤرخون والرحالة على ذلك كمدينة الفسطاط التي ذكر ناصر خسروا انه رأى فيها «أسواقا وأزقة ضيقة تظل فيها القناديل مشتعلة بشكل دائم لان نور الشمس لا يصل أبدا الى تلك الاسواق والازقة(٣٧)، ويؤكد ذلك المقريزي فيذكر أن «أزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة»(٣٨)، واتساع شوارع الفسطاط الباقية الذي يتراوح مابين ستة أمتار ونصف متر يؤكد صدق روايات المؤرخين، كما تؤكدها الشواهد الاثرية التي تعكس هذه الظاهرة، كوجود قنوات مكلسة في الجدران الخارجية لبعض المنازل الباقية كانت تستخدم في تصريف مياه المطر من على اسطح المنازل بدلا من الميازيب التي لا تصلح الا في الشوارع المتسعة حتى لا تسبب أذى للمارة. وكان لظروف انشاء الفسطاط وتخطيطها، والهجرة المكثفة اليها، وانضمام المهاجرين الى قبائلهم أثر واضح في تكثيف الانشاء وشغل المساحات وتضييق الطرقات. (٣٩)

أما مقاييس «الطرق الخاصة» فقد تركت حرية تحديدها لأصحابها، واذا ما حدث خلاف حول تحديد اتساع الشارع فإن أصل التحديد يكون حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «اذا تدارأتم في شارع فاجعلوه سبعة أذرع»، ووجه الفقهاء إلى حدود المقاييس المناسبة للارتفاق بهذه الطرق، فذكر «ابن كنانة» أن الناس يجب أن يتركوا لشوارعهم وأزقتهم ما يتلاءم واقصى ارتفاع واضخم شيء يمر من خلالها، وأن هذا يجب الا يحدد بحمل جمل. وقد ذكر «مالك» الرأي نفسه عندما سئل عن عرض الشارع الذي يحدد لجماعة اختلفوا فيه. فقال: يجب أن يتركوا الاتساع الكافي لاثقالهم ولانفسهم والذي يمكنهم بذلك من المرور(٤٠). ومن منظور تطبيقي يذكر «ابن الرامي» إنه انتدب ليقوم بتقسيم بعض الأراضي في تونس بين مجموعة من الناس، فجعل عرض الشارع ثمانية أشبار كافية لجمل يمر ولا يقل عن ذلك، ويلاحظ أن هذه التوجيهات لم تحدد مقياسا ثابتا معينا

لاتساع هذه الطرق يلتزم به، وربما كان ذلك لاختلاف صور الارتفاق بهذه الطرق، ولاختلاف ظروف نشأة بعض هذه الطرق التي ربما تقطع من مساحة المباني ولاسيما في حالات القسمة أو البيع أو غيرها من المعاملات التي تؤدي الى الحاجة الى طرق خاصة فرعية توصل إلى التكوينات الجديدة الناشئة عن هذه المعاملات، ولا أدل على ذلك مما نجده أحيانا من امثلة لهذه الطرق يتراوح اتساعها بين متر ونصف متر ومترين، كما كان عليه الحال في الفسطاط والمدينة المنورة في حارة الأغوات.

واتسمت هذه النوعية من الطرق بأنها غير نافذة، وانها «زائغة» أي مائلة أو منحرفة عن طريق عام نافذ، وهو ما اكسبها صفة الالتواء، وترتبط هذه السمات ارتباطا وثيقا بظروف تخطيطها في الاصل بما يحدث من تغييرات في التكوينات المعمارية تتطلب فتح طرق ومسالك جديدة، وتتفرع من هذه الطرق فتستدق التفريعات ويتكرر التواءها.

فتقسيم المدينة إلى خطط أو قطائع، تركت حرية تقسيمها الى أفراد القبائل أو الفئات التي أعطيت لهم هذه الخطط أو القطائع، أدى الى توجيه الطرق الخاصة بهذه الخطط والقطائع توجيهاً معينا غير مرتبط بشبكة الطرق في الخطة المجاورة، ومن ثم كانت نهاية هذه الطرق منازل تكون في صدرها توفيراً للمساحة، أو الى ظهور المنازل في خطة اخرى، ومع الامتداد العمراني للمدينة كان تقسيم الارض وتحديد الطرق يتم وفق هذا المنهج الذي يؤدي الى تكرار الالتواءات.

وقد أثرت في تحديد مواضع الطرق الخاصة اعتبارات عديدة منها ما هو متصل بطبيعة حركة الشمس واتجاه الريح، ومنها ما هو مرتبط بظروف المساحة التي تؤثر في طريقة تقسيمها وبالتالي اتجاه الشوارع فيها، ومنها ما هو مرتبط بظروف المتجاورات السكنية والطرق الاخرى. وكان لاختلاف هذه الاعتبارات بالاضافة الى الرغبة في توفير نوع من الخصوصية للبيوت المشتركة في هذا الطريق أو ذاك أثره على اتخاذ الطرق الخاصة هذه السمة التي تميزها حيث إنها طرق غير نافذة وملتوية.

فمع حركة الشمس الظاهرة من الشرق الى الغرب يتجه التفصيل في توجيه الشوارع في المناطق الحارة من الشمال الى الجنوب لأن ذلك يساعد على عدم تعرض الطرق وواجهات البيوت المطلة عليها فترة طويلة للشمس، بالاضافة إلى أن هذا التوجيه يمكّن من استقبال رياح الشمال المخففة للحرارة، والرغبة في الحصول على هذه الميزات في التخطيط تؤدي إلى توجيه المنازل والطرق الخاصة توجيها يحقق تلك الميزات ، وينتج عنه تكرار توازي الطرق الخاصة لتوازي الواجهات المطلة عليها، بينما كان في الامكان تقابل هذه الواجهات على طريق واحد بدلا من طريقين، ويمتد تأثير هذه الرغبة في اتساع الطريق. فبدلا من أن تشترك فيه البيوت المتقابلة وتتوافر امكانية اتساعه من المساحات المتروكة من الجانبين يقل اتساع الطريق لانه مقتطع من جهة واحدة.

وتقسيم مساحة من الارض لانشاء المنازل عليها يتأثر بقياسات هذه المساحة التي تحتم تقسيم المساحة تقسيما معينا يمكّن من استغلالها استغلالا سليما، ومن ثم تتحدد اتجاهات الطرق الخاصة وقياساتها وفق طبيعة المساحة، وتتعارض لذلك اتجاهات التقسيم في الملكيات المتجاورة، فتأخذ الطرق الخاصة اتجاهات مختلفة تتوازى وتتعامد، وتتصل وتنفصل، وينتج عن ذلك كله اتخاذ هذه الطرق السمات التي اتسمت بها من حيث كونها غير نافذة وملتوية.

ويزيد من سمة الضيق والالتواء ما يحدث من حالات التغيير المستمر الذي تتعرض له التكوينات المعمارية في المدينة الاسلامية، واستمرار حركة البناء والتعمير سواء أكان ذلك في داخل المدينة، أم في أطرافها التي تمثل مناطق الامتداد العمراني في المدينة.

ومن مظاهر هذا التغيير ماحدث من تحول انشائي ووظيفي في بعض المدن نتيجة تغير الاوضاع السياسية. ومن أوضح الامثلة على ذلك مدينة القاهرة التي تحولت مع بداية العصر الايوبي من مدينة ملكية الى مدينة للعامة، وما نتج عن ذلك من تحولات جذرية في عمران المدينة، وتكويناتها المعمارية، حيث ازيلت

القصـور الفاطميـة، وانشيء في مواضعهـا العديـد من التكوينـات المعماريـة الأخـرى تطلب انشاؤها انشاء شبكة جديدة من الطرق الفرعية والخاصة التي تصل بينها. كما أن هذا التحول أضفى على المدينة طابعا جديدا، فتحول شارعها الاعظم الى منطقة تجارية ممتدة تشمـل العديـد من الاسواق والسـويقات التي تخصصت في تجاراتها وصناعاتها والتي انسحبت فيها بعد على مسميات المناطق التي تشغلها كالصاغة والخيميين والفحامين الى غير ذلك. (٤١)

وأحيانا كان التسلط من العوامل المؤثرة في تغيير هيئة بعض الطرق والشوارع في المدينة الاسلامية، فأدى الى فتح بعضها أو الغاء البعض الاخر تحقيقا لاغراض خاصة، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك ما فعله الامير جمال الدين الاستـادار الذي انتهت اليه ملكية كثير من التكوينات المعمارية في منطقة الجمالية بالقاهرة، فالغى بعض الطرق التي كانت تربط هـذه التكوينـات وغيرهـا طمعا في ضم مساحتها الى مساحة هذه التكوينات، وفي العصر العثماني حدث الشيء نفسه عندما انشئت «وكالة بازرعه» في الجهة الغربية من «المدرسة الجمالية»، وضمت في مساحتها الطريق الذي كان يحد المدرسة من الغرب(٤٢)، وتعد هذه الحالة وغيرها حالات استثنائية لا تمثل ظاهرة عامة.

وعوامل التغيير التقليدية ممثلة فيما يحدث من حالات القسمة للـورث أو البيع أو الاستبدال، أو تحويل وظائف المباني الى وظائف أخرى غير التي انشئت من أجلها(٤٣)، أو حتى تغيير وظيفتها واعادة بنائها لتؤدي هذه الوظيفة، أو السماح بفتح طرق للممتلكات المحبوسة كان لها أثر فعال في انشاء طرق خاصة جديدة متفرعة من طرق عامة او متفرعـة من طرق خـاصـة تكـون في الغالب اكـثر استدقاقا، وتزيد من مظهر الالتواء والتفرع، ولاسيما اذا كانت متفرعة من طرق خاصة متفرعة بدورها من طرق زائغة متفرعة من الشارع الاعظم. ويمكن قصر مظاهر التغيير على انشاء طرق خاصة جديدة تضاف إلى السابقة بمرور الزمن(٤٤).

يتضح من العرض السابق «للطرق الخاصة» في المدينة الاسلاميـة أنها هي

النوعية التي يمكن ان تتسم بالضيق والالتواء بالنسبة للطرق العامة الرئيسة، وأن هذا الالتواء والضيق نشأ اصلا عن الرغبة في تحقيق «الخصوصية»، وتوفير المساحة لاستغلالها في انشاء التكوينات المعمارية بما يتفق ومصالح أصحابها.

والحكم على هذه الطرق «بالضيق» نسبي، وذلك لأن اصحاب الطريق الخاص يحددون اتساعه بما يتفق ومظاهر ارتفاقهم به، وبما يحقق مصلحتهم، خصوصا وانه موقوف على ارتفاقهم فقط، باعتباره ملكية خاصة، اي ان نسبة المرور فيه محدودة بارتفاقهم.

واذا وضعنا في الاعتبار أن ضيق الشارع أو اتساعه مرتبط أصلا بحركة المرور، وبوسائل النقل المستخدمة، يتضح لنا ان هذه الشوارع والطرق الخاصة لم تكن تضيق بأصحابها الذين لهم حق الارتفاق بها، ذلك لانهم كيفوا أنفسهم على استخدامها والارتفاق بها بما يتفق وتحقيق المنفعة، وازالة الضرر في اطار المبدأ الاسلامي «لاضرر ولا ضرار».

واهتمت الشريعة بالطريق وحقه اهتماما بارزا، وبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الاهتمام فكانت احاديثه المتعددة تدعو الى المحافظة على الطرق ونظافتها وحقوق الارتفاق بها وعدم تضييقها بالبناء فيها او اعاقتها. وسار الخلفاء والحكام على هذا النحو. ولاحقت اراء الفقهاء واحكام القضاء حركة العمران والبناء في المدن الاسلامية فكانت القوانين الاسلامية التي حكمت تخطيط الشوارع والطرقات، وأوضحت العلاقة بينها وبين التكوينات المعمارية المطلة عليها بما لايضر الجار والمار. فصاغت هذه القوانين هيئة الشوارع والطرق في المدينة وأثر ذلك في أشكال المباني المطلة عليها، والمتصلة بها تأثيرا واضحا تشابهت سماته في كل المدن الاسلامية الناشئة، وانسحب ايضا على ما طرأ في المدن المفتوحة من امتدادات عمرانية جديدة. (٤٥)

الشوارع والمناخ

كان توجيه الشوارع من المحاولات البارزة في التخطيط لمقاومة العوامل

الجوية، فمن المدن ما وجهت شوارعها الرئيسة الكبيرة من الشمال الى الجنوب حتى تكون عمودية مع حركة الشمس الظاهرة، وهذا مايجعل الشوارع تكتسب ظلا طوال النهار، بالاضافة الى اكتسابها الرياح الشمالية التي تساعد على استمرار برودتها أطول فترة ممكنة نسبة التظليل العالية في هذه الشوارع. وقد تجلت هذه الظاهرة في أروع امثلتها في القاهرة، وسارت على هذا التخطيط مدن صعيد مصر، وكذلك مدن المناطق الحارة من العالم الاسلامي. ولعل اتجاهات شوارع مدينة الدرعية الباقية تؤكد هذه الحقيقة. فمعظمها ولاسيما الشوارع الرئيسة يتجه نحو الشمال. وفي المناطق الباردة تأخذ الشوارع شكلا عكسيا، فيتغلب على الاتجاهات الاتجاه الشرقي الغربي لاكتساب اكبر قدر من الشمس طوال النهار، ولتجنب الرياح الشمالية والشمالية الغربية التي تهب عليها طوال العام(٤). وأمثلة ذلك واضحة في اتجاهات شوارع المدن الساحلية في المناطق التي تتعرض للرياح الشديدة الباردة شتاء حيث خططت الشوارع فيها باتجاه يوازي البحر لتكون التكوينات المعمارية على جانبيها بمثابة حائط صد لهذه الرياح مثلما حدث في الاسكندرية. كما أن اتساع الشوارع النسبي في مدن أوروبا في العصور الوسطى كان لتحقيق نسبة أفضل من الاضاءة في هذه البلاد التي تنخفض فيها نسبة سطوع الشمس الى حد كبير بالمقارنة بالمدن الاسلامية الواقعة في المنطقة الحارة. وربما كان لعامل المناخ وتسهيل نقل البضائع الواردة والصادرة في المدن الساحلية الاسلامية أثره في اتساع شوارعها النسبي كالمرية والاسكندرية وتونس ومدينة رباط الفتح(٤٧) ورشيد، كما كان له أثره بصفة عامة في تنوع اتجاه الشوارع الرئيسة المختلفة مما أدى الى تنوع تخطيطاتها.

وكما تأثرت التكوينات العمرانية في المدينة بعامل المناخ تأثرت به أيضا الشوارع التي هي بمثابة الشرايين التي تصل بين هذه التكوينات. وكذلك أدى صغر مساحة المدينة وحب التآلف والتقارب ويسر التوصل إلى أي موضع مشيا على الأقدام إلى ترتيب أوضاع التكوينات المعمارية بطريقة متجاورة ساعدت الى حد كبير على التغلب على حرارة الجو وشمسه الساطعة. فقد أدى ذلك الى «تحقيق ظل

ذاتي نتج من استغلال تظليل المباني المتجاورة كوسيلة طبيعية لعزل الواجهات الخارجية للمباني، وكذلك كل الشوارع وممرات المشاة. وقد حتمت تلك الرغبة توجيه التكوينات المعمارية بالاوضاع التي تحقق ذلك وتهيئها بصورة طبيعية تحقق بعضها من السيطرة على مختلف الظروف المناخية العامة». (٤٨)

وكان لارتفاع المباني أيضا على جانبي الشارع أثره في تحقيق نسبة ظل معقولة لهذه الشوارع. فقد كانت نسبة ارتفاع المباني الى عرض الشارع ٢ : ١ وأحيانا ٣ : ١ أو ٤ : ١(٤٩). وقد زاد من نسبة التظليل تلك الرواشن والاجنحة التي كانت تبرز إلى عرض الشارع في الطوابق العليا من المباني، وتلك العناصر المعمارية التي تعلو الشارع لتربط بين المباني على جانبيه كالساباط أو «القناطر»- التي كانت تفتح ويبنى فوقها لاستغلال المساحة- وهذه الظاهرة واضحة فيما تبقى من «قناطر» مدينة الموصل، وما بقي في بعض الشوارع القديمة بمدن نجد(٥٠) كالرياض وسدوس وشقراء وغيرها. وحماية لبعض الشوارع التي تتميز بنشاط تجاري خاص، يتأثر بالعوامل المناخية بصورة مباشرة، غطيت هذه الشوارع لحمايتها من هذه العوامل الجوية. (٥١)

الرحاب والميادين

تضمنت المدن الاسلامية المبكرة كالبصرة والكوفة والفسطاط في خططها مساحات خالية من البناء كان يطلق عليها «الرحاب». تركت لتستخدم في أغراض مختلفة، فقد أشارت المصادر الى أنها تركت لتكون «مرابط لخيلهم وقبور موتاهم»، وكانت هذه الرحاب متسعة فسيحة بلغ « طول ضلعها ستين ذراعا»(٥٢)

واذا كانت المساحات متوفرة في المدن غير المحصنة فإنها محدودة في المدن المحصنة، مما أثر بالتالي في تضمين هذه المدن الميادين والرحاب. وجعلت المقابر خارج سوارها. وتعتبر بغداد في عهد المنصور من أوضح الامثلة على هذه النوعية من المدن، فلم تشتمل على مثل هذه المرافق التي تحتاج الى مساحة كبيرة كالميادين والبساتين وغيرها، وكان ذلك موضع انتقاد واضح لها. (٥٣)

ولكن هناك من المدن المحصنة ما خطط على الرسم الملكي كمدينةالقاهرة، ومن ثم فقد تضمن تخطيطها ميادين ورحاب تتلاءم ومظاهر الحياة الملكية فيها، فقد تضمنت القاهرة «ميدان بين القصرين» الذي هو من الترتيب السلطاني، فقد اشتمل على ساحة للعسكر والمتفرجين(٥٤)، وقد ذكر المقريزي أن هذا الميدان كان يتسع لعشرة آلاف ما بين فارس وراجل، ومن أهم ميادين القصر أيضا ميدان أو «رحبة باب العيد» التي كانت تبدأ منها مواكب الخروج لصلاة العيد في مصلى العيد خارج باب النصر، وكانت رحبة عظيمة متسعة. وكذلك رحبة الجامع الازهر وغيرها من الرحاب التي تغيرت بالبناء فيها، فتذهب الرحبة ويبقى اسمها، أويبنى فيها، ويذهب اسمها ويجهل، وربما حدث العكس فينهدم البناء ويصبح موضعه رحبة وهكذا، ولكن ما ذكره المؤرخون المهتمون بالخطط، إحصاء لاهم هذه الرحاب، يوضح لنا الأعداد الكبيرة منها والتي انتشرت في المدن الاسلامية، فقد ذكر ابن دقماق أشهر أربع وثلاثين رحبة في الفسطاط، وأحصى المقريزي خمسين رحبة في قاهرة المماليك.(٥٥)

وكانت هذه الرحاب نقطة التقاء مجموعة من الشوارع أو السكك أو الازقة أو قطاعا منها، فكانت تيسر المرور لاتساع مقاييسها عن مقاييس الشوارع، وكان اتساعها مشجعا للباعة الجائلين على ممارسة نشاطهم بها،(٥٦) مما أدى الى تسمية الرحبة باسم التجارة التي تمارس فيها «كرحبة البصل»، أو «مربعة القزاز» في دمشق. وقد تشتمل الرحبة على أحد المرافق العامة، ومن أمثلة ذلك الرحبة التي كانت أمام مسجد الدرعي بالفسطاط فقداشتملت على بئر سابلة»(٥٧)، ورحبة عقبة العداسين التي كان بها بئر سابلة كذلك(٥٨)، وقد انتشرت الصواريخ التي يستخدمها العامة في المناطق العقدية لقنوات الماء في شوارع مدريد(٥٩)، والتي غالبا ما تكون في مناطق متسعة تلتقي عندها الشوارع كهيئة هذه الرحاب. وكان يطلق على هذه الرحاب أحيانا مصطلح «العرصة» وهي الساحة الخالية من البناء، والتي ربما كانت أقل اتساعا من الرحبة أو انها رحبة صغيرة، وأحيانا أخرى يطلق عليها «المربعة».

ولم تكن بالمدن الاسلامية في العصور الوسطى ميادين عامة كالتي توجد بمواجهة الكنيسة في المدن الأوروبية في العصور الوسطى، وإنما اشتملت على ميادين لاستعراض الجند والألعاب المختلفة من سباقات وغيرها، أو المصلى الذي يجتمع فيها المصلون لصلاة العيد. (٦٠)

جمالية الشوارع

ومن الناحية الجمالية فإن شوارع وطرق المدينة الاسلامية بمقاييسها وأشكالها، واتجاهاتها المتنوعة، وعلاقاتها بالتكوينات المعمارية الأساسية والثانوية ولدت قيما جمالية أصيلة يمكن استقراؤها من تحليل نوعيات الجمال المختلفة سواء أكان الجمال حسيا أم عاطفيا أم فكريا تجريديا أم وظيفيا(٦١). ففي اطار نسبة المقاييس نجد أن علاقة الشارع بالإنسان علاقة انسانية منطقية تشعره بكيانه، فهو يسيطر عليها سيطرة كاملة خلاف ما نجده مثلا في شوارع المدينة المعاصرة، حيث يسيطر الشارع على الإنسان وحركته(٦٢). وكان لحرية التخطيط أثرها الواضح في اتخاذ الشوارع أشكالا متنوعة، فحرية المسقط الافقي المتاحة للمخطط في المدينة الاسلامية أعطته الحرية الكاملة في عملية الابداع من ناحية أطر الشوارع وعرضها والساحات الصغيرة المتفرعة منها واليها، وعكست حرية المسقط بدورها عدم الرقابة فيها وفي المساقط الرأسيه(٦٣) للشوارع، فالسائر في الشوارع لا يشعر بالملل لأنه باستمرار يشعر بالتغيير في الشارع والساحة من حيث الاتساع والضيق. كما أن عدم المبالغة في الرؤية المنظورية، نظرا لعدم حتمية امتداد الشوارع إلى مسافات طويلة، سهل حركة المرور ويسر للمخطط انهاء الشوارع وانعطافها، وبذلك فإن الإنسان يحدد رؤيته المنظورية داخل اطار انساني معقول وجميل، وهذا بخلاف الرؤية المنظورية اللانهائية التي نلاحظها في المدن المعاصرة. (٦٤)

كما أن السير في شوارع المدينة الاسلامية باتجاهاتها المتنوعة أدى إلى اعطاء الفرصة للتجول البصرى، وتقسيط المسافات واتاحة الفرصة للتأمل الهادىء

وعدم الملل. هذا بالاضافة إلى أن تدرج القطاع الخارجي للمباني أدى الى تنويع طرق التشكيل البصري للشوارع، كما أن استعمال التشكيل الهندسي الذي ارتبط بوحدة متكررة في تصميم الرواشن والمشربيات(٦٥) زاد من جمالية هذه الشوارع.

وتخلصت شوارع المدينة من جميع العناصر المعمارية والزخرفية التي اتصلت بحياة المجتمع في المدن السابقة على الاسلام، سواء أكانت هذه العناصر ذات دلالات طقسية، أم كانت في اطار الرسوم والتقاليد المتبعة في هذا العصر أو ذاك، فلم توجد في شوارع المدن الإسلامية مثلا صفوف الأعمدة على جانبي الشوارع، أو أقواس النصر التي شاعت في المدن الرومانية. وكان تجميل الشوارع محدودا بمداخل وواجهات العمائر والمباني المطلة عليها(٦٦). وقد تطورت زخرفة المداخل واشكالها وواجهات العمائر وانعكس هذا التطور على جمالية شوارع المدن الاسلامية، فشكلت المداخل المرتفعة والبارزة أحيانا- وما يكسوها من زخارف محفورة أو ما يكسوها من رخام أو بلاطات الخزف وما يتوجها من حطات المقرنصات البديعة- عناصر جمالية واضحة، وكذلك الواجهات التي بنيت بأساليب معمارية زادتها جمالا «كطراز الأبلق والهزرباف» وغيرهما، وما اشتملت عليه من صفوف النوافذ خصوصا في المنشآت العامة، وما تقدم مطلاتها من رواشن ومشربيات في المباني السكنية، وما اشتملت عليه هذه الواجهات من أنواع وأساليب التجميل الزخرفي الشائعة في الفنون الاسلامية، كالحنايا التي تتوجها المقرنصات، وأشرطة الكتابات المحفورة، والتكسيات بالرخام أو بلاط الخزف، وتلك الشبابيك المصنوعة من النحاس المفرغ والمصبوب أو الخشب المنجور وغيرها من العناصر الزخرفية والمعمارية التي جملت واجهات المباني. هذا بالاضافة الى الاهتمام بواجهات المباني الدينية، وتتويجها بالشرافات، وابراز مآذنها وقبابها بجعلها مطلة على الشارع. كل هذه العناصر الزخرفية أعطت الشوارع في المدن الاسلامية صيغة جمالية مميزة.

وتؤكد المقارنة بين الانتقال غير المنطقي في المدينة المعاصرة من شوارع متسعة

إلى بيوت ضيقة، تشعر ساكنيها بالضيق لصغر عالمها، وبين الانتقال المنطقي في شوارع المدينة الاسلامية ذات الاتساع المحدود إلى منازل رحبة واسعة، يشعر الإنسان فيها كأنه يملك العالم بأسره، قيمة جمالية انسانية نفتقدها في مدننا المعاصرة ذات الشوارع المتسعة اللاانسانية وبيوتها الضيقة التي لاتتعدى مساحتها غالبا ٨٠ متراً مربعا. (٦٧)

وإلى جانب هذه القيم الجمالية لشوارع المدن الاسلامية فانها امتازت عن شوارع مدن العصور الوسطى المعاصرة لها بأنها كانت تتسم بالنظافة المستمرة التي كفلها نظام الحسبة المتبع في المدن الإسلامية. كما أنها مهدت تمهيدا جيدا، ومنها ما بلط في بعض المدن وانشئت في بعضها الارصفة الجانبية الجميلة، كما اهتم باضاءتها ليلا لتأمين المارين بها، بينما «لم تحظ شوارع لندن بمصباح واحد، ولم تمهد شوارع باريس الا بعد ذلك بعدة قرون». (٦٨)

وكان للتوجيهات الإسلامية من وجوب كف الاذى عن الطريق أثر في الاهتمام بهذه الطرق والمحافظة عليها، وازالة أي عوائق توجد فيها، وتأمين المارة بها. كما أن أحكام الشريعة حددت نظم وطرق الارتفاق بها مما سهل المرور عليها، وجنب أي ضرر للمارة ولأصحاب المنازل المطلة عليها، ولاشك في أن سلامة الأداء الناتجة من تطبيق هذه الأحكام لها في حد ذاتها قيمة جمالية وظيفية واضحة.

كما أن قيام المحتسب ومعاونيه بواجباتهم كاملة في المحافظة على حق الطريق في إطار القيم الاسلامية أدى إلى احتفاظ شوارع المدينة بهذه القيم الجمالية الاصيلة.

وهناك نوعية أخرى من الطرق التي اهتم بعمارتها وتجميلها لاعتبارات خاصة، فقد اشتملت بعض الطرق المؤدية الى قصور الحكام على بوابات خاصة تحكم نقطة الاتصال بين الممرات الداخلية لهذه القصور، وهذه الشوارع مثل تلك البوابة التي انشئت في الطريق المؤدي إلى قصر أحمد بن طولون(٦٩)، وتلك

البوابات التي كانت تربط بين شوارع سامراء الرئيسة وقصور الخلفاء فيها(٧٠). وغيرها من الامثلة كثير. لكن هناك من الطرق ما أنشىء لغاية جمالية مقصودة كالطريق الذي انشىء في اصفهان، والذي أصدر أوامر انشائه الشاه عباس، وهو طريق يمتد من ميدان نقش جيهان ويعبر نهر «زاينده» عبر قنطرة عرفت باسم «قنطرة الله وردى خان»، ثم يمتد الى اسفل الجبل الموجـود جنوبي اصفهـان. وغرست على جانبيه أربعة صفوف من شجر الدلبا، ولهذا عرف بشارع الحدائق الاربع. وقد بلغ طول هذا الطريق اكثر من ثلاثة كيلو مترات، وعلى مدخل هذا الطريق أقيمت عمارة صغيرة كانت عبارة عن ايوان ونوافذ، وقد بنيت على هذا الشكل حتى يستطيع الجالس فيها مشاهدة الطريق من مكان مرتفع، ويكون في امكانه رؤية اكبر قدر من هذا الطريق، وقد عرفت هذه العمارة باسم «جهان نما» أي «الكاشفة للدنيا»، وقد عرف القسم الذي يربط بين جهان نما ونهر زاينده باسم «طريق جهار باغ السفلى».

وانشئت في نهاية الطريق حديقة عظيمة واسعة متدرجة بين مرتفع ومنخفض تصل الى تسع طبقات، واطلق عليها حديقة عباس آباد، وانشىء في وسط الحديقة قصر عظيم عرف باسم «هزار جريب» (أي البالغ مساحته ألف ألف متر). وقد عرف هذا القسم من الطريق الذي يمتد من نهر زاينده إلى هذا القصر باسم «جهار باغ العليا». (٧١)

ولاشك في أن هذا الطريق بهذا الوصف يكشف عن رؤية وحس جمالي لدى الشاه عباس الذي أمر بانشائه، كما يدل على مـدى الاهتمام بتجميـل الطرق والمستوى الذي وصل إليه الذوق الاسلامي في تجميل الطرق، والذي دهش له الرحالة الاجانب مثل شادرن الفرنسي الذي ذكر «أن طريق جهار باغ أجمـل طريق رأته عينه»(٧٢).

ومن طريف ما يذكر أن العنصر البشري عُدَّ من المظاهر الجمالية التي ميزت شوارع بعض المدن الاسلامية، فقد أطنب المؤرخون في وصف الزهراء ومواطن

الجمال فيها، ومنها «تشكيلات غلمان الصقالبة الذين يغدون ويروحون في شوارعها الواسعة بسراويلهم الحريرية الخالصة الموشاة بالذهب والفضة»(٧٣).

وتميزت بعض الشوارع في المدينة الاسلامية بمميزات خاصة كالشارع الأعظم الذي تجوبه عادة المواكب في المناسبات المختلفة، مما ينعكس على جماليته نتيجة تزيينه وتجميله مشاركة في هذه المناسبات المتتالية، وكانت العامة تتوافد عليه وتتزاحم في المباني المطلة عليه للاستمتاع برؤية هذه المواكب، وما تتضمنها من ألعاب واستعراضات مختلفة. كما أن هذا الشارع والشوارع الرئيسة الاخرى غالبا ما كانت تتركز على جانبيها الأسواق والحوانيت الزاخرة بأصناف البضائع الجميلة، وكان الخروج لمشاهدة هذه المعروضات ضربا من ضروب التسلية في تلك العصور ولاسيما تلك المواضع التي تأخذ مظهرا مميزا في معروضات مبيعاتها(٧٤). كما أن اضاءة مصابيح أمام هذه الحوانيت ليلا بعد غلقها كثف من اضاءة هذه الشوارع ليلا مما اكسبها، حتى في وقت الليل، نوعا من الجاذبية والتميز الجمالي.

وتعددت في المدن التي تخللتها القنوات المائية والأنهار القناطر والجسور التي تربط بين أجزائها، فربطت بين احيائها ربطا عضويا سهل الاتصال ويسره واستفاد من جمالية الماء في هذه القنوات والانهار بالمشاهدة، وزادت القيمة الجمالية بتلك التكوينات المعمارية رائعة التخطيط الفذة في التنفيذ. فكانت هذه القناطر بمثابة عناصر ربط بين الطرق البرية في أرباض المدينة المتصلة بمتجاوراتها، ومكنت من الاستمتاع بالمشاهدة الجمالية للقناة أو النهر أثناء المرور عليها، إلا أنها كانت أحيانا في حد ذاتها تحفة معمارية يتوق المرء الى رؤيتها والمرور عليها. ومن أشهر المدن التي تضمنت أمثلة عديدة لهذه القناطر(٧٥) بغداد «ومصر القاهرة»(٧٦)، كما اهتم العرب بتلك القناطر التي كانت تربط بين بلاد الأندلس، وأعادوا ما تهدم منها كتلك القناطر التي كانت تربط بين قرطبة العتيقة والربض القبلي، والتي أعاد بناءها الوالي السمح بن مالك الخولاني سنة ١٠١ هـ، وتعهدها من جاء بعده بالاصلاح كلما احتاجت إلى ذلك. (٧٧)

ومن أشهر المدن التي وجدت لها أمثلة رائعة لمثل هذه القناطر مدينة أصفهان، ومن قناطرها «قنطرة اللهورديخان» التي كانت تربط بين قسمي طريق جهارباغ وقنطرة جلفا التي كانت تربط مدينة أصفهان بضاحية جلفا الجديدة التي بناها الشاه عباس. وذكر المؤرخون أن طول هذه القنطرة كان يوم بنائها ٢٠٥ أمتار في حين كان عرضها ١٣,٧٥ مترا، وتضم هذه القنطرة ستة طرق للعبور، أولها هو الطريق الأوسط وخصص لعبور الفرسان والعربات، والطريقان الثاني والثالث في طرف القنطرة في طابقها الأول وخصصا للمشاة، والطريقان الرابع والخامس يعلوان الطريقين الثاني والثالث، وكان الناس يصعدون اليهما للفرجة والمشاهدة، وذلك عن طريق سلالم جميلة موجودة في أول القنطرة وآخرها، أما الطريق السادس فيوجد أسفل القنطرة. وقد بهرت هذه القنطرة كل من رآها حتى بعد أن فقدت بعض أجزائها. ومن هؤلاء شادرن وتارونيه الفرنسيان وسايكس الانجليزي الذي قال: «إن هذه القنطرة على الرغم مما أصابها من تهدم وتصدع إلا أنها تعد واحدة من أعظم قناطر العالم»(٧٨). وتبرز هذه القنطرة مرحلة ناضجة في تصميم هذه القناطر التي انشئت كعناصر اتصال، فقد روعى في تصميمها تعدد الطرق واتساعها وتخصيص كل منها لنوعية معينة من المرور، كما خصص بعض طرقاتها للتنزه والاستمتاع بالمشهد الجميل. ومن المعروف أن مثل هذه القناطر عادة ما كانت موضعا للتنزه، وظلت أماكن للهو والطرب كما كان الحال في بعض قناطر القاهرة. (٧٩)

وفي المدن التي اشتملت على العديد من القناطر لشدة الحاجة إليها كبغداد، ومنها ما خصص لمرور السيدات، وخصص بعضها لأهل القصر، وبعضها الآخر للعامة(٨٠) لتسهيل المرور وتنظيمه وتأمينه عليها.

ومما ساعد على التخفيف عن حركة المرور المكثفة على هذه القناطر استخدام «السميرات والمعبرانيات»، والتي بلغ عددها في نهر دجلة، في أيام الناصر لدين الله وهو أبو احمد، ثلاثين ألفا تكسب تسعين ألف درهم(٨١). وهو أمر يكشف

عن أهمية مثل هذه الوسائل في التنقل بين أرباض المدن التي تتخللها الأنهار، وعن استخدام القنوات المائية والانهار كطرق مائية تساعد على ربط أجزاء المدينة ببعضها أو ربطها بمتجاوراتها. ويحقق ركوب الماء متعة جمالية امتازت بها هذه المدن التي يتوافر فيها ذلك.

وأيضا من الطرق المميزة جماليا في تلك المدن تلك التي تكون بمحاذاة النهر أو مطلة على بحر. وتعددت نماذج المدن التي اشتملت على هذه النوعية من الطرق كبغداد وسامراء، ومن أشهرها قرطبة «التي كان يمتد رصيفها إلى الجانب الأيمن من النهر في محاذاة السور الجنوبي للمدينة الوسطى، وإلى جانب رأس القنطرة الشمالي وينتهي عند «المصارة»، أو «المصلى» في الطرف الغربي بعد أن يمر «بالسوق العظمى» التي كانت تضرب من باب أشبيلية.. وكانت هناك سوق عظمى أخرى تبدأ من الرصيف عند المسجد الجامع، وتمتد الى الجانب الشرقي من المدينة»(٨٢). ويوضح هذا الوصف أهمية هذا الرصيف أو الشارع الذي يعج بمناشط الحياة التجارية، فانتشرت الأسواق على جانبه وزاد من حيويته أنه مطل على النهر، فيمكّن المار به من رؤية السفن الجارية في النهر بمنظرها الرائع البديع. وامتد أثر هذا المنظر البديع إلى العمائر المطلة عليه، فضمن المهندسون لهذه المباني مطلات وشرفات تمكّن من الاستمتاع برؤية هذا المنظر الأخاذ. ومن أشهر هذه المباني قصر الخلافة الذي تضمنت واجهته القبلية المطلة على هذا المنظر الجميل شرفات كان الاطلال منها يثير ابتهاج نزلاء القصر، حتى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط كان يطلب في علته أن يحمل الى شرفة في قصره تطل على الرصيف يتمتع فيها برؤية السفن الجارية في النهر، ولذلك كان الربط بين الماء والعمارة ظاهرة واضحة في قصور الخلفاء. وأروع الأمثلة على ذلك قصور الخلفاء العباسيين في بغداد وسامراء. (٨٣)

ويدخل في اطار المنفعة والجمال اضاءة شوارع المدينة وتبليطها. وقد اهتم بذلك اهتماما واضحا في شوارع المدينة الاسلامية. وسبقت المدينة الاسلامية مدن أوروبا في هذا الاهتمام فقد كان المرء في قرطبة «يسير عشرة كيلو مترات على

ضوء المصابيح في الوقت الذي لم يوجد فيه بعد ذلك بسبعمائة عام في شوارع لندن مصباح واحد» . (٨٤)

وتحقق الاضاءة ليلا هـدف تأمـين المارة، ومن ثم اهتم بـاضاءة الشـوارع والميادين، فكان الميدان الذي يطل عليه القصر في بغداد يضاء ليلا، وكذلك جميع الطرقات(٨٥)، وعمت الاضـاءة شوارع الفسـطاط والقاهـرة، بل إن الحكـام اهتموا بذلك حتى أن الخليفة العزيز سنة ٣٨٣ هـ/ سنة ٩٩٣م أمـر باضـاءة المصابيح على الدور وفي الاسواق في الفسطاط، وفي سنة ٣٩١ هـ / سنة ١٠٠٠م أمر الحاكم بأمر الله أن توقد القناديل في سائر البلد على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال والسكك، فنفذت أوامره، وكان الحاكم ينزل كل ليلة الى المدينة متفقدا شوارعها واخطاطها وازقتها، فتبارى السكان في الاضاءة» . (٨٦)

وإذا كانت هذه المصابيح بمثابة أدوات إضاءة ثابتة فانه استخدم أيضا أثناء التنقل في الشوارع ليلا أدوات الإضاءة التي يحملها المارة(٨٧)، وشاع استخدام الفوانيس التي تحمل على البغال مع الفانوسية أمام وخلف ركب الملوك في الليل، وكان محمد بن طغج الأخشيدي ـ من حكام مصر ـ ممن حمل الشمع معهم على البغال في الليل، فكانت الشمعة تحمل على مؤخرة البغل وفراش يركب أمامها يلتفت اليها من آونة الى اخرى يصلحها أو يضيئها . (٨٨)

وفي مواسم الاحتفالات كانت تضاء الشوارع والمآذن والمساجد بصور مكثفة، واعتبر ذلك من مظاهر الاحتفالات الدينية التي شهدتها المدن الاسلامية . (٨٩)

ومن طريف ما يذكر أن الاضاءة لم تقتصر على فترات الليل حيث إنه اضيئت بعض الأزقة بالفسطاط نهارا لعدم وصول الضوء بنسبة كافية اليها . (٩٠)

وبلط كثير من شوارع المـدينة الاسـلامية، وعملت لهـا الارصفة في بعض الأحيان كما كان الحال في بعض شوارع قرطبة(٩١)، وفي بعض المدن التي تسقط عليها الأمطار بغزارة رصفت الشوارع لتجنب الوحل مثل صنعاء التي اشتملت شوارعها كذلك على مجارى لتصريف مياه الأمطار(٩٢).

واحتاجت الطرق غير المبلطة الى قطعها من فترة إلى أخرى لارتفاع منسوبها الناتج من تراكم كميات مضافة من الاتربة وغيرها، كما أنها كانت تحتاج إلى الاصلاح لتأثر تسوية هذه الطرق بالعوامل المختلفة كالمطر ومخلفات الهدم والبناء وهو أمر اهتم به المشرفون على أمر شوارع المدينة الاسلامية. ولعل ما فعله الامير يشبك بن مهدي والى القاهرة على عهد قايتباي من أوضح الأمثلة على ذلك. (٩٣)

وظيفية شوارع المدينة الإسلامية وطرقاتها

تكشف دراسة الجانب الوظيفي لشوارع المدينة الاسلامية وطرقاتها عن أساس الحكم على ضيق الشوارع أو اتساعها، طريقة الارتفاق بها، في ضوء نوعية وسيلة الانتقال، وكثافة حركة المرور، كما أنها توضح مظاهر الحياة فيها، وتوظيفها لغايات اتصالية اعلامية واضحة.

انصبت وظيفة شوارع وطرق المدينة الاسلامية على كونها شرايين اتصال وحركة تربط بين تكويناتها المعمارية المختلفة. وارتبطت وظيفة الشوارع والطرق أيضا ارتباطا وثيقا بوسيلة النقل المستخدمة، وهي الدواب التي كانت تستخدم في الركوب أو حمل الاثقال، ونادرا ما استخدمت في الجر. ومن ثم ارتبطت مقاييس الشوارع- كما أشرنا- بتوزيع حركة المرور عليها، باستخدام هذه الوسائل. فمثلا الجمل الذي يحمل حملا ثقيلا يصل الى ثلثمائة كيلو جرام يحتاج إلى شارع اتساعه ثلاثة أمتار كحد أدنى، وعلى افتراض أن هناك جملين يمكن أن يتقابلا في هذا الشارع فمعنى ذلك أن الطريق الذي يسهل فيه مرورهما لابد من أن يصل اتساعه الى ستة أمتار فاكثر، ومعنى ذلك أن الشوارع التي يقل اتساعها عن ذلك لاتصل إليها الاحمال الثقيلة، ومن ثم يضطر إلى تقسيمها وحملها على الحمير، أو بواسطة الحمالين الذين يمكنهم أن يمروا بها من السكك والأزقة الأقل اتساعا. وكانت الرحبات والعرصات الخالية، الموزعة على مخطط المدينة، تساعد إلى حد ما على تسهيل حركة المرور في الشوارع والطرقات التي لايتحمل اتساعها تقابل دابتين محملتين، فتقف احداهما في الرحبة إلى أن تأتي الاخرى إلى الرحبة التي

تتسع للاثنتين، ثم تبدأ كل منهما في السير على الطريق الى أن تصل غايتها. (٩٤)

مما سبق يتضح أن تولد وظيفة الحمالين بالمدينة الاسلامية كان مرتبطا ارتباطا كبيرا بالطرق والشوارع ونظام الارتفاق بها. تلك الوظيفة التي حددت لأصحابها مواضع معينة بالمدينة قريبة من الاسواق.

وارتبطت كثافة المرور في طرق المدينة الاسلامية بكثافة سكانها والوافدين إليها، وكان لازدهار المدن الإسلامية في العصور الوسطى أثره الواضح في ذلك، ففاقت بمساحتها وكثرة سكانها أضعاف ماهو معروف في أي مدينة أوروبية معاصرة، وتؤكد ذلك مشاهدات بعض الرحالة مثل « جيهان تنود » الذي ذكر أن القاهرة تبلغ مساحتها ثلاثة أمثال باريس، في حين قال «برنارد دي بريدنباح» إن سكان ايطاليا لا يضاهي في الكثرة سكان القاهرة وحدها(٩٥). وفي الوقت الذي «لم تحظ فيه شوارع لندن بمصباح واحد، ولم تمهد شوارع باريس الا بعد ذلك بعدة قرون كانت شوارع المدن الاسلامية وازقتها تضاء في المساء بالمصابيح، وبدت اكثر طرقاتها ممهدة»(٩٦). وأوضح مثال على ذلك شوارع قرطبة التي أشار جاك ريسلر إلى رصفها واضاءتها بالمصابيح «حتى أن المرء كان يستطيع أن يسير في شوارعها المضاءة بالمصابيح عشرة كيلو مترات»(٩٧).

وتدل الاحصاءات التي أوردتها المصادر لشوارع بعض المدن الاسلامية على كثرة قاطنيها وحركة المرور فيها، فقد ذكر اليعقوبي أن عدد الشوارع والطرقات «بلغ عددها في بغداد ستة آلاف شارع وسكة»(٩٨). وذكر المقريزي أنه كان في الفسطاط سنة ٥٣٩ هـ «ثمانية الاف شارع مسلوك»(٩٩). وقد أورد ابن دقماق معلومات تفصيلية عن خطط وحارات ودروب وسكك وازقة الفسطاط تبين تفصيلا نوعيات هذه الشوارع والطرق وما اشتملت عليه من منشآت تكشف عن كثافة السكان(١٠٠) بما يؤكد قول المقريزي. وقد أحصى الرحالة «فون هارف» شوارع القاهرة في العصر المملوكي فقال إن بها الفين واربعمائة شارع وحارة منها أربعة وعشرون شارعا رئيسا طويلا يمتد أحدها من المطرية ويمر بالقلعة. (١٠١)

وزادت كثافة المرور في شوارع المدن التي تعتمد على الدواب والسقاءين في نقل الماء من مصادره البعيدة عن المدينة الى تكويناتها المختلفة، مثلما كان في بغداد قبل انشاء القناطر، وما كان بالقاهرة حتى نهاية العصر العثماني حيث ظل السقاءون ينقلون الماء على الجمال والدواب من مصادره، ويقومون بتوزيعه على المنازل والمرافق المختلفة بالمدينة(١٠٢)، ولم يكن في استطاعة المدينة أن تستغنى عن نقل الماء إليها بهذه الطرائق المختلفة التي أضافت الى حياة المدينة لونا من مظاهر الحياة الاجتماعية المرتبطة بفئة السقاءين الذين تولوا هذه الوظيفة. بينما انعدمت هذه الوظيفة في مدن إسلامية أخرى لم تكن بحاجة إليها.

ولعب السقاءون دورا مهما في حياة المجتمع الذي يعملون على خدمته. فهم بالاضافة إلى أنهم كانوا عنصرا رئيسا من عناصر المرور في المدينة قد لعبوا أيضا دورا بارزا في تفاصيل حياتها الاجتماعية، خصوصا فيما يتعلق بنقل الأخبار ونشرها بين أهل المنازل التي يتعاملون معها. بالاضافة الى أنهم شكلوا طائفة خاصة لها دورها في حياة المدينة ككل، ولها نظامها الخاص الذي يرعى شؤون المنتمين إلى الطائفة وينظم عملهم(١٠٣).

ويدل بعض احصاءات الرحالة العابرين للمكارين والسقاءين بالقاهرة مثلا على مدى تأثير هذه الفئات في حركة المرور، وحركة الحياة في شوارع المدينة، فيذكر ناصر خسرو أن بمدينتي «القاهرة ومصر» خمسين ألف جمل الى جانب السقاءين الذين يحملون الماء على ظهورهم، ويستخدم السقاءون القرب لحمل الماء ويتجولون في الحواري الضيقة التي لاتستطيع الجمال ولوجها(١٠٤)، بينما ذكر ابن بطوطه أن عدد المكاريين في القاهرة بلغ ثلاثين ألف مكاري(١٠٥)، كما أن البلوى ذكر أن عدد الجمال بلغ في المدينة نفسها مائتي ألف جمل ماعدا البغال، كما انه احصى دكاكين السقاءين المعدة للسقي فبلغت ستين ألف دكان ماعدا السقاءين بالاكواز والاكواب في الطرقات والأسواق. (١٠٦)

وطبيعة النشاط داخل المدينة بصوره المختلفة لها تأثير مباشر في حركة المرور،

وتختلف في ذلك مدينة عن أخرى وخصوصا في حركة الوافدين اليها من اقليمها، أو من بلاد العالم المختلفة، وللظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية دور واضح في ذلك. فنشاط شوارع القاهرة وحركة المرور فيها تبدو كثيفة إذا ما قورنت بغيرها من المدن الأقل أهمية، ونشاط الحركة في شوارع المدينة المنورة ومكة المكرمة ومنى في موسم الحج يختلف فيها عن غيرها، حيث تزداد الحركة والنشاط التجاري زيادة مضطردة في موسم الحج. وكذلك تنتعش المدن والمنازل على طرق الحج أثناء مرور الحجاج بها، ثم تعود إلى حالتهاالعادية في غير الموسم. ومما يؤكد هذا الاثر ضمور بعض المدن التي كانت على دروب الحج لتحول الطريق عنها لسبب أو لآخر.

واكتظت شوارع المدن الكبيرة بالناس والباعة الجائلين وأصحاب الحرف الذين يتخذون من محجة الطريق موضعاً لممارسة نشاطهم كالحلاق والقاص(١٠٧)، والمعدمين وشبه المعدمين(١٠٨)، والمغنين وأصحاب الألعاب المسلية(١٠٩)، والمنادين(١١٠) وغيرهم ممن يتطلب عملهم المرور بالشوارع بصفة مستمرة في حركة دائبة كالحمالين والسقاءين كما أشرنا.

وكان الباعة الجائلون من أشهر هذه الفئات، فقد استغلوا الشوارع والطرقات لممارسة نشاطهم التجاري، ولاسيما أنه لم تكن لهم حوانيت يمارسون فيها هذا النشاط. وقد تنوع هؤلاء الباعة، فقسم منهم يسيرون في الشوارع والطرقات، ويتحركون ببضائعهم محمولة على أكتافهم، أو على الدواب أحيانا، ويصلون بها إلى كل أجزاء المدينة وشوارعها التي يسمح لهم بالتجول فيها. وأمثال هؤلاء يصلون إلى المشترى في منزله. فقد أشار ابن الحاج إلى بائعي القماش مثلا والدلالات اللائي يدخلن البيوت لعرض بضائعهن على ربات البيوت(١١١)، وكذلك كان أهل الريف الذين يأتون لبيع منتجاتهم في المدينة ضمن هذه النوعية من الباعة الجائلين(١١٢)، أما القسم الثاني فكان يفترش الأرض أمام الحوانيت في الأسواق ويتخذها مقاعد لبيع منتجاته، ومن ثم اطلق عليه «أرباب المقاعد». وغالبا ما تجمع هؤلاء في سوق معينة «كسوق السلاح» بالقاهرة لممارسة نشاطهم

بهذه الهيئة(١١٣). وغالبا ما تعرضوا لمنع سلطات المدينة إياهم من ذلك لما يسببونه من تضييق الشوارع، ولشكوى أرباب الحوانيت منهم. (١١٤)

وكانت كثافة المرور وحركته في المدينة تتأثران الى حد كبير بالمواسم والاعياد والرغبة في شراء متطلبات ذلك، ففي عيد «خميس العهد» مثلا كانت تزدحم اسواق القاهرة بالنساء حتى أنه «لا يمكن لاحد أن يمر بالسوق الا بمشقة لزحمة النساء، ولو أن رجلا منع اهله من الخروج في ذلك اليوم لوقع التشويش بينهما، وقد يؤول الامر الى الفراق»(١١٥)، واختلفت كثافة المرور من سوق الى أخرى حسب الموسم والعيد اللذين يتطلبان شراء نوع معين من البضائع(١١٦).وكان هناك من الاسواق ما تستمر فيه الحركة مكثفة ليلا ونهارا، كسوق المتعيشين وسوق بين القصرين بالقاهرة(١١٧). وكان ازدحام الطرقات بالناس دليلا على الحياة الآمنة بالمدينة، وعكس ذلك صحيح، فخلو الطرقات من الناس كان دليلا على افتقاد حالة الامن، نتيجة الفتن والاضطرابات. (١١٨)

ورغم هذه الكثافة المرورية في شوارع المدن الاسلامية الكبيرة فقد سهل حركتها تنظيم الارتفاق بالشوارع وفق قواعد معينة ارتبطت بنوعيات الشوارع والطرقات ومقاييسها، وأساليب الارتفاق بها، تحت إشراف سلطات المدينة ممثلة في المحتسب وغيره ممن تولوا أمر ذلك في اطار من الشرعية الاسلامية التي تهدف الى تحقيق المنفعة ومنع الضرر بشتى صوره. وكان لهذه المتابعة أثرها الواضح والفعال في تنظيم كل اوجه الارتفاق بالطرق والشوارع وتأمينها والتصدي للمخالفين بالزجر والعقاب، وهو مظهر حضاري يبرز اذا ما قورنت المدينة الاسلامية بغيرها من المدن كروما، مثلا، التي كانت الحياة في شوارعها غير آمنة. (١١٩)

وقد اختلفت الهيئة التي تخرج عليها النساء إلى الشوارع باختلاف درجات الالتزام في ارتداء الملابس المحجبة. وتصف لنا المصادر أزياء النساء في كثير من المدن، فمثلا يصف «ليون الافريقي» ملابس النساء في فاس فيذكر أن «لباس

النساء جميل جدا، إلا أنهن لا يرتدين في أيام الحر سوى قميص يحزمنه بنطاق لا يخلو من قبح، ويلبسن في الشتاء ثيابا عريضة الاكمام ومخيطة من الامام كثياب الرجال، وعندما يخرجن يلبسن سراويل طويلة تستر سيقانهن، وخمارا على عادة نساء الشام يغطي الرأس وسائر الجسم، يحجبن الوجه بقطعة من قماش لا تظهر منها الا عيونهن»(١٢٠). وامعانا في التحجب كان بعض فئات النساء لا يخرجن من بيوتهن، كنساء الوجهاء في «مكناس» اللائي لايخرجن من بيوتهن، ويسترن وجوههن ولا يرغبن في أن يراهن أحد، لا محجبات ولا سافرات، لان ازواجهن شديدو الغيرة، وربما كانوا خطرين عندما يتعلق الامر بنسائهم»(١٢١). وفي المقابل بالغ بعض فئات النساء في ارتداء الملابس السافرة، وبالغن في الخروج الى الشوارع والطرقات في أيام المواكب والاحتفالات والاعياد، مما كان يدفع السلطة أحيانا للتدخل، مثلما فعل السلطان المملوكي برسباي عندما أصدر «مرسوما» بعدم خروج النساء الى الطرقات لما تبع خروجهن من مخالفات لأحكام الشريعة. (١٢٢)

وشهدت شوارع المدينة الاسلامية جانبا هاما من جوانب الاحتفالات بالمواسم والاعياد والمناسبات السارة. فكثيرا ما زينت شوارع المدن استعدادا لمرور مواكب السلاطين والامراء، وغالبا ما كلف اصحاب الحوانيت بتزيين حوانيتهم على جوانب هذه الشوارع(١٢٣). وجرت العادة على أن يخرج الناس لمشاهدة هذه المواكب والمشاركة فيها. (١٢٤)

ومن مواكب الاحتفالات التي تكررت كثيرا في شوارع المدن الاسلامية موكب العريس والعروس احتفالا بالزفاف(١٢٥)، وقد اتخذت هذه المواكب مسارات متنوعة فمنها موكب الخروج إلى الحمام والعودة منه، ومنها موكب زفاف العروس من بيتها الى بيت عريسها. وكثيرا ما شارك العامة والاهل والاصدقاء في هذه المناسبة.

وجرى الاحتفال أيضا بالمناسبات الدينية والاعلان عنها من خلال مواكب كانت تمر بشوارع المدينة وطرقاتها، كموكب الخروج للإعلان عن رؤية هلال

شهر رمضان ابتهاجا بإقبال شهر الصوم(١٢٦) . وجرت العادة في بعض المدن الاسلامية أن تعلق الفوانيس في الشوارع، وكان تعليقها مضاءة ذا مغزى اعلاني معين، فقد ذكر الحاج «ان من عادة المصريين أن يعلقوا الفوانيس» التي جعلوها علما على جواز الاكل والشرب وغيرهما ما دامت معلقة موقودة» . (١٢٧)

ومن المواكب المشهورة في المدن الاسلامية موكب صلاة العيد، حيث يخرج الخليفة أو السلطان لصلاة العيد الى مصلى العيد، الذي غالبا ما كان خارج أسوار المدينة، وشاركت النساء في هذه المواكب حيث كن يتزينَّ ويتجملن غاية الزينة والتجمل، وتسير العربات التي تجرها الدواب في شوارع المدينة وفوقها مجموعة من النساء وهن يغنين ويضربن الدفوف» . (١٢٨)

وكذلك كانت مواكب الاعلان عن قرب موعد الحج وموكب خروجه الى البلاد المقدسة من المواكب الحولية التي شغف الحكام والعامة بالإعداد لها والمشاركة فيها ورؤيتها. وكانت هذه المواكب من الروعة بحيث دفعت السلطان المملوكي «المؤيد شيخ» للحرص على مشاهدتها. فأعد لذلك ايوانا خاصا في الجانب الغربي من باب زويلة يدخل اليه من جامعه المجاور لهذا الباب، ويجلس فيه لمشاهدة موكب الحج لما كان يزخر به من اصناف الالعاب ومهارات العرض وفنونه التي حذقها المشاركون في هذا الموكب. وتتكرر الاحتفالات عند قدوم الحجيج فيخرج العامة لاستقبالهم، وينعقد في منزل كل حاج احتفال خاص يشارك فيه المهنئون بأداء الفريضة. وكان التجمع عند خروج الحجاج من المدينة يتم في موضع خارجها على مسافة منها يتسع لأعداد الحجاج الكبيرة وجمالهم التي يركبون عليها، ويحملون عليها حاجاتهم، ويطلق على هذا الموضع «المناخ». وغالبا ما يستغرق التجمع عند الذهاب عدة أيام يتواصل فيها قدوم الحجاج الى هذا الموضع قبل بدء الرحيل، وعند العودة يستغرق دخول الحجيج من هذا الموضع الى المدينة بعض الايام. ومن المدن التي اشتهرت مناخاتها دمشق والقاهرة التي سمى موضع المناخ فيها «بركة الحاج».

سلطات المدينة ونظام الارتفاق بالطرق

تولت سلطات المدينة مسؤولية المحافظة على حق الطريق والمرور فيه، فكان للمحتسب دور بارز في هذا المجال كممثل جهات تنفيذية وقضائية أخرى، فساعدت الشرطة على استتباب الامن، وفصل القضاء فيما كان يحدث من مشكلات تنتهي إليه وفق الأحكام الفقهية التي حددت تفاصيلها حكم ما قد يحدث من مشكلات متصلة بالشوارع والطرق ونظام الارتفاق بها، ومسؤولية من يخالف ذلك، اعلاما بوجوب اتباع النظم وتبيانا لجزاء المخالف لها.

فكان على المحتسب ان يمنع أحمال الحطب واعدال القش وروايا الماء وشرائح السرجيين والرماد واحمال الحلفاء والشوك بحيث لاتمزق ثياب الناس في الطرقات(١٢٩). وكان يأمر «السقاءين أن يشدوا في اعناق دوابهم الاجراس وصفاقات الحديد والنحاس ليعلموا جلبة الدابة إذا عبرت السوق، فيتحرز منها الضرير والانسان الغافل والصبيان، وكذلك يفعل المكارية والتراسين حمالي الحطب ومزابل الطين وغيرهن ويجبرهم المحتسب على ذلك لما فيه من المصلحة». (١٣٠)

وراقب نظافة الطرق، فمنع طرح الكناسة على جوانبها، وتبديد قشور البطيخ أو رش الماء بحيث يخشى الزلق والسقوط، وكذلك ارسال الماء من «المزاريب» المخرجة من الحائط إلى الطرق الضيقة لان ذلك ينجس الثياب ويضيق الطريق. وكذلك عمل على عدم ترك مياه المطر والأوحال في الطريق من غير كسح، وكان يكلّف الناس بالقيام بها،واذا كان الماء المتجمع في الطريق من ميزاب معين كلف صاحبه بكسحه على وجه الخصوص(١٣١)

وقد حدث في مدينة القيروان أن كرر الناس تسريب مياه الغسيل الوسخة الى الشوارع من ثقوب تحت عتبات أبوابها، وأبلغ القاضي بشيوع هذه الظاهرة السيئة، فأمر القاضي بمنع ذلك ومعاقبة من يكرر فعل ذلك، فامتثلت المدينة لأمر القاضي(١٣٢).

ومنعا لاعاقة الطرقات منع المحتسب القصابين من الذبح في الطرقات ، ومنع كذلك اهل اللهو او اهل الكدية او القراء الذين يقرأون في الشوارع والطرقات وكذلك كتاب الرسائل، وفي ذلك مايحقق الهدف من عدم ازدحام المارة حول اصحاب اللهو في الطرقات خاصة، فكان المنع لهم بصورة مباشرة وبصورة غير مباشرة لمن كان يجتمع حولهم، ولاسيما أنه اعتبر مردود الشهادة كل من كان دأبه الاستماع للغناء في الطرقات والشوارع(١٣٣)

وأمّن المحتسب ارتفاق النساء بالشوارع والطرقات فحرص على عدم اختلاطهن بالرجال في الجنازات(١٣٤)، وكان يتفقد المواضع التي يجتمع فيها النساء مثل سوق الغزل والكتان وشطوط الانهار، وأبواب حمامات النساء وغير ذلك، ويمنع الشباب من اعتراضهن ويقوم بتأديبهم. كما اشترط على كتّاب الرسائل ألا يجلسوا في درب او زقاق ولا في حانوت بل على قارعة الطريق، فان معظم من يجلس عندهم من النسوان حتى لايكون ذلك سببا في ان يتمكن من الحديث معها، ويؤدي ذلك الى حدوث اشياء لايليق ذكرها. فان كان جلوسهم على قارعة الطريق كان أمرهم أسهل من جلوسهم في درب او حانوت أو غيره(١٣٥).

وكان المحتسب يمنع الرجال من الجلوس في طرقات النساء بغير حاجة، وكذلك النساء يمنعن من الجلوس على ابواب بيوتهن في طرقات الرجال(١٣٦)، وحتى تتمكن النساء من الاتصال ببعضهن والتمتع بالهواء والشمس ومشاهدة مايحدث في الطريق دون استخدام الطرقات بصورة مباشرة ظهر في بعض المدن الاسلامية بالبيوت مايسمى «الرفراف» وهو مكان مبني في سطح الطابق العلوي، وكان يستخدم لنشر الغسيل وتجفيف الفاكهة والخضار، ولكنه قبل كل شيء مسرح النسوة اللواتي كن يجلسن ليستمتعن بالهواء الطلق والشمس ويتحدثن مع النساء الأخريات في البيوت المجاورة، وقد يرى هناك سلم صغير بواسطته تتمكن النساء من اجتياز الجدار الفاصل وزيارة الجارات، وكان هذا الرفراف يمتد عبر الأزقة والشوارع، وكان يمكن الانتقال من خلاله مئات الامتار من رفراف الى رفراف كما هي الحال في منازل فاس القديمة(١٣٧)

ولم يمنع ذلك من ظهور بعض المشاغبات في شوارع المدن الاسلامية ولاسيما من بعض الفئات التي تستند إلى السلطة، مثلما حدث من جند المعتصم- الاتراك في بغداد- «فكانوا يركبون الدواب ويتراكضون في طرقها وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة ويطؤون الصبي، وضجرت العامة منهم حتى انهم كانوا يقتلون، فقرر المعتصم بناء سامراء، ونقل جنده إليها منعا لهذا الاذى والضرر(١٣٨)

وروعى هذا الامر في تخطيط سامراء فقد «صيرت قطائع الاتراك جميعا والفراعنة والعجم- بعيدة عن الاسواق والزحام- في شوارع واسعة ودروب طوال ليس معهم في قطائعهم ودورهم أحد من الناس يختلط بهم لا تاجر ولا غيره». (١٩)

وكثيرا ماحدثت اضطرابات امراء المماليك في شوارع القاهرة التي امتدت احيانا الى نهب الاسواق والمتاجر، وتهديد المارة في الشوارع والطرقات، فما كان من العامة والتجار الا الدخول الى منازلهم واغلاق حوانيتهم حتى يتجنبوا ذلك، مما نتج منه خلو الشوارع والطرقات، وجمود الحركة بالاسواق. وتكررت هذه الاحداث في العصر العثماني ايضا حتى شهدت شوارع القاهرة ولاسيما المنطقة القريبة من القلعة احداثا دامية اثرت على الحياة فيها تأثيرا واضحا. (١٤٠) لكن سرعان ماتعود الحياة الهادئة والمستقرة الى شوارع المدينة فتعود الحياة اليها من جديد.

وتأمينا للمارة في شوارع المدينة مما قد يحدث نتيجة سقوط أحد جدران المباني المطلة على الشارع تولت سلطات المدينة مباشرة المباني والتنبيه على اصحابها بوجوب هدم مايخشى سقوطه فيتسبب في أذى المار والجار. وكلف القضاة من اهل الاختصاص العارفين بأمور البناء من يقوم بهذه الوظيفة، مثلما حدث في تونس عندما كلف قاضيها «ابن الرامي» البناء ليباشر هذه المهمة، فكان يجوب شوارع المدينة وطرقاتها لمعاينة المباني الآيلة للسقوط، ويبلغ القاضي بما يراه من مبان يخشى من سقوطها، فيتولى القاضي أمر اهلها بهدمها وازالة ضررها، وان

كانوا غائبين كلف المباشر لمهام الوظيفة بعمل ذلك والصرف عليه من انقاض البناء بعد بيعه، ويشير ابن الرامي إلى كثير من اجراءات الهدم التي تمت على يديه إما لتخلّف أصحابها وإما لغيابهم، تأمينا لحقوق المار والجار على حد سواء(١٤١)، وامتدت الرغبة في المحافظة على حقوق الجار والمار إلى التصريح بتعلية المباني حيث كانت السلطة في المدينة تتولى معاينة الحالة بعد أن يتقدم أصحابها بطلب الرغبة في التعلية، وتحديد مواصفاتها، ويكلف القاضي من المهندسين المعماريين المختصين بفن العمارة من يعاين الحالة، ويقرر مدى امكان التصريح .(١٤٢)

واعتنى حكام المسلمين بتجميل مدنهم فأمروا بكنس الشوارع والطرقات ورشها بالماء. ونظرا لأن الدواب كانت وسيلة النقل فإن ما تسببه من مخلفات كان يؤثر في نظافة الشوارع، ولذلك نجد الحرص الشديد على تنظيف الشوارع تنظيفا مستمرا، واعتبرت لذلك وظيفة الكناسين والسمادين في «تصنيف الصنائع» في المدينة لأنها تساعد على نظافتها، وإزالة الأوساخ حتى لا تسبب ضرراً(١٤٣). وفي سبيل ذلك منع المحتسب من ربط الدواب على الطرق ولاسيما انه خصصت مواضع لهذا الغرض، ويؤكد ذلك توزيع النقاط التي يتجمع فيها المكاريون بدوابهم التي تستأجر للنقل والركوب، فكانوا موزعين في عدد من النقاط الهامة على نحو ما تتوزع سيارات الاجرة الآن، لتخدم انحاء المدينة.

إن تخصيص مثل هذه المواضع يجنب الطرقات المختلفة ما ينشأ عن وقوف الدواب بها من اعاقة للطريق وعدم نظافته.

ومع ماكان يفعله المحتسب من اجراءات للمحافظة على نظافة الطريق، كان تنظيف الشوارع مستمرا، فكانت بغداد مثلا تكنس رحابها في كل يوم ويقوم بكنسها الفراشون، ويحمل التراب الى خارج المدينة. وامتد العمل إلى اصلاح الطرق وإعادة تمهيدها كلما احتاجت الى ذلك، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ماقام به الأمير يشبك بن مهدي والى القاهرة من «اصلاح الطرقات وتوسعتها وهدم الكثير مما أُحدث أو كان قديما. فكانت الطرقات قد توعرت بكثرة الهدم وارتدامها

بالاتربة أو نحوها، أو بغي بعض ارباب الاماكن، بحيث تصير الاماكن بعضها منخفضا وبعضها مرتفعا، وتضرر المارة بهذا، وعطب كثير من الناس والبهائم، وربما يصرف على الغائب ثم يرجع عليه كالديون اللازمة الى أن اصلحت عامة الشوارع والطرقات ووسعت»(١٤٤)

وحثت الاحكام الفقهية على دعوة الناس الى اصلاح الطرقات بصفة عامة. لكنها كلفت من تسبب في إعاقة الطريق برفع الاعاقة، فمثلا سمحت الاحكام الفقهية ببناء الساباط أو الغرف والمجالس فوق الطريق بارتفاع لا يعوق المرور فيه، واذا ماحدث وارتفع الطريق بمرور الزمن وقل ارتفاع المبنى فوق الطريق، وأصبح يعوق المرور أسفله، ففي هذه الحالة يكلف أصحاب البناء بتهيئة الطريق برفع التراب من الطريق لخفض مستوى ارضيته إن كان ذلك ممكننا ولم يتسبب في صعوبة المرور بالطريق، وان لم يكن فيتم رفع المبنى فوق الطريق واعادة بنائه على مستوى أعلى إذا رغب في ذلك، حتى لايعوق الطريق. (١٤٥)

وكان اصحاب المباني يقومون بتنظيف الشوارع التي تطل عليها مبانيهم وخصوصا التي يزاولون فيها أعمالهم وتجارتهم(١٤٦)، وهواتجاه برز في المنشآت الموقوفة لأغراض دينية أو خيرية كالمساجد الجامعة والمدارس والخانقات والاسبلة والبيمارستانات وغيرها. فقد حرص واقفو هذه المنشآت ولاسيما الدينية منها على تعيين الكناسين الذين يقومون بكنس الشوارع التي تطل عليها هذه المباني ورشها بالماء. ومن امثلة ذلك مافعله السلطان برقوق بمدرسته بشارع المعز لدين الله بالقاهرة(١٤٧). وتضمنت وثيقة وقف منشأة جمال الدين الاستادار بالجمالية بالقاهرة ما يشير إلى انه «رتب شخصا من السقاءين بالقرب الكتافية على الآبار جيدا قويا على العمل كافيا فيه ليكنس التراب حول الخانقا المذكورة وازقتها الدائرة عليها من الجهات الاربع، ويرش ذلك بالماء مرتين في الصيف، وان احتيج الى ذلك في الشتاء فعله مرة أو مرتين، ويشيل مايتحصل من الكناسة إلى الاماكن البعيدة، والتنظيف على العادة»(١٤٨). وفي هذا النص دلالة على الاهتمام بكنس الشوارع ورشها بالماء والتركيز على ذلك حسب كل وقت، ففي

الصيف تزداد الحاجة إلى كنس الشوارع ورشها بالماء. وهو أمر تنبه إليه الواقف وكان معمولا به على جاري العادة كما يشير النص.

ومن مظاهر الاهتمام بالمحافظة على جمال الشوارع بالمدينة الاسلامية ما اتخذه حكامها من اجراءات لمطاردة الشحاذين والمعدمين الذين استغلوا الطرقات للإعلان عن عوزهم بصورة سيئة، ومن مثل هذه الاجراءات مافعله السلطان بيبرس عندما اصدر أمرا سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م بجمع أصحاب العاهات من شوارع القاهرة، «فجمعوا بخان السبيل ظاهر باب الفتوح من القاهرة، ونقلوا الى مدينة الفيوم وافردت لهم بلدة تغل عليهم»(١٤٩). وهو حل واقعي موفق لهذه الظاهرة، التي كانت تشوه منظر شوارع القاهرة، امتد بالخير لاصحاب العاهات فكفل لهم حياة كريمة.

وامتدت العناية لتطهير شوارع المدن من الكلاب لأنها من الحيوانات المكروهة لنجاستها، حتى ان السلطان برسباي أصدر مرسوما بنفي الكلاب من القاهرة إلى بر الجيزة(١٥٠)، وكذلك أمر المحتسب سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م بأن تمنع النساء من النياحة على الأموات، وهو الامر الذي كان شائعا في القاهرة في العصر المملوكي، حتى أن السلطان الغوري «أصدر مرسوما أيضا يمنع ذلك، وشهر بإحدى النساء في شوارع القاهرة عملت عزاء بطارات، فلطخوا وجهها بالسواد، وعلقوا طارا في عنقها واركبوها حمارا، وشنعوا عليها في انحاء القاهرة فأقلع النساء عن تلك التقاليد(١٥١)». ولاشك أن ذلك جنب شوارع المدينة صورة قميئة كانت تحدث بين الفينة والفينة.

الشوارع من وسائل الاتصال بالمدينة

برزت الشوارع كوسيلة هامة من وسائل الاتصال في المدينة الاسلامية، وقد تنوعت مظاهر الاتصال بهذه الشوارع، فكان لمواكب الحكام المارة من خلالها أثر كبير في تحقيق غايات اعلامية قصدها الحكام من خلال هذه المواكب. وتعددت وتنوعت رسوم المواكب من عصر الى آخر وبالتالي من مدينة الى أخرى، بل إن

هنـاك من المدن مـا خطط عـلى «الرسم الملكي» كمـدينة القـاهرة في العصـر الفاطمي، التي نأخذها مثالا للتدليل على اهمية المواكب في تحقيق رسالة إعلامية بعينها، فقد اتصلت مظاهر الحياة بشوارع القـاهـرة اتصـالاً مباشـراً بمـراسـم الفاطميين الذين تعددت مواكبهم التي كانت تجوب شوارع المدينة بتعدد المواسم والاعياد التي شارك فيها الخلفاء والوزراء في ذلك العصر.

وكانت الدواب وخصوصا الخيل وسيلة الركوب الرئيسـة في هذه المـواكب ولذلك انشأ الفاطميون اسطبلين للخيل أحدهما يعرف «باسطبل الجميزة» والاخر «باسطبل الطارمة»، وعين لهما من ارباب الوظائف من يقوم على خدمة الخيل وراكبيها في كل موضع ورحلة، ابتداء من «السايس» الذي يعنى بخدمتهـا في الاسطبل، الى «الشداد» الذي يقوم بتسييرها في المواكب، الى «العريف» الذي يتولى توزيع أطقم الخيل على الشداد عنـد الخروج الى المـواكب واعادتهـا بعد الرجـوع الى «الرائض» الذي يشرف على شؤون الاسـطبل، بـل من طريف مايذكر ما يرويه المقريزي عن وجود «شدادات» لخدمة بغـلات وحمير الانـاث الخاصات بالخليفة. (١٥٢)

ودربت الدواب على السير في المواكب تدريبا كبيـراً يطمئن عليه الخليفة بنفسه وذلك باستعراضها، فقبل الخروج بأسبوع كان من عمل رائض اسطبل الخليفة تعويد الخيل- خصوصا دابة الخليفة وبغلة مظلته- على أصوات البوق والطبل، فيكرر ذلك عدة مرات كل يوم حتى تعتاد هذه الاصوات فلا تنفر منها في المواكب أو تجمح(١٥٣). وكان الخليفة يستعرض جميع الدواب قبل خروج الموكب ويقال له: «يوم عرض الخيل»، فيجلس الخليفة وراء شباك القاعة الـذهبية بـالقصر وامامه الوزير وكبار رجال الدولة لكي يتمتع بمشاهدة دوابه تسير امامه هادئـة كالعرائس(١٥٤). ويشير هذا الاستعراض الى أهمية الربط بين تخطيط وحدات القصر موضع العرض الذي تشرف عليه ليتأتى هذا الغرض، بما يشير الى توجيه التخطيط في الاصل لذلك، فيظهر التأثير المتبادل بين المنشآت والشوارع المطلة عليها.

وكانت المواكب من أهم مراسم الفاطميين، وتعددت بتعدد المناسبات التي اعتاد الفاطميون الركوب فيها، وتنوعت هيئة المواكب بتنوع واختلاف هذه المناسبات. وتكشف أعداد المشتركين في هذه المواكب ووظائفهم عن نظامها وهيبتها، فقد نظمت المواكب تنظيما دقيقا يحدد موقع كل مشترك فيها ومهمته ولباسه. ويكفي مثلا أن نشير إلى بعض هؤلاء «كحامل المظلة» الذي كان يشترك في المواكب العظام، ويقف بجوار الخليفة، ويحرص على الا يزول ظلها عن رأسه. ومما يكشف عن أهميته انه كان يعاونه خمسة من «الاستاذين»، ومنهم أيضا «حامل السيف» وهو أمير عظيم كان يحمل سيف الخليفة، وكذلك «حامل الرمح» وهو امير مميز كان يحمل رمحا للخليفة ودرقة منسوبة الى حمزة عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم(١٥٥). أما حاملو السلاح فيشكلون القوة الاساسية في المواكب، وكان منهم من يمشي في المواكب كالجناحين حول الخليفة وزاد عددهم على ألف رجل، وكان منهم الفرسان الذين بلغ عددهم نحو خمسمائة فارس، وكان يطلق عليهم «صبيان الخاص». (١٥٦)

وشاركت في المواكب طوائف اخرى كطوائف الجيش بالاضافة الى جماعات دق الطبول والصنوج والصفافير، وجماعات المبخرين الذين يحرقون البخور في المداخن. واشتركت احيانا بعض الفئات الاخرى. فقد ذكر ناصر خسرو في وصفه أحد المواكب الفاطمية التي خرجت لفتح الخليج أنه كان من بين المشاركين في الموكب طبقات الأدباء والشعراء والفقهاء، وفرقة من ابناء الملوك والامراء جاءوا الى مصر من اطراف العالم من المغرب واليمن والنوبة والحبشة وجورجيا والديلم والتركستان، ووصل مجموع اعداد المشاركين الى مايقارب مائتي ألف(١٥٧) وكان لهذه المواكب رد فعل قوي في نفوس العامة لهيبتها وعظمتها، وكان ذلك هدفا مقصودا سعى لتحقيقه الفاطميون من خلال هذه المواكب لابراز ما للسلطة من نفوذ، فقد كان الموكب يمر في الشوارع أمام أعين المصريين المندهشة بأعداده الضخمة في هذه الهيئة التي لم يتعود عليها المصريون قبل هذا العصر.

ويبدأ الموكب من ميدان القصر المسمى «رحبة بين القصرين»، أو من ميدان «رحبة العيد» حسب مناسبة الموكب، وهما من الميادين الهامة التي تعتبر من اهم مميزات التخطيط الملكي للقاهرة الفاطمية، فقد كان ميدان بين القصرين مثلا يتسع لعشرة آلاف شخص(١٥٨). ويتحرك الموكب في نظام دقيق رتبت وفقه الطوائف المشتركة(١٥٩)، وارتبط اتجاه الموكب نوعا بالمناسبة التي يخرج من اجلها كالركوب لتخليق المقياس، أو الركوب لفتح الخليج، أو الركوب لصلاة العيد، أو الركوب لصلاة الجمع الثلاث من شهر رمضان. ويمكن القول إن الاتجاه الغالب لهذه المواكب كان الاتجاه جنوبا حيث مناطق العمران السكنى جنوب القاهرة، مارا بالشارع الأعظم وهو الشارع الرئيس بالمدينة الذي يربط بين باب الفتوح في الشمال وباب زويلة في الجنوب، وكان موكب الخروج لصلاة العيد يبدأ من ميدان «رحبة العيد» إلى باب النصر ومنه يعود الموكب للقصر عن طريق باب الفتوح، ولذلك كان الشارع الموصل الى باب النصر يبلغ في أهميته واتساعه الشارع الموصل الى باب الفتوح، وقد بقيت رسومه حتى عصرنا الحالي رغم ماحدث من تغييرات.

وتفاعل العامة مع هذه المواكب، فقد كان الاعلان المسبق عن خروج هذه المواكب مؤشرا لتجار القاهرة ومصر للاستعداد للمشاركة فيها مشاركة خاصة، حيث «كانوا يزينون طريق الموكب باشياء من تجاراتهم ومعاشهم لطلب البركة بنظر الخليفة(١٦٠)، وكان الناس عند مرور الخليفة يخرجون سجدا لتقبيل الأرض. (١٦١)

وأُمنت هذه المواكب تأمينا خاصا، وتولى مسؤولية ذلك «والي شرطة القاهرة»، و«الاسفهسلار، (١٦٢)وصاحب الباب». حيث تولى كل منهم مهمة محددة في التأمين، فالوالي كان في مقدمة الموكب ليفسح هو ورجاله الطريق، والاسفهسلار كان بوسط العسكر يحافظ على نظام الموكب، أما صاحب الباب فكان يتولى تأمين الخليفة في الاساس». (١٦٣)

ويجدر بنا أن نصف سير نظام الموكب حتى نربط بينه وبين الميدان الذي يبدأ منه، والشوارع التي يجوبها، فهي بمثابة الوعاء الذي يحمل هذا الجمع .«ففي يوم الركوب يجتمع المشتركون في الموكب في الميدان الذي يبدأ منه الموكب أمام القصر، ويقفون أمام قاعة الذهب، في القصر الكبير، التي يخرج منها الخليفة، كل منهم في كامل زيه، وأمامه ما شرّفه به الخليفة من الآلات الملوكية .»(١٦٤) بينما يبقى الخليفة والوزير وكبار الموظفين في قاعة الذهب الى أن يبدأ العرض، وكان الخليفة وحاشيته من الاستاذين ينتظرون في مكان محدد بالقاعة نفسها يعرف بمقطع الوزارة، أما كبار الموظفين فيجلسون على دكة مخصصة لهم بالقاعة. وعندما تحين ساعة التحرك يخرج الوزير وينضم اليه الامراء ليأخذوا أماكنهم المحددة في الموكب، ويخرج الخليفة في أثرهم وبعده حاشيته، ويتجه نحو دابته ليركبها، وقد ادخلت حتى باب القاعة، وفرشت الأرض أمامها بالبساط حتى لاتنزلق على الرخام، كما أسند إليها كرسي حتى يستطيع الخليفة اعتلاء ظهرها بسهولة، فاذا ظهر وجه الخليفة ضرب رجل البوق المشهور «بالقربية» لتضرب بقية البوقات في الموكب بشدة، ثم تركب الحاشية وغيرها ممن كانوا في قاعة الذهب ثم يأخذ الموكب في التحرك.

وكان الموكب يبدأ ببعض الطوائف غير النظامية من الجنود تسمى «أخلاط العسكر»، ثم طوائف العسكر، ثم أمراء الجيش، ثم الاستاذين المحنكين من رجال القصر ثم اهل الوزير، ثم الحاملين لواءي الحمد من جانبي الخليفة ثم حامل الدواة وحامل السيف بعده وهما في الجانب الايسر للخليفة، وكل واحد منهم بين عشرة الى عشرين من رجاله، ثم يأتي الخليفة ومواليه وحرسه المعروف «بالركابية» وهم حواليه كالجناحين وبينهما فرجة، حتى تستطيع دابة الخليفة السير، ويقف في هذه الفرجة حاملا المذبتين عند رأس الفرس، كما يقف فيها «مقدمو الركابية» وعددهم ستة، منهم اثنان يمسكان بلجام الفرس ، وأثنان بعنق الفرس من الجانبين، وأخيرا اثنان يمسكان بركاب الفرس، وكان الايمن منهم- وهو رئيسهم - يقوم بنقل أوامر الخليفة ونواهيه مدة الركوب، كذلك يقف

حامل المظلة ـ بطبيعة الحال ـ على يسار الخليفة، وهو يبالغ في الا يزول عنه ظلها، ثم يلي ذلك طائفة اخرى من الركابية تمثل مؤخرة الحرس، يتبعها عشرة من حملة السيوف يقال لهم «سيوف الدم» برسم «ضرب الاعناق، ثم طائفة ارباب السلاح الصغيرة ولعلهم من حرس الخليفة أيضا، بعدها يتقدم الوزير في هيبة عظيمة وسط حرسه الحديدي المسمى «صبيان الزرد»، وهو يحرص الا يغيب الخليفة عن نظره، وخلفه الطبول والصنوج والصفافير، ثم حامل «الرمح الشريف ودرقة حمزة»، ثم طوائف الاسطول والجيش. (١٦٥)

ومن وصف هذا الموكب يتضح النظام الدقيق في السير لتيسيره وتأمينه مع الحفاظ على ترتيب منازل الفئات المشتركة، ويتضح من الوصف الدقيق لموقع الخليفة من الموكب أن الشارع كان يتسع لخمسة صفوف متوازية من المشتركين فيه ـ في اتجاه حركة الموكب ـ ممثلة في الخليفة راكبا فرسه في الوسط، وصفين من مقدمي الركابية عن يمينه ويساره بما فيهم حامل المظلة، وصفين خارجين هما جناحا الركابية، وكانت هذه الصفوف الخمسة تسير براحة تامة تنظم سهولة سير الموكب، ولذلك كان الشارع الاعظم هو المختص بمرور المواكب، ومن هنا تبرز أهمية اتساع هذا الشارع الذي يمكن أن نحدد اتساعه بحوالي ١٢ مترا، ومما يؤكد ارتباط تخطيطه بالمقاييس التي تسمح بمرور هذه المواكب مانراه من تشعب «الشارع الأعظم» في شمال القاهرة في اتجاهين الشرقي منهما مؤد إلى باب النصر، والغربي إلى باب الفتوح، وكان موكب صلاة العيد، يمر بها غالبا في حركة دائرية تبدأ من القصر إلى باب النصر، إلى مصلى العيد ومنها إلى باب الفتوح الى القصر حتى لايعود الخليفة من الطريق الذي سار منه إلى المصلى اقتداء بسنة رسول الله.

مما سبق يتضح أن تخطيط الشارع الأعظم والميادين حول القصر ارتبط في الاساس بالرسم الملكي، وغاية خروج المواكب التي مالت الى تحقيق غايات إعلامية ركز عليها الفاطميون، وكان من بين رموزها الحرص الشديد من جانب الخليفة على الخروج لامامة المسلمين في صلاة الجمعة والعيدين، واحياء ذكرى انتسابهم إلى آل البيت بما يرمز له إشراك «رمح ودرقة حمزة» كجزء أساسي من

الموكب. وما يحدثه الموكب من مشاعر الترغيب والترهيب في نفوس العامة بهذه الهيئة.

وقد اعتادت المدن الاسلامية أن تشهد شوارعها كثيرا من الاحتفالات سواء أكانت احتفالات عــامة أم خاصة، أم احتفالات دينية عامة يحتفل بها المسلمون في جميع البقاع، أم احتفالات قومية ومحلية تختص باقليم بعينه أو بلد بذاته، مثل احتفال وفاء النيل وفتح الخليج(١٦٦) في مصر، وعيد النيروز ببغداد، أو الاحتفال بتولي حاكم أو شفائه، وكان لهذه الاحتفالات دلالات إعلامية واعلانية معينة: بعضها ديني وبعضها سياسي وبعضها اجتماعي يحدده القصد من هذا الاحتفال أو ذاك.

وقد انعكست هذه الاحتفالات على شوارع المدن الإسلامية التي ازدحمت بمواكبها، كما أخذت زخرفها وازينت استعدادا لهذه الاحتفالات، وانبرى لذلك العامة مشاركة منهم في ذلك. وكان مرور الحاكم أو السلطان في موكب في الشارع غالبا هو الفرصة المتاحة لرؤيته من قبل العامة(١٦٧). وفي هذه المواكب كان يحدث أحيانا الاتصال بين الحاكم والعامة كأن يعطيهم هبة، أو أن يعبروا له عن مظلمة فيرفعها عنهم.

وأدى النداء دورا أساسيا في تأمين الاتصال بالمدينة الاسلامية بين السلطة والعامة، أو بين العامة بعضهم ببعض، فبالنسبة للبيانات الرسمية كان السلطان أو الوالي يأمر بقراءة هذه البيانات أثناء الصلاة يوم الجمعة حيث يتجمع عدد كبير من المصلين، وهذه الوسيلة كان يلجأ إليها غالبا عندما تكون البيانات طويلة، وفي حالات كثيرة أخرى تبدو حاجة السلطة ملحة لإعلام العامة بأوامر قصيرة وبسرعة لاتحتمل الانتظار الى يوم الجمعة، فكانت السطة تلجأ إلى «المنادين على العامة» وهم فئة من الناس كانت لهم أعمال أخرى يقومون بها تضاف إليها وظيفة النداء، وتخبرهم السلطة بنص الرسالة الاعلامية فيحفظونه، وينتشرون في أنحاء المدينة حسب خطة معروفة من قبل، ويتوقفون في نقاط معينة متفق عليها مسبقا

في الأماكن التي يزدحم فيها الناس، ويقومون بالنداء، بحيث يصل مضمونها إلى اكبر عدد من السكان . (١٦٨)

وامتد الإعلان بالنداء إلى أغراض اجتماعية شخصية تدعو فئات المجتمع لمشاركة إخوانهم في تلك المناسبة التي يعلن عنها سواء أكانت مناسبة حزينة(١٦٩) أم مفرحة(١٧٠)، مما تدعو الى تضامن أهل المدينة وتآلفهم نتيجة التجاوب بالمشاركة في هذه المناسبات .

«وفي مصر والقاهرة اتخذ المنادون للاعلان عن زيادة النيل وقت الفيضان هيئة خاصة مميزة حيث إن نداءهم متكرر، وتمييزهم واجب لخطورة أمر النيل . ففي زمن الفيضان كان يخرج عدة فرسان كل يوم وهم يرفعون الأعلام فوق اكتافهم، ثم يتجهون إلى المقياس لكي يعرفوا مقدار الزيادة، ثم يسيروا خلال الشوارع والطرقات يصيحون أن النهر زاد كذا» . (١٧١)

وكانت بعض المواكب إعلانية في المقام الأول مثل موكب «دوران المحمل»، يطلق عليه في بلاد العراق «المدور» . فقد كان للخروج بهذا الموكب والمرور في شوارع وطرقات المدينة هدف إعلامي اعلاني بحت، تخبر من خلاله سلطات المدينة من يعتزم الحج كي يستعد لذلك، وكان الدوران بالمحمل في القاهرة مثلا يتم في شوال من كل عام، ومنذ عهد الظاهر بيبرس أصبح الدوران بالمحمل مرتين: مرة في منتصف رجب أطلق عليها «دوران المحمل الرجبي» استحدثها بيبرس لاعلام الناس أن الطريق من مصر الى الحجاز آمن، وأن من شاء الحج لايتأخر ولا يتخوف من الطرق(١٧٢) . وارتبط هذا الإعلام بعودة طريق الحج البري من مصر الى الحجاز بعد انقطاعه منذ ايام المستنصر الفاطمي بسبب الحروب الصليبية، والمرة الثانية كانت معتادة في شوال . ولاشك في أن دوران المحمل مرتين كان له تأثيره الاعلامي «فتهيج العزمات وتبعث الاشواق وتتحرك البواعث فيأخذ من يشاء في التأهب للحج»(١٧٣) . وغالبا ما سبق موعد دوران المحمل حملة اعلامية تعلن العامة بموعده، ففي رجب يظل المنادون يجوبون

شوارع القاهرة والفسطاط ينادون في الأسواق بموعد دوران المحمل، وقبل ذلك الموعد بثلاثة أيام يتكرر النداء خلالها بدعوة الناس للمشاركة في الاحتفال، فتزين الحوانيت والدور المطلة على الشوارع التي يمر فيها الموكب(١٧٤)، وتزداد أعداد المشاهدين للموكب الذي يشق طريقه من باب النصر الى ميدان الرميلة عند القلعة، وهو موكب اهتم بمشاهدته العامة والخاصة على السواء لما كان به من استعراضات والعاب شارك فيها فرسان المماليك.

ومن أهم المواكب الاعلامية الاقليمية موكب تخليق مقياس النيل وفتح الخليج بمصر والقاهرة، وكان يحدث عند وفاء النيل، وهو موكب شارك فيه الحكام بصفة رسمية وهيئة اعلامية محضة تعلن في ابتهاج وفاء النيل الذي كان يعلن بعد ذلك عن قياسه في شبه نشرات يومية عن طريق المنادين- كما أشرنا- وكان الإعلان يتم وفق قواعد معينة بحيث لا يعلن عن انخفاض المنسوب ولا يعلن الا عند الزيادة «مما يؤكد التوجيه الاعلامي لمنع البلبلة أو الذعر. (١٧٥)

وغالبا ما حقق النداء غايته في الشوارع المزدحمة وخصوصا التي تكتنفها الأسواق(١٧٦) التي كانت بمثابة مراكز اخبارية واجتماعية ففيها تتناقل الاخبار، وتحدث المناقشات في الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها. وكانت المصاطب بالحوانيت من اهم هذه المواضع التي يجلس فيها الناس يتجاذبون أطراف الحديث في الشؤون المختلفة. (١٧٧) وأدرك الحكام هذا الامر حتى انهم كانوا احيانا يصدرون المراسيم التي تمنع الناس من أن يتحدثوا في الأسواق في أمور الدولة وأخبار الحكام وإلا تعرضوا للعقاب(١٧٨)، ومما يبرز أهمية الشوارع والطرقات بالمدينة الاسلامية باعتبارها مواضع وبؤر الاتصال الرئيسة ما افرزته من تكوينات وتجمعات من العامة والعوام كان لها دور واضح في حياة مجتمع المدينة كظهور العيارين والشطار في بغداد وثورتهم ضد الحكام، وكذلك الفئات المشابهة كالبلاصين والزعر والحرافيش. (١٧٩)

واستغل العامة مرور موكب الحاكم في شوارع المدينة للتعبير عن مشاعرهم

وعرض مطالبهم، وفي بعض الاحيان خرجوا في هيئة ثائرة مثلما حدث في منتصف ذي القعدة سنة ٤١٥ هـ عندما خرج العامة في شوارع مصر والقاهرة صائحين: الجوع.. الجوع، واستجابت السلطة لهذا النداء فأصدرت سجلا برفع المكوس عن الشعب «وقرىء هذا السجل في شوارع مصر». (١٨٠)

وامتد استخدام الشوارع اتصاليا للمباني العامة الرئيسة المطلة عليها حيث جرت العادة على نقش «المراسيم»، التي تريد السلطة اعلام العامة بها وتستوجب الاعلان مدة طويلة، على ألواح الحجر والرخام التي تثبت على أبواب المدينة، أو أبواب المساجد العامة والبيمارستانات ليقرأها العامة اثناء المرور عليها أو الدخول فيها. وغالبا ماكانت هذه المراسيم متصلة بحياة المجتمع في المدينة كتنظيم عمل، أو منح هبة، أو رفع مكس، أو غير ذلك(١٨١). وفي نقش المراسيم على الحجر غاية اعلامية مركبة تهدف إلى إعلام العامة بفحوى المرسوم، وكسب دعاية إعلامية مستمرة للسلطة باستمرار بقاء هذا المرسوم.

ومن جهة أخرى استغلت سلطات المدينة شوارعها في التشهير بالخارجين عليها، فمن كانت جريمته تستوجب التشهير حمل على جمل وطيف به في شوارع المدينة، وهناك من بولغ في التشهير بهم، كالذي سرق دفعتين في يوم واحد «فحمل على جمل وطيف به في البلد، وفي يده جرصين يجرص على نفسه، ويصيح بملء صوته هذا جزاء من يسرق دفعتين»، وذكر أنه كان مجرصا يجرص على المحبسين بحبس بنان في القاهرة(١٨٢)، ولاشك في أن استخدام الجرص والنداء معا يزيد من انتباه العامة بالشوارع فيلتفتون إليه فيحقق الغرض الاعلامي بصورة جيدة.

أما أصحاب الجرائم التي كانت تستوجب القتل فكان التشهير بهم يتم بقتلهم وتعليق جثثهم على الأبواب الرئيسة للمدن حيث يمر العامة بصورة مكثفة. وتاريخ باب زويلة ـ أحد أبواب القاهرة ـ حافل بهذه الأمثلة لعل أشهرها حادثة «طومان باي» نائب السلطة المملوكية الذي قتله العثمانيون. وتعكس أحداث

الصراع السياسي صورا مخيفة من صور التشهير، ففي البصرة سنة ١٣١ هـ صلب حوالي ستين من كبار بني أمية وامرائهم المشهورين، وطرحت اجسادهم في الازقة تعبث بها الكلاب، فاستولى على الناس الخوف وقويت شوكة بني العباس. (١٨٣)



هوامش الفصل الرابع

١ ـ د. محمد مصطفى حماد: تخطيط المدن وتاريخه: الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٥، ص٢٣ ـ ٢٦.

٢ ـ د. عرفان سامي: نظريات العمارة، دار المعارف، ص٢٨.

٣ ـ حسين رشوان: المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري، المكتب الجامعي الحديث. الإسكندرية، سنة ١٩٨٢، ص٨٩.

٤ ـ د. محمد مصطفى حماد: المرجع السابق، ص٥٧ . ٥٨

٥ ـ د. محمد مصطفى حماد: المرجع نفسه، ص٤٧ ـ ٥٠.

٦ ـ د. محمد مصطفى حماد: المرجع نفسه، ص٧١.

٧ ـ د. محمد مصطفى حماد: المرجع نفسه، ص١١٠ ـ ١١١، وللمؤلف نفسه: ـ تخطيط المدن في مصر ـ مجموعة محاضرات القيت في الجمعية المصرية الجغرافية، مارس ١٩٦٥، ص٤٩، أرسطو طاليس: السياسة/ ترجمة أحمد لطفي السيد، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٩، ص٢١٧.

٨ ـ Alex Boethias and J. B. Ward: Etruscan and Roman Architecture. The Pelican History of Art, 1970, pp. 56 - 75.
R.E. Wycherley, How the Greeks Built Cities. A Doubleday Anchor Book, 1968, pp. 17 - 27.

٩ ـ D.S. Robertson: Greek and Roman Architecture. Second edtition, Cambridge University Press, 1972. p. 19, Fig. 86

١٠ ـ د. عيسى سليمان وآخرون: العمارات العربية الإسلامية في العراق، دار الرشيد للنشر، مجلد (١)، ص١٠١.

١١ ـ اليعقوبي: البلدان، ليدن، سنة ١٨١٢، ص٢٣٨.

١٢ ـ ابن الرامي: الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق: عبدالرحمن بن صالح الأطرم، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، سنة ١٤٠٣هـ، ص٣٨٩.

١٣ ـ عبدالله بن ادريس: مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، نشر عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، سنة ١٩٨٢، الرياض، ص١٧٧ ـ ١٨١.

١٤ ـ ابن الاخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق د. محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٣٠٣، ٣٠٤.

١٥ ـ الموصلي: الاختيار لتعليل المختار، طبع الأزهر الشريف، جـ٣، ص١١٦.

١٦ ـ د. احمد فكري : قرطبة في العصر الاسلامي، نشر مكتبة شباب الجامعة، الاسكندرية، سنة ١٩٨٣، ص٣٧.

١٧ ـ طاهر مظفر العميد : بغداد مدينة المنصور المدورة، بغداد سنة ١٩٦٧م، مطبعة النعمان، ص٣٧.

١٨ ـ محمد جمال القاسمي : اصلاح المساجد من البدع والعوائد، المكتب الاسلامي، الطبعة الرابعة، سنة ١٣٩٩ هـ، ٥١.

١٩ ـ المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، «الخطط»، المطبعة الاميرية ببولاق. سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣، جـ٢، ص٢٤٥، ٢٩٣، ٣١٢، ٣٧١، ٣٧٥، ٥٩٦، السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، طبعة مصر، سنة ١٣٥٤ هـ، جـ، ص٢١، ٢٥، محمد جمال القاسمي: المرجع نفسه، ص٩٦.

٢٠ ـ Pedro Chalmenta, Market in Islamic held City Edited by R. Serjeant, Unesco, Selected Papers from the Collaquium held at Middle East Center, Faculty of Oriental Studies, Cambridge, United Kingdom, from 19 - 23, July 1976, p.109.

٢١ ـ روجيه لوتورنو: فاس في عهد بني مرين، ترجمة نقولا زيادة، نشر مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ص٤١، ص١٦٤.

٢٢ ـ د. محمود مكي: مدريد العربية، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي، ٦٠ ـ ٦٦.

٢٣ ـ روجيه لوتورنو: المرجع السابق، س٤٧، د. سعيد عاشور: الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية، مجلة عالم الفكر، مجلد ١١ العدد الأول سنة ١٩٨٠م، ص٨٨، د. السيد عبدالعزيز سالم: التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية الوسطى، مجلة المجلة، اغسطس سنة ١٩٥٧ عدد ٨، ص٥٩ و

Xavier de, Planhol, The World of Islam, New York, 1959, pp. 22 - 23.& J. Sauvaget: (Esquisse d'une Histoire de La ville de Damas) Revue des Etudes Islamique VIII, 1934, pp. 441 - 452, Idem: Alep. Paris, 1941, pp. 66 - 67.
Von Grunbaum: The Structure of the Moslem Town in Islam: Essays in the Nature and Growth of Culture Tradition, London, 1955, pp. 141 - 158.

٢٤ ـ الماوردي: الأحكام السلطانية . نشر دار الفكر، ص٢٠٣.

٢٥ ـ اليعقوبي : المرجع السابق، ص٣١١، د. عيسى سلمان وآخرون: المرجع السابق، ص٤٧.

٢٦ ـ بحشل: تاريخ واسط، تحقيق: كوركيس عواد، نشر عالم الكتب، سنة ١٩٨٦، ص٢٣.

٢٧ ـ اليعقوبي: المرجع السابق، ص٢٤٢.

٢٨ ـ عيسى سلمان وآخرون: المرجع السابق، ص١٠١.

٢٩ ـ اليعقوبي : المرجع السابق، ص٢٥٨.

٣٠ ـ اليعقوبي : المرجع السابق ، ص٢٥٦.

٣١ ـ وصف ناصر خسرو مواكب الخلفاء الفاطميين في شوارع القاهرة، ويمكن من خلال هذا الوصف تخيل اتساع الشارع الذي يتسع لصفوف الموكب المتوازية من الركبان والمشاة أمام وحول الخليفة. ناصر خسرو: سفر نامة، ترجمة: د. أحمد خالد البدلي، نشر عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، سنة ١٩٨٣، ص١٠١، ١٠٢.

٣٢ ـ المراكشي : المغرب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، القاهرة سنة ١٩٤٩م، ص٢٦٦، المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، جـ١، ص١٩٤، د. السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم بالاندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، نشر دار النهضة العربية، سنة ١٩٨١، ص١٢١.

٣٣ ـ ابن جبير : الرحلة ، تحقيق: د. حسين نصار، ص٨.

٣٤ ـ التيجاني : الرحلة: تقديم حسن حسني عبدالوهاب، طبعة تونس، سنة ١٩٥٨، ص٢٣٧٠، نقولا زيادة: مدن عربية، دار الطليعة ـ بيروت، ص٦٩.

٣٥ ـ عبداللطيف البغدادي: الافادة والاعتبار، مطبعة المجلة الجديدة ومجلة المصري، ص٥٢.

٣٦ ـ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، الجزء الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب، تحقيق د. حسين نصار، دار الكتب سنة ١٩٧٠، ص٢٤، نقولا زيادة، المرجع السابق، ص١٠٥.

(٣٧) ناصر خسرو : المرجع السابق ، ص ١٠٥.

(٣٨) المقريزي : المرجع السابق، ج١، ص٣٣٩، ٣٤٠.

٣٩ ـ Saleh Ali El Hathloul, Tradition, Continuity and Change in the Physical Enviroment: The Arab Muslim City, ph.D. thesis Submitted to the department of Architecture at M.I.T. 1981. pp. 38 - 39.

٤٠ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص٣٩٠.

٤١ ـ المقريزي : المرجع السابع، جـ٢، ص٢٨ ومابعدها.

٤٢ ـ د. محمد عبدالستار عثمان: وثيقة وقف جمال الدين الاستادار دراسة تاريخية أثرية وثائقية، منشأة المعارف سنة ١٩٨٣م، ص١١٧.

٤٣ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص١٨٨ ـ ١٨٩.

٤٤ ـ لم يكن من حق اصحاب الطريق الخاص قسمته او التصرف فيه بالبيع الذي ربما يؤدي الى الغائه، فهو على الرغم من انه ملك خاص، الا انه قد يحقق منفعة للعامة الذين يلجأون اليه في حالة ازدحام الطرق الرئيسة. (ابن الرامي: المرجع السابق، ص١٨٧ ومابعدها، ابن عابدين: حاشية رد المحتار على الدر المختار ـ المطبعة الازهرية، ص١١٥). ومن هنا ثبتت هذه النوعية من الشوارع بعد انشائها.

٤٥ ـ للاستزادة ، راجع د. محمد عبدالستار عثمان. في شوارع المدينة الاسلامية، مجلة العصور، العدد الرابع، المجلد الثاني، سنة ١٩٨٧، نشر دار المريخ. تحت النشر.

٤٦ ـ حمدي ابراهيم الديب: مدينة قنا، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة القاهرة ـ قسم الجغرافيا، سنة ١٩٨٠م، ص٢٣٥.

٤٧ ـ د. السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة استلول الاندلس ـ الطبعة الأولى ، سنة ١٩٦٩ ، بيروت ، ص ١١١.

٤٨ ـ أحمد محمد عبدالله : المناخ والعمارة دراسة تحليلية للعوامل المناخية وآثارها على عمارة المناطق الحارة. رسالة ماجستير مقدمة لكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية، ص٢١٧.

٤٩ ـ د. صالح لمعي مصطفى: النمو المعماري وخصائصه في المدينة المنورة. مقال بكتاب المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري، ص١٥٠.

٥٠ ـ Geoffrey King, op. cit. p. 116.

٥١ ـ د. لمعي مصطفى: المرجع السابق، ص١٥٠.

٥٢ ـ الماوردي: المرجع السابق، ص٢٠٣

٥٣ ـ اليعقوبي: المرجع السابق، ص٣١١، عيسى سلمان وآخرون: المرجع السابق، ص٤٧.

٥٤ ـ ابن سعيد : المرجع السابق، ص٢٤.

٥٥ ـ المقريزي: الخطط، جـ٢ ، ص٤٧، ٤٨، ابن دقماق: المرجع السابق، ص١٥ ـ ٣٧.

٥٦ ـ Nikita Eliseef, Physical Layout. in Islamic City, Edited by R. Serjeant Selected Papers From The Colloquium Held at Middle East Center, Faculty of Oriental Studies, Cambridge, United Kingdom, from 19 - 23 July 1976, Published by Unesco, p.100.

٥٧ ـ ابن دقماق : المرجع السابق، ص١٩

٥٨ ـ ابن دقماق : المرجع السابق، ص١٣٦.

٥٩ ـ د. محمود مكي : المرجع السابق، ص ٦٠.

٦٠ ـ Nikita Eliseef, op. cit, p. 100.

٦١ ـ د. عرفان سامي : المرجع السابق، ص ١٥ ـ ١٨

٦٢ ـ اسمهان صوفي : المرجع السابق ، ص ٧٧.

٦٣ ـ تميزت المدينة الاسلامية عن المدينة اليونانية والرومانية بحرية في التخطيط، عكست الواقع الاجتماعي للمجتمع الاسلامي الذي يؤمن بحرية الفرد في اطار الصالح العام، ويستدل بعض الباحثين على هذه الحرية بتخطيط الشوارع في المدينة الاسلامية ومقارنته بتخطيط شوارع المدينة اليونانية والرومانية. محمد حماد: المرجع السابق ص١٢٥ ـ ١٢٦ .

٦٤ ـ اسمهان صوفي : المرجع السابق ، ص ٨٠.

٦٥ ـ د. صالح لمعي مصطفى : المرجع السابق ، ص١٥٠.

٦٦ ـ Nikita Eliseef, op. cit., p.98.

٦٧ ـ اسمهان صوفي : المرجع السابق، ص٨٠.

٦٨ ـ نقولا زيادة : المرجع السابق ، ص ١٣٠ ـ ١٣٣ .

أحمد شلبي : ينابيع الفكر الاسلامي، القاهرة سنة ١٩٧٤م، ص ٦١ ـ ٨٤.

٦٩ ـ المقريزي : خطط ، ج١ ، ص ٣١٤.

٧٠ ـ اليعقوبي : المرجع السابق، ص ٢٦٦.

٧١ ـ د. بديع جمعة ، د. احمد الخولي: تاريخ الصفويين وحضارتهم ـ نشر دار الرائدالعربي، جـ١، ص٢٠١ ـ ٣٠٣.

٧٢ ـ د. بديع جمعة، د, احمد الخولي: المرجع السابق، ص٣٠٣.

٧٣ ـ د. جودة هلال، محمد محمود صبح : قرطبة في التاريخ الاسلامي ـ المكتبة الثقافية ،عدد ٧٢، سنة ١٩٧٢ ، ص٦٥.

٧٤ ـ د. قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي. عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، سنة ١٩٧٩، ص١٣٥.

٧٥ ـ اليعقوبي : المرجع السابق، ص٢٦٣.

٧٦ ـ للاستزادة راجع المقريزي، خطط، جـ٢، ص١٤٦، ١٥١، د.عبدالرحمن زكي: القاهرة تاريخها وآثارها ٩٦٩م ـ ١٨٢٥م، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة ص١٢، عبدالرحمن عبدالتواب: منشآتنا المائية عبر التاريخ ،طبعة ١٩٦٢.

٧٧ ـ أحمد فكري: المرجع السابق، ص١٧٥.

٧٨ ـ د. بديع جمعة، د. أحمد الخولي: المرجع السابق جـ١، ص٣٠٣ ـ ٣٠٥.

٧٩ ـ عبد الرحمن عبد التواب : المرجع السابق، ص ٩.

٨٠ ـ البغدادي : المرجع السابق، جـ١، ص ١١٦.

٨١ ـ الطبري : المرجع السابق، جـ١، ص ١١٦.

٨٢ ـ أحمد فكري : المرجع السابق، ص١٧٤.

٨٣ ـ اليعقوبي : المرجع السابق ، ص٢٦٣.

٨٤ ـ جاك. س. ريسلر: المرجع السابق، ص٢٦٣.

٨٥ ـ رمزية الاطرقجي : الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول، بغداد سنة ١٩٨٢ ، ص٢١٧.

٨٦ ـ المقريزي : خطط، جـ٢، ص ١٠٨، عبدالرحمن زكي: الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع، المكتبة الثقافية، ص ٢٧.

٨٧ ـ روجيه لوتورنو : المرجع السابق، ص٤٧.

٨٨ ـ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا. نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية، جـ١، ص٤١٦، عبدالرحمن زكي: المرجع السابق، ص٢٧.

٨٩ ـ المقريزي ؛ خطط جـ١، ص ٤٩٠.

٩٠ ـ ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٠٥.

٩١ ـ ريسلر: المرجع السابق، ص١٥٥.

٩٢ ـ نقولا زيادة؛ المرجع السابق، ص ١٣٠ ـ ١٣٣.

٩٣ ـ د. احمد شلبي : المرجع السابق، ص ٨٢. Nikita Eliseef, op. cit., p.98.

٩٤ ـ Ibid., pp. 99 - 100.

٩٥ ـ د. سعيد عاشور : المرجع السابق، ص٨٧ ـ ٨٨.

٩٦ ـ د. أحمد شلبي: المرجع السابق، ص ٨٢ ـ ٨٤.

٩٧ ـ جاك س. ريسلر: الحضارة العربية ـ ترجمة غنيم عبدون، ص ١٥٥.

٩٨ ـ اليعقوبي : المرجع السابق، ص٢٥٠.

٩٩ ـ المقريزي : الخطط، ،ـ١، ص ٣٢٩.

١٠٠ ـ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار، طبعة بيروت، دار صادر، ص٣٦ وما بعدها.

١٠١ ـ عبدالرحمن زكي : اللامرجع السابق، ص١١٠.

١٠٢ ـ اندريه، ريمون: عن السقاءين في القاهرة، ترجمة زهير الشايب، مجلة المجلة، عدد اكتوبر سنة ١٩٦٦ ، ص٤٠ ـ ٤٥.

١٠٣ ـ القزويني : المرجع السابق، ص١٢٣.
١٠٤ ـ ناصر خسرو : المرجع السابق، ص١١٠.
١٠٥ ـ ابن بطوطة : الرحلة، ص٥٥.
١٠٦ ـ عبدالرحمن زكي : المرجع السابق، ص ١٥٤، سعيد عاشور: المرجع السابق، ص٨٨.
١٠٧ ـ هو من يجلس في الطرقات ويذكر شيئا من الآيات والأحاديث واخبار السلف (السبكى، معيد النعم ومبيد النقم، ص١٦٢).
١٠٨ ـ السبكي ؛ المرجع السابق ، ص ٢١١.
١٠٩ ـ عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ، ص ١٩٦ ، سعيد عاشور: المرجع السابق، ص٩٩.
١١٠ ـ المقريزي ، السلوك ، جـ٣، ص ٢٣٠ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، جـ١٤ ، ص ٢٦ ـ ٢٩.
١١١ ـ ابن الحاج : المدخل الى الشرع الشريف، القاهرة، سنة ١٣٢٠ هـ، جـ٢، ص١٠٢، ١٠٣.
١١٢ ـ ابن اياس : بدائع الزهور، جـ٣، ص٦، ص٢٤، جـ٥، ص٦٧.
١١٣ ـ المقريزي : خطط، جـ٢ ، ص٩٦، ابن الحاج؛ المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٩ ـ ٨٠.
١١٤ ـ المقريزي : خطط، جـ٢، ص ٩٣ ـ ٩٥.
١١٥ ـ ابن الحاج : المدخل، جـ٢، ص ٥٤، وعيد خميس العهد، عيد مسيحي جرت العادة على الاحتفال به من جميع فئات المجتمع مسيحيين ومسلمين.
١١٦ ـ قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص٤٠ وما بعدها.
١١٧ ـ ناصر خسرو : المرجع السابق، ص ١٠٥، المقريزي: خطط، ج. ١، ص ٣٧٤.
١١٨ ـ المقريزي : السلوك، جـ١، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣.
١١٩ ـ أحمد حماد : المرجع السابق، ص ١١٤.
١٢٠ ـ ليون الافريقي : المرجع السابق، ص ٢٥٢.
١٢١ ـ ليون الافريقي : المرجع السابق، ص ٢٢٢.
١٢٢ ـ ابن اياس : المرجع السابق، جـ٢، ص ٢١.
١٢٣ ـ ١٢٣ ـ القلقشندي : صبح الأعشى، جـ٤، ص٥٧، المقريزي: السلوك، جـ٤، ص ٨٧٠٩، ٨٧٥.
١٢٤ ـ البغدادي : الرجع السابق، جـ١، ص ١٠٠.

١٢٥ ـ د. سعيد عاشور: المرجع السابق، ١٢٣.

١٢٦ ـ ابن بطوطة : الرحلة، ص ٢٦ ـ ٢٧.

١٢٧ ـ ابن الحاج : المرجع السابق، جـ٢، ص٣٥٧.

١٢٨ ـ ابن الحاج : المرجع السابق، جـ١، ص ٢٨٣ ـ ص٢٩٠.

١٢٩ ـ الشيزري : نهاية الرتبة ص١٣، ابن الاخوة: معالم القرية، ص ١٣٦.

١٣٠ ـ ابن الاخوة : المرجع السابق، ص١٣٥، ابن الاخوة: معالم القرية، ص ١٣٦.

١٣١ ـ الشيزري : المرجع السابق ص١١٣، ابن الاخوة: المرجع السابق، ص ١٣٦.

١٣٢ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص ١٩٨.

١٣٣ ـ الشيزري : المرجع السابق ، ص ١٣.

١٣٤ ـ الشيزري : المرجع السابق، ص ١٠٧.

١٣٥ ـ ابن الأخوة : المرجع السابق: ص٢٧٥.

١٣٦ ـ الشيزري : المرجع السابق ص ١٤، ٨١، ١ من الأخوة، المرجع السابق، ص ١٣٦.

١٣٧ ـ روجيه لوتورنو : المرجع السابق ، ص ٩٤.

١٣٨ ـ الطبري : المرجع السابق ، جـ٨، ص ٣١١.

١٣٩ ـ اليعقوبي : المرجع السابق . ص٢٥٨.

١٤٠ ـ علي الفرا : ذكرى ما وقع من عسكر المحروسة سنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م ـ تحقيق/ عبد القادر طليمات ـ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ١٤ لسنة ١٩٦٨، ص.ص. : ٣٦٤ ـ ٣٦٧.

١٤١ ـ ابن الرامي : المرجع السابق ، ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

١٤٢ ـ عبداللطيف ابراهيم: المرجع السابق ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢٢.

١٤٣ ـ اخوان الصفا : الرسائل، جـ١، ص ٢٨٨.

١٤٤ ـ السخاوي: الضوء اللامع، جـ٥، ص٢١٤ ، ابن اياس : المرجع السابق، جـ٢، ص١٧١.

١٤٥ ـ ابن الرامي : المرجع السابق ، ص ٣٩٨، ٣٩٩.

١٤٦ ـ المقريزي : السلوك، جـ١، ص ٦٣٨.

١٤٧ ـ وثيقة وقف السلطان برقوق، ١٥٨ / ١٠.

١٤٨ ـ وثيقة وقف جمال الدين الاستادار ١٠٦/١٧، محكمة.

١٤٩ ـ المقريزي : السلوك، جـ١، ص٥٥.

١٥٠ ـ ابن حجر: ابناء الغمر بأنباء العمر ـ تحقيق د. حسن حبشي، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية، القاهرة ـ جـ١، ص ١٢٥.

١٥١ ـ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق د. مصطفى زيادة، القاهرة، سنة ١٩٧١ جـ٢، ٢٥٣، ابن اياس: المرجع السابق، جـ٢، ص٢١.

١٥٢ ـ المقريزي : خطط، جـ١، ص ٣٨٧، ص٤٤٤، د. عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، جـ٢ ص ٢٦.

١٥٣ ـ المقريزي : خطط ، جـ١ ، ص ٤٤٤.

١٥٤ ـ القلقشندي : صبح الاعشى، جـ٣، ص ٥٠٤، ٥٠٥، المقريزي: المرجع السابق، ١، ص٤٨٨.

١٥٥ ـ المقريزي :خطط، ج١، ٤٤٨، د. عبد المنعم ماجد :المرجع السابق، ج ٢، ص٢٩.

١٥٦ ـ المقريزي : خطط، ج١، ص ٤٢١، عبدالمنعم ماجد : المرجع السابق، جـ٢ ، ص٤٨.

١٥٧ ـ ناصر خسرو : المرجع السابق ، ص٩٨ ـ ١٠٢،عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ، ص٤٩.

١٥٨ ـ المقريزي : خطط ، جـ١، ص ٣٧٤، د. عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ٨٨.

١٥٩ ـ راجع للاستزادة : د. عبدالمنعم ماجد؛ ص ٨٩ ـ ٩١.

١٦٠ ـ المقريزي : خطط ، جـ١، ص ٤٤٦.

١٦١ ـ ناصر خسرو : المرجع السابق، ص١٠٢.

١٦٢ ـ لقب قائد الجيش.

١٦٣ ـ د. عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ٩٢.

١٦٤ ـ القلقشندي : المرجع السابق، جـ٣، ص٥٠٥، المقريزي: خطط، جـ١، ص٤٤٨.

١٦٥ ـ د. عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، جـ٢، ص٨٨ ـ ٩٠.

١٦٦ ـ ابن بطوطه : الرحلة ، ص ٢٦ ـ ٢٧، ابن الحاج : المدخل، جـ٢، ص ٢٨٣ ـ ٢٩٠.
سعيد عاشور: المرجع السابق، ص٩٩ ـ ١٠١، قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص ١٢٠.

١٦٧ ـ القلقشندي : صبح الاعشى، جـ٤ ،٥٧٠ المقريزي : السلوك، جـ٤، ص٨٧٠، ص ٨٧٥.

١٦٨ ـ المقريزي : السلوك ، جـ٣، ص ٢٣، ابن تغري بردى؛ النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ٢٦ ـ ٢٩، روجيه لوتورنو : المرجع السابق، ص ٨٠، محمد عبدالستار عثمان، المرجع ،

السابق، ص١٦٥، سعيد عاشور: المرجع السابق، ص١٠٤.

١٦٩ ـ المسبحي : المرجع السابق ، ص ٢٢٤.

١٧٠ ـ سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ١٠٤.

١٧١ ـ قاسم عبده قاسم : المرجع السابق، ص ١٣٥، محمد عبدالستار عثمان: المرجع السابق، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

١٧٢ ـ السيوطي : حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٨٨، علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة ـ بولاق، القاهرة، جـ١، ص ٢٩، وسعيد عاشور: الظاهر بيبرس، القاهرة، سلسلة أعلام العرب، ص ٨٦٩، قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص ١٢٧.

١٧٣ ـ ابن حجر : ابناء الغمر ، جـ٢ ، ص ٤٥٠. (وفي العصر الفاطمي كان يعلن عن الحج في شعبان ويكرر النداء في رمضان. ناصر خسرو: المرجع السابق، ص١١٧).

١٧٤ ـ المقريزي : السلوك ، جـ١، ص ٦٣٩، السيوطي : المرجع السابق، ص٨٨، وقاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

١٧٥ ـ محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

١٧٦ ـ المقريزي : السلوك ، جـ٣، ص ٢٠٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج. ١٤، ص ٢٦ ـ ٢٩.

١٧٧ ـ ابن الحاج : المرجع السابق ، جـ٤، ص ٢٢.

١٧٨ ـ ابن اياس : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ١٥ ، جـ٥، ص ٦ ـ ٧.

١٧٩ ـ سعيد عاشور : المرجع السابق، ص ٩٥.

١٨٠ ـ المسبحي : المرجع السابق، ص ١٩٤ ـ ص ١٩٦.

١٨١ ـ محمد عبد الستار عثمان : المرجع السابق ، ص ١٦٥ وما بعدها.

١٨٢ ـ المسبحي : المرجع السابق ، ص ٣٨، ص ٥٢، ص ٥٤، ص ٨١.

١٨٣ ـ ابن الغملاس ؛ المرجع السابق ، ص ١٥.



الفصل الخامس

المنشآت والمرافق العامة في المدينة الإسلامية

تنوعت أغراض المنشآت العامة في المدينة الإسلامية، فمنها ما حقق أغراض الحياةالدينية، ومنها ما حقق أغراضا مدنية، واختلفت وتنوعت هذه المنشآت من عصر إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى لتفي بحاجات الناس الجماعية، وتولت السلطة في المدينة انشاءها والاشراف عليها، وشاركها أهل البر والمعروف الذين اسهموا في انشائها، ووقفها ووقف الاوقاف عليها، ليرتفق بها العامة ويتحقق الغرض من انشائها.

تحدثنا فيما سبق عن الشوارع باعتبارها مظهرا أساسيا من مظاهر تخطيط المدينة، يمثل جانبا هاما من جوانب مرافقها العامة، وبقى أن نتحدث عن المرافق المدنية الأخرى، كالمساجد الجامعة والمساجد والمدارس والاسواق والحمامات ومصادر الماء وغير ذلك من المرافق ومنشآتها المختلفة، من منظور يبرز الأسس التي حكمت تخطيطها، وطرائق انشائها، وارتباط ذلك بمخطط المدينة كلها، وتوضيح المؤثرات المختلفة التي أثرت فيها، وفي تطورها في المراحل التاريخية المختلفة، فتتضح الصورة التي كانت عليها مرافق المدينة الإسلامية ليس فقط باعتبارها من العناصر المهمة المكملة للهيئة المادية للمدينة، ولكن أيضا باعتبار أنها تعكس جانبا مهما من جوانب الحياة فيها، وتيسر دراسة هذه المرافق بهذا المنظور من الناحية الأثرية والمعمارية باعتبارها جزءا هاما من التراث المعماري للمدينة الإسلامية.

المنشآت الدينية

تعددت المنشآت الدينية في المدينة الإسلامية، ويمثل المسجد الجامع الأساس الأول لهذه المنشآت التي تنوعت بتنوع وظائفها، والتي انبثقت أصلا من وظائف

المسجد الجامع، وتطورت مرتبطة بظروف الحياة السياسية والاجتماعية في العصور التاريخية الإسلامية المتتابعة. ومن هنا جاءت المساجد والمدارس والخانقات والرُبط والزوايا والتكايا في عداد هذه المنشآت التي لبّت حاجات المجتمع الدينية والتعليمية (١).

المسجد الجامع

المسجد الجامع من أهم المنشآت العامة في المدينة الإسلامية لما له من دور أساسي في حياة مجتمعها. فبالاضافة إلى وظيفته الدينية كان مركزا لبحث الشؤون السياسية والدينية والتربوية والاجتماعية(٢)، ففي المسجد استقبل الرسول عليه السلام سفراء الدول لتنظيم علاقاته بدولهم، وفيه كان يخطب في جماعة المسلمين وينظم شؤونهم، ويعلمهم أمور دينهم، وفي زمن الراشدين كان الخلفاء يعلنون من منبر المسجد الأحداث التي تواكب الفتوحات، ويرشدون الجيوش بخطب تسبق تحركهم(٣). وبعد أن اتسعت الفتوحات وامتدت الامصار كان المسجد كالبلاط بحيث كان الأمير يلقي من فوق منبره خطبته الأولى يشرح فيها سياسته وخططه واتجاهاته، ويطرح مبادىء الحكومة وواجبات الشعب ومسؤولياته، تلك الخطبة التي كانت تمثل دستور الحكم، ومسؤولية الحاكم، وواجبات الرعية، كما فعل زياد بالبصرة والكوفة. (٤) واستمر المسجد الجامع في تأدية هذه الوظائف وأضيفت إليه بعض الوظائف الأخرى كالدرس والتصوف. (٥)

وحكمت هذه الأهمية للمسجد الجامع موضعه في المدينة باعتباره النواة الأساسية في تخطيطها، فقد كان أول ما يختط، ومن حوله كانت تخطط خطط المدينة، وتنتهي إليه شوارعها وسككها وأزقتها. وكانت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم المثال الأول على ذلك، فقد كان مسجد الرسول «أول شيء اختط في وسط المدينة ومن حوله اختطت خطط المهاجرين التي كانت في معظمها قطائع وخططا تنازل عنها الانصار للمهاجرين من كل فضل كان في خططهم ـ أو كانت في عفا من الأرض ليست لأحد فاقطعها الرسول أصحابه ». (٦)

وسارت «مدن الامصار» الناشئة على هذا المنهج في اختيار موضع متوسط في المدينة لاقـامة المسجـد الجامـع، ومن أمثلة ذلك البصـرة والكوفـة والفسطاط والقيروان، وأصبح هذا الاتجاه قاعدة تقليدية في المدن الاسلامية بعد ذلك كما في واسط وبغداد وفاس وغيرها، وانسحبت على المدن القديمة التي فتحها المسلمون كدمشق وحلب وقرطبة وغيرها. وكشف ابن الربيع عن السبب الرئيس وراء اختيار هذا الموقع المتوسط عندما شرط على الحاكم: أن ينشىء في وسط مدينته «جامعا» ليتعرف عليه جميع أهلها(٧) كناية عن قربه من كل موضع في المدينـة ليسهـل التوصـل آليه، ولاسيـما أنه لم يكن يقـام أكثر من خـطبـة في المـدينـة الواحدة(٨). وكانت وسطية الجامع للمدينة مقارنة بوسطية «الأكربول» في المدينة اليونانية، و«الكابيتول» في المدينة الرومانية، مدعاة لقول بعض الباحثين بتأثر تخطيط المدينة الاسلامية بهذه المدن ـ كما أشرنا ـ رغم اختـلاف الاسباب التي دعت إلى ذلك سواء في المدينة اليونانية أو الرومانية أو الاسلامية. فقد كان الهدف من اختيار الموضع المتوسـط لانشاء المسجد الجامع في المدينة الإسلاميـة اعتبار وظائفه، وليكون قريبا من كل اطراف المدينة، حتى يسهل على المصلين التوجه إليه، سواء أكانوا من أهل المدينة أم من المناطق المجاورة لها، والتي لا تقام فيها خطبة، ويؤكد ذلك على أن الوسطية لم تكن شرطا لازما في التخطيط بقـدر ما هي مرتبطة بالقرب من مناطق سكنى العامة، ولا أدل على ذلـك من وجود بعض النماذج من المدن التي لم ينشأ مسجدها الجامع في الوسط كسامراء التي انشىء مسجدها الجامع في القطاع الشمالي من المدينة قريبا من سكنى العامة والاسواق، وبينما خُصص القطاعان الأوسط والجنوبي لخطط القواد والاجناد، وكذلك انشىء «الجامع الازهر» في القاهرة في قطاعها الجنوبي قريبا من مناطق «سكنى العامة» جنوبها. أما وسطية الاكربول في المدينة اليونانية فمرتبطة أصلا بظروف المدينة اليونانية ونشأتها ومراحل تكوينها، فقد بنى الاكربول في أعلى مكان ليلجأ إليه الشعب عند الخطر من سفوح الجبال، وارتباطا بطبوغـرافية المـدن الاغريقيـة ومظاهر السطح فيها، حيث تتخللها الجبال والتلال. كانت السكنى على سفوحها

وعند اقدامها، ومن هنا كانت حتمية وقوع الاكربول في الوسط في موضع مرتفع، وتكررت الظاهرة عند الرومان الذين اختاروا للكابيتول موضعا مرتفعا على هضبة أو قاعدة صناعية مرتفعة، وارتبط ذلك باعتقاد خاص عند الرومان يرى حماية المدينة من أعلى عن طريق «جوبيتر» وجونون ومنيرفا(٩). ويُمكّن هذا أيضا ضيوف الالهة من أن يطلوا على أكبر مساحة ممكنة من المدينة، وفي العصر المسيحي انشئت الكنائس في مواضع هذه المعابد تأكيدا لشعار الدولة وسيادة المسيحية كدين رسمي لها، وهي المواضع نفسها التي اختيرت لتكون بها المساجد الجامعة في المدن التي فتحها الاسلام، لتكون قريبة من كل موضع في المدينة، وتؤكد على الصفة الاسلامية للحكم الجديد.

وانعكست الرؤية الفقهية لشروط الصلاة الجامعة على المسجد الجامع انعكاسا واضحا، بل إنها امتدت لتحديد حدود المدينة ذاتها، وتحديد وظيفة المنشآت الدينية الأخرى، فقد كان لاحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المتصلة بالمراكز الحضارية التي تقام فيها الصلوات الجامعية - والتي تخلص إلى عدم اقامة الصلوات الجامعة إلا في «مصر جامع أو مدينة عظيمة» - أثر كبير على عدم اقامة اكثر من مسجد جامع في المدينة الواحدة، تقام فيه الصلوات الجامعة، ويسمح فقط بانشاء مساجد فقط لاقامة الصلوات الخمس في خطط المدينة، وهي التي سماها القلقشندي «مساجد الخمسة» تمييزا لها عن المسجد الجامع الذي يتجه إليه جميع المصلين في المدينة لاداء الصلاة الجامعة. وكان لسنة الرسول في أداء صلاة العيد في الفضاء خارج المسجد الجامع أثر في ظهور النوعية الثالثة من المساجد التي تقام فيها هذه الصلاة، ومن ثم اطلق عليها «مصلى العيد» التي كانت تنشأ غالبا خارج أسوار المدينة حيث تتوفر المساحة. وهكذا توزعت «المساجد» على مخطط المدينة توزيعا مرتبطا بوظائف كل منها، وبمظاهر الارتفاق بها، فالمسجد الجامع في الوسط، ومساجد الخمسة في الخطط المختلفة، ومصلى العيد خارج اسوار المدينة، وانعكس ذلك على تخطيط الشوارع والطرق المؤدية إليها بحيث يسهل الارتفاق بها.

ومع نمو المدينة وتزايد سكانها صارت الحاجة ملحة إلى توسعة المسجد الجامع، من فترة إلى أخرى، ليتسع لهذه الاعداد النامية من المصلين، وأصبحت ظاهرة توسيع المسجد الجامع ظاهرة عامة في تاريخ الكثير من المساجد الجامعة في المدينةالاسلامية كالمسجد الجامع في البصرة والكوفة وبغداد وسامراء وقرطبة وغيرها. ويؤكد ذلك استمرار هذه الظاهرة في الحرم المكي، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة حتى وقتنا الحاضر لاستمرار زيادة أعداد المسلمين الذين يأتون من بقاع العالم الاسلامي للحج أو العمرة أو الزيارة والصلاة في كل منهما.

ومع اتساع رقعة العمران في المدينة اتساعا كبيرا ممتدا في أرباض عديدة اتخذت هذه الارباض هيئة «المدينة الأم»، وأنشىء فيها من المساجد الجامعة ما يتسع للمصلين بعدما وجد الفقهاء لذلك من المبررات ما يجعل انشاء مثل هذه المساجد الجامعة مقبولا من وجهة النظر الفقهية، ويعكس هذا التوجه الصورة التي كان عليها تخطيط الارباض التي تمثل الامتدادات العمرانية في المدينة الاسلامية، وأحيانا ارتبط انشاء المساجد الجامعة بالارباض الناشئة عن اعتبارات أخرى، وكانت بداية ذلك عندما انشأ الخليفة المنصور «الكرخ»، وجعل فيه مسجدا جامعا سنة ١٥٧هـ ليتجنب بذلك دخول التجار إلى مدينته للصلاة في جامعها، وكان مبرره في ذلك انه جعل قناة الصراة حدا لمدينته، فأصبح الكرخ بذلك كما لو كان مدينة أخرى، يمكن أن تتضمن مسجدا جامعا. وكرر الحديث نفسه بعد ذلك بعامين فقط سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٥م، عندما شيد في الرصافة مسجدا جامعا آخر، وهذا يعني أن بغداد المشتملة على الكرخ والرصافة كان فيها ثلاثة مساجد جامعة من منظور أنها تشتمل على ثلاث مناطق لكل منها حدودها التي تكسبها هيئة المدينة، وان هذا التخطيط كان مرتبطا بأهداف معينة قصدها المنصور من انشاء الكرخ والرصافة، وكان لانشاء أكثر من مسجد جامع في المدينة الواحدة أثر في اعتبار المسجد الجامع مؤسسة دينية في المقام الأول، ولم يعد ينظر إليه باعتباره مؤسسة ادارية حكومية مدنية كما كان قبل ذلك(١٠). ومع تطور عمران المدينة في

عهد المأمون تلاشت هذه الأهداف وأصبح ببغداد مسجد جامع واحد.

ومع امتداد عمران المدينة الاسلامية، وكثافة سكانها بمرور الزمن، باتت الحاجة ملحة إلى عدد أكبر من المساجد الجامعة، واستنادا إلى فتوى الفقهاء بجواز تعدد الخطبة للحاجة، وصحة صلاة الجمعة بعدد من المصلين يصل إلى أربعين بدأت ظاهرة تعدد المساجد الجامعة بالمدينة الاسلامية في الانتشار منذ القرن السابع الهجرى. ويذكر السبكي أن هذا «حصل في الشام ومصر منذ مدة قريبة، ولم يكن في القاهرة إلا خطبة واحدة حتى حصلت الثانية من زمن الملك الظاهر، مع امتناع قاضي القضاة تاج الدين من احداثها، وأكثر ما في الشام من التعدد حادث، ثم قال: إن دمشق - سلمها الله - من فتوح عمر إلى اليوم «وهو شهر رمضان سنة ٧٥٦هـ لم يكن في داخل سورها إلا جمعة واحدة، وقد اقيمت في عهده رحمه الله خارج السور في ثلاثة جوامع، جامع خليجان خارج الباب الشرقي، وكان يخطب فيه شمس الدين ابن القيم والآن درس هذا الجامع، ولم يبق منه إلا بابه ونافذتان مسدودتان، وجامع يلبغا وجامع تنكز (المعروف الآن بالمكتب الاعدادي العسكري) وقد اعتبر محلاتها كقرى، لأن كل واحد ينفصل عن الآخر. (١١)

وبعد ذلك انتشرت ظاهرة انشاء المساجد الجامعة في المدينة الاسلامية، بل إن مساجد الخمسة والمدارس التي كانت تشتمل على مساجد، وكذلك الخانقات والزوايا حولت الكثير منها إلى مساجد جامعة باضافة منبر وتعيين خطيب. وتعتبر القاهرة من المدن الاسلامية التي انتشرت فيها هذه الظاهرة انتشارا واضحا في عصر المماليك، وتبع ذلك ضمور تأثير المسجد الجامع في تخطيط شوارع المدينة.

دار الإمارة والمسجد الجامع

أوجبت الضرورة الوظيفية مجاورة دار الإمارة للمسجد الجامع. وكان بناء الرسول «صلى الله عليه وسلم» منزله ملاصقا للمسجد الجامع المثال الأول الذي

اتبع في انشاء دار الإمارة مجاورة للمسجد في المدن الناشئة(١٢) والمفتوحة على حد سواء. وحدث تطور آخر أدى إلى التصاق دار الإمارة بالمسجد الجامع، ويقال إن هذا التلاصق ارتبط بحادثتين تاريخيتين: الأولى وقعت في الكوفة سنة ١٧هـ حين كان سعد بن أبي وقاص واليا عليها من قبل عمر بن الخطاب، إذ كان سعد يسكن دارا بينها وبين المسجد طريق، فتسلل أحد اللصوص إلى هذه الدار بعد أن ثقب جدارها، واستطاع أن يسرق المال المحفوظ في بيت مال المسلمين، وشكا سعد للخليفة فأمره أن يجعل حائط القبلة ملاصقا للدار التي يسكنها(١٣). أما الحادثة الثانية فقد وقعت بالبصرة سنة ٤٤هـ حين كان زياد بن ابيه واليا عليها من قبل معاوية بن ابي سفيان، إذ رأى زياد عندما كان يقوم بتحديد المسجد أنه ينبغي ألا يمر بين المصلين عند توجهه إلى المحراب، فحول دار الإمارة إلى قبلة المسجد ليستطيع الوالي أن يخرج منها إلى الباب في جدار القبلة مباشرة(١٤). وأصبحت هذه الظاهرة تقليدا معماريا في قصور الخلفاء ودور الإمارة في المدن المختلفة تحقيقا للغرض الذي هدف إليه زياد، وهو ألا يتخطى الخليفة أو الوالي رقاب المصلين بل ينفذ مباشرة من جدار القبلة. وفي ذلك ما يؤكد على الحرص الشديد على تنفيذ ما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. عن عبدالله بن بشر قال: رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجلس فقد آذيت». رواه أبو داود والنسائي وأحمد زاد «وأنيت». وعن أرقم بن أبي الأرقم المخزومي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الذي يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين الاثنين بعد خروج الامام كالجاز تصبه في النار» رواه أحمد(١٥).

واستتبع تأمين دار الاماراة عزلتها عن مساكن العامة والأسواق التي جرت العادة على انشائها قريبا من المسجد الجامع. وبدأ الحجاج ذلك في واسط عندما ربط بين القصر والجامع وأطراف المدينة بشوارع رئيسة أربعة، وهو اتجاه برز جلية في بغداد أيضا عندما اقتصرت المنطقة المركزية على المسجد الجامع وقصر الخلافة والدواوين(١٦) وأحاط بها سورا ليعزلها عن المناطق السكنية خارجها، وكان

يربطها بأبواب المدينة الخارجية أربعة طرق رئيسة تصب فيها الطرق الدائرية للمناطق السكنية. (١٧).

وفي المدن التي انفصل فيها المسجد الجامع عن القصر أو دار الامارة ربطت بينهما شوارع متسعة تتسع لمواكب الخلفاء والولاة أثناء خروجهم إلى الصلاة، كما كان في سامراء عندما جعل الخليفة الشارع إلى المسجد الجامع متسعا سهل المرور لا يضيق عليه في الجمع إذا حضر وجموعه بخيله ورجله». وما كان في القطائع حيث ذكر المقريزي: أن من أبواب الميدان والقصر لابن طولون باب الصلاة، وكان على الشارع الذي يصل القصر بالجامع(١٨). وكذلك كان في القاهرة حيث كان الجامع الأزهر جنوبي القصر يخرج إليه الخليفة في موكب رائع، وكانت القاهرة كلها مخططة على الرسم الملكي الذي يفي بالمراسم المختلفة التي اتسم بها الفاطميون.

ودعت الحاجة الأمنية إلى ربط المسجد الجامع بالقصر، أو دار الامارة، عن طريق «ساباط» يؤدى بالخليفة أو الوالي إلى المقصورة مباشرة، دون تخطي رقاب المصلين، كما كان في قرطبة واشبيلية، أو إلى الموضع الذي يختاره الحاكم للصلاة فيه خلف الخطيب الذي ينيبه في الأمانة كما كان في «الدرعية».

وجرت العادة على أن يتخذ القضاة من المسجد الجامع مجلسا للحكم، وتلا ذلك توجيه للقاضي بأن يجلس للحكم في موضع واسع في وسط المدينة، ولا يكون في المسجد، لأنه ربما دخل عليه الرجل الجنب والمرأة الحائض أو الذمى أو الصبي أو الحافي، ومن لا يتحرز من النجاسات، فيؤذون المسجد ويوسخون الحصر، وقد ترتفع الأصوات ويحدث اللغط فيه عند ازدحام الناس ومنازعتهم للخصوم، وكل ذلك ورد الشرع بالنهي عنه»(١٩). وقوبل هذا التوجيه بامكان اتخاذ المسجد الجامع مقرا للقاضي ليصل إليه أهل البلد والغريب بسهولة، مع اتخاذ الاجراءات التي تجنب الجامع ما قد يؤذيه من المخالفات، التي أشار إليها ابن الأخوة، ولاسيما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يفصل بين الخصوم في

المسجد، وكذلك كان الخلفاء الراشدون(٢٠) وسواء كان مقر القاضي بالمسجد الجامع، أو بمكان آخر بوسط المدينة يتعرف عليه بسهولة، فكلا الأمرين يشير إلى أن تحديد موضع القضاء كان في وسط المدينة، ومارس الخلفاء والحكام النظر في المظالم أيضا في أيام محددة وحددت مواضع للحكم في القصر، كسقيفة المظالم بالقصر الفاطمي(٢١) ودار العدل بقلعة القاهرة.

مما سبق يتضح التركيز على وضع المسجد الجامع وقصر الحكم أو دار الامارة والدواوين ومركز القضاء في قلب المدينة باعتبار أنها جميعا تمثل مركز الادارة في المدينة سواء أكانت المدينة قائمة بذاتها، أم كانت (قاعدة اقليم معين، أم عاصمة الدولة)(٢٢). وهو اتجاه يبرز أهمية المدينة الادارية من جهة، ويؤكد على أن المدينة الإسلامية كان لها جهازها الاداري الذي يشرف على جميع شؤونها كالوالي والقاضي والمحتسب وصاحب الشرطة، وما يتبع هؤلاء من موظفين في مستويات مختلفة في هيئة مؤسسات رسمية حكومية كفلت ادارة المدينة بمنظور إسلامي واضح(٢٣)، وبالاضافة إلى المساجد الجامعة انشئت المساجد في خطط المدينة المختلفة لخدمة هذه الخطط، وتعددت أمثلتها في الخطة الواحدة وارتبطت كثرة انشائها بعوامل دينية واقتصادية واجتماعية مختلفة.

وكان مصلى العيد من بين هذه المنشآت الدينية العامة، وغالبا ما انشىء خارج أسوار المدينة، لاتساع مساحتها، واقتصار استخدامها على صلاة العيدين، واختيرت لها مواضع مناسبة ارتبطت بتخطيط المدينة وشوارعها وابوابها.

المــــــدارس

مع نهاية القرن الخامس الهجري ظهرت إلى حيز الوجود في المدينة الإسلامية منشآت دينية أخرى، ارتبط ظهورها وانتشارها بأحداث العالم الإسلامي في ذلك الوقت، «كالمدارس» التي بدأ انشاؤها في مدن شرق العالم الاسلامي على يد فقهاء السنة، وتبنتها الدولة وأصبحت مؤسسات رسمية عنيت بانشائها لتخريج أجيال من المتفقهين بالمذهب السني، تتحمل مسؤولية مقاومة التيار الشيعي الذي

وصل إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية السنية ذاتها، وتغذى الجهاز الاداري للدولة بما يحتاج إليه من موظفين في دواوينهاالمختلفة، واهتم السلاجقة والأتابكة والايوبيون بانشاء هذه المدارس ووقف الاوقاف عليها، وتبعهم المماليك الذين اكثروا بصفة عامة من انشاء المنشآت الدينية، ومن بينها المدارس التي وصلت إلى أرقى مستوى من التنظيم والادارة، والمستوى العلمي الذي ينعكس بصورة جلية في الموسوعات العلمية والتاريخية والمخطوطات الأخرى التي تزخر بها المتاحف والمكتبات العالمية، وأرست هذه المدارس نظام وتقاليد علمية راسخة(٢٤) تأثرت بها واتبعتها الجامعات الأوروبية، ومازالت مستمرة حتى الآن. (٢٥).

وساعد نظام الوقف مساعدة بالغة على انشاء هذه المنشآت باعتبارها منشآت موقوفة، وعلى استمرارها في اداء وظيفتها باستمرار الاوقاف الموقوفة عليها؛ من اراضٍ وعقار كانت في الغالب منشآت مدنية كالمقصورات والوكالات والرباع والخانات والحوانيت وغيرها من «المسقفات» التي كان يهتم بعمارتها ليستمر توارد ريعها للصرف منه على المنشآت الدينية الموقوفة، واهتم ايضا باستغلال فائض الريع في شراء وانشاء مبانٍ أخرى تزيد الاوقاف وتُنميها. كل ذلك انعكس بصورة أو بأخرى على المظهر المادي للمدينة الإسلامية من عصر السلاجقة حتى العصر العثماني.

منشآت التصوف:

وكانت منشآت التصوف من خانقات وزوايا وأربطة أيضا من نوعيات المنشآت الدينية التي تلازم ظهورها مع ظهور المدارس. وقد مر التصوف الاسلامي بمراحل تطور مختلفة بدأت من مظهر الزهد والتقشف في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين إلى مظهر ترك الحياة الدنيا والتفرغ للعبادة الفردية في العصر الأموي،وهو مظهر زاد من حدته الغبن والجور اللذين أصابا كثيرا من العامة نتيجة تحول الخلافة إلى ملك عضوض في هذا العصر، واستغلال الثروة والمال من جانب الخلفاء في مظاهر الترف والرفاهية على حساب

الفئات البسيطة من المجتمع. واشتد هذا التيار قوة في عهد العباسيين وبدأت ظاهرة التعدد والتنظيم الجماعي لفئات المتصوفة، ودخلت الدولة في صراع معهم تحت تحريض الفقهاء، وقوّى ذلك من عزم هذه الفئات وساعد على تبلور نظامها، وعلى انتشار أفكارها، وازدياد أعداد المتصوفة، ومع كثرة اعدادهم وتبلور نظامهم، واستقرار قواعد ومناهج التصوف كانت مهادنة الدولة إياهم والاعتراف بهم. فأنشئت لهم مبانٍ خاصة بهم، يختلون فيها للعبادة ويقيمون فيها إقامة تامة اطلق عليها «الخانقات». بدأ انشاؤها في نهاية القرن الخامس الهجري، ووقفت الاوقاف الكثيرة عليها، وبدأ الاتجاه السياسي في اعتمادها أداة من ادوات نشر المذهب السني، مما ساعد على انتشارها. فقد ادخلها صلاح الدين الى مصر بعد القضاء على الفاطميين لتدعيم نشر المذهب السني، واعتمد انشاؤها على المماليك، وتطورت تطورا كبيرا في عهدهم حيث حدث التقارب بين الفقهاء والمتصوفة في هذا العصر، واصبح هناك مايسمى «الطالب المتصوف» و«المتصوف الطالب» فأدت المدرسة وظيفة الخانقاة وأدت الخانقاة وظيفة المدرسة.

وظهرت طرائق ومناهج مختلفة في التصوف لكل منها شيوخه، وانتشرت هذه الطرائق في البلاد الإسلامية كالرفاعية والنقشبندية والكيلانية وغيرها، فأنشئت لها زواياها الخاصة بها، وأصبحت الزوايا أيضا من مباني المتصوفة التي انتشرت بجانب الخانقات.

ومع شيوع وانتشار التصوف الذي خالطته الاغراض المادية انشئت «الرُبُط» كمبان للمتصوفة الذين يريدون أن يقضوا بقية حياتهم متفرغين للعبادة والصلاة دون أن يرتقوا في درجات التصوف المختلفة التي كانت في الخانقات والزوايا، أي أنها كانت بمثابة «الملاجيء» التي يأوي إليها العجزة و «البطالون» الذين ليس لهم دخل يعيشون منه حياة راضية متفرغين للعبادة.

ودخلت في عالم التصوف شوائب كثيرة، وأصبحت الحياة في مباني التصوف مدعاة إلى التواكل والكسل لما يجده الناس في داخلها من موارد الحياة الرغدة المريحة

المعتمدة على الأوقاف الموقوفة على هذه المباني، فكانت المطامع المادية في كسب هذه الحياة بعيدا عن حياة البؤس والفقر التي تعيشهاطبقات العامة، فدخل في هذا المجال من هم ليسوا اهلا له، ففسد مظهر التصوف وانتقد اهله، وحدث ذلك في عصر المماليك الجراكسة، والعصر العثماني الذي فسدت احوال المتصوفة فيه فسادا واضحا، فانْتُقدت التكايا التي هي مباني المتصوفة واهلها في ذلك العصر.

مما سبق يتضح أن المدارس ومنشآت التصوف اصبحت من التكوينات المعمارية الدينية في المدينة الاسلامية، وزادت أعداد هذه المنشآت زيادة واضحة ولاسيما أنها كانت بالاضافة إلى وظائفها الاساسية تستخدم كمساجد أو مساجد جامعة.

وقد كثر الاتجاه إلى انشاء هذه المنشآت الدينية خصوصا لان الدين يدعو الى الاهتمام بعمارتها وانشائها، كما أن هناك من العوامل الأخرى السياسية والاجتماعية والاقتصادية مادفع إلى الاكثار من انشائها ووقف الاوقاف عليها(٢٦)، فشكلت نصيبا كبيرا من التكوينات المعمارية للمدينةالإسلامية تدل عليه بعض الاحصاءات التي ترد في المصادر التاريخية، فيسجل ابن حوقل الموصلي- مثلا- مشاهداته في بالرمو بجزيرة صقلية التي خضعت للفاطميين، ويقول: «رأيت فيها من المساجد مارأيت في شيءمن البلاد، حتى رايت على مقدار غلوة سهم اكثر من عشرة مساجد ورأيت بعضها تجاهبعض»(٢٧). وفي قرطبةيذكر المؤرخون أن فيها«من المساجد ثلاثة عشر ألف وثمانمائة مسجد ونيفا وسبعين، وكان بربض شقندة ثمانمائة مسجد»(٢٨). ويشير ليو الافريقي « إلى أنه كان بفاس» قرابةسبعمائة جامع ومسجد، والمساجد عبارة عن ابنية صغيرة للصلاة، ويوجد بين هذه الجوامع خمسون كبيرة جميلة البنيان»(٢٩) ويدخل في هذه الاحصاءات المساجد التي كانت في المنازل والملحقة بالمنشآت التجارية كالوكالات والمقصورات وغيرها والمساجد الصغيرة، والمساجد الجامعة، ومساجد المدارس ومنشآت التصوف. ويؤكد الواقع الاثرى لما بقي من مساجد بعض المدن

الاسلامية هذه الكثرة، فشارع المعز لدين الله في القاهرة الفاطمية، ومايصطف على جانبيه من منشآت دينية مثال جيد على هذه الكثافة في القاهرة، وكذلك كان الحال في غيرها من المدن الاسلامية التي تحتفظ بالعديد من مساجدها الاثرية كإسطنبول وغيرها.

وقد ساهمت هذه المنشآت بما تشتمل عليه من وحدات معمارية أخرى- تستخدم كمرافق عامة كالميضآت والأسبلة والكتاتيب والمكتبات ووحدات سكنية- في توفير خدمات عامة للقاطنين في المدينة الاسلامية والواردين اليها.

وكان لكل منشأة من هذه المنشآت جهازها الاداري المستقل المسؤول عن ادارتها ورعاية أمورها؛ سواء أكان جباية ريع أوقافها وصرفه حسب ماتحدده وثيقة الوقف أم مباشرة مايتعلق بأداء وظائفها من صلاة وتدريس وتصوف. وكفلت الدولة بسلطاتها القضائية والتنفيذية رعاية هذه المنشآت من خلال ديوان الاوقاف الذي يختص بشؤونها ورعاية مصالحها، فاستمرت في أداء وظيفتها وشاركت مشاركة قوية في بناء حياة المجتمع وحضارته.

ولما كانت الوظيفة التي يؤديها المبنى الديني تقوم أساسا على نص الوقف الذي يحدده منشئوه، ولما كان المبنى الديني يستطيع أن يؤدي وظيفة الصلاة والتدريس والتصوف فلم يعد مستغربا أن نجد جامعا يؤدي وظيفة الخانقاة بجانب وظيفته الاصلية من كونه جامعا، أو أن نجد بعض الجوامع وقفها أصحابها لتؤدي وظيفة المدرسة والخانقاة بجانب وظيفتها الاساسية، وهناك العديد من المدارس التي كانت تؤدي وظيفة الخانقاة بجانب وظيفتها الاصلية من كونها مدارس، وتؤدي وظيفة الجوامع أيضا(٣٠). وما تجب الإشارة اليه هو أن الحاكم كان هو المسؤول الأول عن الحكم بصحة المسجد الجامع للصلاة عند افتتاحه، وقد يتقدم لإقامة أول صلاة فيه(٣١) باعتبار ولايته الدينية. وكان وقف المبنى جامعا يعني أن بانيه أصبح حقه فيه كحق أي واحد من المسلمين، بعدما اصبح بيتا لله بنص الوقف، ويختلف الامر بالنسبة للمُنشآت التي توقف مدارس أو خانقات أو غير ذلك،

حيث يُبقى نص الوقف لصاحبها اشتراط مايراه من شروط تختص بنظام الارتفاق بالمبنى. (٣٢)

مما سبق يتضح أن المنشآت الدينية الإسلامية كان منها ماهو عام الارتفاق لكل المسلمين في المدينة الاسلامية كالمساجد والمساجد الجامعة، ومصلى العيد، ومنها ماكان عام الارتفاق في حدود شروط الوقف التي ربما تحدد نظاما للارتفاق كالمدارس و الخانقات والزوايا والرُبط والمشاهد وغيرها. كما يتضح أن من هذه المنشآت ما ينشأ بمعرفة سلطات المدينة الرسمية، ومنها مايتولى العامة انشاءه، ووقف الاوقاف عليه ليستمر في اداء وظائفه تحت رعاية السلطة ممثلة في ديوان الأوقاف. وفي ذلك مايدل على الجهود المتكاملة بين السلطة والعامة في انشاء هذه النوعية من المنشآت العامة.

الحمامات العامة:

وهناك من المنشآت المدنية ما أنشيء لخدمة العامة من سكان المدينة الاسلامية كالحمامات العامة التي كثر انشاؤها في المدينة الاسلامية لحاجات وظيفية مرتبطة بدعوة الاسلام للنظافة والتطهر، وبعدم قدرة العامة جميعا على تضمين منازلهم حمامات خاصة، وبرغبة القادرين على انشاء هذه الحمامات في استثمار اموالهم في إنشائها لما تدره من ريع وفير لشدة الطلب عليها. ومن هنا كثرت الحمامات العامة في المدينة الاسلامية كثرة واضحة، ونظمت سلطات المدينة انشاءها ومايتصل بذلك من تزويدها بمصادر الماء وقنوات الصرف، ومايصدر عن بنائها من دخان تحكم أحيانا في تحديد مواضعها ووحداتها.

واشتمل الحمام، معماريا في الغالب، على مدخل صغير يؤدي الى ممر منكسر ينتهي الى المشلح الذي يشتمل على مواضع لخلع الملابس وحفظها، وبه مجلس «معلم» الحمام الذي يأخذ الاجور ويشرف على العمل بالحمام، ويتصل المشلح بالحجرة الاولى من الحمام وهي التي تسمى الحجرة الباردة أو «بيت أول»، وهي مزودة بأحواض الماء أو الهواء الساخن المار عبر أنابيب فخارية بحوائط القاعةآتية

من جهة «المستوقد»، وتتصل هـذه الحجرة بحجـرة ثالثـة هي بيت الحرارة أو «الحجرة الساخنة»، وهي مزودة «بمغطس» يبلغ فيه الماء الساخن أقصى درجـة حرارة يتحملها الجسم، وارضيات الحجرات مفروشة بالرخام ليسهل تنظيمها، كما أن حجراته معقودة سقفها بقباب بها فتحات تغشيها قطع الزجاج التي تسمح بمرور الضوء دون الهواء، فتوفر الاضاءة الطبيعية من خلالها دون السماح بمرور الهواء. وغالبا مايستخدم في بناء الحمامات الآجر والحجر والرخام، وهي مواد تتحمل الماء، فيتناسب التخطيط مع مواد البناء في أداء وظيفة الحمام التي تعتمد على الماء. وخلف الحمام يوجد «المستوقد» الذي يتم فيه تسخين الماء في قدور نحاسية كبيرة، ويمر الماء والبخار عبر أنابيب فخارية لوحدات الحمام المختلفة، وغالبا مايكون للمستوقد باب خلفي لتزويده بالوقود من حطب وازبال وغيرها.

وحرص في تصميم الحمامات الاسلامية على طهارة الماء مما استوجب تصميم أحواض الماء وقنواته بطريقة معينة تكفل ذلك. كما نـظمت الاحكام الفقهيـة الاسلامية العمل داخل هذه الحمامات، وخضعت لإشراف المحتسب خضوعا مباشرا يكفل استمرار عملها وفق القواعد والقيم الاسلامية.

وتمشيا مع هذا الاتجاه انشئت حمامات خاصة للنساء واخرى للرجال، وهناك من الحمامات ما استخدم بواسطة الرجال في أوقات محددة، وللنساء في أوقات أخرى، والحقت ببعض المجموعات المعمارية الدينية الضخمة حمامات خصصت لخدمة اهلها، بالاضافة الى خدمة العامة، كحمـام شيخو وحمـام المؤيد شيـخ بالقاهرة. ومن طريف ما يذكر أنه كان يصرف للطلاب في بعض المنشآت الدينية التي لاتشتمل على حمامات مخصصات شهرية للاستحمام بالحمامات العامة(٣٣)، مما يؤكد على أن الاستحمام في الحمامات العامة كان سلوكا اجتماعيا عاما جرت العادة به في المدينة الاسلامية، وكان للحمام دور واضح في الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية ومناسباتها.

وكثرت الحمامات كثرة بالغة ارتبطت بالحاجة اليها والرغبة في انشائها لما تدره من ريع وفير فمع نمو المدينة تزداد الحمامات التي بها، وتكشف روايات المؤرخين عن

احصاءات عديدة لهذه الحمامات توضح ذلك، فقد أحصى اليعقوبي «ت ٢٨٢ هـ» حمامات بغداد بعشرة آلاف حمام(٣٤)، واحصاها الصائبي «ت ٤٤٨ هـ» بستين ألفا(٣٥). ويكشف الفارق بين الاحصائين عن الزيادة في عددها انعكاسا في نمو المدينة في هذه الفترة.

ومن طريف مايذكر أن بعض الاحصاءات ربطت بين مواضع الحمامات واحصائها، وبين المساجد بالمدينة. فقد ذكر ابن كثير أن ببغداد ستين ألف حمام بازاء كل حمام خمسة مساجد(٣٦)، واذا كانت احصاءات الحمامات في كثير من الروايات التاريخية تبدو عليها مسحة المبالغة، فانها بالرغم من ذلك تدل على أن الحمامات العامة كانت من المنشآت البارزة بين التكوينات المعمارية للمدينة وتكشف عن ذلك بقايا هذه الحمامات في بعض المدن الاسلامية كالقاهرة وفاس وقرطبة وغيرها، وماورد في وثائق الوقف من اوصاف لهذه الحمامات باعتبارها من المنشآت الموقوفة على المباني الدينية.

وجدير بالذكر أن الحمام في المدينة كان من بين التكوينات المعمارية التي تعددت الاراء بشأن أصلها، واختلفت هذه الآراء اختلافا يوضح أثر منهج البحث الذي تناولها، فيرى «بلانهول» أن الحمام في المدينة الاسلامية هو الثرما Therma، أي الحمام اليوناني القديم(٣٧). ويخالفه في ذلك جرنباوم حيث يعتقد أن الحمام الاسلامي لايمكن أن يكون وريث الحمام اليوناني(٣٨)، بينما يرى «بلباس» أن الحمامات الاسلامية مشتقة من الحمامات الرومانية التي أثرت في المسلمين مباشرة، أو من طريق الحمامات البيزنطية أو السورية في القرون الاولى للميلاد التي كانت بهيئة أبسط لانها انشئت لاناس ليست لهم أهمية اجتماعية. (٣٩) واذا كانت الحمامات الاسلامية قد استفادت من الاشكال المعمارية للحمامات السابقة عليها فإن الصياغة المعمارية للحمام الاسلامي كانت وفق القيم الاسلامية ولاسيما فيما يتعلق بطهارة الماء، وتحقيق الفائدة العملية من انشائها في سبيل خدمة العامة، مما اكسب انشاءها مظهرا معماريا مختلفا تنوع بتنوع القدرةعلى انشائها وظروف المساحة المتوفرة. ومن طريف

مايذكر أنه كان بالفسطاط حمام صغير جدا يدعى «حمام الفأر»(٤٠) كناية عن صغر حجمه، ويكشف هذا عن أن هناك حمامات لم تكن بنفس التخطيط التقليدي المشتمل على حجرات ثلاث للاستحمام بالاضافة الى المستوقد والمشلح. وقد كُشف في مدينة الفسطاط في القطاع الجنوبي عن حمام صغير(٤١) يؤكد وجود حمامات بتخطيطات مختلفة تناسب المساحة المحدودة. وإذا ماربطنا بين احصاءات المصادر وما ورد من اوصاف لبعض الحمامات في الوثائق، وبين المساحة التي امتد عليها عمران المدينة اتضح أن هناك تنوعا في احجام الحمامات أثر في هيئة تخطيطها، وماتشتمل عليه من وحدات مما يعكس حرية التخطيط وتنوع الصيغ المعمارية بعيدا عن جمود النمطية في الحمامات اليونانية والرومانية، وهي الحرية التي اتضحت في جوانب التخطيط الاخرى للمدينة الاسلامية، انعكاسا على حرية الفرد في استغلال الملكية وفق المنهج الاسلامي.

البيمارستانات:

وتعتبر «البيمارستانات»(٤٢) أيضا من المنشآت التي انشئت لتوفر الخدمات العلاجية والطبية للعامة، وواكب انشاء البيمارستانات النمو العمراني للمدينة الاسلامية. وكان الوليد بن عبدالملك أول من أنشأ البيمارستان في الاسلام(٤٣)، وكان ذلك في سنة ٨٨ هـ، كما اهتم بتخصيص مرتبات مالية للعميان والمجذومين والزمنى، وذُكر أن بيمارستان المجذومين الذي انشأه في دمشق كان يقع بالقرب من الباب الشرقي في محل يسمى اليوم بالأعاطلة(٤٣). وتتابع انشاء البيمارستانات في المدن الاسلامية، وتولى غالبا انشاءها السلاطين والامراء. وأشرفوا على بنائها ووقف الاوقاف عليها لتستمر في أداء وظائفها، ومن البيمارستانات التي تعكس هذا المستوى الحضاري المتقدم بيمارستان «أحمد ابن طولون في القطائع» الذي أشترط فيه الا يعالج فيه جندي ولامملوك(٤٥) لاتاحة الفرصة لعامة غير القادرين على نفقات العلاج، ومنها البيمارستان القلاووني الذي أنشأه السلطان قلاوون، وكان سبب انشائه هو زيارته وهو أمير لبيمارستان نور الدين بدمشق لما اصابه من مرض، فأعجب به ونذر إن آتاه الله الملك ليبنين

بيمارستان، فلما تولى السلطة بنى هذا البيمارستان وقال حين وقفه: وقفت هذا على مثلي ومن دوني وجعلته وقفا على الملك والمملوك والجندي والامير والكبير والصغير والحر والعبد الذكور والاناث». ويشير نص الوقف على أن البيمارستان وقف لخدمة جميع فئات المجتمع واصبح بعد وقفه مرفقا عاما.

واشتمل البيمارستان على اقسام العلاج المتنوعة فكان فيه قاعة لمرضى الحميات، وأخرى للرمد، وثالثة للجراحة، ورابعة لمن به اسهال، وكان فيه قاعة ومكان للمبرودين ينقسم الى قسمين، قسم للرجال وآخر للنساء، وزود بمطبخ لتجهيز طعام المرضى، وكان فيه موضع للأدوية والاشربة، ومكان لترتيب المعاجين والاكحال وغيرها. وبلغ التكامل ذروته عندما قرر به مكانا لتدريس الطب. (٤٦).

ونظرا لتكاليف الانشاء الضخمة والمصاريف الكثيرة للبيمارستانات فقد اختصت القدرة على انشائها بالسلاطين والحكام، وكان الدافع وراء انشائها خيريا في المقام الاول، وقد بقيت آثار بعض هذه البيمارستانات في بعض المدن الاسلامية كبيمارستان «فوجي» في آسيا الصغرى الذي بناه أحمد شاه، ويعتبر من اروع البيمارستانات القائمة في المدن الاسلامية وأقدمها. فقد بني في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي(٤٧). ودرس الكثير منها بسبب ضياع اوقافها كما حدث في بيمارستانات فاس، فقد ذكر ليو الافريقي أنه كان فيها «بيمارستانات عديدة. وكان الغرباء قديما يعطون السكن بها لمدة ثلاثة أيام، ويوجد عدد كبير من البيمارستانات خارج أبواب المدينة تقل جمالا عن التي في داخلها، وكانت هذه البيمارستانات غنية جدا إلا أنه في أيام حرب «سعيد» عندما كان السلطان في أشد الحاجة الى المال أشاروا عليه ببيع ايراداتها واملاكها، ولما رفض السكان بيعها تقدم أحد وكلاء الملك وافتاه بأن هذه البيمارستانات انما اسست بفضل الصدقات التي قدمها اسلاف الملك الحالي الذي يوشك أن يفقد مملكته، فيستحسن والحالة هذه بيع تلك الاملاك لصد العدو والمشترك، حتى اذا وضعت الحرب اوزارها سهل شراؤها من جديد، وبقيت البيمارستانات فقيرة

محرومة تقريبا من وسائل العمل، ومع ذلك فانها تستضيف اليوم بعض الفقهاء والغرباء واشراف المدينة حفاظا على الغرف لتبقى في حالة جيدة، وليس لمرضى الغرباء في ايامنا هذه غير بيمارستان واحد لاطبيب فيه ولاعلاج»(٤٨) . وقد توقف لذلك بيمارستان المؤيد شيخ عن العمل بسبب ضياع أوقافه، فحوله السلطان برسباي إلى مسجد(٤٩). ويكشف ذلك عن اهمية الاوقاف في الحفاظ على المنشآت الموقوفة سواء أكانت منشآت دينية أم خيرية كالبيمارستانات والاسبلة وأحواض الدواب، وأن كثيرا من المنشآت والمرافق العامة الموقوفة درست بسبب ضياع اوقافها. وبالرغم من ذلك فإن مابقي من اثار هذه البيمارستانات وما ورد بوثائق وقفها والمصادر التاريخية التي تتحدث عنها يكشف عن أن البيمارستانات كانت من بين المنشآت العامة التي استغلت كمرافق عامة بالمدينة، وساهمت في تأدية الخدمات لمجتمعها.

ومن هذه المنشآت أيضا «أحواض الدواب» التي انشئت كمنشآت خيرية لخدمة الدواب على طرق المدينة وعلى الطرق التي تربط بين المدن خدمة للقوافل التجارية والمسافرين المتنقلين بين هذه المدن. وتشكل الفنادق داخل المدن والخانات على الطرق الواصلة بينها منشآت ومرافق لعامة الغرباء والمسافرين اهتم بانشائها اهتماما بالغا دفعا بالعمران، ورغبة في الاستثمار. وكانت الدولة الاموية من أولى الدول الاسلامية التي اهتمت بانشاء هذه الخانات التي تمثل محطات لاستراحة القوافل والمسافرين بين المدن المختلفة، واستمرت حركة انشائها في العصور التالية، التي اهتمت بالتجارة وطرقها، وتحتفظ الطرق بين مدن آسيا الصغرى بكثير من هذه الخانات التي أنشأها سلاطين وامراء السلاجقة(٥٠)، والتي سهلت الاتصال بين المدن وأمّنت الطرق، فازدهرت الحياة الاقتصادية وانعكس ذلك انعكاسا مباشرا على عمران المدن.

مما سبق يتضح أن المنشآت العامة في المدينة الاسلامية شكلت نسبة واضحة من التكوينات المعمارية الاخرى، فاندفع عمران المدينة، بعدما شكلت موطن جذب لسكانها، لتوفر هذه الخدمات ممثلة في هذه المرافق المجسدة معماريا في هذه

المنشآت. وغالبا ماكان انشاء هذه المنشآت من منطلق على الخير والمعروف الذي تبارت فيها الطبقة الحاكمة من سلاطين وحكام وأمراء، وطبقة الاثرياء ممن يملكون القدرة على انشاء هذه المنشآت، ويقفونها ويقفون الاوقاف عليها لتستمر في أداء وظائفها، وكانت تلك الاوقاف تسجل في «ديوان الاوقاف» الذي يتولى الإشراف عليها وفق نظام الوقف وأحكامه، ويعني ذلك مسؤولية السلطة في الإشراف على هذه المنشآت من منطلق المحافظة عليها واستمرار ادائها لوظائفها، تحقيقا للغرض من وقفها وانشائها اصلا، وبذلك استمرت هذه المنشآت وكثرت كثرة واضحة في عصور ازدهار المدن التي أنشئت فيها، فساهمت في تطوير حياة مجتمعاتها تطويرا انعكست آثاره على مظاهر حياة مجتمع المدينة الاسلامية في تلك العصور.

الأســـواق

من الملامح الرئيسة للمدن أنها ذات طابع تجاري، بل إن بعض الباحثين يعزو نشأة المدن أصلا إلى أنها مراكز للتبادل التجاري كانت تنشأ عند ملتقى طرق التجارة(٥١). وتمثل الأسواق مراكز النشاط التجاري بصوره ومراحله المختلفة التي انعكست انعكاسا مباشرا على نمطية الاسواق وأنواعها. ففي الاطار الزمني وجدت الأسواق السنوية(٥٢) الموسمية كتلك التي كانت للعرب قبل الاسلام وضمرت فيما بعد، والأسواق الأسبوعية كسوق الاحد في دمشق وسوق الاثنين في «مكناس» و«القصر الكبير» ،وسوق الثلاثاء في بغداد، وسوق الاربعاء في الموصل، وسوق الخميس في فاس ومراكش(٥٣) وغيرها، وفي الاطار المكاني المحدد للمساحة والموضع وجدت الاسواق الكبيرة كتلك التي وجدت خارج المدن قريبة من ابوابها واسوارها، والتي كانت تقام أسبوعيا، وتتسع للقادمين من المتجاورات في الاقليم الذي تقع فيه المدينة، ولسكان المدينة الذين يأتون للاتجار في بضائعهم ومنتجاتهم ذات الأحمال الثقيلة والاحجام الكبيرة ينتقلون منها واليها في سهولة ويسر. والأسواق بداخل المدينة تنوعت مواضعها ومساحتها حسب نشاطها وخدماتها التي تؤديها. فمنها ماكان يخدم اهل المدينة كلها، ومنها ما

اختص بتلبية الحاجات اليومية لقطاع صغير في المدينة فصغر حجمها وتحددت وظيفتها فسميت «السويقات» نظرا لصغرها نوعا عن تلك التي تخدم المدينة كلها، أهلها والواردين اليها، وتبعثرت نوعيات معينة من الحوانيت كحوانيت الدقيق(٥٤) والخبز في شوارع المدينة، لتفى بالحاجات المستمرة من قرب.

وتأتي السوق في المرتبة الثانية للمهمة التي يقوم بها مكان التجمع ، وكانت الأسواق- إلى جانب كونها مراكز تبادل السلع- مراكز لتبادل الافكار والشائعات لما يحدث من مناقشات في أمور السياسة والاقتصاد وغيرها(٥٥) مما يبرز أهميتها كمراكز اتصال Communication - Center .

وانشاء الاسواق في المدن الاسلامية كان من محاور النهضة بعمرانها. فهو من متطلبات الجماعة الاسلامية، وهو أحد الركائز الاقتصادية لأن المدن «تتفاضل بالاسواق وكثرة الأرزاق ونفاق الاسواق من تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة»(٥٦)، ومن ثم فان الازدهار الاقتصادي ينعكس على ازدهار الاسواق وعمارتها.

ونشأة الاسواق في المدن الاسلامية ترجع إلى عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فقد انشأ سوقا للمدينة قريبة من دورها. وكانت هذه السوق بداية لتطور عمراني استمر بعد ذلك في المدن الاسلامية في عصورها المتتابعة، وكانت سوق المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عبارة عن ساحة من الارض خالية من البناء سمح لاهل المدينة باستغلالها دون دفع أي اجر، ومنع البناء فيها. وهكذا كانت أسواق «مدن الامصار» في بداية أمرها أيضا فضاء لا بناء فيه ولا سقوف سوى ظلال «بواري» من الحصير كان يضعها الباعة لتظلهم في الأماكن التي يختارونها للبيع والشراء(٥٧)، وكان نظام الأسواق على سنة المساجد. فمن سبق الى موضع فهو له حتى يفرغ منه، وقد اكد على ذلك الخليفة عمر عندما قال: «الأسواق على سنة المساجد، من سبق إلى مقعده فهو له حتى يقوم الى بيته أو يفرغ من بيعه»(٥٨).

وبدأ البناء في الأسواق على عهد معاوية بن ابي سفيان الذي بدأ بالبناء في سوق المدينة المنورة، وكان هذا البناء عبارة عن بنائين أحدهما يدعى «دار القطران» والاخر يدعى «دار النقصان»، كما انه سن تأجيرهما(٥٩). ويبدو أن بناء سوق الفسطاط كان هو النموذج التالي، ففي عهد عبد الملك بن مروان بنى عامله عليها عدة قيساريات من بينها قيسارية العسل، وقيسارية الحبال، وقيسارية الكباش، وقيسارية البز(٦٠). ويشير البكري إلى أنه كان بالقيروان سوقا مجاورة للمسجد من ناحية القبلة، وكان لهذه السوق سقف يجمع كل الحوانيت والحرف، ثم يشير إلى أن هذه السوق تعرضت للهدم والتدمير، فأمر الخليفة هشام بن عبد الملك باعادة بنائها سنة ١٠٥ هـ(٦١). ومما سبق يتضح أن بناء السوق بهذه الهيئة كان في نهاية القرن الأول الهجري ولاسيما أن بناء القيروان كان في سنة ٥٠ هـ.

وتبلورت فكرة تقليد الاسواق المغطاة في المدينة الاسلامية في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥- ١٢٥ هـ / ٧٢٤- ٧٤٣ م) الذي اهتم بانشاء الاسواق على هذه الهيئة في مدن الامصار، كما انه- كما اشرنا- اهتم بتحديد اسواق القيروان وإعادة بنائها في العام الأول من حكمه. وتشير الروايات التاريخية إلى أنه بنى بالفسطاط قيسارية كبيرة باسمه، وفي عهده كان عامله على العراق خالد القسري أول من بنى الاسواق وسقفها، وحدد موضعا لكل مجموعة من البائعين المتخصصين في تجارة معينة، واهتم كذلك بعمارة سوق «المدينة» وتطويرها، فكانت دار هشام المجاورة لمنطقة المصلى في اتجاه القبلة تمتد على طول طريق ثنية الوادي في اتجاه الشمال، ويذكر ابن زبالة أن دار هشام سدت كل البيوت والحارات في القطاع الغربي من المدينة وقد زودها بممرات تفتح على كل خطة من خطط القبائل، وأيضا على حارات وشوارع المدينة ككل. وقد ذكر أيضا أسماء بعض الحارات التي كانت تغلق بأبواب وقت الحاجة، كما أنه أشار الى شكل البناء حيث ذكر أنه كان يتكون من طابقين: الأرضي منهما استخدم كحوانيت كانت تؤجر للتجار والبائعين، والعلوي كان يؤجر للسكنى. وكرر هشام انشاء مثل هذا البناء في بقيع الزبير. وكان للحارات المؤدية اليها أبواب، كما قام بتأجيرها. (٦٢)

ويتلخص التطور الذي حدث في العصر الأموي في أمور عدة: هي بناء الأسواق وتغطيتها بهيئة معمارية معينة كفلت وجود حوانيت للتجارة، ومساكن تعلوها أجّرت للراغبين في السكن. كما أن هذا التطور أقر مبدأ تأجير البناء التجاري، واصبح من المؤسسات التي تدر على الدولة ريعا ثابتا. والمظهر الثالث من مظاهر التطور يتحدد في تبلور تصنيف التجار في مجموعات لكل مجموعة متخصصة في تجارة بعينها موضع بذاته، واتبع الشيء نفسه في أسواق المدن التي انشئت في ذلك العصر كمدينة واسط.(٦٣)

ويدخل اهتمام الأمويين بالأسواق في إطار سياسة الدولة التي وجهت إلى تعمير المدن دفعا للتطور الاقتصادي(٦٤)، والرغبة في جعل هذه المدن تعتمد على انتاجها، وتثنى جانبا الاعتماد على أموال الغنائم والخراج والجزية التي استمر ورودها نتيجة الفتوحات الاسلامية. وكان النشاط التجاري واحدا من النشاطات الاقتصادية الأخرى التي اهتم بها الأمويون، فركزوا على انشاء أسواق المدن، واهتموا بتأمين التجارة وقوافلها والعمل على راحتها، فأنشأوا الخانات على امتداد الطرق التجارية التي تربط المدن، كما اهتموا بتعريب السكة وغير ذلك من الأمور المتصلة بالاقتصاد في اطار سياسة إدارية واضحة المعالم ركزت على تعميق المفاهيم المدنية، وتكوين مفهوم الدولة لدى القبائل.(٦٥)

وتبلور نظام تخطيط الأسواق وعمارتها في العصر العباسي، وتطور تطورا واضحا بتطور عمران المدن الاسلامية بعد ذلك. فعند تخطيط بغداد كانت الأسواق من المرافق الهامة التي اهتم المنصور بتوفيرها في كل ربع من ارباع مدينته. ذكر اليعقوبي أنه حدد لكل «اصحاب ربع مايصير لكل رجل من الأذرع ولمن معه من اصحابه وما قدره للحوانيت والاسواق في كل ربض، وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت ليكون لكل ربض سوق جامعة تجمع التجارات». وسرعان ما ازدهر عمران المدينة وضاقت بأهلها، فرأى المنصور أن ينقل التجار خارجها محافظة على أمن المدينة ونظافتها وتوفير الهدوء فيها، وانشأ «الكرخ» ليضم التجار جميعا. وكان تخطيطه مثالا جيدا يعكس المستوى الذي وصل إليه تخطيط الأسواق

الاسلامية في القرن ٢ هـ / ٨ م. وتشير الرواية إلى أن المنصور عند انشاء الكرخ طلب قطعة من القماش ورسم السوق عليها، وحدد لكل اهل تجارة مكانا لهم يختصون فيه بتجارتهم، وأمر ألا تتاجر فئة فيما تتاجر فيه الفئة الاخرى. كما أنه فصل بين أهل التجارات والحرف في تصنيف أدق. فخصص لكل حرفة أيضا منطقة خاصة بها. (٦٧)

وأنشئت أسواق سامراء بالاسلوب نفسه بحيث يمكن القول إن إنشاء الاسواق المتخصصة أصبح نمطا تقليديا في المدينة الاسلامية.

مما سبق يتضح أن تطوير الأسواق في المدينة الاسلامية كان على يد الدولة سواء أكان بالانشاء الكلي للاسواق،كما حدث في الكوفة وبغداد، أم بالاضافة والتعديل والاصلاح والتطوير كما في القيروان والفسطاط وغير ذلك من المدن. (٦٨) لكن ذلك لم يمنع من أن يشارك الأفراد في انشاء الأسواق. وارتبط ذلك ارتباطا واضحا بتطوير العمران في المدينة والعوامل السياسية والاقتصادية المختلفة التي تؤثر في ذلك.

وفي الوقت الذي بدأت فيه السلطة تنظر إلى الاسواق كمصدر دخل كان لابد من وجود مؤسسة إدارية تتولى الاشراف على تنظيم السوق، وتضمن وصول الدخل، وتمثل ذلك في وظيفة المتحسب، وهي وظيفة وجدت قبل ذلك منذ عهد الرسول ممثلة في «عامل السوق»، لكن مهامها في عهد الرسول والصحابة اقتصرت على الاشراف على نوعية المبيعات، والتأكد من أن المعاملات في السوق تتم حسب المبادىء والقيم الاسلامية، وتطورت هذه الوظيفة تطورا واضحا عكسته مصادر الحسبة في التراث الاسلامي باعتبارها مؤسسة إدارية هامة في المدينة الإسلامية تعددت مهماتها.

واتخذت الاسواق والمنشآت التجارية في المدينة الاسلامية اتجاهين رئيسين من ناحية التكوين المعماري. التكوين الاول هو الذي تبلور بنائيا في العصر الأموي عندما بنيت الأسواق وكان بناؤها عبارة عن مجموعة من الحوانيت تطل على ساحة

مكشوفة في الوسط وظهرها إلى الخارج. وتعلو هذه الحوانيت وحدات سكنية كانت تؤجر لمن يرغب في السكنى في تصميم يشبه «الاجورا» في المدن اليونانية. فيذكر السمهودي في حديثه عن بناء هشام سوق المدينة المنورة انه «بنى ساحة السوق جميعها بحوانيت سفلية تعلوها بيوت أجرت لسكنى التجار»(٦٩).وبنيت سوق الكوفة بالهيئة نفسها. فيذكر البلاذري أن خالد بن عبد الله القسري بنى سوق الكوفة وكانت عبارة عن الحوانيت سقوفها آزاجا معقودة بالاجر والجص(٧٠) وصنفها حسب عروض التجارة التي تعرض فيها حيث «جعل لكل باعة دارا وطاقا». (٧١) ويبدو أن هذا النمط من البناء هو الذي كانت عليه القيساريات التي انشئت في الفسطاط في العصر الاموي، كما ان اسواق بغداد خططت فيما يبدو على هذا النمط أيضا(٧٢).

وهذا النمط من المنشآت التجارية يفي بحاجة التجار حيث يوفر لهم الحوانيت الآمنة، والمساكن التي تعلو حوانيتهم كانت متوفرة لمن يرغب في السكنى قريبا من تجارته، وخصوصا إذا كان هؤلاء التجار غرباء من بلاد أخرى. كما أنه يحفظ التجارات من الشمس والمطر، وفي الوقت نفسه يمكن انشاؤها في وسط المجموعات المعمارية السكنية دون أن تسبب أي ضرر لهذه المساكن من كشف أو تعرض لعيون الاخرين، فهي مفتوحة إلى الداخل. وتناسب هذا التخطيط مع ازدحام المدن الإسلامية وتلاصق مبانيها وضيق شوارعها الفرعية، وعدم توفر المساحات الكبيرة الخالية ـ لاعتبارات أشرنا إليها قبل ذلك ـ كما أنها تلاءمت مع طبيعة التغير المستمر في تكوينات المدينة المعمارية نتيجة تغير الحاجات وطبيعة الحياة من عصر الى آخر، حيث يمكن انشاؤها في أي قطاع من المدينة ليتناسب تخطيطها مع طبيعة الحياة في المدينة الاسلامية، والتي تحرص في المقام الأول على تحقيق الخصوصية بعيدا عن فضول الآخرين في اطار القيم الاسلامية التي تمنع كشف الحرمات.

وقد تنوعت المنشآت التي سارت على هذا النمط من التخطيط. فمنها القيساريات والوكالات والخانات والفنادق وغيرها من المنشآت. وارتبطت كثرة

هذه المنشآت في المدن الاسلامية ارتباطا وثيقا بالأوضاع الاقتصادية والسياسية لحياة المدينة، ويكفي أن نشير إلى مدى الاهتمام بهذه المنشآت وكثرتها في قاهرة المماليك انعكاسا للدور الذي لعبه المماليك في تاريخ التجارة الدولية في ذلك العصر نتيجة انقطاع طرق التجارة البرية من الشرق إلى أوروبا بسبب حروب المغول والصليبيين، واتخاذ الطرق البحرية مرورا بالبحر الأحمر ثم عبر أراضي مصر إلى البحر الأبيض المتوسط، وما تبع ذلك من سياسات اقتصادية مختلفة كسياسة احتكار تجارة التوابل وغيرها، وهو ما يتطلب انشاء هذه المنشآت التي تفي بهذه الأغراض التجارية، فمثلت هذه المنشآت جانبا استثماريا هاما في حياة القاهرة لما تدره من دخل وفير.

ويمكن أن نقول إن ازدهار نظام الوقف في عصر المماليك كان من العوامل التي أدت إلى كثرة هذه المنشآت في القاهرة وغيرها من المدن الاسلامية، حيث إن هذه المنشآت كانت من بين المنشآت الموقوفة، وتمثل جانبا مهما من الجوانب الاستثمارية التي اتجهت اليها عيون الواقفين أو المباشرين لهذه الاوقاف رغبة في استثمارها وتنميتها.

والاتجاه الثاني في التكوين المعماري للأسواق هو نمط الحوانيت المتراصة على جانبي الشارع الرئيس والشوارع الفرعية المتسعة. وهذا النمط يرتبط وجوده بالشوارع النافذة، وصنفت حوانيته أيضا تصنيفا تجاريا يمنع وقوع الضرر، ويمكّن من مراقبة الأسواق، ويسهل على المشتري الوصول إلى حاجته، ويدفع إلى التنافس.

ومن الناحية التارخية يمثل هذا النمط مرحلة تالية، فقد كانت الأسواق في المدن الرومانية تقام حول الميدان Forum والمعابد والكنائس، ثم انشئت الدكاكين على جانبي الشوارع. وشاع ذلك في العصر البيزنطي(٧٣). وفي المدن الإسلامية لاحظنا تطور السوق إلى النمط الأول الذي يمثل الاتجاه الاول في التكوين المعماري، لكن ذلك لم يمنع من انشاء الحوانيت المتراصة على جانبي

الشارع طالما أن انشاءها يسير وفق القاعدة الإسلامية «لا ضرر ولا ضرار». وصنفت ايضا التجارات في هذه الحوانيت تصنيفا يحقق الاغراض التي أشرنا اليها. ومن أوضح الأمثلة على ذلك مدينة القاهرة بعد العصر الفاطمي حيث بدأت تتحول الى مدينة للعامة أنشئت على جانبي شارعها الأعظم «شارع المعز لدين الله» وشوارعها الجانبية المتفرعة منه أسواق في هيئة حوانيت متراصة على جانبي الشارع. وحدث ذلك أيضا في الشوارع الرئيسة بالمدن القديمة التي ترجع الى ماقبل العصر الاسلامي.

ولما كانت التجارة في مجال الصناعة في العصور الوسطى فقد كان التوجيه أن «يجعل لأهل كل صنعة منهم سوقا تختص بهم وتعرف صناعتهم فيها فان ذلك لتضادهم أوفق ولصناعتهم انفق»(٧٤)

وتحكمت اعتبارات متعددة في توزيع الأسواق حتى لايحدث أي ضرر لاصحاب الاسواق أو للعامة من ساكني المدينة، «فمن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار كالخباز والحداد كان على المحتسب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزازين لعدم المجانسة بينهم وحصول الاضرار»(٧٥). واذا كانت نوعية الحرف والسلع تتحكم في مواضع الأسواق داخل المدينة فإنها في بعض الامثلة انحدرت بها الى أطراف المدينة أو خارجها، فقد منع القصابون من الذبح على ابواب حوانيتهم. وكان عليهم أن يذبحوا في المذبح(٦) الذي يوجد غالبا خارج المدينة، وارتبط بذلك قرب أسواق اللحم من أبواب المدينة الخارجية(٧٧) لتسهل نقل اللحم من هذه المذابح إلى حوانيت القصابين دون الحاجة الى عبور شوارع المدينة في اتجاه المركز، وكذلك كان يمنع جلابو الحطب والتبن واحمال الحلفا والشوك ونحوهم من دخول السوق ووقوفهم في العراص مع تجار الخضروات والفاكهة حيث كانت دكاكينهم(٧٨) في هذه العراص. فاذا لم تتوفر في المدينة هذه العراص يجوز لهم الدخول لحاجة المدينة إليهم(٧٩)، وكانت صناعة الفخار من الصناعات التي يؤثر وجودها وسط المنازل في العامة، ومن ثم وجدت في اطراف المدينة.

وكذلك كان بعض التجارات يتركز في الأطراف في المناطق القريبة من أبواب

المدن كأسواق الحبوب وغيرها من أسواق الجملة، وأسواق المواد ثقيلة الوزن وكبيرة الحجم التي يؤثر نقلها الى داخل المدينة في حركة المرور في شوارعها، ومن أمثلة ذلك القاهرة وفاس اللتان تركزت فيهما هذه الاسواق عند باب الجيسة وباب الفتوح وباب المحروق لتجنب نقل المواد الضخمة- التي تباع فيهما- عبر شوارع المدينة. (٨٠)

وقد انعكس هذا التوزيع للأسواق والحوانيت على مسميات الاحياء في بعض المدن الاسلامية. ولعل خير مثل على ذلك مدينة «القاهرة القديمة» التي سميت أحياؤها باسماء نوعيات منتجاتها ومتاجرها كالنحاسين والصاغة والفحامين وغيرها، ونظرا لتشابه أسواق المدن الاسلامية واتباعها القواعد نفسها بصفة عامة فقد تكررت مسميات الأسواق فيها لنسمع هذه المسميات في دمشق وبغداد وحلب والقيروان وفاس وقرطبة وغيرها من المدن الإسلامية.

ويكشف هذا التوجيه عن الاعتبارات الاساسية التي حكمت هذه النوعية من المنشآت التجارية التي يمكن أن نطلق عليها «أسواق الشوارع»، وأولها اعتبار التشابه الذي طبق في ترتيب السوق، وثانيها علاقة حاجة السكان المتكررة والضرورية للحياة التي تتطلب وجود أسواق معينة في كل المناطق. وكان لهذا تأثيره في توزيعها على جميع انحاء المدينة، والاعتبار الثالث تجنب الضرر. وكان لذلك أثره القوي في وضع الأسواق التي تحدث الدخان والروائح الكريهة في الاطراف وتوافق ذلك مع مايخلص إليه الاعتبار الاول الخاص بالتصنيف.

وفي حدود هذه الاعتبارات جرى تصنيف وتوزيع الأسواق على مخطط المدينة وفي امتداداتها العمرانية، ولايمكن أن نتصور ترتيبا ثابتا لهذه الاسواق(٨١). والمقبول أن تتقارب صور الترتيب انطلاقا من هذه الاعتبارات، ولاسيما أن اختلاف طبيعة النشاطات التجارية بين المدن المختلفة أمر واقع، بالإضافة إلى احتمالات تغير النشاطات التجارية وانشاء أسواق جديدة من فترة إلى أخرى. (٨٢)

ويحدث مع نمو المدينة وامتداد حلقات عمرانها أن تتأثر مناطق الامتداد الجديدة بهذه النوعية من المنشآت التجارية الصناعية التي تتسبب في حدوث الدخان، أو الروائح الكريهة، أو الصوت المزعج، والتي تمثل ضررا واضحا اذا زادت حدتها. واذا نظرنا إلى طبيعة هذه الامتدادات وعلاقتها بهذه النوعية من الأسواق اتضح لنا أن الاسواق اقدم، وأنه لدى أصحاب هذه الامتدادات العمرانية فكرة مسبقة عن طبيعة الموضع الذي اختاروه. أي أن «الضرر قديم» ولا سبيل إلى ازالته. وبقى فقط التحكم في ثبات مصدره، وعدم زيادته بالتوسيع والاضافة لأن مثل ذلك يعد إحداثا للضرر، ومع زيادة مراحل الامتداد العمراني الذي تحكمه الاعتبارات والقواعد نفسها يمكن أن تتكرر هذه الظاهرة، ومن ثم يجب اعتبار ذلك في تفسير التركيب المادي للمدينة الاسلامية، سواء من الناحية الأثرية عند تفسير مراحل الامتداد العمراني للمدينة عند كشفها، أو دراسة مابقى منها، أو من الناحية الحضارية عند تقييم التخطيط المادي للمدينة الإسلامية، وارتباطه بحياة المجتمع داخلها.

ويدخل التعرض للخصوصية وكشف الحرمات في اطار الضرر، بل إنه من اكثر الجوانب التي اهتمت بمعالجتها الأحكام الفقهية المتصلة بالعمارة والتي انعكست انعكاسا مباشرا في تكوينات المدينة الإسلامية. ومن بينها الحوانيت والاسواق، بل إن هذه النوعية من المنشآت تمثل أقصى درجات الضرر في هذا المجال. فالحانوت يمثل مركز خدمة عامة يتجه إليه الجميع لشراء مايحتاجون، ووجوده في مواجهة منزل يعرّض أهل هذا المنزل لعيون المتعاملين مع هذا الحانوت والعاملين فيه بصفة مستمرة.

ولما كان الحانوت مركز خدمة عامة كان من الاوفق أن يطل على طريق العامة حتى يمكن العامة أن يصلوا إليه، ولا يتعرضوا لشروط الارتفاق بالطرق الخاصة حيث يقتصر استخدام هذه الطرق في الغالب على اصحابها باعتبارها ملكية خاصة مشتركة بينهم تحقيقا لمبدأ الخصوصية، وتجنبا للتعرض للكشف. وفضلت الشوارع الرئيسة المتسعة دون المتفرعة الضيقة لما توفره من تأمين للنساء اثناء

تواجدهن في الأسواق(٨٣)، ومن ثم برزت أفضلية الشوارع الرئيسة لتوزيع الأسواق على جانبيها في اطار التصنيف الذي أشرنا اليه، وضمر وجودها في الشوارع الفرعية، ومن ثم اصبح الشارع الاعظم في المدينة الاسلامية هو المنطقة التجارية الرئيسة فيها.

ومع نمو المدينة وازدياد الحاجة الى التوسيع في اسواقها كان الاتجاه إلى ماتفرع منها من شوارع جانبية تراصت على جانبيها الحوانيت في اطار الترابط والتخصص، ومن ثم كونت المناطق التخصصية المطلة على الشارع الأعظم عمقا ممتدا إلى الشوارع الفرعية المتفرعة منه. ويتضح ذلك بصورة جلية في القاهرة حيث أخذت المناطق التجارية امتدادا محدودا على الشارع الاعظم وعمقا في الشوارع المتفرعة منه كما في الخراطين والفحامين والنحاسين والخيميين والحريريين(٨٤) الى غير ذلك من المناطق التي امتدت أسواقها على الشارع الاعظم والشوارع المتفرعة منه.

وحتى يسهل الارتفاق بالامتداد في الشوارع الجانبية دون البعد عن الشارع الاعظم كان لابد من تكثيف هذه الحوانيت في مناطق تجارية واسواق موازية للشارع الأعظم، وهو ما نلحظه في ما يسمى «المربعات» التي تكررت نماذجها في المدن الاسلامية، ويمكن أن نتتبع ذلك بصورة واضحة فيما بقى من القاهرة القديمة، وماورد في وصف لهذه المربعات في الوثائق المملوكية(٨٥) التي تكمل هذا التصور، ولاسيما أن منها ما تغيرت تكويناته المعمارية للتغيير العمراني الذي يحدث بالمدينة من فترة الى اخرى. ويتخذ تكوين هذه المربعات أو «التربيعات» هيئة كتلة معمارية تضم مجموعة من الحوانيت ظهورها إلى الداخل، وتطل جميعها على الشوارع التي تحيط بها من الجوانب الأربعة مقابلة أيضا صفوفا من الحوانيت على الجوانب الاخرى لهذه الشوارع.

وتعتبر «قيساريات الشوارع»(٨٦) التي انتشرت في مدن الاندلس وبلاد شمال افريقية شكلا اخر من اشكال المنشآت التجارية التي هي عبارة عن حوانيت على جانبي شبكة من الطرقات الضيقة المتصلة المسقوفة «الزنقات».

وظاهرة تسقيف الشوارع التي تضم الاسواق على جانبيها ارتبطت بغـرض حماية نوعية معينة من السلع كالحرير وغيره من الاقمشة، وانتشرت هذه الظاهرة في كثير من المدن الاسلامية وعرفت «بالسقائف» كسقيفة رضوان في القاهرة. وكان بناء هذه السقائف يتم وفق تصـريح رسمي من السلطة(٨٧). واختلفت أساليب تغطية الشوارع التجارية باختلاف المناخ ومواد البناء المتوفرة. فبينما كانت السقُف خشبية مسطحة في القاهرة، وجدت في هيئة أقبية من الآجر وبمعرشات العنب والخشب في مدن الاندلس(٨٨)، واستخدمت الاقبية الحجرية في مـدن أخرى كحلب وغيرها، وكان التسقيف للحمـاية من العـوامل الجـوية كـالمطر والشمس حتى أن هناك من الشوارع التجارية ماغطى بأكمله في مكة المكـرمة لاشتداد الحرارة(٨٩)، واستخدم القماش أحيانا في تغـطية بعض الاسـواق في شوارع القاهرة كسوق القفيصات الذي كان سقفه عبارة عن خيمة من القماش، كما أن حوانيت الفاكهة عند «دار التفاح بالقاهرة» غطيت الشوارع فيها بسقف من القماش حتى لاتتأذى الفاكهة من الشمس (٩٠) .وفي مـدن الصعيد سـاد هذا الأسلوب في قيساريات المدن المختلفة التي مازالت محتفظة بشكلها العام(٩١).

وصاحب هذا التكثيف لحوانيت الشوارع الممتدة على جانبي الشارع الأعظم والشوارع المتفرعة منه والتربيعات ـ التي أشرنا اليها ـ انشاء الوكالات والقياسر والخانات والفنادق قريبة منها، وكثرت اعدادها لسهولة انشائها ولتلاؤم تخطيطها المفتوح على الداخل مع طبيعة الحياة في المدينة ولاسيما ان انشاءها غالبا ما يكون في مناطق سكنية.

ويكشف انشاء هذه المنشآت عن طبيعة التغير المستمر في تكوينات المدينة التي تتحكم فيه عوامل مختلفة مرتبطة بظروف عمران المدينة ذاتها وحياة المجتمع فيها، وتلبية حاجاته من هذه الاسواق بنوعياتها المختلفة التي تمثل مرفقا هاما من مرافق المدينة، يشكل جانبا هاما من جوانب تشكيلها المادي والحضري.

وخضعت الأسواق لإشراف المحتسب ومن يعاونه من الأمناء المتخصصين في

مراقبة كل تجارة، والذين هم بمثابة نقباء المهن، ووجـدت لهم مقار في المـدن الاسلامية قريبة من الأسواق(٩٢). وتسهيلا لعملية نقل البضائع من والى تلك الاسواق وجدت بالقرب منها وفي مواضع محددة في المدينة الاسـلامية مـواقف للدواب ومؤجريها من المكاريين، وكذلك مواضع للحمالين الذين يحملون السلع على اكتافهم أو ظهورهم(٩٣).

وكان الحرص شديدا على تأمين هذه الأسواق الممتدة على جوانب الشوارع، ففي بعض المـدن «كَسَلا» فصلت بـين كل أربـاب مهنة واخـرى قنطرة. (٩٤) وانشئت لبعض المنـاطق أبواب مختلفـة تؤدي إليها، يسهـل غلقهـا وفتحهـا، ويتحكم في الدخول فيها كسوق التجار التي أشار إليها ليو الافريقي في مدينة فاس، والذي أشار إلى أنها تشبه مدينة صغيرة بجدران تحتوى على اثنى عشر بابا، ويعترض مدخل كل باب سلسلة كيلا تتمكن الخيول والحيوانات الاخرى من الدخول فيـه، وتنقسم هذه السـوق إلى خمسة عشـر قسما مخصصـة للتجارات المتنوعة(٩٥). ويشابه ذلك «خان الخليلي» في القاهرة، وما أشرنا إليه من «زنقات» أو «قيساريات الشوارع» في مدن الأندلس. وتكررت أمثلة وجود المداخل التي تغلق على أسواق بعينها كسوق العطارين في فاس التي كانت تضم مائة وخمسين دكانا تنغلق ببابين جميلين لا يقل جمالها عن متانتهما، واضافـة إلى ذلك تعهـد العطارون بنفقات حراس مسلمين يتجولون ليـلا مع فـوانيس وكلاب لتـأمين سـوقهم(٩٦)، واضافـة إلى ذلك تـولت السلطة في المدينـة مسؤوليـة حـراسـة الأسواق. ومن المدن ما خصص فيها حـراس للاسـواق بالاضـافة إلى رجـال الشرطة الذين كانت مهمتهم توفير الأمن بالمدينة كلها. (٩٧)

واختلفت مساحات الحوانيت في هذه الاسـواق فمنها مـا كبرت مسـاحته، ومنهـا ما صغرت، وارتبط ذلك بظروف انشاء هذه الحوانيت وأغراض التجارة فيها، لكن ما تجب الاشارة إليه هو أن هناك من الحوانيت ما اشترط فيه أن يكون بمواصفات بنائية معينة كحانوت القصاب الذي يذبح في حانوته، فيشتـرط في حانوته أن يتسع لوجود مذبح حتى لا يضر بالطريق والعامة(٩٨)، وحانوت الخباز

الذي يشترط فيه ارتفاع السقف والتهوية اللازمة لاخراج الدخان.(٩٩).

واهتم المسلمون بتسهيل حركة المرور وتأمينها في الأسواق ولاسيما أنها مناطق ازدحام دائمة، وتُبع ذلك الاهتمام بتبليط ارضية شوارع الاسواق كما كان الحال في فاس التي فرشت ارضية شوارع الأسواق فيها بالقراميد(١٠٠). وحرصا على سلامة العامة في شوارع الأسواق التي لم تبلط «اشترط أن يكون في جانب السوق افريزان يمشي عليهما الناس في الشتاء»(١٠١). وحرصا على تأمين المارة وحماية السلع من تأثير العوامل المناخية دعت سلطات المدينة إلى مد السقائف أمام الحوانيت(١٠٢)،وكلفت من المباشرين المختصين من يقوم بذلك، وكذلك كان الاهتمام باضاءة الحوانيت وخصوصا في الشوارع الضيقة، كما كان في الفسطاط التي كانت شوارع الأسواق فيها مضاءة ليلا ونهارا، وإذا كانت الاضاءة في مثل هذه الحالة مرتبطة بالحاجة إلى زيادة الضوء الذي قلت نسبته لضيق الشوارع فإنه في الأسواق الأخرى كان تكثيف الاضاءة ليلا من وسائل فن العرض كما كان الحال في حوانيت العطارين التي تميزت بذلك.

وكان لكل حانوت مسطبة تتقدمه يجلس عليها التاجر ويعرض معروضاته، وقد يمتد العرض الى «فناء» الحانوت الذي هو جزء من الطريق، ومن ثم تبدو الطرقات مزدحمة لامتداد العرض إلى أفنية الحوانيت على الجانبين أو لاشغالها بالمشترين.

وفي بعض المدن الاسلامية أُجِّر بعض المناطق الفضاء المتصلة بالشارع لما يمكن أن نطلق عليهم الباعة الجائلين(١٠٣). وقد وجد في القاهرة سوق بأكمله خصصت لهذا النوع من الباعة وهي سوق «القفيصات» التي كان الباعة يجلسون فيها تجاه القبة المنصورية على تخوت صغيرة - « قفيصات» من الحديد قد شبك عليها الخواتيم والفصوص وأساور النساء وخلاخيلهن وغير ذلك، وكان أولئك الباعة يستأجرون الأرض التي يجلسون عليها من المشرف على البيمارستان، الذي كانت السوق من أوقافه، وفي فترة لاحقة بنى المشرف على البيمارستان خيمة يستظل بها أصحاب القفيصات، ثم نقلت إلى مقر بالقرب من الصاغة سنة ٨٣٣هـ.(١٠٤)

وسوق السلاح في القاهرة أيضا كانت من الأسـواق التي يفترشهـا «أرباب المقاعد» حيث كانوا يفتـرشون الأرض أمـام حوانيت بيـع السلاح وحـوانيت الصيارفة، وإذا ما أقبل الليل أشعلوا المشاعل التي تضفى على المكان جوا بديعا كان يغرى الناس باتخاذ هذه السوق مكانا للنزهة في أمسيات الصيـف، وانتشر أرباب المقاعد على طول الشارع الأعظم «القصبة» في القاهرة يجلسون باطباق الخبـز واصناف المعـايش، وكثيرا مـا تعـرضت السلطة لهم لمنعهم من الجلوس في الأسواق، لما يحصل من تضييق الشوارع وقلة مبيع أرباب الحوانيت. (١٠٥).

ومع كثافة النشاط التجـاري استغلت المنشآت التجارية استغلالا مركبا، فاشتملت بعض الوكالات على «مقاعد» بصحونها خصصت فيها يبدو لأرباب المقاعد من الباعة الذين لا يملكون حوانيت يستطيعون ممارسة نشاطهم فيها.

وهكذا غصت الأسواق في المدن الاسلامية بما نراه من تلازم وجـود أرباب المقاعد في أسواقها مع كثرة حوانيتها التي أشارت المصادر إلى بعض احصاءاتها. فقد كان في قرطبة من الحوانيت ثلاثون ألف حانوت واربعمائة واثنان وخمسون حانوتا، وكان فيها من الفنادق والخـانات الف وستمـائة فنـدق لسكنى التجار والمسافرين(١٠٦). ويعدد ليو الافريقي ماكان في عهده من حوانيت في مدينة فاس وهي من الكثـرة التي تدل عـلى ازدهار أسـواقها(١٠٧). ومـانطالعـه في خطط المقريزي وما ورد بالوثائق من اوصاف للمنشآت التجارية في القاهرة يعجز عنه الحصر.

وتكشف دراسة التغيير الذي طرأ على التكوينات المعمارية ـ من فترة الى اخرى ارتباطا بازدهار الأوضاع الاقتصادية ـ عن مدى الاهتمام بالأسواق، وقد بـدأ ذلك في عهد مبكر (٢٥ ـ ٣٦هـ)، فقد انشئت سوق جديدة في البصرة في موضع بعض الدور في ولاية عبدالله بن عامر عليها(١٠٨). وفي القـاهرة شهـد تاريـخ الانشاء مواضع العديد من المنشآت التجارية، غير أن هذه المنشآت حلت محل تكوينات معمارية مدنية أخرى كالدور وغيرها، وهو ما يوضـح الأثر الفعـال

لازدهار الحياة الاقتصادية في تغيير طبيعـة التكوينـات المعماريـة ووظيفتها في المدينة من فترة إلى أخرى، حتى يمكن القول إن النسبة الغالبة من التغيير كانت في اتجاه تحويل المنشآت إلى منشآت تجارية، ولاسيما في المناطق القريبة من الأسواق والشوارع الرئيسة، وما كان بقى من منشآت تجارية في القاهرة دليل واضح يؤكد هذا الاتجاه(١٠٩). وفي المدن التي اتصلت بالطرق المائية وجدت الأسواق قريبة من الارصفة المقامة على الشواطىء كالموصل وقرطبة وبولاق في القاهرة التي اصبحت منطقة تجارية مهمة بجانب القصبة في قلب المدينة.

مما سبق تتضح مراحل التكوين المعماري لـلأسواق في المـدن الاسلاميـة، وانماطها المتنوعة، وأشكالها المعمارية المرتبطة بظروف نشأتها ووظيفتها، بغيرها من التكوينات المعمارية في المدينة في اطار المبادىء الاسلامية التي تحقق النفع وتمنع الضرر، وهو ما يبرز التأثير الاسلامي على هذه النوعية من المنشآت التي تشكلت معماريا وفق حاجات المجتمـع الاسلامي. وأخـذت ما يـلائمها من عناصر معمارية سبق وجودها في العمارة البيزنظية والرومانية فاختلفت رؤيتها التخطيطية وتشكيلها المعماري عن الأسواق في المدينة اليونانية القديمـة وغيرها، ومن هذا المنظور يمكن مراجعة ما ذكره بعض الباحثين «كسوفاجيه» و«ستيرن» من أن خطط المدينة الاسلامية مأخوذة عن المدينة اليونانية القديمة كالشوارع والسوق المركزية. (١١٠).

تغذية المدينة بالماء :

تحكم الماء إلى حد كبير في اختيار موضع المدينة، وطـالما أشـاد الجغرافيـون والبلدانيون المسلمون بالحواضر التي يتوافـر فيها المـاء العذب. (١١١) وعـدت عذوبة الماء من المميزات الـرئيسة التي تميـز مدينـة عن اخرى. فمثـلا يصف القزويني بغداد فيقول: إنها «أم الدنيا، وسيدة البـلاد، وجنة الأرض، ومـدينة السلام، وقبة الاسلام، ومجمع الـرافدين، ومعـدن الظرائف، ومنشـأ أرباب الغايات. هواؤها ألطف من كل هواء، و«ماؤها أعذب من كـل ماء»، وتربتها

أطيب من كل تربة، ونسيمها أرق من كل نسيم». (١١٢)

ويؤكد وصف القزويني على أهمية عذوبة الماء حتى يكون صالحا للشرب، وهو وصف تتأكد أهميته عندما نجد أن من المدن ما ارتبط تطور العمران فيها بمدى عذوبة الماء وصلاحيته للشرب كالبصرة التي ظلت مشكلة ملوحة الماء وقلته من المشاكل التي واجهت المسلمين في البداية، حتى أن أهلها شكوا إلى الخليفة بأن اخوانهم من أهل الكوفة «نزلوا على مثل حدقة البعير الفاسقة من العيون العذاب والجنان الخصاب... وإنا معشر أهل البصرة نزلنا شيخة عشاشة رغفة نشاشة، طرف لها في الفلاة وطرف لها في البحر الاجاج يجرى اليها ما جرى في مثل مرىء النعامة»، وطلبوا توسعة رزقهم، واتجه الولاة لحل مشكلة الماء فحفروا الأنهار من شط العرب، وبقيت مشكلة الملوحة من المشاكل التي عانى منها الأهالي فترة طويلة، وكان لذلك أثره على قلة سكانها وعمرانها إذا ما قورنت بالكوفة خلال الفترة الأولى من تأسيس كل منهما(١١٣). وواجهت ملوحة الماء كذلك مدينة «قُم»، وتغلب الأهالي على ملوحة آبارها بتزويدها بماء المطر، حتى يكون مستساغا في الشرب(١١٤). ويؤكد ابن الربيع على أهمية الماء العذب كشرط أساسي في اختيار موقع المدينة فذكر من بين الشروط التي حددها لاختيار الموقع «سعة المياه المستعذبة»، كما أكد على توصيل الماء بسهولة إلى المدينة فذكر أن على الحاكم «أن يسوق إليها الماء العذب ليسهل تناوله من غير عسف». (١١٥) وهو أمر يبرز مسؤولية السلطة في توفير مصادر الماء لسكان المدينة.

وتشير الروايات التاريخية والآثار الباقية للمنشآت المائية في المدن الاسلامية الى مدى اهتمام السلطة بتوفير الماء العذب للمدن الاسلامية، ومدى مشاركة العامة في التعاون على انشاء المنشآت المائية والمحافظة عليها في اطار يكفل لسلطات المدينة تنظيم الارتفاق بها إذا كانت منشآت عامة، ويحدد القضاء القواعد والأسس التي تحكم ما هو خاص بها.

ومن هذه الروايات التي تشير إلى مدى اهتمام الحكام بتوفير الماء ما ذكره

البغدادي من أن المنصور «مد قناة من نهر دُجيل المأخوذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا المأخوذة من الفرات، وجرهما الى مدينته في عقود وثيقة من أسفلها، محكمة بالصاروج والآجر أعلاها، وكانت كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والارباض(١١٦) صيفا وشتاء(١١٧)، وحدث ذلك بعد انتقاد «الرومي» ضيف الخليفة نقل الماء على الدواب إلى تكويناتها المختلفة، ولاشك في أن توصيل الماء الى المدينة عن طريق القنوات المذكورة كان له أثره المباشر في نظافتها، التي تتأثر بحركة مرور الدواب الناقلة للماء بها.

وفي سامراء شق المتوكل من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان جامع سامراء، وتتخللان شوارعها، وشق نهرا آخر للدخول في الحير.(١١٨).

ويذكر القاضي النعمان أن الخليفة المعز لدين الله اعتزم أن يُجرى نهر عين أيوب إلى «المنصورية»، وقدكان «القائم» ابتدأ العمل فيه على أن يجريه الى مدينة القيروان، ثم جاءت الفتنة فقطعت ذلك»، وهذا النص المهم لا يشير فقط إلى مدى اهتمام الحكام بتوصيل الماء الى المدن، ولكنه يكشف عن أن المعز استأنف العمل في قنوات الماء الموجهة الى القيروان من حيث انتهى القائم، وهو أمر يضيف الجديد إلى تاريخ هذه القنوات من الناحية التاريخية والأثرية ولاسيما أن ما ورد في المصادر الأخرى لم يكن سوى اشارة عابرة، أشارت إلى أن المعز هو الذي «جلب الماء على الحنايا»(١١٩).

ولما كانت « الرباط » تفتقر إلى الماء الجيد، لأن ماء البحر يدخل في ماء النهر ويحمله المد إلى اثنى عشر ميلا فيه، ولأن مياه الآبار مالحة، جلب «المنصور» الماء من عين تبعد عن المدينة نحو اثنى عشر ميلا بواسطة قناة محكمة البناء على أقواس.. وتنقسم هذه القناة إلى فروع عديدة يحمل بعضها الماء إلى المساجد، وبعضها الآخر إلى المدارس والقصور الملكية والسقايات العمومية المقامة في جميع الانحاء(١٢٠).

وقد تنوعت أساليب تغذية المدينة بالماء بتنوع مصادره كالانهار والعيون والآبار

والامطار، واختلاف مواضع هذه المصادر قربا أو بعدا، باستثناء المطر الذي اختلفت مواعيد وفترات وكميات سقوطه، ونفذت الأساليب التي توافق كل مصدر، بحيث يسهل في النهاية توصيل الماء إلى تكوينات المدينة المختلفة.

فالمدن التي تعتمد على مياه الأمطار عملت بها مصايد الماء والصهاريج والمواجل والمصانع التي يتجمع فيها المطر في موسم سقوطه، ومن ثم يستخدم طوال العام من هذه الخزانات، وتتضح آثار ذلك في المدن التي تعتمد على مياه الأمطار فقد كشف في «الربذة» عن العديد من المنشآت التي تساعد على الاستفادة من ماء المطر وتخزينه للاستفادة منه في الأغراض الحياتية المختلفة، وتنوعت هذه المنشآت بين المصافي والبرك، والصهاريج التي انتشرت في المنازل لتخزين الماء(١٢١). وكشف المسح الأثري لدروب الحج في المملكة العربية السعودية عن العديد من هذه المنشآت التي تشتمل عليها المدن والمحطات التي تقع على هذه الدروب، وزاد الاهتمام بها بصفة خاصة لتلبية حاجات قوافل الحجيج التي تنزل بهذه المدن والمحطات، والتي تحتاج إلى كميات من الماء تفوق حاجة القاطنين فيها، وتكفي هؤلاء الحجاج اثناء اقامتهم فيها(١٢٢). ويعتمد الكثير من مدن الشمال الافريقي والمغرب العربي على ماء الأمطار ولاسيما تلك المدن التي لا يتوفر بها مصدر غيره، ومن ثم انتشرت المنشآت المائية التي تساعد على خزن الماء كالصهاريج والمواجل والأحواض الكبيرة أو البرك في هذه المدن(١٢٣). ومن المدن التي اشتملت على العديد من هذه المنشآت تونس فقد اشتهرت بموجلها الكبير الذي انشىء خارجها (١٢٤)، كما أن بيوتها اشتملت على العديد من المواجل الصغيرة التي شاع استخدامها في تجميع ماء المطر(١٢٥). والمهدية التي ذكر القزويني أن «شرب أهلها من الصهاريج البالغ عددها ثلثمائة وستون صهريجا بعدد أيام السنة يكفيهم كل يوم صهريج الى تمام السنة ومجيء المطر في العام المقبل»(١٢٦).

وانشئت كذلك «المواجل الخاصة» والتي تخدم التكوينات المعمارية في المدن التي تعتمد على ماء المطر، ويظهر ذلك جليا فيما كشف من مواقع أثرية كالربذة

إحدى محطات الحج على درب زبيدة(١٢٧)، وما اشتهرت به مدينة تونس التي انتشرت فيها المواجل التي يتجمع فيها ماء المطر لاستغلاله بعد ذلك. وقد صُمم تصميما يكشف عنه أسلوب بنائها الذي أشار إليه ابن الرامي عندما ذكر أن العرف في بناء «المواجل أن يجعل لها بابان باب ينزل منه ويكون واسعا في وسطه داموسه ، وباب آخر يستقى منه ويكون ضيقا في جنب الماجل»(١٢٨) وحتى يمكن استغلال أي كمية من ماء المطر وتخزينها بهذه المواجل اتجه تصميم اسقف التكوينات المعمارية بميل معين في اتجاه فتحات هذه المواجل بحيث تتجمع فيها مياه المطر نتيجة انحدارها مع هذا الميل الى فتحات المواجل، وقد حددت أحكام الفقهاء نظام انشائهاواستغلالها والاستفادة من مائها، ولاسيما في حالات التنازع الناتج عن المعاملات المختلفة من بيع وشراء وتبادل وقسمة وغير ذلك. (١٢٩)

وتنوعت أساليب توفير الماء في المدن التي تعتمد على الآبار والعيون والأنهار، وتحكم في ذلك بعد المصدر أو قربه، ومنسوب ارتفاعه أو انخفاضه عن مستوى سطح الأرض في المدينة، فشقت الأنهار الصغيرة والقنوات الموصلة للماء إذا كان منسوب المأخذ مرتفعا قليلا عن مستوى موضع المدينة أو في مستواه، ويسهل شق مثل هذه القنوات بحيث يجرى فيها الماء إلى أنحاء المدينة المختلفة . واشتهر كثير من المدن الاسلامية باستغلال الأنهار في تزويد مرافقها بالماء عبر قنوات متفرعة من هذه الأنهار كسامراء، ودمشق التي «قلما ترى دارا أو مسجدا أو رباطا أو مدرسة أو خانا إلا وفيها ماء جار»(١٣٠)، وفاس التي يتوزع الماء فيها في قنوات تسوق معظمه لبيوت سكان المدينة وإلى حاشية البلاط الملكي، وكذلك الأبنية الأخرى. وكان لكل جامع نصيبه من الماء(١٣١)، وكذلك الحال بالنسبة للفنادق والبيمارستانات والمدارس .ويذكر القزويني أن أهل الموصل «انتفعوا بدجلة انتفاعا كثيرا مثل شق القناة منها، ونصب النواعير على الماء يديرها الماء بنفسه، ونصب العربات وهي الطواحين التي يديرها الماء في وسط دجلة في سفينة، وتنقل من موضع إلى موضع»(١٣٢). ويشير هذا إلى استغلال الماء الجاري في الأنهار والقنوات المتفرعة منها في ادارة الطواحين التي تعمل بالماء كطاقة حركية مفيدة،

وانتشرت هذه الظاهرة في المدن التي أمكن عملها على انهارها، ولعل أشهرها فاس(١٣٣) التي كان في كل منها «جدول ماء وعلى بابها رحى وبستان» . (١٣٤)

واستخدمت أساليب اخرى أكثر تركيبا من الناحية الانشائية في توصيل الماء من مصادره البعيدة المنخفضة عن مستوى موضع المدينة أو المرتفعة عنها، كانشاء القناطر الحاملة لمجرى ينقل الماء، وهي ما يطلق عليها «قناطر الماء» (Aqueduct)(١٣٥) مثل قناطر ابن طولون التي انشأها لنقل الماء من النيل لقصره، ومدينة القطائع التي انشأها ومازالت بقاياها وقطاعات منها واضحة في شرق قرافة الإمام الشافعي(١٣٦)، وقناطر فم الخليج التي انشئت لكي تغذي قلعة الجبل بالماء ومازالت باقية على حالها إلى اليوم، وتلك القناطر التي أنشأها الفاطميون لتغذية القيروان بالماء(١٣٧)، وتلك القنوات التي أنشأها المنصور لبغداد في مرحلة لاحقة، والتي أشار المؤرخون إلى أن بناءها كان على هيئة «عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها. وكانت كل قناة منها تدخل المدينة، وتنفذ في الشوارع والدروب والارباض»(١٣٨). واستخدمت هذه النوعية من القنوات المحمولة على قناطر في نقل الماء من مسافة بعيدة سواء من المناسيب التي تنخفض عن مستوى موضع المدينة حيث كان الماء يرفع إليها عن طريق آلات الرفع كالسواقي، أو من مناسيب مرتفعة عن موضع المدينة، وفي كلا الحالين كانت القنوات تنحدر في اتجاه المدينة انحدارا محسوبا يُجرى الماء، كما روعى أن تعترض هذه القناطر ما تقطعه بين شوارع وطرق حتى لا تعوق المرور. ومن هذه القنوات ما انشىء في تخوم الأرض ليتجمع فيها الماء وينحدر الى المدينة، وتحكم في تنفيذ أي من الأسلوبين إلى حد بعيد طبغرافية المكان، ومناسيب ارتفاعه أو انخفاضه، وقد ارتبط كل منهما بشوارع وطرق المدينة التي تخترقها القناطر أو توضع في تخوم أرضها القنوات.

ومن أشهر المدن التي استخدم فيها اسلوب القنوات التي في تخوم الأرض مدينة «مدريد» أو مجريط العربية الاسلامية في الأندلس، ولعل اسم هذه المدينة المكون من مقطعين «مجرى» العربي وهو القناة «ويط» الاسباني بمعنى «الكثير» يدل على ما

امتازت به هذه المدينة من كثرة القنوات التي كانت توصل الماء في شبكات منفذة بطريقة هندسية محكمة إلى جميع منازلها، فقد انتهى المهندسون إلى فكرة تزويد المدينة بالماء عن طريق حفر سلسلة من الآبار في شرق وشمال المدينة. ووصل بين هذه الآبار عند مستوى مائها، ليجرى الماء من هذه الآبار جميعا في قناة تصل بينها، فتتغذى القناة في النهاية بماء الآبار كلها(١٣٩)، وينحدر في القناة في اتجاه المدينة، وتكون هذه القناة بمثابة القناة «الأم» التي تغذى شبكات فرعية من القنوات على هيئة عقدية، توصل الماء إلى المنازل والتكوينات المعمارية الأخرى التي تحتاج إليه، وفق نظام هندسي متقن يمكن من التحكم في توزيع الماء على هذه الوحدات بواسطة «عقد» كانت تتجمع عند كل «عقدة» منها مجموعة من القنوات، ويبنى عليها خزان أو مستودع يجتهد في حمايته ووقايته. وكانت هذه الخزانات بمثابة نقطة التحكم في توزيع الماء بواسطة المهندسين المكلفين بذلك، وعملت أيضا صهاريج عامة لسقيا العامة يوجد بعضها على سطح الأرض ويوجد بعضها الآخر في باطن الأرض إذا كانت القناة تمتد إلى عمق شديد. (١٤٠)

تتضح من خلال هذا الوصف علاقة التأثير والتأثر بين توصيل الماء إلى هذه المدينة بهذا الاسلوب وشوارع وطرق المدينة التي تشتمل في باطنها على هذه القنوات وتفريعاتها المختلفة، وامتد هذا التأثير إلى تلك الخزانات التي انشئت للتحكم في توزيع الماء، أو تلك الصهاريج التي انشئت لسقيا المارة بالماء. كما أن هناك علاقة بين منسوب هذه الشوارع بعضها ببعض وجميعها بمنسوب مصدر الماء خارج المدينة، فمواضع الآبار الأولى التي انشأها المسلمون كان يتراوح بعدها عن المدينة مابين سبعة واثنى عشر كيلو متر، وكان الفرق بين سطح الأرض عند هذه الآبار التي تولد فيها القنوات الجوفية وسطحها في وسط المدينة يتراوح ما بين ثمانين ومائة متر(١٤١) تقطعها القنوات في انحدار يسمح بسرعة جريان الماء وقوة اندفاعه(١٤٢).

ولم تكن مدريد هي المدينة الاسلامية الوحيدة التي عرفت هذا النظام، فقد استخدمه المسلمون في مدن المشرق والمغرب على حد سواء. فوجد في نيسابور

ومرو وعرف في الجزيرة العربية في الحجاز واليمن، وكانت هذه المجاري المائية تسمى «الكظامة» و«الفقير». وعرف هذا النظام في غرب العالم الاسلامي، فعرف في تونس وفي الواحات جنوبي الجزائر وكانت القنوات المائية هناك تسمى «الفقارة». ووجد في بلاد المغرب الاقصى فتراه في مدينة «تافيلات» وفي «فاس» و«مراكش»، ويطلق على القنوات في هذه المنطقة «الخطارة». ومما ذكر في الحديث عن مدينة مراكش أن الذي اخترع هذا النظام مهندس يدعى عبد الله بن يونس قدم الى المدينة بعد انشائها بقليل، وكان الناس يعتمدون على الابار البسيطة في الحصول على الماء، لكن هذا المهندس زود المدينة بكميات الماء اللازمة لنموها عن طريق حفر الابار والتوصيل بينها بقناة تحت الارض ينحدر فيها الماء ليصل إلى المدينة كما هو الحال في مدريد، وتحتفظ مراكش بشبكة هائلة من القنوات الجوفية التي بلغ عددها ٣٥٠ قناة يصل طول كل منها خمسة كيلو مترات، وإن كان الاهمال قد لحقها أخيرا فأهمل عدد منها، وربما كان المهندس الذي نفذ هذه الطريقة في مراكش أندلسي الاصل، بل ربما كان «مجريطيا» أي من مدريد التي تدل كل القرائن على أن المسلمين الاندلسيين قد استخدموا فيها نظام القنوات الجوفية كما اشرنا، وهو نظام لم يقتصر وجوده على بعض المدن الاسلامية، بل انتقل منها إلى بعض البلاد الأخرى كقبرص(١٤٣).

ومن مصادر الماء في المدن الاسلامية «عيون الماء» التي استغل ماؤها استغلالا حسنا في تغذية المدينة بالماء، وتشتهر مكة المكرمة والمدينة المنورة بأمثلة من هذه العيون التي انشئت عليها المنشآت المائية التي تمكّن من استغلال الماء والمحافظة عليه، ولاسيما أن الحاجة اليه شديدة في مواسم الحج. وتذكر لنا الرواية التاريخية بعضا من هذه المشروعات المائية المتصلة بالاستفادة من ماء العيون في مكة، فيذكر أن معاوية «قد أجرى في الحرم عيونا، واتخذ لها أخيافا، وكانت حوائط وفيها الزرع والنخل، وقد كانت عيون معاوية تلك قد انقطعت ووهت، فأمر أمير المؤمنين الرشيد بتجديدها، فعملت وأحييت وصرفت من عين واحدة، وكان أهل مكة والحجاج يلقون في ذلك المشقة حتى ان الرواية تبلغ في الموسم عشرة

دراهم، أو اقل أو اكثر، فبلغ ذلك أم جعفر بنت ابي الفضل جعفر بن أمير المؤمنين المنصور فأمرت في سنة أربع وسبعين ومائة للهجرة بعمل بركتها التي في مكة، فأجرت لها عينا من الحرم فجرت بماء قليل، فلم يكن فيه رى لاهل مكة، وقد غرمت في ذلك غرما عظيما فأمرت المهندسين أن يجروا لها عينا من الخل، ثم امرت من يزن عينها الاولى فوجدوا فيها فسادا، فأنشأت عينا اخرى الى جنبها، وابطلت تلك العيون، فعملت عينها هذه بأحكم مايكون من العمل، وعظمت في ذلك رغبتها، وحسنت نيتها، فلم تزل تعمل فيها حتى بلغت ثنية خل(١٤٤) فاذا الماء لايظهر في ذلك الجبل، فأمرت بالجبل فضرب فيه، فأنفقت في ذلك من الاموال ما لم تكن تطيب به نفس كثير من الناس، حتى أجراها الله على يديها، واجرت فيها عيونا من الخل منها عين المشاش(١٤٥)، واتخذت لها بركا تكون فيه السيول اذا جاءت تجتمع فيها، ثم أجرت لها عيونا من حنين، واشترت حائط حنين فصرفت عينه إلى البركة، وجعلت حائطه سدا يجتمع فيه السيل، فصارت لها مكرمة لم تكن لاحد قبلها، وطابت نفسها بالنفقة عليها بما لم تطب به نفس أحد غيرها»(١٤٦). وهذا المشروع الضخم- الذي من أهم انجازاته حفر عين المشاش التي حفرتها «زبيدة»، ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل ووعر حتى اخرجتها من مسافة اثنى عشر ميلا الى مكة، وكان جملة ما انفقت عليها فيما ذكروا قد قدرت بألف ألف وسبعمائة دينار(١٤٧)- يدل على مدى الاهتمام بتزويد المدينة بالماء من مصادره المختلفة ومن بينها العيون سواء أكانت طبيعية أم مستنبطة.

وتعتبر فاس أيضا من المدن التي كثرت عيونها حتى انه «أحصى فيها ستمائة نبع، وهي عيون طبيعية احيطت بسياجات من حجر مع أبواب تحفظها مغلقة، ويتوزع ماء هذه الينابيع على مختلف الحاجات، ويساق الى البيوت والجوامع والفنادق، وهذا الماء مرغوب فيه اكثر من ماء النهر، لان ماء النهر ينقطع احيانا ولاسيما في الصيف، اضف الى ذلك انه عندما يقتضي الامر تنظيف القنوات يجب عندئذ تحويل مجرى النهر الى خارج المدينة، وعلى الرغم من توافر ماء النهر في

بيوت الوجهاء إلا أنهم يجلبون إلى منازلهم ماء العيون، لانها اكثر برودة وعذوبة، ولكنهم يفعلون العكس في الشتاء، ويقع أكثر هذه اليناببيع في غرب المدينة وجنوبها(١٤٨). ومن المدن التي استغلت مياه العيون فيها قرطبة، فقد «نقل الماء إلى المسجد من عين بجبل قرطبة، أجرى في قناة من حجر»(١٤٩). وبالاضافة الى العيون التي يرتفق بها العامة أو المنشآت العامة فقد استنبط الافراد عيونا يستغلونها في استخداماتهم الشخصية كمصدر خاص بهم(١٥٠) فكثرت العيون كمصادر لتغذية المدينة بالماء.

وتعتبر «الابار» من أهم مصادر الماء التي انتشرت في العديد من المدن الإسلامية التي تعتمد عليها كمصدر من مصادر الماء ولاسيما إذا قل أو ندر وصعب الحصول عليه من المصادر الأخرى لبعدها(١٥١)، وقد حفرت الآبار لتغذية المرافق العامة بالماء اللازم، كما اهتم الأفراد بحفرها لتزويد مبانيهم بالماء اللازم، ومن هنا انتشرت ظاهرة حفر الابار في العديد من المدن الاسلامية، وتطورت أساليب حفرها وبنائها وتأصلت التجربة في ذلك حتى أصبحت المعرفة واسعة بفن حفر الآبار، وتعكس ذلك المصادر التراثية التي تحدثت عنها.

وتحفر الابار في الارض التي فيها ماء، ويتطلب ذلك معرفة بالاراضي التي فيها الماء والتي لاماء فيها، ويذكر النابلسي أن الجبال والاراضي التي فيها مياه كثيرة محتبسة قريبة من وجه الارض يظهر على سطوحها نداوة ظاهرة تحس باللمس وترى بالعين، ولاسيما في أول ساعة من النهار وفي آخر ساعة منه، ويظهر ذلك على وجه الأرض ويظهر فيها شبيه عرق ونداوة، ومتى اردت التيقن من ذلك فخذ شيئا من التراب السحيق فغبر به وجه حجارة تلك الجبال وسطح الارض وانتظر الى المساء، فان رأيت ذلك التراب قد تندّى ففيه ماء قريب من وجه الارض. وبقدر كثرة النداوة وقلتها تكون كثرة الماء وقلته، وقربه أيضا أو بعده، ويستدل أيضا بما على وجه الارض من التراب من حيث نعومته وخشونته وغير ذلك من الاحوال، وكذا إذا عجنت شيئا من ترابها ووجدت فيه صمغية فهي ريانة فيها ماء كثير، واذا رأيت المدار الذي على وجهها يابسا فلا ماء فيها، وكذا

يستدل بالسمع، وذلك بوضع الاذن قريبا من الارض، فإن سُمع في باطنها دوى في غور من الجبل فثم الماء. (١٥٢)

ثم يشير النابلسي إلى طرائق الاختبار التي جربها الحكماء المختصون لتحديد المواضع التي فيها الماء، فيذكر أن من هذه الطرائق «أن يحفر في الارض التي ينبت فيها النبات حفرة عميقة ثلاثة اذرع، ويؤخذ اناء أو قدر من نحاس أو نحوه كالرصاص شبه الطست أو السطل الكبير سعة عشرة ارطال وقيل من فخار، وتؤخذ قطعة صوف أبيض وتغسل حتى لايبقى فيها طعم، وتنشف وتنفش وتربط بخيط وتلصق بقير(١٥٣) في وسط الاناء وعلى جوانبه من الداخل، بحيث لا تمس الأرض إذا انكفأ الاناء على وجهه، ويدهن جوف الاناء بقير مذاب أو شحم أو دهن، ولاسيما إذا كان القدر من فخار، فاذا غربت الشمس كفأت ذلك الاناء على وجهه في اسفل تلك الحفرة وغطيته بحشيش أو تراب قدر ذراع، وقيل حتى تمتلأ الحفرة، فاذا كان من الغد قبل طلوع الشمس يزال ما غطى به ذلك الاناء برفق، ثم يقلب وينظر في ذلك الصوف، فان كان قد استنقع الصوف في النداوة ففي ذلك الموضع ماء كثير قريب، وان كان قد ترطب وتندى الصوف فالماء فيه وسط، وان لم يكن كذلك فالماء في غاية البعد، وان كان جافا فليس فيه ماء اصلا، أو حالت دونه طبقة من حجر صلد، وان كان في الصوف الذي استنقع حبات من الماء قد تعلقت فالماء كثير وقريب، وتذاق تلك النداوة المتعلقة بالصوف، فعلى قدر طعمها طعم الماء الدال عليه أو نحوه، وهذا مما جرب مرارا كثيرة». (١٥٤)

ويذكر تجربة اختبار اخرى كان العمل بها وهي أن «تحفر حفرة عمق ذراع، ويؤخذ من تراب اسفلها فينقع في ماء عذب في اناء نظيف، وتذاق التربة فإن كان في طعمها مرارة فتلك ارض عديمة الماء البته، وان كان يضرب الى الملوحة الحادة فعديمة الماء ايضا، وان كان طعمها الى الملوحة الخفيفة فهي اقرب الى الماء قليلا، وان كان لاطعم له فالماء اقرب الى وجه الارض، وان كان الى التفاهة فالماء قريب من سطحها، ويشم ذلك التراب، فان كانت رائحته كرائحة التراب المستخرج

من السواقي والانهار دائمة الماء فبين الماء ووجه الارض أذرع يسيرة، وكذلك الرائحة الشبيهة بالعفونة تدل على قرب الماء، وكذلك الشبيهة برائحة الطحلب» . (١٥٥)

واستدل بأنواع النبات وصفاته على وجود الماء، فالماء يكون قريبا في الارض السهلة التي ينبت فيها البطم والصعتر والسرو والسماق، أما لسان الثور والبابونج والخطمي وكزبرة البير واكليل الملك والخروع والخُبّازي والحندقوق فتنبت في مواضع رطبة قليلة الماء، وقوتها وكثرة اغصانها وورقها وعروقها إذا خصبت تدل على كثرة الماء في باطن تلك الارض وعلى قربه، ومما يدل على قرب الماء وعذوبته أيضا نبات القصب، ولاسيما في فصل الصيف والخريف فهو دال على كثرة الماء في باطن الأرض. (١٥٦)

وإذا ربطنا بين ماذكره النابلسي في القرن الحادي عشر الهجري حول التجارب التي يجريها الحكماء للكشف عن وجود الماء وصفاته من عذوبة أو ملوحة وما أشار إليه ابن الرامي في القرن الثامن الهجري فيما ذكر عن كيفية تكوين ماء الابار اتضح لنا مستوى الخبرة المكتسبة بتواصل العصور التي مرت بها الحضارة الاسلامية(١٥٧)، فيذكر ابن الرامي أن «كل ماء طبقات الارض عذب صاف، وما خرج من ذلك مر أو مالح أو متغير الطعم واللون فهو في الأرض يتغير طعمه أو لونه لاختلاف الارض، لان من الارض طيبا وخبيثا، ودليل ذلك قوله عز وجل «والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لايخرج إلا نكدا» يعني بذلك عز وجل الارض الطيبة، ودليل ذلك عندنا ان الارض التي يكون ترابها تافزا(١٥٨)، إما ابيض وإما احمر وإما اصفر، وتحفر فيها بئر، ولا تتغير الارض بغيرها حتى يطلع فيها الماء، فانه يطلع منها حلو عذب، وما كان من الارض التي تكون طفلا، إما أصفر وإما أسود وإما أبيض لم يحفر فيها بئر ولاتتغير الأرض عن الطفل، فانه يخرج ماؤها مالحا أو مرا أو زعقا بحسب الارض وما خالطها ممّا ذكرنا، واذا كان من الارض المطفلة ثم يحفر فيها، فانه يخرج ماؤها حلوا بقدر تغير التراب الذي يخرج فيه الماء هل يمازجه شيء من الطفل أو يسلم؟ فان سلم

من الطفل أو ما يشبهه فان الماء يسلم، وان مازجه شيء من الطفل يتغير بقدر تغير التراب، وأما الارض الرملية فان كانت ارضها سبخة خرج ماؤها زعقا، وان كانت بعيدة عن السبخة خرج ماؤها عذبا، وتختلف الأرض المرملة فان كانت الارض أولها رمل وبيت الماء طفل يخرج الماء منه صالحا وهذا كله استفهمته وجربته وسألت عنه» (١٥٩).

ونظمت الأحكام الاسلامية حفر الابار في منازل المدن خصوصا ما تجاور منها لتجاور المنازل، والتي ربما يؤثر حفر إحداها على بئر مجاورة، «فاذا أراد رجل أن يحفر في داره بئرا فلا يخلو من ان يستنزف ماء جاره أو لا يستنزفه، فان لم يستنزف بئر جاره ولم يضره في شيء لم يمنع من الحفر في داره، وان استنزف بئر جاره واضر به منع من حفره، ورأى البعض أن يمكّن من الحفر ان كان مضطرا حتى ولو أضر ببئر جاره». وفي بعض الحالات حكمت طبيعة الارض السماح بحفر البئر أو عدمه، فإذا أراد احد حفر بئر في داره، واشتكى جاره من أن حفر هذه البئر ينشف عليه ماء بئره فان الحكم في ذلك لاهل النظر، فان كانت الارض صلبة وقال اهل النظر لاضرر في ذلك لم يمنع، وان كانت الارض رخوة وكان في ذلك ضرر منع». (١٦٠)

ودفعت الضرورة أحيانا إلى اشتراك أكثر من دار في بئر واحدة يغذي ماؤها هذه الدور، ونتج ذلك أيضا من قسمة الدور بين الورثة، ونظمت الاحكام الفقهية استغلال هذه الآبار المشتركة، وحددت نظم قسمتها بين مالكيها، ما يكفل استمرار البئر في تغذية المباني التي تعتمد عليها. وتبع ذلك الاشتراك وجود شبكات من القنوات التي تحمل الماء إلى العقارات التي تعتمد على ماء هذه البئر، أو تلك إذا كان رفع الماء من البئر عن طريق السواقي أو الدواليب أو غيرها من أدوات الرفع، كما كان الحال في القاهرة التي زخرت بهذه النوعية من الآبار التي انشئت عليها السواقي التي ترفع الماء، ويضرب القزويني مثلا جيدا لإحدى المدن التي كان يرفع ماء آبارها بالدواليب لمستويات متعددة حتى يصل إلى سطح الارض، مؤكدا على أهمية إشراف السلطة في المدينة على ذلك، واهتمامها برفع

الماء وتزويد المدينة به، فذكر « أن مدينة «زكندر» مدينـة بالمغـرب اهلها بـربر مسلمون، إذا نزلوا عشرين ذراعا نزل الماء فالسلطان ينصب عليها الدواليب ويُستَقى ماؤها ليظهر الطين، فيخرجه الفعلة الى ظاهر الارض ويغسلونها. . . وماؤها ثلاث دفعات لان من وجه الارض الى الماء عشرين ذراعا فينصب دولاب على وجه الماء فيستقى ويصب في حوض آخر، ثم ينصب على ذلك الحوض دولابا فيستقى، وينصب على حوض آخر ثم ينصب على ذلك الحوض دولابا ثالثا، فيستقى ويجري على وجه الارض».

ونظمت الأحكام الفقهية نظام استغلال الآبار بنوعياتها المختلفة سواء التي حفرت للشرب أو للماشية أو للزراعة، كما نظمت قواعد المحافظة عليها وكنسها واصلاحها بما يحقق المنفعة ويمنع الضرر، كما حددت حريم الابار التي تنشأ في البادية لسقي المواشي، أو تلك التي تنشأ للزراعة بناء على ماورد من حـديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء فيه «البئر البادية خمسة وعشرون ذراعا وبئر الزرع خمسمائة ذراع»، وماجاء في الاثر عن عمر بن الخطاب الذي قال «البئر العادية خمسون ذراعا، وبئر البدا خمسة وعشرون ذراعا، وبئر الزرع بالناضح ثلثمائة ذراع، والعيون خمسمائة ذراع» وما استقر به العرف عند الناس الذين يقولون حريم العيون خمسمائة ذراع، وحريم الأنهار الف ذراع(١٦٢). ومن هذه الأحكام مالم يحدد حريما معينا «لآبار الماشية والزرع والعيون لاختلاف الأرضين لان من الابار ماتكون في ارض رخوة، واخرى تكون في ارض صلبة، أو في صفا فتختلف في ذلك، ولكنه حريم لا ضرر معه، ولاهل البئر منع من اراد أن يحفر بئرا أو شيئا في ذلك الحريم، لانه حق للبئر وضرر بهم، ولو لم يكن على البئر الأولى ضرر من حفر بئر أخرى ضرر لصلابة الارض لكان لهم منعه من مناخ ابلهم أو مرابض أغنامهم وابقارهم» ونخلص من ذلك الى ان حريم الابار انما يضر، ما يضر بها من قرب أو بعد لاحد لذلك. (١٦٣)

وفي المنازل حفرت آبار الماء بعيدة عن آبار الصرف حتى لا تتأثر بها ولاسيما ان من المنازل ما اشتمل على بئر للصرف وأخرى لتزويد المنزل بالماء كما في مدينة

الفسطاط(١٦٤). وقد اعتبر ذلك ايضا في ان تكون المواجل في المدن التي تعتمد على الامطار بعيدة عن آبار الصرف وقنواته مراعاة للنواحي الصحية، وفصلت الاحكام الفقهية فيما قد ينشأ من حالات تتجاور فيها بئر ماء مع بئر صرف في المنزل المجاور، أو قنوات الصرف فيه، وبنيت هذه الأحكام على منع الضرر بناء على المبدأ الاسلامي لا ضرر ولا ضرار. (١٦٥)

واكتسب المعمار الاسلامي خبرة متقدمة في حفر الآبار وطيها بالبناء، وتتضمن المصادر التراثية ما يسجل لنا هذا المستوى من الخبرة في حفر الابار، فيذكر النابلسي مثلا أن طريقة حفر البئر تكون كما يلي: تحفر البئر حتى يصل الحفار إلى الماء، فاذا رآه متغيرا أمسك عن العمل قليلا ثم يذوقه مرة أخرى، فان تغير إلى الملوحة استمر في العمل، وان تغير إلى المرارة غطيت البئر الى الغد، ثم يعاود الحفر حتى يتم العمل، فاذا كان عمق البئر خمس قامات فليكن وسع فمها ستة عشر شبرا يدخل منها الطي نحو ذراعين وتبقى تسعة أشبار، واذا كان عمقها اكثر من خمس قامات يوسع فمها اكثر، وإن أريد تكثير مائها زيد في تعميقها، وإذا أردت أن يكثر ماؤها جدا بحيث يكون معينا فاحفر بئرا أخرى إلى جانبها غير متصلة بها حتى تصل الى الماء، ويكون عمقها اقل من الاولى بنحو ذراع ونصف ذراع ثم احفر ثالثة كذلك ورابعة، ثم أنفذ الابار الاربعة الى الاولى من قعر كل واحدة لتكون الاولى أما لها،لتجمع مياه الجميع فيكثر ماؤها ويتضاعف»(١٦٦)، وهذه الطريقة استخدمت في مجريط العربية (مدريد)، وفي مراكش عرفها العرب قديما وعرفت «بالكظامة»، وقد انتشرت في الفسطاط الآبار المتجاورة المتصلة بعضها ببعض مع اختلاف مستوياتها وربما يكون تكثيرها واتصالها متصلا بهدف تكثير الماء.

ويشير النابلسي إلى وسيلة أخرى من الوسائل التي يمكن بها تكثير ماء البئر والينابيع الظاهرة ايضا، وهي أن يؤخذ مكوك ملح عذب فيخلط بمثله من الرمل المأخوذ من نهر جار وينجم تحت القمر ليلة ثم يؤخذ من الغد، فيذر في اصل الينبوع، أو يلقى منه في البئر كل يوم سبع حفنات بقدر ما تحتمله الكف اليمنى

فقط، فانه عند استكمال ذلك يزيد الماء كثيرا». (١٦٧)

وقد نظمت الأحكام الفقهية ما يكون عليه التعاقد بين العمال ومن يريد حفر البئر باعتبار اختلاف ظروف حفر البئر وطبيعة أرضها، وقرب الماء أو بعده وغير ذلك مما يحقق المنفعة ويمنع الضرر، ولاسيما أن حفر هذه الآبار انتشر في المدن الإسلامية التي تعتمد على مياه الآبار كمصادر أساسية في التزويد بالماء. وفي المدن التي تبعد عنها مصادر الماء الأخرى، أو التي يتكلف نقل مائها كثيرا كما كان الحال في القاهرة التي اعتمدت على ماء النيل في شربها، وعلى الابار في كفاية الحاجات الاخرى من الماء، فانتشرت الآبار في منازلها وكثرت السواقي التي ترفع ماءها، وأصبحت الآبار من المصادر الأساسية في تزويد الوحدات والتكوينات المعمارية بالماء اللازم للاحتياجات الاخرى غير الشرب، واعتمد في الشرب على نقل الماء من النيل في موسم الفيضان إلى صهاريج كبيرة يخزن فيها، ويشرب منه طوال العام، كما كان الحال في الأسبلة التي انتشرت في القاهرة لتؤدى هذا الغرض، وكذلك انتشر السقاءون الذين يحملون الماء على الدواب من النهر إلى المنازل بصفة دورية، وقاموا بوظيفة مثلت جانبا واضحا في حياة المدينة حتى مطلع العصر الحديث.

واستكمالا لغاية التخطيط العمراني للمدينة الاسلامية عملت السلطة في المدينة على سهولة توصيل الماء إلى تكويناتها المعمارية المختلفة، وارتبط ذلك بنظام وتخطيط شوارع المدينة فقد قطعتها، أو امتدت فيها قنوات الماء التي تصل إلى تكوينات المدينة المختلفة، كما أن بعض الوحدات المائية ارتبط انشاؤها بالشوارع باعتبار أنها أنشئت لخدمة المارة فيها كالأسبلة واحواض الدواب(١٦٨). وتأثر هذا التوزيع بنوعية الشارع وحركة المرور فيه تحقيقا للهدف الذي أنشئت من اجله الوحدة المائية، واختلفت هذه الشبكات وطرق توصيل الماء من مدينة إلى أخرى حسب مصادر الماء في هذه المدينة أو تلك. وتشير المصادر التراثية والآثار الباقية إشارات واضحة إلى نماذج رائعة من هذه الشبكات التي تغذي تكوينات المدينة المختلفة. ففي قرطبة أجرى الخلفاء من بني مروان المياه العذبة المجلوبة من جبال

قرطبة لمسافات بعيدة، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها الى القصر الكبير، وأجروها في كل مساحة من مساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص تؤويها، ومنها الى المصانع في صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام المنقوشة(١٦٩)، وقد شهد الاسبان للعرب بالبراعة في انشاء المنشآت المائية التي تغذي المدن وتساعد على الحياة والزراعة، وأقروا انه من دون هذه المنشآت التي أنشأها العرب لكتب الموت عليهم وعلى مدنهم(١٧٠)، وانتشرت بفاس شبكات الماء التي تغذي مبانيها المختلفة في نظام دقيق يشهد بالبراعة وحسن التنفيذ(٧١). وتعتبر دمشق من أروع أمثلة المدن الاسلامية التي برع أهلها في استغلال ماء الأنهار، فيذكر ياقوت أنهم أجروا ماءها في «دورهم ومدارسهم وطرقهم»(١٧٢)، ويشير بنيامين التُطيلي الى أن المدينة يخترقها نهر بردى الذي تحمل مياهه الى دور كبار الناس في أنابيب كما تنقلها القساطل الى الشوارع والأسواق(١٧٣)، «واستغل اهل المدينة جريان ماء النهر إلى دورهم «فجعلوه يأتي بالموائد الغانية، ويروح بالاواني الفارغة» وقد بقى ذلك الى عهد قريب في دور الصالحية التي يخترقها نهر يزيد» . (١٧٤)

وانتشرت الأحواض والصهاريج العامة والسقايات في المدن قريبة من تكويناتها المختلفة لتكون مصدرا للماء يفي بحاجاتهم. وقد أشار ياقوت إلى أنه كان بالقرب من درب الخزارين بواسط حوض كبير لابد من أنه كان يستخدم في تزويد المدينة بالماء(١٧٥)، كما يذكر القزويني أنه كان بحلب في وسطها مصانع للماء المعين(١٧٦). وكشف في الفسطاط والقرافة الكبرى عن سقايات وصهاريج كانت لتغذية المدينة بالماء المنقول اليها عن طريق القناطر، وأنشئت «الموردات» على الخليج المصري لتمكن من استغلال ماء النهر.

وبالاضافة إلى ذلك أنشئت للمجموعات المعمارية الكبيرة شبكات تغذي وحداتها المختلفة بالماء من مصادره المختلفة، ويكفي أن نشير الى مجموعة السلطان قلاوون في القاهرة التي حفر لها بئر خاصة، وانشئت لها ساقية ترفع الماء

إلى «مصنع» كبير مرتفع يغذي المدرسة ووحداتها المختلفة والبيمارستان ووحداته. والقبة في نظام هندسي دقيق يكشف عن براعة المهندس الذي صممها(١٧٧)، وتكررت أمثلة ذلك في منشآت المماليك في القاهرة وخصوصا المنشآت الدينية. (١٧٨)

مما سبق يتضح أن تزويد المدينة بالماء، باعتباره من اهم المرافق، كان بتدبير السلطة المسؤولة عن اختيار موقع المدينة، وتخطيط موضعها، باعتباره حاجة أساسية لحياة المدينة، وكانت مرافقه لخدمة العامة الذين شاركوا بدورهم في تأمين مصادر الماء في منشآتهم الخاصة اعتمادا على هذه المرافق العامة التي وفرتها السلطة، أو بحفر الآبار أو انشاء المواجل والصهاريج التي تكفيهم الحاجة إلى الماء، وبقى دور السلطة في تنظيم انشائها واستغلالها بما يحقق النفع ويمنع الضرر.



هوامش الفصل الخامس

١ ـ محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية بمدينة القاهرة، جـ ١، ص ١٢٠ـ ١٨٣.

٢ ـ اليعقوبي: تاريخ الرسل والملوك، طبعة سنة ١٩٦٢، جـ ١، ص ٣٥. الطبري: المرجع السابق، جـ ١، ص ١٦٧، د. حسن ابراهيم حسن: النظم الاسلامية، ص ١٣٧، رمزية عبد الوهاب الخيرو: ادارة العراق في صدر الاسلام، ص ١٢١. عبد الله بن ادريس: المرجع السابق، ص ١٣٠ـ ١٣١ . محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر المملوكية، ص ٢١: ص ٣٠.

٣ ـ اليعقوبي: التاريخ، جـ ١، ص ١١٧، ١٢٣، طبعة النجف سنة ١٩٦٤.

٤ ـ البلاذري: انساب الاشراف، طبعة القدس، جـ ٤، ف ١، ص ٧٠، ١٦٢.

٥ ـ محمد عبد الستارعثمان: المرجع السابق، ص ٢١ ـ ٣٠ ، ١٦٨ ـ ١٨١.

٦ ـ السمهودي: وفاء الوفاء، جـ ٢، ص ٧١٨ - عبد الله بن ادريس: المرجع السابق، ص ١٦٩.

٧ ـ ابن الربيع: المصدر السابق، ص ٢١.

٨ ـ كان لتحديد مسجد جامع واحد في المدينة المنورة ـ هو مسجد الرسول ـ أثر في اقبال الناس على بيع دورهم البعيدة عنه، ومحاولة الشراء والبناء قرب مسجده صلى الله عليه وسلم، فكانت أحاديثه التي توضح عظم الثواب مع البعد عن المسجد كقوله صلى الله عليه وسلم «إن اعظم الناس في الصلاة أجرا أبعدهم عنها ممشى»، وقوله «الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم اجرا» (ابن تيمية: المرجع السابق، جـ ١، ص ٦٠٠) وكان لهذا اثره في تسهيل الامتداد العمراني وحل مشكلة التكثيف قرب المسجد الجامع.

٩ ـ محمد حماد: تخطيط المدن، ص ١١٩، ١٢٧.

١٠ - Abdel Aziz Duri : Governmental Institutions in The Islamic City , in The Islamic City, pp. 54 - 57.

١١ ـ راجع: محمد جمال الدين القاسمي: اصلاح المساجد من البدع والعوائد، نشر المكتب الاسلامي، الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٩ هـ، بيروت، ص ٤٩ـ ٦٤.

١٢ ـ من أمثلة هذه المدن البصرة، والكوفة، والفسطاط التي كانت دار امارتها داراً أقامها عمرو لسكناه في الاصل، ثم جرى العرف على اتخاذها مقرا للوالي، والقيروان وواسط وبغداد وغيرها (نقولا زياده: مدن عربية، ص ٦٥)، البلاذري: المرجع السابق، ص ٢٧٥،

الجنابي: تخطيط الكوفة، ص ١١٩، ولم يشذ عن هذا التخطيط سوى المتوكلية لظروف انشائها كضاحية ارتبطت عمرانيا بسامراء (اليعقوبي: المرجع السابق، ص ٢٦٤، ٢٦٧.

١٣ ـ الطبري المرجع السابع، جـ ١، ص ٢٤٩ .عيسى سلمان وآخرون: المرجع السابق، ص ٦٣.

١٤ ـ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٤٢، ص ١٤٢ . ياقوت: المرجع السابق، جـ ١، ص ٦٤٢.

١٥ ـ ابن تيمية: المنتقى من اخبار دار المصطفى، جـ ٢، ص ١٩.

١٦ ـ اليعقوبي: المرجع السابق، ص ٢٤٠.

١٧ ـ عيسى سلمان: المرجع السابق، ص ٧٣.

١٨ ـ المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٣١٤.

١٩ ـ ابن الاخوة: المرجع السابق، ص ٣٠٣ـ ٣٥٤.

٢٠ ـ الموصلي: الاختيار لتعليل المختار، طبعة الازهر، جـ ٣، ص ١١٦.

٢١ ـ المقريزي، خطط، جـ ١، ص ٤٠٤.

٢٢ ـ تختلف الأجهزة الإدارية والسياسية التي تدير الاقليم أو الدولة عن الاجهزة المختصة بشؤون المدينة نفسها فلكل منها جهازه الخاص (الدوري: المرجع السابق، ص ٥٩).

٢٣ ـ الدوري: المرجع السابق، ص ٥٩ـ ٦٤.

٢٤ ـ محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية، جـ ١، ص ٣٣ـ ٥٦.

٢٥ ـ هناك من الباحثين من ينكر فضل المدارس الاسلامية على جامعات أوروبا. : S. M. Stern
The Constitution of the Islamic City (in The Islamic City, Oxford, 1970, p. 48).

٢٦ ـ محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية، جـ ١، ص ١٨٠ـ ١٨٧.

٢٧ ـ القزويني: المرجع السابق: ص ١٥٨.

٢٨ ـ حسين مؤنس: الخبر عن قرطبة ومحاسنها، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، مجلد ١٣، سنة ١٩٦٥ـ ١٩٦٦، ص ١٦٥.

٢٩ ـ ليو الافريقي: وصف افريقية ص ٣٢٩ـ ٣٣٠.

٣٠ ـ محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص ١٧٦.

٣١ ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ١٠، ص ٢٤٢.

٣٢ ـ السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، المطبعة الاميرية سنة ١٨١٤، ص ٩ـ ١١.

٣٣ ـ وثيقة وقف الناصر محمد بن قلاوون، ٢٥/٤ محكمة.

٣٤ ـ اليعقوبي: المرجع السابق، ص ١٤.

٣٥ ـ الصابي: رسوم دار الخلافة ـ تحقيق ميخائيل عواد، ص ١٩ـ ٢٠.

٣٦ ـ ابن كثير: البداية والنهاية، طبعة ١٩٣٢، جـ ٩، ص ١٠٣ .

٣٧ ـ . Xavier de Planhol , op. cit, p p. 22 - 23

٣٨ ـ عبد الجبار ناجي: المرجع السابق، ص ١٤٩ .

٣٩ ـ بلباس: المرجع السابق، ص ١٠٩ .

٤٠ ـ ابن دقماق: المصدر السابق، ص ١٠٥ .

٤١ ـ كشفت عن بقايا هذا الحمام سنة ١٩٧٤ بعثة الآثار المصرية وكانت تحت اشراف الاستاذ عبد الرحمن عبد التواب .

٤٢ ـ البيمارستان هو بيت المرضى، معرب، وهو يقابل حاليا «المستشفى» .

٤٣ ـ المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ٤٠٥ .

٤٤ ـ لطف الله قاري: نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأموي، دار الرفاعي للنشر، الرياض سنة ١٩٨٦م، ص ١١٦ .

٤٥ ـ المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ٤٠٥ .

٤٦ ـ المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ٤٠٦ .

٤٧ ـ Aslanapa, Oktay , Turkish Art and Architecture, Faber and Faber, London 1971, p p. 106 - 107 .

٤٨ ـ ليو الافريقي: المرجع السابق، ص ٢٢٨ .

٤٩ ـ محمد عبد الستار عثمان: الآثار المعمارية للسلطان برسباي بمدينة القاهرة، ماجستير مقدم لجامعة القاهرة سنة ١٩٧٧م، ص ٥١ .

٥٠ ـ . Aslanapa. , op. cit., p p. 147 - 161

٥١ ـ د. عرفان سامي: نظريات العمارة، ص ١٢٨، بيتر فارب: المرجع السابق، ص ١٣٩ .

٥٢ ـ ليو الافريقي: المرجع السابق، ص ٢٠٤ .

٥٣ ـ Pedro Chalmeta, Market in Islamic City, op. cit. p. 107.

٥٤ ـ ليو الافريقي: وصف إفريقية، ص ٢٤٣ .

٥٥ ـ د. سعيد عاشور: المجتمع المصري في العصر المملوكي، ص ٧٨٧

٥٦ ـ محمد عبد العزيز الحسيني: المرجع السابق، ص ٤٤ .

٥٧ ـ اليعقوبي: المرجع السابق، ص ٧٥ .

٥٨ ـ كاظم الجنابي: المرجع السابق، ص ٨٦ .

٥٩ ـ السمهودي: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٧٥٠ .

٦٠ ـ ابن عبد الحكم: المرجع السابق، ص ١٣٦ . و Hathloul , op. cit. p. 67

٦١ ـ البكري: المغرب في ديار بلاد إفريقية والمغرب، باريس سنة ١٩١١م، ص ٥٢ .

٦٢ ـ السمهودي : جـ ٢ ، ص ٧٥٠ـ ٧٥٢ .

٦٣ ـ بحشل : المرجع السابق ، ص ٣٩ .

٦٤ ـ د. منير حجاب : الدعاية السياسية في العصر الأموي ، مؤسسة سعيد للطباعة ، سنة ١٩٨٦ ، ص ٥٣ ، ٢١٥ .

٦٥ ـ د. عبد العزيز الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٨٣ـ ٨٤ .

٦٦ ـ اليعقوبي : المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .

٦٧ ـ اليعقوبي : المرجع السابق ، ص ١٨ .

٦٨ ـ Hathloul , op. cit. p 72.

٦٩ ـ السمهودي : وفاء الفاء ، جـ ٢ ، ص ٧٥٢ـ ٧٥٣ .

٧٠ ـ البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٨٤ .

٧١ ـ اليعقوبي : البلدان ، ص ٧١ .

٧٢ ـ لويس ماسينيون : خطط الكوفة ، ترجمة تقي المصعبي ، صيدا ، سنة ١٩٣٩ ، ص ٢٢ .

٧٣ ـ Hathloul , op. cit.

٧٤ ـ الشيزري : المرجع السابق ، ص ١١ .

٧٥ ـ الشيزري : المرجع السابق ، ص ١١ .

٧٦ ـ ابن الاخوة : المرجع السابق ، ص ٩٩ ، الغزالي : احياء ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ .

٧٧ ـ المقريزي : خطط ، جـ ٢ ، ص ٩٤ ، ١٠٦ .

٧٨ ـ الشيزري : المرجع السابق ، ص ١٧ ، ١١٦ .

٧٩ ـ د. عبد العال الشامي : جغرافية المدن عند العرب ، مجلة عالم الفكر ، العدد الاول ، سنة ١٩٧٨ ، ص ١٥٤ .

٨٠ ـ روجيه لوتورنو : المرجع السابق ، ص ٤١ـ ١٦٤ ، عبد اللطيف الحجامي : انقاذ آثار فاس في اطار الحفظ على التراث الاسلامي ، المدن الإسلامية ، ص ٦٤ . و Grunebaum , op. cit. p. 147 .

٨١ ـ حاول بعض الباحثين وضع تصور ثابت رتب فيه هذه الاسواق ابتداء من المسجد الجامع حتى اطراف المدينة . Grunebaum , op. cit., p p. 146 - 147

٨٢ ـ يؤكد ذلك ما ورد في المصادر عن أسواق المدن ، ويمكن أن نأخذ مثالين أحدهما عن اسواق القاهرة (المقريزي : خطط ، جـ ٢ ، ص ٩٣ ومابعدها) وثانيها عن أسواق مدينة فاس (ليو الافريقي : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ ومابعدها) .

٨٣ ـ الشيزري : المصدر السابق ، ص ١٤ .

٨٤ ـ المقريزي خطط . جـ ٢ . ص ٩٦ ، وثيقة برسباي ٨٨١ أوقاف .

٨٥ ـ أحمد المصري: المرجع السابق، ص ١٢١ .

٨٦ ـ اطلق ليو الافريقي هذا المصطلح على شبكة الأزقة التي تنظم على جانبيها الحوانيت، وذكر أنه مشتق من اسم الامبراطور قيصر، ويفسر ذلك اعتمادا على رواية المؤرخين الافارقة الذين ذكـروا انه كان للموظفين الرومانيين والقوطيين فنادق ومخازن مبعثرة هنا وهناك في مدن الساحل الموريتاني يخزنون فيها ما يجبونه من المدينة من ضرائب واتاوات، وغالباماكانت السكان ينهبون هذه المخازن، لذلك فكر احد الاباطرة في إحداث شبه مدينة صغيرة داخل كل مدينة يجتمع فيها التجار المتميزون بقدر من الاهمية الى جانب بضائعهم، وفيها يخزن الموظفون البضائع فيحرص على حمايتها هؤلاء التجار الذين يتولون الـدفاع خـوفا عـلى تجاراتهم.(ليو الافريقي، المرجع السابق، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧).

٨٧ ـ أحمد الطوخي: القيساريات الإسلامية في مصر والمغرب والانـدلس، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، عدد ٢٨ ، سنة١٩٨١ ، ص٨٢ و Grunebaum, op. cit., p.146

٨٨ ـ ابن اياس: المرجع السابق، جـ ٣، ص ١٢٧، جـ ٥ ص ٢٤، أحمد الطوخي: المرجع السابق ص ٦٨ـ ٦٩ .

٨٩ ـ ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٣٧ .

٩٠ ـ المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ٤٠٠ .

٩١ ـ الطوخي: المرجع السابق، ص ٦٩ .

٩٢ ـ ليو الافريقي: المرجع السابق، ص ٢٤٢ .

٩٣ ـ ليو الافريقي: المرجع السابق، ص ٢٤٢، روجيه لوتورنو: المرجع السابق، ص ٨١، الغزالي: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٢٩٧ . الغزالي: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٢٩٧ .

٩٤ ـ ليو الافريقي: المصدر السابق، ص ٩٣ .

٩٥ ـ ليو الافريقي: المصدر السابق، ص ٢٤٧ .

٩٦ ـ ليو الافريقي: المصدر السابق، ص ٢٤٥ .

٩٧ ـ محمد عبد العزيز الحسيني: المرجع السابق، ص ٤٤ .

٩٨ ـ الغزالي: المرجع السابق، ص ٢٩٧ .

٩٩ ـ الشيزري: المرجع السابق، ص ٢٢٠ .

١٠٠ ـ ليو الإفريقي: المرجع السابق، ص ٢٤٨ .

١٠١ ـ الشيزري: المرجع السابق، ص ١١ـ هامش(١).

١٠٢ ـ الشيزري : المراجف السابق . ص ١١ ـ هامش (١).

ومن هنا عرفت الاسواق أحيانا باسم السقائف .

١٠٣ ـ الباعة الجائلون قسمان، قسم يفترش الارض عرف باسم «أرباب المقاعد»، وكان أولئك يبيعون مختلف المأكولات والمشروبات والفواكه والخضروات والخواتم والأساور وغير ذلك من لوازم السيدات، والقسم الآخرهوالذي يسيرفي الطرقات وأفراده ينادون على بضائعهم ويصلون إلى المنازل ليعرضوا سلعهم على اربابها. (ابن الحاج: المدخل جـ ١، ص ١١٢)، قاسم عبده قاسم: الحياة الاجتماعية في عصر المماليك، ص ٤٤، ويمثل سكان الريف الذين يدخلون الى المدينة لبيع منتجاتهم قسما من هؤلاء، (ابن اياس: بدائع الزهور، جـ ٣، ص ٦، جـ ٥، ص ١٢٦).

١٠٤ ـ المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ٩٣.

١٠٥ ـ المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ٩٣ـ ٩٦، ابن الحاج: المدخل، جـ ٢، ص ٧٩ـ ٨٠.

١٠٦ ـ حسين مؤنس: قرطبة، ص ١٧٠.

١٠٧ ـ ليو الافريقي: المرجع السابق، ص ٢٣٣ـ ٢٤٥.

١٠٨ ـ عبد الجبار ناجي: تأسيس البصرة ومراحل تطورها، ص ٦٢.

١٠٩ ـ المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ٨٦ـ ١٠٧.

١١٠ ـ Stern : op. cit. p p. 29 - 30.

عبد الجبار ناجي: المدينة العربية في الدراسات الاجنبية، ص ١٥٥.

١١١ ـ س. م. ضياء الدين علوي: الجغرافية العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ٤١٣ هـ، ترجمة عبد الله يوسف الغنيم، د. طه محمد جاد، الكويت، سنة ١٩٨٠، ص ١٧٧ـ ١٨٠.

١١٢ ـ القزويني: المرجع السابق، ص ٣١٣.

١١٣ ـ عبد الجبار ناجي: تأسيس البصرة، ص ٦١.

١١٤ ـ القزويني: المرجع السابق، ص ٤٤٢.

١١٥ ـ ابن الربيع: المصدر السابق، ص ١٨ـ ٢١.

١١٦ ـ البغدادي: المرجع السابق، جـ ١، ص ٧٩، اليعقوبي: المرجع السابق، ص ٢٥٠.

١١٧ ـ حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي والديني والاجتماعي، الطبعة ٧، سنة ١٩٧٤، مكتبة النهضة المصرية جـ ٢، ص ٢٥٣ـ ٢٥٤.

١١٨ ـ ياقوت: المرجع السابق، جـ ٥، ص ١٥.

١١٩ ـ لسان الدين الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول، تونس سنة ١٣١٩هـ، ص ٣١.

١٢٠ ـ ليو الافريقي: وصف افريقية، ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر، دار المغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٣، ص ٢٠٢.

١٢١ ـ د. سعد عبد العزيز الراشد: الربذة: صورة للحضارة الاسلامية المبكرة في المملكة

العربية السعودية، نشر جامعة الملك سعود، سنة ١٩٨٦ ، ص ٢٤٤.

١٢٢ ـ مجلة اطلال: نشر الادارة العامة للآثار ـ المملكة العربية السعودية، مجلد ١ ـ ٧

١٢٣ ـ ليو الافريقي: المرجع السابق، ص ٣٠٥.

١٢٤ ـ ياقوت الحموي: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٦٠.

١٢٥ ـ ابن الرامي: المرجع السابق، ص ٣٣٦ ـ ٣٧٠.

١٢٦ ـ القزويني: المرجع السابق، ص ٢٧٦.

١٢٧ ـ د. سعد الراشد: المرجع السابق، ص ٤٤ ـ ٥٠.

١٢٨ ـ ابن الرامي: المرجع السابق ص ٣٦٧.

١٢٩ ـ ابن الرامي: المرجع السابق، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٨.

١٣٠ ـ القزويني: المرجع السابق، ص ١٨٩.

١٣١ ـ ليو الافريقي: المرجع السابق، ص ٢٢٧.

١٣٢ ـ القزويني: المرجع السابق، ص ٤٦٢.

١٣٣ ـ ليو الافريقي: المرجع السابق، ص ٢٣٣.

١٣٤ ـ القزويني: المرجع السابق، ص ١٠٣.

١٣٥ ـ اطلق ايضا مصطلح «شاذروان» على قناطر الماء حيث يذكر القزويني في حديثه عن «تستر» أن الماء يدور حولها وبها الشاذروان الذي بناه شابور وهو من أعجب البناء واحكمه امتدادا يقرب من ميل حتى يرد الماء الى تستر وهو صنعة عجيبة مبنية بالحجارة المحكمة واعمدة الحديد وملاط الرصاص، وانما رجع الماء الى تستر بسبب هـذا الشاذروان والا لامتنع لانه على نشز من الأرض، (القزويني: المرجع السابق، ص ١٧٠). وفي الاسبلة المملوكية وجد أن الشاذروان أيضا وهو اللوح الرخامي المحفور على هيئة قنوات تجعل السبيل مائلا ليجرى عليه الماء فيبرد، وفي العصر العثماني اطلق مصطلح الشاذروان على الفسقية التي تتوسط صحن الجامع أو المدرسة، وتحيط بها دعائم أو أعمدة متصلة بعضها ببعض بواسطة ساتر من الرخام والمعدن المشغول المفرغ ترتكز عليه قبة أو سقف مخروطي.
Aslanap , Turkish Art and Architecture, London 1971, p. 343.

١٣٦ ـ د. فريد شافعي: العمارة الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ـ نشر عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود سنة ١٩٨٢ ، ص ٣٥، العمارة العربية في مصر الاسلامية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، مجلد ١، ٥٠١ ـ ٥١٠ و
Creswell , Early Muslem Architecture, p p. 329 - 232.

١٣٧ ـ القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، ص ٣١٥.

١٣٨ ـ البغدادي: المرجع السابق، جـ ١، ص ٧٩.

١٣٩ ـ د. محمود مكي : مدريد العربية، ص ٦٠-٦٦.

١٤٠ ـ د. محمود مكي : المرجع السابق، ص ٦١.

١٤١ ـ حتى يجري الماء في اتجاه معين يحتاج الى ميل في هذا الاتجاه يقدر بملم لكل متر، وبحساب نسبة بعد المآخذ عن المصب، الى الفارق بين المستويين في المصدر والمصب من حيث الارتفاع، نجد أن الانحدار يبلغ لكل متر ٦,٧ ملم، أو ٨,٣ ملم، أو ١١,٤ ملم أو ١٤,٣ ملم- في ضوء المقاييس المذكورة- وهي نسبة انحدار عالية تساعد على جريان الماء بسرعة وقوة حتى يصل الى وسط المدينة، وعليه فان ما يقال عن أن بعض القنوات كانت تمتد إلى عمق شديد في باطن الأرض ويتوصل اليها بسلالم تصل في بعض الاحيان الى ستين درجة (د. محمود مكي : المرجع السابق، ص ٦٠) يكشف عن أن بعض مناطق المدينة التي توجد بها مثل هذه القنوات العميقة كانت مرتفعة في منسوبها، مما اضطر الى عمل القنوات على هذا العمق.

١٤٢ ـ د. محمود مكي : المرجع السابق، ص ٥٢-٤، د. عبد اللطيف الحجامي : انقاذ مدينة فاس في اطار الحفاظ على التراث الاسلامي، بحث في كتاب المدينة العربية، خصائصها تراثها الحضاري الاسلامي، ص ١٦٤.

١٤٣ ـ ثنية الخل : ويقال لها خل الصفاح، وهي عند منتهى الحرم من طريق العراق وطريق السيل للطائف (الفاسي : ثناء الغرام بأخبار البلد الحرام)، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري- نشر دار الكتاب العربي سنة ١٩٨٥ ـ هامش ٢ مجلد ١، ص ٥٥٣.

١٤٤ ـ عين المشاش بضم الميم هي عين من العيون الكثيرة عند ملتقى جبل عرفات وجبال الطائف منها المشاش الذي يجري بعرفات ومتصل بمكة. (ياقوت : معجم البلدان، جـ ٥، ص ١٣١).

١٤٥ ـ الازرقي : اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار- تحقيق رشدي الصالح- طبعة دار الاندلس- بيروت، سنة ١٩٨٣، جـ ٢، ص ٢٣٠-٢٣٢.
الفاسي : المرجع السابق، مجلد ١، ص ٥٥٣.

١٤٦ ـ المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر : تحقيق- محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، سنة ١٩٦٤، جـ ٤، ص ٣١٧، الفاسي : المرجع السابق، مجلد ١، ص ٤٥٤.

١٤٧ ـ ليو الافريقي : المرجع السابق، ص ٢٥١.

١٤٨ ـ محمد عبد العزيز الحسيني : قرطبة درة الأندلس، مجلة المدن العربية، نشر منظمة المدن العربية، عدد ١٤ سنة ١٩٨٤م، ص ٤٥.

١٤٩ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص ٤٦٠ ومابعدها

١٥٠ - ليو الافريقي : المرجع السابق، ص ٢٥١-٢٥٢ .

١٥١ - النابلسي : كتاب الملاحة في علم الفلاحة، نشر دار الافاق الجديدة- بيروت، سنة ١٩٧٩ ، ص ٢٢-٢٣ .

١٥٢ - أي القار.

١٥٣ - النابلسي : المرجع السابق، ص ٢٣- ٢٤ .

١٥٤ - النابلسي : المرجع السابق، ص ٢٤ .

١٥٥ - النابلسي : المرجع السابق، ص ٢٤ .

١٥٦ - برع المسلمون في استنباط الماء وسارت عمليات استنباطه وفق اصول علمية تبلورت في النهاية في وجود علم مختص بهذه العمليات يسمى علم «الريافة» .

١٥٧ - التافزا بتشديد الزاي نوع من الحجارة ليس من الصلب القوي، وهي مقاطع معروفة في تونس بهذا الاسم وارضها غير صالحة للزراعة. الطفل (الطين) ابن منظور: لسان العرب، جـ ١١، ص ٤٠٤ .

١٥٨ - ابن الرامي : المرجع السابق، ص ٤٥٥ ، ص ٤٥٦ .

١٥٩ - ابن الرامي : المرجع السابق، ص ٤٥٧-٤٥٨ .

١٦٠ - القزويني : المرجع السابق، ص ١٩٩- ٢٠٠ .

١٦١ - ابن الرامي : المرجع السابق، ص ٤١٥ ، ٤٣٨ .

١٦٢ - ابن الرامي : المرجع السابق، ص ٣٣٨ .

١٦٣ - George T. Scanlon , Preliminary Report : Excavation at Fustat, 1964 in J. of American Research Centre in Egypt, Vol. IV,p p. 7 - 28, Vol. V (1966) p p. 83- 112, Vol. VI (1967) p p. 65 - 86.

١٦٤ - ابن الرامي : المرجع السابق، ص ٤١٥ .

١٦٥ - النابلسي : المرجع السابق، ص ٢١ .

١٦٦ - النابلسي المرجع السابق، ص ٢١-٢٢ .

١٦٧ - نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ٣٣، ١٣٢ ، عبد الرحمن عبد التواب: قايتباي المحمودي، ص ١٩٤، ٢٠٠ .

١٦٨ - محمد عبد العزيز الحسيني : المرجع السابق، ٤٥ .

١٦٩ - تيمور باشا: أعلام المهندسين في الاسلام، ص ١٢ .

١٧٠ - ليو الافريقي : المرجع السابق، ص ٢٢٣ ، ٢٧٤ ، روجيه لوتورنو: المرجع السابق، ص ١٦٤ .

١٧١ - ياقوت: المرجع السابق، جـ ٢ ، ٥٩ .

١٧٢ - بنيامين التُطيلي: الرحلة-تعريب عزرا حداد-طبعة بغداد سنة ١٩٤٥، ص ١١٦-١١٧.

١٧٣ - صلاح الدين المنجد: دمشق في نظر الأندلسيين، ص ٤١، وقد ذكر أنه شاهد هذه الطريقة بنفسه في دور المدرسة الصالحية.

١٧٤ -عبد القادر سليمان المعاضيدي، خطط واسط في العصر العباسي، مجلد ٣٤، سومر، ص ١٨٦.

١٧٥ - القزويني: المرجع السابق، ص ٧١٣.

١٧٦ - وثيقة وقف٧٠٦،جـ وزارة الاوقاف، د. محمد سيف النصر ابو الفتوح، أضواء جديدة على مدرسة السلطان قلاوون- مجلة كلية الآداب- جامعة صنعاء، العدد ١٩٨٤/٢، ص ١٠٧.

١٧٧ - محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية، ص ٢١٥-٣٠٣، ٣٣٠-٣٣١.



الفصل السادس

الحياة السياسية في المدينة الإسلامية

السياسة هي لغة تدبير شؤون الناس وتملك أمورهم، والرياسة عليهم، ونفاذ الأمر فيهم، جاء في اللسان: السوس: الرياسة، يقال ساسهم إذا رأسهم: ويقال: سوسوه وأساسوه إذا رأسوه، وساس الأمر سياسة.والجمع ساسة وسواس(١) . وفي الحديث الشريف الذي يرويه أبو هريرة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ان بني اسرائيل كانت تسوسهم الانبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وأنه لا نبي بعدي، إنه سيكون خلفاء. وفي هذا الحديث الذي رواه البخاري وابن ماجة وابن حنبل نجد السياسة بمعنى الادارة وفن قيادة الدولة وسياسة المجتمع والناس. ولقد تكرر وردد هذا المصطلح بهذا المعنى في العديد من الأحاديث النبوية.

وقد عرف تراثنا العربي الاسلامي فن التأليف في «السياسة» مستخدما هذا المصطلح منذ القرن الثاني الهجري في صلب الكتب وفي عناوينها، ومن أمثلة ذلك «كتاب السياسة» لقسطا بن لوقا البعلبكي، و«كتاب المتوج في العدل والسياسة» للصالي، وللكندي الفيلسوف رسائل عدة في «السياسة» و«سياسة العامة»، ولأحد تلاميذه أحمدبن الطيب «كتاب السياسة المدنية» وموضوعه ما نسميه اليوم «الاقتصاد السياسي»،وللماوردي كتاب سياسة الملك، ولابن أبي الربيع كتاب «سياسة المالك في تدبير شؤون الممالك على التمام والكمال»، ولابن رضوان المالقي «الشعب اللامعة في السياسة النافعة»، ولابن الأزرق «بدائع السلك في طبائع الملك»، وللكتاب عنوان آخر هو «تحبير السياسة في تدبير الرياسة»، وغيرها كثير. وهذه المؤلفات كانت لتوجيه الحكام إلى الطريق الواضع برسم السياسة النافعة، ومنها ما ألف بطلب الحكام أنفسهم، ومنها ما تطوع بتأليفه المؤلفون رغبة في تصحيح المسار السياسي إذا ما شابه انحراف.

وهذه المعاني هي ما تدل عليه كلمة Policy في اللغة الانجليزية. فهي التدبير أو الرياسة أو طريقة الحكم وأشكاله في قطر من الأقطار. (٢)

أما السياسة اصطلاحا فيختلف معناها ويتنوع بين المفكرين المسلمين والمحدثين. فمعناها حديثا هو فن الحكم، أي تدبير الحاكمين لشؤون المحكومين، وتوفير الحياة الطيبة لسائر طبقات الشعب، وهي الأسلوب الذي يجب أن يتبع في معاملة كل طبقة بعيدا عن الظلم والاستبداد والاستغلال. «وعلم السياسة على هذا هو ما يبحث في حكم الأمم من حيث أشكاله ونظمه ومقدار ملاءمته لأحوال الشعوب». (٣)

وانبنى مفهوم السياسة لدى علماء المسلمين على فكرة الخلافة أو الإمامة، واختلفت اجتهاداتهم وفقا لثقافاتهم ومذاهبهم، وتنوع الحركات العلمية والفرق الدينية والحركات السياسية التي مثلوها، وتنوع الصراع حول تطبيق هذه المفاهيم من مجرد مقارعة الحجة بالحجة والاقناع إلى الحروب والثورات التي كلفت السلمين ضحايا لا تعد، ونكبات لا تعوض، وإن كانت أثمرت مع ذلك تراثا ضخما في الفكر السياسي الذي استفادوا منه من الثقافات الماضية والحضارات السابقة، وادخلوا ذلك في أحاديثهم وكتاباتهم وتفكيرهم(٤). وأثرت أحداث التاريخ الاسلامي تأثيرا مباشرا في هذا الفكر سلبا وايجابا في مراحله المختلفة.

وأدرك المسلمون أهمية الدور السياسي في «نشأة المدينة» ويبلور ذلك بوضوح قدامة بن جعفر في تصوره الذي يعرض فيه كيفية نشأة المركز الحضري، حيث يشير إلى أن الإنسان له طبيعة خاصة تختلف عن طبائع المخلوقات الأخرى، فلا هو «في منزلة الملائكة المقربين عاليا، ولا في محلة سائر الحيوان البهيمي مبطوحا، وجعله الله لاختلاط أحواله مكلفا مأمورا منهيا، واحتاج بما فيه من كثرة التمييز إلى أن يسوس ما خلط فيه من البهيمية لكثرة تصاريف ما في قوة التمييز من الأفعال وزيادتها على ما يفي به الواحد من الناس، احتيج الى الاجتماع والتمدن ليكون

في المدينة ناس كثيرون، يتصرفون في هذه الأفعال المختلفة، ومع اختلاف الصيغ الكثيرة، واجتماعهم في المدينة يتصل بذلك الأفعال المختلفة التي يلزم قودها إلى حسن السيرة وسداد الطريقة، فعند ذلك ومن أجله وقع الاضطرار إلى «السياسة» التي هي قود الملوك والأئمة رعاياهم الذين ينقادون لهم، ويدخلون تحت طاعاتهم الى الأفعال الحميدة المرضية والطرائق السديدة القويمة». (٥)

ورسم الاسلام المنهج السياسي الواضح للامة الاسلامية، وتعدى ذلك الى تنظيم علاقة الدولة الاسلامية بغيرها من الأمم. وفيما ذكره ابن خلدون ما يوضح أسس هذا المنهج بقوله: «لما تبين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا.. فصاحب الشرع يتصرف في الأمرين.. أما في الدين فمقتضى التكاليف الشرعية التي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها.. وأما سياسة الدنيا فمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري». ويوضح تفاصيل ذلك فيقول: «فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة فكأنها الإمام الكبير والأصل الجامع، وهذه كلها متفرعة منها وداخلة فيها لعموم الخلافة وتصرفها في أصول الملة الدينية والدنيوية، وتنفيذ الشرع فيها على العموم» (٦)، وفي اطار هذا المنهج تشكلت المؤسسات السياسية بالمدينة الاسلامية، وإن تميزت مدن العواصم بوجود مستويين من المؤسسات: المستوى العام للدولة التي تشكل المدينة عاصمتها، والمستوى الخاص بالمدينة كتكوين مدني فرعي في الدولة ممثلا في المؤسسات الخاصة بهذه المدينة أوتلك كوالي المدينة وصاحب الشرطة والمحتسب والقاضي، وما يعاونهم من أجهزة ادارية تتولى ادارة شؤون المدينة وتنظيم الحياة فيها. (٧) واتصلت سلطات المدينة اتصالا مباشرا بالدولة باعتبار أن سلطة الدولة هي مصدر هذه الولايات المختلفة من حقها التعيين والعزل وفق متطلبات الحكم والسياسة. (٨) وشكلت المدن الكبيرة مراكز ادارية لاقاليمها، وتبعتها المدن الأقل في تنظيم متدرج يشمل كل مراكز الاقليم الاستيطانية، وقد يحدث أن تتبادل هذه المدن مراكز الصدارة في الأقليم من فترة

إلى أخرى مما ينعكس بالتالي على وضعها الاداري والعمراني، وبذلك شكلت الاقاليم مناطق ادارية تابعة للسلطة المركزية ودواوينها في العاصمة، ولاسيما فيما يتعلق بالخراج والمكوس التي يتولى الولاة ارسالها من اقاليمهم إلى العاصمة. وفي حدود هذا الاطار تطورت وتغيرت النظم الادارية بتطور الحياة واختلاف السياسات من دولة الى اخرى ومن عصر الى آخر. وظل الأمر كذلك حتى تم الفصل بين السلطة الدينية والمدينة في العصر العثماني تأثرا بالاتجاهات السياسية المعاصرة.

وانعكست الحياة السياسية بصورها وأشكالها المختلفة انعكاسا واضحا على المدينة الاسلامية باعتبارها الوعاء، ويهمنا أن نوضح فقط مظاهر ذلك ولاسيما فيما يتعلق بالتكوين المادي للمدينة الاسلامية.

وُسمت المدينة بسمات النظام السياسي والفكر الاجتماعي اللذين نشأت فيها ، ويعكس الشكل المادي للمدينة بصورة أو بأخرى هذاالنظام، فقد عكست المدينة القديمة النظام الدكتاتوري الذي شكلها وساد حياتها، وعكست المدن اليونانية فكر مجتمعها الذي يبحث عن نفسه فكرا ووعيا من خلال السوق والمسرح والاكربول ليصوغ مبادىء وأفكار حياة المدينة الفضيلة، وجسدت المدينة الرومانية السياسة العسكرية الاستعمارية التي انتهجها الرومان، حتى أن روما الإمبراطورية لم يكن في مقدورها أن تقدم لجماهيرها الحضرية فرصة المشاركة الفعالة في الشؤون العامة، كما فعلت أثينا لمواطنيها، كما لم تستطع روما أن تعطي سكانها ذلك الشعور بالذاتية المستقلة التي ينميها من خلال التجمع العام والساحة والمعبد والمسرح المدرج، ولذلك قامت المباني العامة الضخمة مثل الحمامات العامة وساحات الاحتفالات بدور التلهية بدلا من المشاركة.(٩)

ووجدت المدينة الإسلامية في الإسلام دستورا واضحا كان عليها فقط أن تطبقه، وكان السعي وراء توصيل أفكاره للعامة من مهمة الفقهاء والعلماء المفكرين الدينيين الذين حاولوا ذلك وان اختلفت مذاهبهم. واصبح الفقه

الاسلامي منهجا متكاملا لشعب الحياة الانسانية كلها في العقيدة والعبادة والاجتماع والاقتصاد والتشريع والسياسة، لان الطور الذي وصل اليه الفقه الاسلامي في آخر مراحله كان بناء متراصا ينظم العمران البشري، وأنواع المعاملات والعلاقات الانسانية للمسلمين تنظيما دقيقا، وهو ما يعطي التشريع والفقه الاسلامي أهمية كبيرة، لأنه يتناول الحياة الاسلامية في أخص مقوماتها حيث كانت شريعة الاسلام هي القاعدة التي اقيم عليها بناء أمته، والمنطلق الذي ارتكزت عليه حضارتها.(١٠)

وتناظر أحكام الفقه الاسلامي المتعلقة بالتكوين المادي للمدينة الاسلامية تلك التقنينات المدنية (Civil Laws) التي حكمت التكوين المادي للمدينة اليونانية أو المدينة الرومانية، فقد شكلت هذه الأحكام التكوين المادي للمدينة الاسلامية وفق قيم الدين الاسلامي، وانعكس ذلك على تخطيطها العام وتكويناتها المعمارية، كما أوضحنا ـ .

وكان لسقوط روما وظهور الاسلام كقوة سياسية على مسرح الاحداث أثر كبير في تاريخ المدينة العالمي، وكان من نتائجه المباشرة ازدهار المدن الاسلامية الناشئة في الوقت الذي اضطربت فيه أحوال المدن الأوروبية اضطرابا واضحا شمل حياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية(١١) حتى أن هذه الفترة من تاريخ أوروبا عرفت بالعصور المظلمة، واستمر ذلك ألف سنة بعد سقوط روما، وتسببت الحروب والأوضاع السياسية غير المستقرة في هجرة الناس من المدن الى الريف، فاعتمد الاقتصاد على الزراعة، وحاول الحكام امتلاك الاراضي التي اعتمد عليها الشعب في حياته المعيشية، فساد النظام الاقطاعي، وأصبح الناس أتباعا للحكام، وفي مقابل حمايتهم كانوا يقومون بخدمة الحكام ويعملون في أراضيهم، ومع زيادة الصراع بين الحكام باتت الحاجة ملحة للتحصين، ومع انتشار الدين المسيحي وجد الناس في الاديرة ملاذا لحمايتهم، مما قوى مركز الكنيسة بجانب الحكام، فاجتمعت السلطة الدينية والسلطة الزمنية لحكام

الاقطاع داخل الأسوار الدفاعية التي تبنى لهذا الغرض. ومع توفير الأمن للمدن عاد الناس إلى حياتها، فاستفاد الحكام من ذلك، وطالبوا الأهالي بأتاوات عالية كثمن حمايتهم في ارضهم. وأدى الاتجاه إلى المدن إلى زيادات نشاطها التجاري في حوالي القرن الحادي عشر الميلادي، كما أن هذا الاتجاه المدني شجع الحكام على اعطاء بعض الحريات، واستنوا بعض القوانين لتنظيم التجارة والصناعة وانتاج الحرف المختلفة وحمايتها، وأدى هذا النشاط التجاري والصناعي إلى ظهور طبقة التجار الأغنياء، وظهور نظام اجتماعي جديد كان له أثره في تطور تخطيط المدينة الأوروبية في العصور الوسطى أدى إلى تحويل ميدان الكنيسة إلى سوق عامة.

وفي ثنايا هذا التاريخ للمدينة الأوروبية في العصور الوسطى ظهرت النقابات كشكل سياسي ناتج عن الصراع بين رب الاقطاع ومواطني المدن. فالمدن كانت تطالب بحقوق تشكل تهديدا للسادة الاقطاعيين. وأدى ضعف النظام الاقطاعي وفقره ولا مركزيته إلى قيام المدن الحرة، وكانت الحرية في الهواء الذي تتنفسه المدينة، فالقِنّ الذي يمضي في المدينة فترة تزيد على السنة بيوم واحد يصبح حرا بحكم القانون، ولم يكن على مواطن المدينة أداء الرسوم والخدمات الاقطاعية. وكانت المواطنة ذاتها تعني حرية التعاقد والحيازة والعمل، وحرية الانفاق والزواج دون الحصول على موافقة السيد، ودون دفع الرسوم، ولقد حلت المواطنة محل روابط الدم والأرض والأسرة والتحالفات الإقطاعية، وأصبح المواطنون أفرادا لهم استقلالهم الذاتي، يتجمعون معا بحرية لانشاء حكوماتهم وسن قوانينهم، ويتحدون في جهد مشترك،ويتحالفون في روابط مشتركة لصالح «الكميونة أو الجماعة المحلية». (١٢)

ونخلص من هذا إلى أن طبيعة الحياة في المدينة الأوروبية هي انعكاس واضح لحياة مجتمعها الذي مر بمراحل تطور وصراع مغايرة تماما لحياة المدينة الاسلامية، ويكفي أن «حق المواطنة» الذي انتهت إليه المدينة الأوروبية في العصور الوسطى وحتى مطلع العصر الحديث كان حقا مبدئياً أقره الإسلام من منطلق القاعدة

الاسلامية «يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم»(١٣). فالمدينة الاسلامية مجتمع الناس المتساوين في الحقوق والواجبات في اطار وجود الطبقات، والتقوى مقياس الأفضلية، وهو مقياس ينتهي في كل الحالات لصالح المدينة. ومن هنا تحققت المعادلة التي سعى إليها أهل أثينا، وضاعت في روما، وصارعت من أجلها المدينة الأوروبية في العصور الوسطى. ومن ثم يجب اعتبار ذلك عند الربط أو المقارنة بين نشأة الاصناف والحرف في المدينة الإسلامية ونشأة النقابات في المدينة الأوروبية، لأن المنطلق مختلف في كل منهما وان تشابها في بعض المظاهر.(١٤) وفي حدود هذا الاطار يمكن مراجعة كل الآراء التي قيّمت مؤسسات المدينة الاسلامية في اطار مقارنتها بمؤسسات المدينة الأوروبية، وغيرها من الآراء التي أنكرت الكيان السياسي للمدينة الاسلامية.

وفي حصر سريع لبعض هذه الآراء نجد ان منها ما بعد عن التصور الحقيقي للاسلام باعتباره دينا مدنيا، فيذكر «هاموند» أن الإسلام اعتبر المدينة مجرد وجود ديني لا سياسي»(١٥)، ومنها ما أنكر وجود مؤسسات مدنية بالمدينة، فيذكر «برنارد لويس» أن المدينة الإسلامية تخلو من أي مؤسسات مدنية(١٦)، ويعضده في ذلك «بلانهول»(١٧) و«كارديت» اللذان يقولان إن المدينة الإسلامية خالية من المؤسسات الإدارية، ولم تكن تتمتع بالاستقلالية(١٨)، و«شتيرن» الذي يشير إلى أن المدينة الإسلامية خالية من المؤسسات المدنية. ويعلل ذلك بأن المجتمع الإسلامي لم يرث أيا من المؤسسات المدنية من الحضارات القديمة كاليونانية والرومانية، كما أن الإسلام لم يطور أيا من هذه المؤسسات ذاتيا، ويرى أن الحضارة الاسلامية كان في استطاعتها أن تسيطر على ما كان قائما قبل الفتح الإسلامي من مؤسسات مدنية قديمة وتطورها، لكنها لم تقم بذلك لانتهاء دور فعالية المؤسسات المدنية القديمة، فلم يبق هناك شيء يمكن لهذه الحضارة أن تستعيره»(١٩). وانتهت بعض هذه الآراء تبعا إلى انعدام روح المواطنة لدى مواطن المدينة الإسلامية.

واتجهت بعض الآراء إلى تقييم المدينة الإسلامية تقييما خاصا يتصل بفحوى المفاهيم التي أشارت إليها الآراء السابقة ، فأشـارت إلى أن المدينة الإسلامية على الرغم من أنها منعزلة ـ نسبيا ـ وغير ثابتة ودون رأس أو حكومة إلاأن بينها عددمن الروابط الوظيفية المهمة والفضائل المشتركة والأنظمة الموحدة التي تميـزت بها، وأعطتها الحياة في أن تبقى حية كمراكز ثقافية فعالة(٢٠) . وينطبق ذلك أيضا على اطلاق «جرونباوم» على المدينة الإسلامية مصطلح town لوصفها في مرتبة أقل من المدن الأخرى التي يطلق عليها مصطلح city(٢١)، وإذا ما عـدنا إلى تصنيف الجغرافيين المسلمين لمراكز الاستيطان اتضح قياسـا أن مصطلح town يعـادل مصطلح «بلد» ،وفي ذلك ما يوضح قصد «جرونباوم» عن استخدام هذاالمصطلح الذي يومىء إلى انعدام وجود المؤسسات السياسية في المدينة الاسلامية .

ولما كان انشاء المدن واختيار مواقعها وتوجيه العمران فيها من مهمات السلطة المركزية للدولـة فقد كان لتوجيهات سياسة هذه السلطة أثر واضح على كثير من المدن الاسلامية التي ارتبطت ارتباطا مباشرا بتحقيق هدف سياسي . وقد أشرنا إلى منهج الرسول صلى الله عليه وسلم وأثره في عمران المدينة المنورة وتكوينها المعماري ، وهو النموذج الذي أثر تأثيرا واضحا في مدن الامصار التي أنشئت في عهـد الخلفاء الـراشدين كـالبصرة والكـوفة والفسـطاط ثم في عهد الأمـويين كالقيروان .

وارتبط توجيه السلطة المركزية في المدينة المنورة ـ في اختيار مواقع هذه المدن وتخطيط مواضعها وشكلها المادي ـ بالظروف التي كانت تمر بها الدولة الاسلامية حينذاك . وارتبط النمو السريع لهذه المدن بـاشتداد حـركة الفتـح الاسلامي ، وهجرة كثير من القبائل العربية اليها للانضمام الى الجيوش الفاتحة . (٢٢) .

وبعدما هدأت حركة الفتوحات اتجهت سياسة التعمير في هـذه المدن نحـو تحويلها إلى مدن مستقرة تعتمد على نشاطاتها الاقتصادية المختلفة ، بعد ما كان الاعتماد على الخراج والغنائم الواردة من البلاد المفتوحة ،وانعكس ذلك على الهيئة

المادية للمدينة حيث ظهر الاهتمام بزارعة الارض وشق الانهار وبناء الاسواق لممارسة النشاطات التجارية والحرفية، ولم تكن القبائل المتوطنة في هذه المدن قادرة جميعها على التكيف مع هذا التحول ولاسيما القبائل البدوية التي لم تكن على المستوى من التكيف مع القبائل الحضرية، التي سادت بخبرتها في هذا المجال، ومن ناحية اخرى ظهرت الموالي كفئات، ركزت السلطة العربية على استغلالها، شعرت بالغبن الذي دفع في النهاية الى الثورة.

وكان للظروف السياسية التي تولّى فيها الامويون الخلافة، وتحول اسلوب الحكم من حكم يقوم على الشورى كمبدأ اساسي إلى ملك عضوض، سعى الامويون للحفاظ عليه وتدعيمه بأساليب مختلفة، كان لكل ذلك أثره المباشر في ظهور الحركات المعارضة التي أخذت شكل الثورات. وقد انعكس ذلك كله على المدن التي كانت لها صلة مباشرة بذلك، بل إن نشأة بعض المدن ارتبطت بمحاولات السيطرة على ما يدور بهذه المدن كواسط التي انشأها الحجاج للسيطرة على مدينتي الكوفة والبصرة من جهة، وحتى يعزل جنده عن التأثر بما يجري في هاتين المدينتين. وفي العصر العباسي انشأ المنصور بغداد ليتجنب مخاوف الثورة عليه من الكوفة التي أقام فيها بعض الوقت.

وارتبط انشاء مدن العواصم باعتبارات سياسية مباشرة تحقق هدف الاستقرار في فترة التأسيس، وتكون منطلقا لتحقيق الاهداف السياسية التي ترمى لها الدولة، وفي هذا الاطار سارت مدن العواصم الإسلامية ابتداء من المدينة المنورة فالكوفة فدمشق فبغداد فقرطبة فالقاهرة وغيرها من مدن العواصم للدويلات الإسلامية المستقلة شرقا وغربا على مدى فترات التاريخ الإسلامي المتعاقبة.

ويقيّم «توينبي» هذه التجربة من منظور تاريخي، فيشير إلى فشل الدولة العربية في العصور الوسطى في اتخاذ عاصمة ملائمة، أو فشلها في اتخاذ مدن تؤدي دور العواصم، فعندما اتخذ الأمويون دمشق عاصمة فشلوا في السيطرة على خراسان، وعندما اتخذ العباسيون بغداد عاصمة فشلوا في السيطرة على شمال

افريقية وإسبانيا ، ويصل إلى نتيجة مفادها أن العرب لو اتخذوا سلسلة من العواصم في المدن القديمة مثل طيسفون وأنطاكية والاسكندرية لكانوا قد نجحوا في السيطرة على جناحي الامبراطورية الشرقي والغربي»(٢٣)، وهوتصور صاغته حركة التاريخ الإسلامي صياغة مناظرة بفعل تيارات فكرية ودينية وسياسية أدت إلى انقسام الدولة الاسلامية وتفتتها في دويلات انشئت لكل منها عاصمتها التي تسيطر سياسيا على هذا الاقليم أو ذاك. لكن هذا لم يمنع أيضا من تبدل دول الحكم وسقوط عواصمه ،أو استمرارها استجابة لسنة الصراع السياسي.

وتأثر التكوين المادي لهذه المدن بوظيفتها السياسية كعاصمة للدولة، فتضمنت من التكوينات المعمارية ما يقوم بهذه الوظيفة كالقصر والدواوين وبيوت الضيافة، وما يتبع ذلك من مراسم خاصة انعكست على تخطيط شوارع المدينة وميادينها وأبوابها. وقد أشرنا إلى أثر توفير الأمن للخليفة أو الحاكم في تخطيط المدينة حتى أننا وجدنا مدينة كبغداد وجه تخطيطها توجيها خاصا يحقق هذا الهدف. وتطور الأمر حتى انتهى إلى انشاء ما يسمى بالمدن الملكية التي يقتصر سكانها على الخليفة وحاشيته كالقاهرة وفاس الجديدة وغيرها. وفي غالبية المدن اتجه تأمين الخليفة أو الحاكم إلى تحصين المنطقة التي يقطنها بتحصينات خاصة سواء كانت هذه المنطقة «قصبة» المدينة كما في مدن الأندلس، أو كانت عبارة عن «قلعة» خاصة لمركز الحكم والادارة تنفصل عن محيط المدينة أو تتصل بها.

وبجوار المدن القديمة انشئت مراكز للسلطة إما في داخل المدينة وإما في أرباض جديدة اشتملت على قصر الحاكم والإدارة والقوة العسكرية(٢٤)، وانسحبت على بعض المدن الإسلامية تسمية «المدن الدبلوماسية» ووصلت السلطة السياسية أقصى درجات الترف فأنشأت ما يطلق عليه «مدن المتعة» كمدينة الزهراء. (٢٥).

والمقارنة بين هذا الأثر في تخطيط مدن العواصم، وما كان عليه الحال في المدينة المنورة في عهد الرسول والخلفاء الزاشدين من بعده، تعكس أثر الشكل السياسي للحكم ـ وتحوله من نظام الخلافة القائم على الشورى إلى ملك عضوض ـ على

ظهور الاتجاهات المعارضة، التي سعت إلى التغلب على هـذا الحكم والقضاء عليه، ومن ثم مست الحاجة إلى التأمين التي صيغت في هذه التكوينات المادية بالمدينة الإسلامية.

وأدى هذا الصراع السياسي المستمر إلى تغييرات مستمرة في الخريطة السياسية للعالم الإسلامي، تبعها تغييرات في عمران المدن المرتبطة بذلك إيجابا أو سلبا. فمثلا انشئت القاهرة لتكون «مدينة ملكية» واتخذها الخلفاء الفاطميون عاصمة لهم بعد الانتقال من المهدية في تونس، فأثر ذلك تأثيرا واضحا في مكانة المهدية عاصمة الفاطميين الأولى، تلك المكانة التي احتلتهـا القاهـرة، والتي نمت مع ازدياد نفوذ الفاطميين في اتجاه الشرق. وبنهاية حكم الفاطميين انتهى دور المدينة كمركز للسلطة السياسية، إذ قـام الأيوبيـون بنقل مقـر الحكومـة إلى القلعة، وامتدت الانشطة التجارية والصناعية «الحرفية» لتشغل الأماكن التي تشغلها ـ فيما سبق ـ قصور الفاطميين(٢٦). ومنذ ذلك الحين أصبحت القاهرة مدينة للعامة، وارتبط عمرانها بالمدن التي تقع إلى جنوبها، وتشكلت تشكيلا ماديا جديدا يتلاءم والوضع السياسي الجديد.

ويشير ابن خلدون الى أهمية اتخاذ المدينة مركزا للحاكم وأثر ذلك في عمرانها، فيذكر أن هذه المدن يزداد عمرانها برعاية السلاطين والحكام إياها، بينما تضمر المدن البعيدة عن هذه الرعاية والاهتمام. وازدياد عمران المدينة بمستوى معين يؤدي الى استمرارية هذا العمران بقـوة الدفـع الذاتي. وعكس ذلـك صحيح حيث إن ضمور المدن وخرابها يكون أسرع اذا جمدت نشاطـاتها ممـا يؤدي الى هجرهـا وموتها(٢٧). وقد تبنى هذه الافكار جيدون Gideon حيث يؤكد على أهمية العامل السياسي في نهوض المدينة ونموها حتى بالنسبة الى تلك المدن التي وصفت بأنها مدن تجارية، إذ ليس باستطاعة المدن أن تزدهر وتنتعش دون دعم مباشر أو غير مباشر من نظام سياسي قوي». (٢٨) وفي ذلك مايؤكد على أهمية اتخـاذ المدينـة كعاصمة أو قاعدة ادارية لاقليم بعينه، ويكفي أن نشير الى تحول جرجا في صعيد

مصر من مجرد قرية صغيرةقبل العصر العثماني الى مدينة اصبحت عاصمة الصعيد كله في العصر العثماني بفعل أثر الوضعين السياسي والاداري في تكوين المدينة وازدهارها. (٢٩)

وانعكست السياسة الحربية لبعض الدول على حياة المدن التي اتصلت بذلك. وتنوعت آثار هذه السياسة في المدن الاسلامية، فمن هذه المدن ما انشيء لكي يحقق في الأصل غرضا أمنيا كمدينة «المعمورة» التي بناها أحد ملوك الموحدين عند مصب نهر «سبور» على مسافة ميل ونصف ميل من النقطة التي يصب فيها هذا النهر في البحر وعلى مسافة اثنى عشر ميلا من «سلا». . وقد تأسست هذه المدينة كي تحمى المصب ولتحول دون دخول السفن المعادية، ومدينة القصر الكبير التي بنيت على يد «المنصور» ملك مراكش وخليفتها على ضفة المحيط على مسافة اثنى عشر ميلا من طنجة، وثمانية عشر ميلا من سبته، وقد أسسها نظرا لحاجته للذهاب الى «غرناطة» في كل عام مع جيشه، حيث كان من العسير اجتياز بعض الجبال المجاورة «لسبته» والتي يمر فيها الطريق المؤدي إلى البحر (٣٠)، وفاس التي أسست في الاصل لمراقبة الطريقين المهمين من الشمال الى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب في الاقليم الذي تقع فيه ، وبمرور الزمن تحول كثير من النقاط الحربية التحصينية التي أنشأها المسلمون الى مدن، ولا أدل على ذلك من سلسلة المدن التي نشأت في الاندلس في الهضبة الوسطى كقلعة رباح وقلعة أيوب ومدينة سالم ووادي الحجارة ومجريط «مدريد». (٣١)

ومن ناحية أخرى كان لاستقرار الاوضاع السياسية أو اضطرابها من فترة الى أخرى أثره المباشر على عمران المدينة ايجابا وسلبا، ويعكس هذه الحقيقة تاريخ كل مدينة من المدن الاسلامية التي عايشت هذه الحال. ويكفي أن نشير إلى أثر المغول في مدينة بغداد، وما آل اليه حال قرطبة وخروج المسلمين من الأندلس. مقارنة مع ماكان عليه عمران هاتين المدينتين قبل التعرض لهذه الأحداث. والمقارنة بين ماوقع لهاتين المدينتين ومدن الشام في العصور وماكانت تنعم به القاهرة من استقرار كفله عدم وصول المغول أو الصليبيين اليها مثل آخر يؤكد

هذه الحقيقة. وفي اطار هذا المنظور يمكن تقييم مراحل عمران المدينة ارتبـاطا بتاريخها السياسي سلبا وايجابا.

ولقد حـاول بعض الدراسات ابراز الأثر السلبي على بعض المدن، وخلصت الى تعميم مؤداه أن المدينة الاسلامية كانت تقوم بوظيفة العاصمة لبيت الحاكم وسرعان مايتركها الحكام الذين يعقبون مؤسسيها(٣٢)، بل إن هناك من بالغ في هذا التجاوز مثل بينيت Benet الذي ذكر أن المدينة الاسلامية تختلف عن المدينة الأوروبية في مسيرتها التاريخية، فهي غالبا ماتكون وقتية Passing affairs ومغامرة قصيرة المدى ترتبط بظهور دولة تطمح في اثبات سيطرتها على مكان ما، وان أرض الاسلام مملوءة بهياكل لمدن ميتة، على عكس ماتتميز بـه المدينـة الأوروبية من استمرارية في مسيرتها التاريخية، وان عملية الهدم واعادة التمدن قائمتان في كل وقت في أوروبا، وان الأورُوبيين يبنون نفس ماتهـدم، وبذلـك صارت عمليـة التمدن عملية مستمرة، أما المدن الاسلاميـة فهي قصيرة العمـر، وان موتهـا نهائي، ولذلك فإننا نشهد خلال كل بضعة أجيال أنماطا تمدنية جديدة، واستشهد في ذلك بما أشار إليه ابن خلدون وبما ذكر من تأثر عمران المدينة بأوضاع الدولة، ومأأشرنا إليه من قولـه إن مدن العواصم تنال اهتماما اكثر من غيرها من المدن، ويغلب على هذا الرأي صفة التعميم، فقد درست بعض المدن لاسباب مختلفة ومتنوعة، ونشأت وتطورت مدن أخرى لتوفر أسباب ذلك، فحـركة العمـران الاسلامي حركة مستمرة من هذا المنظور، وهو ما أثبتته دراسات أخرى ولاسيما دراسات «ليسنر»، و«روبرت آدمز»، و«جانيت أبولغد»، و«لابيدوس» التي أشارت الى اتساع التمدن الاسلامي، والى استمرار كثير من المدن الاسلامية حتى الآن، كما أن امثلة المدن الاسلامية التاريخية الباقية تؤكد ذلك.

وانعكست سياسة العمران على المدينة الاسلامية انعكاسا مباشرا، فقد دعا الإسلام الى حفظ الدين والنفس والمال والعرض، وهي أهـداف تساعـد على تحقيقها عمارة المراكز الحضرية بسياسة خاصة تحقق هـذه الاهداف، ومن ثم

قسمت البناء في ضوء القانون الإسلامي الى بناء واجب الانشاء كالمساجد والحصون والاسوار والجسور والقناطر ودور العلم والبيمارستانات والموانىء، وبناء مندوب كالمآذن والاسواق، ومبانٍ مباحة كالمساكن والحوانيت وبناء محظور كالكنائس وخانات الخمور ودور البغاء وغيرها.

كما ان هذه السياسة امتدت لتنظم العلاقة بين التكوينات المعمارية بما يحقق الفائدة ويمنع الضرر بصوره المختلفة، ووجهت المباني الاسلامية في المدينة توجيها خاصا يتفق واحكام الدين الاسلامي وقيمه، ومن ثم تميزت التكوينات المعمارية للمدينة الاسلامية بميزات خاصة، تكررت ملامحها في المدن الاسلامية، رغم اختلاف مناطقها وعصورها.

ومن منظور المصلحة العليا رجعت بعض احكام البناء الى السياسة الشرعية، وإن خرجت عن بعض النصوص الفقهية، فمن حق ولي الامر أن يمنع البناء في اماكن معينة ويبيحه في أماكن اخرى، حسب ماتقتضيه المصلحة العامة وتنظيم البلاد، كما أن من حقه أن يمنع التطاول في البناء في امـاكن دون أخرى نـظرا لاعتبارات تتعلق بالسلامة، أو التنظيم العمراني، أو لستر وعدم الكشف(٣٣)، إلى غير ذلك من التصرفات التي يرى فيها ولي الامر منفعة للعامة.

ويكشف تاريخ المدينة الاسلامية عن أثر العوامل الساسية في حياتها بصفة عامة، فتوجيه اختيار موقعها ارتبط بالظروف السياسية التي صاحبت انشاء كل منهما، ويتضح ذلـك من مراجعـة العوامل التي وجهت إلى اختيار مواقع مدن الأمصار، ومقارنتها بالعوامل التي وجهت اختيار المدن الاسـلامية الاخـرى، والمقارنة بين الظروف التي وجهت اختيار موقع القيروان والتي وجهت الى اختيار موقع المهدية أو المرية. كما أن الدوافع التي أدت الى انشاء المنصور مدينة بغداد ارتبطت بالرغبة في تأمين الدولة الناشئة مما قد تتعرض له من مخاطر في الكوفة، واختيارها وسط العراق قريبة من الفرس بعيدة عن دمشق ذات الولاء الأمـوي كانت في الاعتبار. وأثرت السياسة الاقتصادية أيضا في تحديد مـوقعها بـدقة،

ويكشف المنصور- بعد ارتياد أكثر من موقع- عن ذلك بقوله: أُريد موقعا يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقته لي، لاتغلو عليهم فيه الاسعار، ولاتشتد فيه المؤونة، فاني إن قمت في موضع لايجلب إليه من البر والبحر شيء غلت الأسعار، وقلت المادة، واشتدت المؤونة، وشق ذلك على الناس(٣٤). وهذا التحديد يكشف عن منظور سياسي ناضج يحقق مصالح الدولة والعامة الذين هم في النهاية العامل الاساسي في توسيع نطاق عمران عاصمته الجديدة وتأمينها.

ومما يكشف عن إدراك أهمية العامل البشري في تعمير المدن مااتجهت إليه سياسة الحكام نحو جذب الناس لتعميرها بتشجيعهم على عمرانها وفق سياسات خاصة تمكّن من ذلك ،فقد اتبع الحجاج عند بناء واسط هذه السياسة .فبعد بناء دار الامارة والمسجد الجامع «أعلن بالاذن لمن يريد السكن فيها وأباح عرصاتها» تشجيعا للناس على عمارتها حتى صارت بأقرب وقت من أعظم البلدان، وقد أحصيت في آخر عهد الحجاج فكان فيها ثمانمائة ألف نفس . (٣٥)

وحدث مثل ذلك في مدينة الرباط فقد اراد الملك أن يوطِّن في المدينة العديد من الصناع والمثقفين والتجار، فأعطى أمرا بأن كل مواطن فيها ينال مكافأة علاوة على الربح الذي تدره عليه مهنته، وقد أدى ذلك الى اجتذاب أناس إلى هذه المدينة من كل الأصناف ومن كل المهن، حتى لقد عدّت الرباط، خلال وقت قليل، من أشرف المدن في كل افريقية واغناها، وكان لسكانها دخل مزدوج، أولا: المكافأة المقررة، وثانيا: ربح التجارة مع العسكريين ومع رجال الحاشية، فقد كان المنصور يسكن في هذه المدينة من بداية شهر ابريل الى شهر سبتمبر من كل عام (٣٦). وتكشف هذه الرواية عن أن الرباط التي انشئت لتكون في هيئة معسكر حربي انسحب عليها الطابع المدني بتوطين فئات العامة من التجار واصحاب الحرف، وكان الاصرار واضحا على تشجيعهم على الاستيطان بهذه المدينة لتستمر حياتها.

ويكشف ابن الربيع عن أهمية هذه القطاعات البشرية من العامة من أهل

الصنائع والحرف واهل العلم في تكوين النسيج البشري للمدينـة حتى يندفـع عمرانها، وتأخذ شكلها المدنى المعروف كمركز حضري وعدّ تـوافرهـا شرطـا أساسيا يجب توافره عند انشاء مدينة جديدة. (٣٧)

وتتكامل سياسة الاهتمام بالعنصر البشري وتشجيعه على عمران المدينة باتباع سياسات مختلفة كاقطاع الإقطاعات، ودعم النشاطات الاقتصاديـة الخاصـة، وتوفير الأمن، مع التخطيط الجيد للمدينة والذي يكفل المرافق الجيدة والادارة الحسنة التي تحقق الأمن والعدل، فإذا ماتحقق هذا التكامل اندفع عمران المدينة وزادت الهجرة إليها، واذا مااختلّت هذه السياسة اختل عمران المدينة. ويعكس تاريخ المدينة الاسلامية صحة هذه المعادلة التي بلورها فكر المفكرين المسلمين في اطار تاريخ التجربة، وصاغوا أطرا عامة للسياسة الصحيحة وأهدافها، رغبة في التوجيه أو الاصلاح لما كان يقع من انحرافات سياسية تنعكس بصورة مباشرة على المدينة بوصفها أهم مركز حضري.

وكان تغيّر نظام الحكم الإسلامي من خلافة قائمة على مبدأ الشورى الى حكم ملكي عضوض أثره المباشر في إظهار عظمة الدولة وتأمين الحاكم في المـدينة، وأثرت هذه الحاجة تأثيرا مباشرا في تخطيط مدن العواصم وامتدت أحيانا الى مدن الاقاليم. واتجه التخطيط الى حل المعادلة الصعبة التي توازن بين ضرورة توافر النسيج البشري القادر على دفع عمران المدينة بما يتضمنه من الفئات التي تقوم بالخدمات المختلفة لاهل المدينة وللطبقة الحاكمة، والرغبـة في تأميـن السـلطة داخل المدينة من أي اخطار داخلية ممثلة فيما قد يحدث من اضطرابات أو ثورات داخل المدينة، أو خارجية ممثلة فيما قد تتعرض لـه المدينـة من اخطار الهجـوم الخارجي من دول أو فئات معادية تريد القضاء على هذا الحكم أو ذاك. ورأينا مظاهر ذلك في بغداد التي خصصت لسكنى الخليفة بالمركز يحيط به القادة والجند واهل الثقة، ثم يلي ذلك في اتجاه الخارج مناطق سكنى العامـة. وكان انشـاء الرصافة والكرخ كمراكز استيطانية مجاورة للمدينة في سبيل تحقيق أهداف خاصة عملية سعى لها المنصور لتأمين حكمه، ناهيك عن تفصيلات تخطيط المدينة المادي

الموجه لتحقيق هذا الهدف، وتبلورت هذه الرؤية في انشاء القصبة أو القلعة في قلب المدينة أو مجاورة لها كمراكز للحكم. ثم تطور الاتجاه نحو انشاء مايسمى المدن الملكية كالمهدية والقاهرة بجوار مدن العامة.

فقد بنى عبيدالله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية الى جانب مدينة زويلة مدينة أخرى سماها المهدية، بينهما غلوة سهم، وكان يسكن هو وأهله بالمهدية وأسكن العامة في زويلة، وكانت دكاكينهم وأموالهم في المهدية ومساكنهم في زويلة، فكانوا يدخلون في النهار إلى المهدية للمعيشة ويخرجون في الليل الى اهاليهم. فقيل للمهدي إن رعيتك في عناء ، فقال : لكن أنا في راحة لاني بالليل أفرق بينهم وبين أموالهم، وبالنهار افرق بينهم وبين اهاليهم، فآمن غائلتهم بالليل والنهار(٣٨)، ومقارنة بين انشاء زويلة من دون اسوار و تحصين المهدية تؤكد أثر الرغبة في تأمين الحاكم على الهيئة المادية للمدينة، ويبدو أن ذلك كان مرتبطا بنشأة الدولة وظروف تأسيسها. وتكرر المثال في القاهرة التي انشئت لتكون مقر الخلافة الفاطمية في عهد المعز لدين الله، وكان انشاؤها أيضا مرتبطا بهذا الحدث السياسي الهام الذي تطلب تأمينا خاصا للخليفة الفاطمي، فكانت القاهرة بهذه الصفة لتحقق هذا الهدف.

وانعكس الرسم الملكي على تخطيط هذه النوعية من المدن، وتحديد نوعية تكويناتها المعمارية ونظام الارتفاق فيها لتتناسب والوظيفة التي انشئت من أجلها. وتجسد شوارع القاهرة الفاطمية وميادينها وهيئة المواكب التي تمر بها رؤية سياسية، هدف إليها الفاطميون، ممثلة في اضفاء المهابة والفخامة على الكيان السياسي الفاطمي، ومايحدثه ذلك في نفوس العامة من ردود فعل تبلورت في هيئة النظام الجديد (٣٩) ومحاولة التكيف معه والإذعان لاتجاهاته.

ومع نهاية الحكم الفاطمي اتجهت سياسة صلاح الدين لضم القاهرة مع الفسطاط والعسكر والقطائع في مدينة واحدة عامة، تذويبا لهذا الاتجاه السياسي الفاطمي في جعل القاهرة مدينة ملكية. ثم أنشأ القلعة خارج المدينة الى الشرق

على تلال المقطم لتكون مقر الحكم من منظور يحقق أيضا الامن لمركز السلطة، ومع هذا التحول في الوضع السياسي لمدينة القاهرة بدأ التحول أيضا في تكويناتها المعمارية التي بدأت تتبدل لتتكيف مع الصفة الجديدة للمدينة.

وارتبط بعض التكوينات المعمارية في المدينة الاسلامية ارتباطا واضحا بالوظيفة السياسية للمدينة، ومن هذه التكوينات دار الامارة، أو القصر، أو دواوين الحكم والادارة والجيوش بحكم أنها الموضع الذي تدار من خلاله الدولة إذا كانت المدينة عاصمتها، أو الاقليم إذا كانت المدينة قاعدة لها، أو المدينة نفسها باعتبارها كيانا قائما بذاته. وتحدّد هيئة هذا التكوين بالوضع السياسي للمدينة. وقد اختلفت هذه المؤسسات الادارية باختلاف الاشكال السياسية في الدول الاسلامية التي تتبعها، وباختلاف ظروف العصر وتبعا لمراحل التطور الإداري الذي وضعت أسسه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده، وخطا خطوات كبيرة في سبيل التطور نتيجة الفتوحات الإسلامية التي ضمت للدولة أقاليم لها ماضٍ عريق في أساليب الحكم والإدارة، واستفادت الأشكال الإدارية الإسلامية من الجمع بين الخبرة السابقة للاقاليم المفتوحة والدستور الإسلامي الموجّه لنشاطات الحياة المختلفة، ووجهت الإدارة توجيها خاصا يتفق واهداف الحكم القائم، واختلفت الاتجاهات وتعارضت لتتجدد مع الصراع صور الحكم السياسي المتمثل في نسيج التاريخ السياسي الاسلامي عبر عصوره، وكانت المدينة وعاءه في كل مرحلة من مراحله.

ولعب المسجد دورا في هذا التاريخ ولاسيما في المراحل الأولى من تاريخ المدينة الاسلامية عندما كان للمسجد الجامع مدلول سياسي حيث هو مسجد الدولة(٤٠). وارتبط ذلك باعتبار الخطبة شارة من شارات الملك، بل هي من أهم شاراته، وجرت العادة على أن يتولى الخليفة أو الوالي أو مندوب عنه الخطبة. وكان الدعاء للسلطان يعني بقاءه في الحكم، والدعاء لغيره إشارة إلى خلعه والخضوع لسلطان جديد. واكدت مصادر التاريخ السياسي على الولايات الدينية، ومن أهمها الأمانة في اطار هذه الاهمية(٤١). ولعبت المساجد الجامعة دورا بارزا في الدعاية

والإعلام السياسي باعتبارها مراكز دينية عامة تجمع المصلين في صلاة الجمعة من كل أسبوع وبصفة دورية، وكثيرا ماطرحت بها السياسات واعلنت الأخبار الهامة للدولة. (٤٢)

وتعتبر السكة «العملات المعدنية» من أهم شارات الملك، حيث كانت الدولة تنقش على مسكوكاتها شعاراتها السياسية بالاضافة إلى أسماء حكامها. ومن هنا برزت دلالتها السياسية، تلك الدلالة التي نلحظها فيما بقي من طرز متعددة للمسكوكات تسجل تسجيلا دقيقا تاريخ الحكم السياسي للدول المختلفة. ومابقى من مسكوكات ضربها الثائرون على هذه النظم السياسية في محاولة دعائية لكسب وضع سياسي معين، وعدم الاعتراف بنظام سياسي آخر كمسكوكات عبدالله بن الزبير، وأخيه مصعب التي كانت للدلالة على ثورتهم ضد الامويين. ومسكوكات العباسيين التي ضربوها سنة ١٢٨ هـ قبل القضاء على الأمويين، وغيرها من النماذج كثير.

ومع هذه الأهمية للسكة، كشارة من شارات الملك، ظهر الاهتمام بالإشراف على دار الضرب ودار العيار، حيث تنتج هذه المسكوكات.وخضوعها للاشراف المباشر من السلطة باعتبار أهمية السكة كشارة من شارات الملك، وشكلت دار الضرب ودار العيار تكوينا معماريا هاما كثيرا ماشغل موضعا هاما بين تكوينات المدينة قريبا من المراكز الادارية والسياسية الاخرى، والتي غالبا ماوقعت في مراكز المدينة(٤٣) .وأصبح وجود دار ضرب بالمدينة مؤشرا على أهميتها بالنسبة لغيرها التي لاتوجد بها دار للضرب.

واستخدم المسلمون «الرموز» كوسيلة من الوسائل الثانوية للدعاية السياسية. وتتلخص أهمية الرموز في أنها تصل إلى الغاية القصوى من حيث مقدرتها على تكثيف المذاهب والنظم السياسية، وتبسيطها بشكل يساعد على سهولة إدراكها، كما أنها تشترك جميعها في إثارة جو من القوة لاغنى للداعية عنه، وتعطي انطباعا بالتواجد المستمر يشد من أزر المتعاطفين، ويضعف من قوة الخصوم. (٤٤)

وتعتبر المنشآت المعمارية الحضارية الضخمة أحد الرموز الهامة المستخدمة كوسيلة من وسائل الدعاية السياسية، وقد عدت من المعايير التي تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان الحضري. وتشكل هذه المنشآت جزءا من تكوينات المدينة الإسلامية. وقد وضح التركيز على استخدام المنشآت الحضارية الضخمة كرمز من رموز الدعاية السياسية ابتداء من العصر الأموي، حيث ركز الأمويون على انشاء المشاريع المعمارية الضخمة التي تحقق ذلك، ويدخل في هذا الاطار انشاء المسجد الأموي في دمشق، وقبة الصخرة في القدس، وتجديد المسجد النبوي في المدينة، والمساجد في مدن الأمصار، وانشاء قصر الخلافة في دمشق ذلك القصر الذي تكررت الفكـرة الدعـائية من انشـائه في واسط في قصر الحجاج، ثم في بغداد في قصر المنصور ولاسيما القبة الخضراء، أعلى موضع في القصر.

وتبدو أهمية المنشآت الحضارية في مجال الدعاية السياسية للتدليل على قوة الدولة وعظمتها وتواجدها حتى في البلدان القاصية البعيدة عن عاصمة الدولة . ومن ذلك انشاء الخانات وبيوت الضيافة، ومثال ذلك ماتم في عهد عمر بن عبدالعزيز، فقد كتب إلى سليمان بن السرى «أن أعمل الخانات . من مرّ بك فاقره يوما وليلة وتعهد دوابه، ومن كانت به علة فاقره يومين وليلتين وإن كان منقطعا فأبلغه بلده»(٤٥). وهذه المنشآت المختلفة سواء أكانت داخل المدينة أم خارجها تؤكد امتداد النفوذ العمراني للمدينة العاصمة على غيرها من المدن وعلى الطرق التي تربط بينها.

وتختلف النظرة الدعـائية للمنشـآت باختـلاف ظروف العصـر. فقد اهتم المنصور بانشاء المدينة باعتبارها رمزا لقوة الدولة، وحرص على ابراز ذلك بدلالة حرصه على ن يُرى مدينته من يزورها من الغرباء لتقع في نفوسهم موقعا يؤكد عظمة الدولة. وبعد أن استقرت الدولة وتخطت مرحلة التأسيس اتجه الاهتمام نحو بناء القصور الفخمة في محاولة رمزية من الخلفاء للتدليل على قوتهم وعظمتهم في تلك الظروف التي تعاظم فيها دور الوزراء من السلاجقة.

وسعى بعض الولاة في اقاليم الدولة العباسية إلى الاستقلال واتخذوا من انشاء المدن الجديدة رمزا لهذا الاستقلال، كأحمد بن طولون الذي أنشأ القطائع عاصمة جديدة لمصر في عهده ضمت قصرا كبيرا ومسجدا جامعا بالاضافة الى قطائع الجند من حوله. واستمر البيت الطولوني في ابراز عظمةملكة، ودلّ على ذلك مظاهر الاحتفال بزفاف «قطر الندى» ابنة خمارويه بن احمد بن طولون الى الخليفة المعتضد بالله. ومن طريف مايذكر أن قصرا أنشأته «العباسة» بنت أحمد بن طولون ـ سمي باسمهاـ لتستريح فيه «قطر الندى» أثناء رحلة زفافها من مصر الى العراق، ونما هذا القصر وأصبح بليدة بارض مصر في غاية الحسن والطيب(٤٦). وعلى هذا النحو سار الإخشيدون واهتموا ايضا بالقصور والحدائق، وبالغوا فيها رمزا للتدليل على مضاهاة الخلفاء ومدن الخلافة.

ومما يؤكد على أهمية المنشآت كرمز دعائي سياسي مانراه في كثير من النصوص التأسيسية عن العمائر الاثرية الباقية، والتي تتضمن القاب ووظائف السلاطين والأمراء، وتسجيل مفاخرهم على هذه العمائر بما تحتويه هذه النصوص. وهو تقليد قديم في معابد قدماء المصريين. وقد حدث كثير من حوادث الطمس أو المحو أو التغيير في هذه النصوص مما يؤكد هذه الحقيقة، ولعل مانراه في نص تأسيس قبة الصخرة التي بناها عبدالملك بن مروان سنة ٧٢ هـ من تغيير وابدال اسم المأمون العباسي باسم عبدالملك الاموي دليل واضح على ذلك.(٤٧). ومثال اخر يعكس أحداثا سياسية وصراعا خاصا بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون وبيبرس الجاشنكير الذي اغتصب منه الحكم فترة من الزمن بنى فيها خانقاته في القاهرة، وسجل عليها لقب «الملك السلطان» ضمن نص تأسيسها، وهو اللقب الذي محاه الناصر محمد دون بقية النص المسجل على واجهة الخانقاه. وكذلك محا السلطان فرج بن برقوق من المدرسة الجمالية كل النصوص التأسيسية التي تثبت بناءها بواسطة جمال الدين الاستادار بعد غضبه عليه لتعاونه مع المؤيد شيخ الذي اصبح سلطانا فيما بعد(٤٨)، وتتكرر الامثلة في هذا الاطار لتعطى دلالات سياسية معينة ترتبط باحداث العصر التي تمت فيه.

وامتد التوظيف السياسي نحو كتابة تاريخ بعض المنشآت المعمارية بصورة تشوه بانيها من الخصوم، مثلماحدث فيما كتبه اليعقوبي- المؤرخ العباسي- عن أسباب بناء قبة الصخرة حيث ذكر أن عبدالملك بناها ليحج إليها المسلمون بدلا من الكعبة ولاسيما أنه مُنع أهل الشام من الحج لبيت الله الحرام أثناء ثورة عبدالله بن الزبير. وهو أمر قصد به تشويه صورة الامويين ممثلة في الخليفةعبدالملك.

ومن ناحية اخرى وظفت المنشآت لتحقيق اهداف سياسية مقصودة، ومن هذه المنشآت على سبيل المثال المدارس والخانقات تلك النوعية من المنشآت التي بدأ ظهورها كتكوينات معمارية في المدن الاسلامية مع نهاية القرن الخامس الهجري. ويدأ ظهورها على يد فقهاء السنة عملا على نشر المذهب السنى وتدعيمه في مواجهة المذهب الشيعي الذى انتشر حتى وصل دعاته إلى بغداد على يد البساسيرى، وكان أول ظهورها في مدن شرق العالم الاسلامى، وتبناها السلاجقة فأصبحت مؤسسات رسمية تدعمها وتعمل على نشرها الدولة، ومن بعدهم تبناها الاتابكة فالايوبيون الذين ادخلوها الى مصر هي والخانقات على يد صلاح الدين الأيوبي عملا على القضاء على المذهب الشيعي ونشر المذهب السنى الذي ظل مكبوتا طول عصر الفاطميين. وانتشرت أيضافي مدن الغرب الاسلامى.

وورث المماليك فكرة انشاء المدارس والخانقات واكثروا من انشائها هي والمنشآت الدينية الأخرى كالمساجد الجامعة والمساجد والزوايا والرُبط وغيرها. وأكثروا من انشائها كثرة بالغة تفوق الحاجة اليها. وارتبط ذلك برغبة المماليك في اظهار أنفسهم بمظهر الحامى للدين والعامل على نشر تعاليمه لكى يضفوا بذلك على حكمهم صفة الشرعية ويقنعوا الشعب بوجودهم(٤٩). وارتبط انشاء هذه المنشآت ايضا بنظام شغل الوظائف في الإدارة المملوكية، وهوالنظام الذي يربط بين شغل الوظيفة والإقطاع المخصص لها، فإذا عزل الامير عن وظيفته -وكثيرا ماكان يحدث ذلك في هذا العصر الذي سادت فيه الاضطرابات والفتن- أُخِذَ منه

إقطاع الوظيفة، ليعطى من يشغلها من بعده. وأدى هذا النظام الى قلق المماليك على مستقبلهم ومستقبل اولادهم فوجدوا في نظام الوقف(٥٠) مخرجا؛ بانشاء منشآت دينية يمكن أن يوقفوا عليها أوقافا كثيرة من اقطاعاتهم تفوق حاجتها، ثم يوقفون ماتبقى من ريع هذه الأوقاف، بعد الصرف على هذه المنشآت - على أولادهم وذرياتهم. (٥١)

ولعبت سياسة الوقف دورا بارزا في عمران المدن الإسلامية فهي تساعد من جهة على انشاء المنشآت الدينية الموقوفة التي انشئت لأغراض مختلفة بعضها ذو مغزى سياسى كما أشرنا، وبعضها ذو مغزى دينى. كما أنها تساعد على الاهتمام بانشاء وعمارة وترميم المبانى الموقوفة على هذه المنشآت كالوكالات والقياصر والخانات والحمامات والدور والحوانيت وغيرها من المنشآت التي انشئت وجددت لتزيد الريع الموقوف لصالح المنشآت الدينية. وامتد أثر الاوقاف ايضا الى النواحى الاجتماعية والتعليمية والدينية(٥٢)، فساهمت مساهمة بارزة في حياة مجتمع المدينة مثلما ساهمت في تشكيلها المادى ممثلا في كثرة المبانى الموقوفة وحمايتها.

ويعكس تاريخ المدينة الاسلامية تجارب متنوعة لحل مشكلة التكيّف الاجتماعى، وكانت البداية بعد هجرة الرسول والمهاجرين الى المدينة وتوطين هذه الجماعات المهاجرة في المدينة، واتبع الرسول صلى الله عليه وسلم سياسة حكيمة عملت على ايجاد اطار واحد يجمع الفئات المختلفة في صلات أقوى من صلات العصبية القبلية وهو إطار «الاخوة»، وذويت تلك السياسة النزعة القبلية ووجهتها تدريجيا إلى انتماءات أخرى أهم كحب الوطن. فأصبح الاعتزاز بالانتماء الى الوطن واضحا(٥٣). ونظم الرسول عليه السلام عملية التوطين بما وهب من دور، وبما أقطع من اقطاعات للقبائل والافراد والمهاجرين. وتبلور نظام الاقطاعات بعد ذلك في المدن الناشئة كالبصرة والكوفة والفسطاط، واستمر بعد ذلك كأساس في توزيع الارض على القبائل، ثم على الفئات المتقاربة اجتماعيا تذويبا للنزعة القبلية.

وكان توطين كل قبيلة أو فئة في خطة خاصة بها من الحلول التي سهلت التعاون بين افراد الخطة في اطار من التقارب والتكيّف الاجتماعى. ومع تطور الحياة المدنية في المدينة الاسلامية واتساع مجالات النشاط العمرانى نتيجة الفتوحات واختلاط العرب بغيرهم من الامم التي دخلت في الاسلام، أو التي بقى بعض ابنائها على معتقداتهم اتسعت دائرة التكيف لتشمل هذه الفئات. وكثيرا ماحدثت الثورات والاضطرابات لتصارع الفئات المختلفة نتيجة الحيدةعن تطبيق القانون الاسلامى الذي يكفل حل اي مشكلة من هذه المشاكل، أو نتيجة عدم الالتزام به.

وتعتبر سامراء من المدن الاسلامية التي كان من بين الاسباب القوية لانشائها عدم القدرة على التكيف بين جند المعتصم «الترك» واهل بغداد. فقد كثر جند المعتصم «حتى بلغوا سبعين ألفا،فمدوا أيديهم إلى حرم الناس، وإذا ركبوا انحطم كثير من الصبيان والعميان والضعفاء من ازدحام الخيل، فاجتمع عامة اهل بغداد ووقفوا للمعتصم وقالوا: قد عمنا أذى جيوشك، فإما تمنعهم وإما تبعدهم عنا، والا حاربناك بدعاء السحر» فقال: «وإما تقلبهم فلا يكون إلا بتقلبى، ولكنى أوصيهم بترك الأذى» فما زادتهم الوصية إلا زيادة في الفساد. فوقفوا له مرة أخرى وقالوا: «إما تحولت عنا والا حاربناك بدعاء السحر» فقال: هذه الجيوش لاقدرة لى بها، نعم اتحول وكرامة، وسار من فوره حتى نزل سامراء وبنى بها دارا وأمر عسكره بمثل ذلك حتى صارت أعظم بلاد الدنيا بناء واهلا. (٥٤)

وانعكس أثر التكيف الاجتماعى على تكوين المحلات في المدينة الاسلامية، واختلف هذا الاثر من مدينة إلى أخرى مرتبطا بظروف نشأتها وتطور عمرانها. فقد كان انشاء مدينة «مكناس» بسبب أن قبيلة مكناسة تغلب بعضها على بعض، وفقد المغلوبون مواشيهم، ولم يستطيعوا المقام في البادية، فاجتمعوا وبنوا هذه المدينة(٥٥). وضمت مدينة فاس عدوتين واحدة للقرويين والاخرى للاندلسيين وكثيرا ماحدثت الخلافات بينهما (٥٦)، وارتبط توزيع الاحياء الارستقراطية في القاهرة في العصر العثمانى ارتباطا وثيقا بالأوضاع السياسية

المضطربة في المدينة من جهة، وأحيانا بعدم قدرة الأمراء الأتراك على التكيف مع أهل المحلات السكنية التي يشغلها أهل الحرف والصناعات، فانتقلوا الى مواضع أخرى تجنبهم هذه الفئات(٥٧) ولاسيما أن قدرتهم على التحرك أقوى من أي فئة أخرى.

وقد بلور ابن الربيع أهمية التكيف الاجتماعي بين سكان المدينة، فأوصى الحاكم الذي يفكر في انشاء مدينة ألا تجتمع فيها اضداد مختلفة وان أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها وأن يجعل خواصه محيطين به من سائر جهاته(٥٨).



هوامش الفصل السادس

١ ـ ابن منظور: لسان العرب. مادة سوس.

٢ ـ د. محمد منير حجاب: المرجع السابق، ص ١٩.

٣ ـ د. اجلال خليفة: الوسائل الصحفية واتجاهات المجتمع الاسلامى المعاصر، الانجلو المصرية، القاهرة، سنة ١٩٨٠، ص ٢٢٠.

٤ ـ د. محمد منير حجاب: المرجع السابق، ص ٢٠.

٥ ـ قدامة بن جعفر: المرجع السابق، ص ٤٢٧.

٦ ـ ابن خلدون: المقدمة، ص ١٠٦ـ ١١٤.

٧ ـ راجع د. عبدالعزيز الدورى: المؤسسات الحكومية، «مقال بالكتاب الذي أصدرته اليونسكو عن «المدينة الاسلامية» عن الندوة التي نظمتها جامعة كمبردج وأدارها: ر. ب. سيرجنت، ص ٥٣ـ ٦٧».

٨ ـ من طريف مايذكر بهذا الخصوص أن اهل الكوفة تظلموا الى المأمون من واليهم فقال: ماعلمت من عمالي اعدل وأقوم بأمر الرعية منه، فقال أحدهم: ياأمير المؤمنين ليس أحد أولى بالعدل والانصاف منك، فان كان هو بهذه الصفة فعلى الامير أن يوليه بلدا بلدا ليلحق كل بلد من عدله مالحقناه، فاذا فعل الامير ذلك لايصيبنا اكثر من ثلاث سنين، فضحك المأمون وامر بصرفه. «القزويني: المرجع السابق، ص ٢٥٢». والحوادث عديدة تلك التي كانت تدفع الخليفة لان يعزل واليا أو قاضيا ويعين آخر تحقيقا للغايات السياسية المتصلة بالحاكم أو الرعية.

٩ ـ كافين رايلي: المرجع السابق، ص ١١٦.

١٠ ـ مانع القطان: التشريع والفقه الاسلامي تاريخا ومنهجا، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٢، ص ١٢١.

١١ ـ محمد حماد: تخطيط المدن، ص ١٤٨.

١٢ ـ كافين رايلي: المرجع السابق، ص ٢٢٣ـ ٢٢٤.

١٣ ـ القرآن الكريم: سورة الحجرات * آية ١٣.

١٤ ـ انظر، ص ٣١٢ـ ٣١٩ من هذا الكتاب.

١٥ ـ Hammond , op. cit., p 326.

١٦ ـ د. عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص ١٥٣.

١٧ ـ Xavier de Planhol, op . cit ., p . 78 .

١٨ - L . Cardet , La Cite Musulmane , Paris, 1954 , p .p .259—260

١٩ ـ د. عبدالجبار ناجي: المرجع السابق، ص ١٥٥ـ ١٥٦.

٢٠ ـ د. عبدالجبار ناجي: المرجع السابق، ص ١٦٤.

٢١ ـ كلمة town حسب التصنيف الالماني أقل من مرتبة City«عبدالجبار ناجي: المرجع السابق، ص ١٥٢».

٢٢ ـ الطبري: المرجع السابق، جـ ٣، ص ٥٩، ١٤٧، الموسوي: المرجع السابق، ص ٩١ـ ٩٢.

٢٣ ـ د. عبدالجبار ناجي: المرجع السابق، ص ١٥٧.

٢٤ ـ د. عبدالجبار ناجي: المرجع السابق، ص ١٥٧.

٢٥ ـ د. عبدالجبار ناجي: المرجع السابق، ص ١٦٥ـ ١٦٦.

J.M. Rogers , ' Samarra, A Study in Medieval Town Planning : In Islamic City, Oxford 1970, p p. 166 — 167 .

٢٦ ـ أندريه ريمون: جغرافية الأحياء الارستقراطية بالقاهرة في القرن الثامن عشر، ترجمة زهير الشايب، مجلة تاريخ العرب، ص ٧٠.

٢٧ ـ ابن خلدون: المرجع السابق، ص ٨٧١ـ ٨٧٣.

٢٨ ـ د. عبدالجبار ناجي: المرجع السابق، ص ١٥٩.

٢٩ ـ د. محمد عبدالستار عثمان: جرجا وآثارها الاسلامية في العصر العثماني، دراسة تحت النشر.

٣٠ ـ ليو الافريقي: المرجع السابق، ص ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٤ هامش ٥.

٣١ ـ د. محمود مكي: المرجع السابق، ص ١٦.

٣٢ ـ Hammond , op. cit., p. 212

عبدالجبار ناجي: المرجع السابق، ص ١٦٠.

٣٣ ـ محمد الفائز: المرجع السابق، ص ٧٠٧.

٣٤ ـ الطبري: المرجع السابق، جـ ٨، ص ٢٣٩.

٣٥ ـ ابن الغملاس: المرجع السابق، ص ١٢.

٣٦ ـ ليو الافريقي: المرجع السابق، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

٣٧ ـ ابن الربيع: المرجع السابق، ص ١٢١.

٣٨ ـ القزويني: المرجع السابق، ص ٩٤، ٢٧٦.

٣٩ ـ ناصر خسرو: المرجع السابق، ص ١٠١ـ ١٠٤.

٤٠ ـ د. محمد منير حجاب: المرجع السابق، ص ١٧٣.

٤١ ـ ابن الازرق: المرجع السابق، جـ ١، ص ٤٤٠ـ ٤٤٢.

٤٢ ـ د. محمد عبدالستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية، جـ ١، ص ٢١، ص ١٦٩.

٤٣ ـ المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٤٠٦.

٤٤ ـ د. محمد منير حجاب: المرجع السابق، ص ١٧٦ـ ١٧٨.

٤٥ ـ د. محمد منير حجاب: المرجع السابق، ص ١٨٠.

٤٦ ـ القزويني: المرجع السابق، ص ٢٢٠.

٤٧ ـ أحمد فكري: قبة الصخرة، مقال بمجلة عالم الفكر عدد «١»، سنة ١٩٨٠، ص ١٥.

٤٨ ـ د. محمد عبدالستار عثمان: وثيقة جمال الدين الاستادار.. دراسة تاريخية أثرية وثائقية، منشأة المعارف سنة ١٩٨٣، ص ١١٣.

٤٩ ـ د. حياة الحجي: السلطان الناصر بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، ص ١٥٧.

د. محمد عبدالستار عثمان: المرجع السابق، ص ١٨٧.

٥٠ ـ يقضي نظام الوقف بعدم التعرض للموقوف بأي ضرر من صور الاعتداء. «حياة الحجي: المرجع السابق، ص١٥».

٥١ ـ ابن الازرق: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٢٨٠، وحياة الحجي: المرجع السابق، ص ٥١-٥٢.

٥٢ ـ صلاح المنجد: دمشق في نظر الأندلسيين، ص ٥٧.

٥٣ ـ عبدالله بن إدريس: المرجع السابق، ص

٥٤ ـ القزويني: المرجع السابق، ص ٣٨٦ـ ٣٨٧.

٥٥ ـ ليو الافريقي: المرجع السابق، ص ٢٢٠.

٥٦ ـ ليو الافريقي: المرجع السابق، ص ٢٢٣.

٥٧ ـ اندريه ريمون: المرجع السابق، ص ٧٢ـ ٨٣.



الفصل السابع

الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية

في إطار مفهوم السياسة الذى عرفه المسلمون فى العصور الوسطى يظهر جليا أن الحديث عن الحياة الاجتماعية فى المدينة الإسلامية يتصل اتصالا مباشرا بالحياة السياسية والاقتصادية والفكرية(١). وقد اختلفت هذه السياسات من مدينة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر، ومن ثم فإننا نتحدث عن الظواهر العامة دون التشعب في تفصيلات يوجبها الحديث عن مدينة بعينها فى عصر بذاته.

ولاشك في أن السياسة الداخلية من أبرز العوامل التى تؤدى إلى انصراف السلطة إلى الاصلاحات الاجتماعية، والعناية بالمرافق العامة وتحقيق الرفاهية الاجتماعية للشعب، كما أن الصراع السياس غالبا مايؤدي إلى صراع اجتماعي يفتت الوحدة الاجتماعية، ويبعثر جهود أبناء المجتمع الواحد، فقد ارتعدت حياة بغداد أثناء صراع الأمين والمأمون. وفي العصر الفاطمي حرقت الفسطاط نتيجة خلاف شاور وضرغام. وتمزقت مدن الاندلس وتهاوت واحدة وراء الأخرى نتيجة صراع ملوك الطوائف، واختلت حياة القاهرة فى العصر العثماني تأثرا بما وقع بين الامراء من اضطرابات وحروب وفتن، في حين ازدهرت المدن بصفة عامة فى فترات الاستقرار والأمن وامتد عمرانها، وزخرت حياتها بألوان الترف ومباهجه، وارتبط ذلك ارتباطا وثيقا بتاريخ الدول التى انشأت أو حكمت هذة المدن. ويعكس تبادل مراكز الصدارة بين المدن، مراحل ازدهارها، فبعدما كانت بغداد فى مركز الصدارة توارت بعد السقوط سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وازدهرت القاهرة وظلت أزهى مدن العصور الوسطى حتى نهاية العصر المملوكي لتحتل مكانتها اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية، وازدهرت قرطبة في عهد الخلافة فى الاندلس، وبلغت مكانة بغداد والقاهرة، وظلت كذلك إلى أن دب فيها الضعف في عهد ملوك الطوائف وسقطت سنة ١٤٩٢م.

وتأثرت حياة مدن العواصم والمدن الرئيسة الأخرى بما تناله من مظاهر الرعاية والاهتمام، وانعكست سياسة الحكام واختلافها من حاكم إلى آخر على حياة المدن. ونرى ذلك في بغداد في عهد المنصور حيث ساد التقشف والتضييق في النفقات، بينما شهدت بغداد في عهد المهدي وهارون الرشيد ألوانا من الرفاهية والترف لم تشهدها من قبل ارتباطا بسياسة التسامح والكرم التي اتسما بها، وكان لاختلاف ظروف التأسيس عن ظروف مرحلة الاستقرار أثره الواضح في ذلك. فقد اتبع المنصور سياسة حازمة شديدة حتى أنه كان ينتقي عناصر سكان حاضرته الجديدة، وكان يحكم إغلاق أبوابه وأسواره، ويراقب تحركات أهالي بغداد لأنه عانى كثيرا من الاضطرابات السياسية. وعندما تولى المهدي كانت بواعث الاستقرار قد بدت فكانت خلافته مرفهة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة فى عهد المنصور، فقد كان المنصور يؤسس ملكا له خصوم، فكان يكتفي بالريبة والظن فيعاقب بهما، فلما جاء المهدي كانت الخلافة العباسية قد توطدت، وأنياب العلويين قد كسرت، وإن بقيت لهم بقايا تتطلع للخلافة، فهو لا يحتاج من الاحتراس منهم إلى مثل ما كان المنصور يحتاج إليه من الشدة، والذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الأمير إياهم، فكانوا يعرضون عليه كل يوم، ولذلك كانت حياة المهدي سعيدة لنفسه ولامته(٢) ولاسيما أنه امتاز بسجايا حميدة انعكست على سياسة رعيته، فكان المهدي محببا إلى الخاص والعام لأنه افتتح أمره بالنظر في المظالم، والكف عن القتل، وأمّن الخائف وانصف المظلوم، وبسط يده فى العطاء. (٣).

وكان لسياسة المعتصم وإكثاره من الجند الترك والاعتماد عليهم أثر واضح فى تغليب هذا العنصر على العرب والفرس، وصعود الاتراك صعودا سياسيا انعكس على حياة بغداد بعد ذلك، كما أنه أثر مباشرة فى حياة العامة في بغداد -كما رأينا-، وكان ذلك سببا في انشاء سامراء التي انتقل إليها المعتصم بجنده وقادته من الاتراك.

ويعكس تاريخ الفاطميين صورة أخرى من صور سياسة الحكام التي

انعكست على حياة مجتمع القاهرة وبصفة خاصة فيما يتعلق بمظاهر الاحتفالات والمواكب، ومظاهر التسامح الديني مع المسيحيين، تلك المظاهر التي تسجلها الروايات التاريخية والشواهد الاثرية ممثلة فى ما نراه من زخارف وتصاوير في آثار العصر الفاطمي، وكذلك كان حال فاس ومراكش والرباط وقرطبة. ويعكس تاريخ وآثار هذه المدن ملامح انعكاس سياسة حكامها على حياة مجتمعاتها حتى في عهد الدولة الواحدة كدولة المرابطين والموحدين التي اتسمت نشأتها بالشدة والبساطة ثم مالت للترف والرفاهية. (٤).

وتأثرت حياة المدن الاجتماعية بالأحوال الاقتصادية التي مرت بها، ويكفي أن نشير إلى التحول الذى صارت إليه مدن الامصار بعد توجّه سياسة الأمويين نحو الاعتماد على الزراعة كمصدر ثابت للدخل فى هذه المدن، وما تبع ذلك من سياسة بناء الاسواق والمنشآت التجارية التى تساير هذا الطور الذي اتسع نطاقه أكثر وأكثر في العصر العباسي عندما أحدثت سياسة العباسيين طورا آخر فى الحياة الاقتصادية للمدن وخصوصا بعد الاهتمام الزائد بالتجارة، وتكثيف النشاط الزراعي وتوسيعه بطريقة حياة المدن نقلة خطيرة ارتبط بها ظهور الاصناف والحرف كتكوينات اجتماعية لعبت دورا بارزا فى الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية. ويرتبط الازدهار الاقتصادي للمدن ارتباطا أساسيا بسياسة العمران وانشاء المدن واختيار مواقعها وتخطيط مواضعها تخطيطا يكفل تكامل المرافق ورخص الحياة في المدينة مما يجذب الناس فيمتد عمرانها.

وتؤثر السياسات الاقتصادية الناجحة فى ازدهار عمران المدن. ويكفي أن نشير إلى ما وصلت إليه القاهرة فى عصر المماليك حيث أصبحت أكبر مدينة فى العالم الوسيط بعدما نجحت سياسة المماليك فى استغلال التجارة العابرة في أراضيهم بعد تحول طرق التجارة عبر البحر الأحمر ومصر بسبب حروب المغول، فانعكس ذلك على ماعاشته القاهرة من مظاهر الثراء والترف في هذه الفترة، تلك المظاهر التي سجلها تاريخ قاهرة المماليك، وعكستها آثار العصر المملوكي، وهي السياسة التي دفعت أوروبا لمحاولة كشف طريق رأس الرجاء الصالح كسرا

لاحتكار التجارة، ونضبت الموارد بسقوط دولة المماليك على يد العثمانيين واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، فانكمشت الحياة التي عاشتها القاهرة فى عصر المماليك وذبلت المدينة فى عصر العثمانيين. فبعدهاكانت عاصمة الدولة المملوكية أصبحت عاصمة ولاية تابعة للدولة العثمانية، واحتلت مكانتها اسطنبول التي توافدت عليها موارد الدولة العثمانية وولاياتها المختلفة.

وكذلك أثرت الحياة الدينية والفكرية تأثيرا واضحا في الحياة الاجتماعية ولاسيما ان الدين الإسلامي ينظم حياة المجتمع في أدق تفاصيلها، فهو يشكل الاطار العام لسلوك المجتمع داخل المدينة، حتى أن المدينة وسمت بالصفة الإسلامية انطلاقا من هذا الأثر. ويعكس تخطيط المدينة الإسلامية ومرافقها ونظام إدارتها مدى الالتزام بتحقيق التعاليم الإسلامية، وتأثرت المدينة تأثرا واضحا بالسياسة الدينية للحكام في كل عصورها، تلك السياسة التي ارتبطت بمظاهر انتقال الحكم من خلافة راشدة إلى ملك عضوض في العصر الأموي، ثم ماتبع ذلك من ثورات وفتن أدت في النهاية إلى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وماشهده عصرها من ثورات دينية وفكرية، وظهور تيارات متعددة كالاعتزال والزهد وغيرهما. وما صاحب ذلك من مظاهر علمية وفكرية كانت بداياتها مع سياسة التعريب الأموية، تلك السياسة التى هيأت المناخ الجيد لانتشار العربية بين شعوب الدول المفتوحة، وما تبع ذلك من اهتمام ابناء هذه الشعوب بالعلوم الإسلامية واللغوية حباً فى مضاهاة العرب الذين حاولوا التركيز على أفضليتم بما اكتسبوا من اللغات وعلوم الدين. وفي العصر العباسي كان الانفتاح على الثقافات القديمة بالترجمة التي سرعان ما آتت اكلها عندما استوعبها المسلمون، واستفادوا منها، وعدلوا فيها، وطوروها لتبدأ النهضة العلمية الإسلامية فى المدن المختلفة تلك النهضة التي ارتبطت فيها بعد بازدهار الدولة الحاكمة ورعايتها.

وفي نهاية القرن الثالث ظهرت الدولة الفاطمية التي سعت إلى السيطرة على العالم الإسلامي ونشر مذهبها فيه، وقويت الدولة وامتدت وانشأت مؤسساتها

الفكـرية والـدينية والعلميـة التي تحقق ذلك. ونهض العـالم السنى في الشـرق للتصدي لهذا المد، واتخذ أسلحة مختلفة لتحقيق ذلك كان من بينهـا المدارس والخانقات كمؤسسات دينية تعليمية لنشر المذهب السني، تلك المنشآت التي امتد انتشارها من الشرق، حيث ادخلها صلاح الدين إلى مصر بعد أن قضى على الفاطميين. واستمر إنشاء هذه المنشآت من بعده على يـد السلاطـين والامراء الأيوبيين، واستمر المماليك فى إنشائها لأهداف ارتبطت بمحاولة الظهور بمظهر حامي الدين لاقناع الأمة بـأحقيتهم في الحكم الذي استـولوا عليـه دون سند شرعي، وغير ذلك من العوامل التي أدت إلى كثرة انشاء المساجـد والمساجـد الجامعة والمدارس والخانقات والاسبلة ومكاتب الأيتام والبيمـارستانـات التي ارتبطت بالحياة الاجتماعية فى المدينة الإسلامية ارتباطا واضحا، فتوفير المدارس اتاح فرصة كبيرة لرفع المستوى التعليمي والفكري بـالمدينـة، وكذلـك لعبت والخانقات دورا واضحا فى حياة فئات المتصوفة بما يجدونه من رعايـة داخلها، وكفلت مكاتب الأيتام تعليم ورعاية أيتام المسلمين بصورة تمكّنهم من الالتحاق بالمراحل العليا حيث يتخرجون فى الكتّاب عند سن البلوغ، وإذا كان منهم من لايرجى فلاحـه فإنه في هذه السن، وبما يحصل عليه من قدر من التعليم يمكنه أن يشق طريق حياته. وكانت البيمارستانـات والاسبلة لخدمـة فئات العـامة بمـا يحتاجون من خدماتها، ولاشك في أن هذه الخدمات التى تؤديها هذه المنشآت كان لها تأثيرها الذي هُدف إليه من انشائها كاكتساب رضى العامة، واستمالة أهل العلم والدين لتعضيد السلطة.

ومن المظاهر التي أثرت في الحياة الاجتماعية للمدن اختلاط الأجناس أحيانا في بعض المدن وخصوصا في الفترة الاولى التي انتشر فيها الإسلام، وما تلا ذلك من الاعتماد على هذه الاجناس كاعتماد العباسيين على الفرس ثم على الترك، وما تلا ذلك من سيادة العنصر التركي الذي امتد سلطانه حتى وصل إلى الحكم في كثير من بلدان العالم الاسلامى ابتداء من العصر العباسي وانتهاء بالعصر العثماني، وكان لذلك أثره من الناحية الاجتماعية حيث تحطم النظام القبلي الذي قام على

أسسه المجتمع العربي، فنرى معظم الخلفاء العباسيين يختارون زوجاتهم وأمهات أولادهم من الفارسيات والتركيات، حتى أنه من بين الخلفاء العباسيين لانجد إلا ثلاثة فقط من ابناء الحرائر وهم ابو العباس السفاح والمهدي والأمين(٥).

وامتد الأثر إلى العادات والتقاليد التي تأثرت تأثرا واضحا بهذه التيارات مختلفة المصادر، وبقيت اللغة العربية سيدة موقفها، بل إنها فرضت نفسها على الفرس وغيرهم، وقضت نهائيا على الألفباء لهذه اللغات، فقد اقتبست الفارسية ثلث الفاظها من العربية، وساعد على ذلك أنها لغة القرآن الكريم(٦) لكن ذلك لم يمنع من انتشار كثير من الكلمات الفارسية والتركية في اللغة العربية في المدن المختلفة التى اتصلت بهذه التيارات وخصوصا مسميات تلك المناصب الادارية والالقاب الوظيفية والفخرية التى تلقب بها الحكام الأتراك.

وشكل أهل الذمة(٧) فئة من فئات مجتمع المدينة الإسلامية قلت نسبته أو زادت حسب طبيعة هذه المدينة أو تلك، وسارت حياتهم مع حياة الفئات المسلمة الأخرى وفق مايقره الحكم الاسلامي من أسس التعامل معهم، وشاركوا أحيانا مشاركة جادة فى الادارة والحكم فى العصور التي مال فيها الحكام لاستخدامهم، واشتغلت الفئات الدينية منهم بالحرف والصناعات التي توارثوها وظلوا محتفظين بتقاليدها في كثير من المدن حتى وقتنا الحاضر.

يعتبر الرقيق من الفئات الدنيا التي شكلت مجتمع المدينة الاسلامية(٨). وكثر جلب الرقيق إلى قصور الحكام والخلفاء في المدن الإسلامية، وراجت تجارة الرقيق مع ازدياد الطلب، وزخرت أسواق الرقيق فى كثير من المدن الاسلامية كبغداد والقاهرة، فشهدت أسواق النخاسة في بغداد آلافا من الرقيق الصقلبي والرومي والزنجي والتركي(٩)، وأطلق على أحد شوارع بغداد اسم شارع دار الرقيق كان يقوم عليه موظف اسمه قيم دار الرقيق كما سمي موضع آخر باب النخاسين(١٠)

وكذلك اشتهر سوق الرقيق في القاهرة، وكان لهم دلالون يقومون بعرضهم للبيع ويذكرون مواصفاتهم، وحددت الاحكام الفقهية ما يتصل بهذه التجارة من

أحكام، كما انها حددت أحكام التعامل معهم. (١١).

وتنوعت استخدامات الرقيق في الخدمة في القصور ولاسيما الجوارى والخصيان، ومنهم من حمل السلاح وترقى إلى أعلى المناصب وخصوصا بعدما يعتقون(١٢). وكان ذلك هو السبيل الذي انطلق منه المماليك إلى السلطة، وهو ما أغرى «الشراكسة» ببيع أولادهم طمعا في أن يصلوا إلى السلطة المملوكية، وكثيرا ما كان السلطان أو الأمير المملوكي يأتى بأهله وأسرته بعد أن يصل إلى مرتبة السلطة كما فعل السلطان برسباي أحد سلاطين المماليك وغيره.

وفي العصر العثماني استمر الرقيق والجوارى عنصرا ماثلا في حياة مجتمع المدينة الاسلامية لكنه مال في مطلع القرن الحالي إلى الانقراض.

وبصفة عامة يمكن تقسيم الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية تقسيما رئيسا، يتبع تقسيم طبقات المجتمع إلى طبقة حاكمة من الخلفاء والسلاطين والحكام والوزراء والامراء، وطبقة العامة التي تتدرج مستوياتها في فئات مختلفة تضم التجار ورجال الدين وأهل العلم، وأصحاب الحرف والفلاحين وغيرهم.

وتمثل القصور الخاصة وعاء الحياة الاجتماعية للطبقة الأولى بما يتّبع فيها من تقاليد اختلفت من دولة إلى أخرى وأحيانا من حاكم إلى آخر، وكان بهذه القصور مجالس للعلماء والشعراء الذين يستأنس بهم، كما أن جنباتها عاشت أحيانا ألوانا من الترف واللهو تسجله المصادر والمخطوطات المصورة التي تزخر بها مكتبات العالم. وتعكس ثراءها المعماري والزخرفي ما تخلف من أوصاف جاء بعضها شعرا لقصور العباسيين وقصور الأندلس.

وتعبر حياة العامة عن الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية تعبيرا صادقا باعتبار اتساع نطاقها واستمراريتها، وانتقال العادات والتقاليد عبر اجيالها وتجسيدها للواقع الفعلي لحياة المدينة الذي يؤثر في تكوينها ومراحل تطورها. (١٣)

وتتجه دراستنا للحياة الاجتماعية للعامة في المدينة الاسلامية من منظور خاص

يحاول الربط بين الحياة الاجتماعية فى المدينة الاسلامية وملاءمة تخطيط المدينة لممارسة النشاطات الاجتماعية ومدى تأثر هذا التخطيط بتلك الجوانب التي تحكم الحياة الاحتماعية في المدينة الاسلامية، وكيف أن المدينة الاسلامية بهيكلها التخطيطي والعمراني ما هى إلا صدى لجوانب النشاطات الاجتماعية فيها.

وانطلاقا من هذا المنظور فإننا نعرض لقواعد إسلامية اجتماعية عامة انعكس تطبيقها انعكاسا مباشرا على الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية، وأول هذه القواعد واعمها هو المبدأ الذي ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو«لا ضرر ولا ضرار»هذا المبدأ الذي حكم إلى حد بعيد التخطيط المادي للمدينة الاسلامية حيث إن الفقهاء حددوا مظاهر الضرر المادي الناتج من تفاعل النشاطات داخل التكوينات المعمارية للمدينة الاسلامية فاعتبر الدخان الضار والرائحة الكريهة والصوت المزعج ثلاثة مظاهر تسبب الضرر للآخرين إذا زاد عن الحد المحتمل الذى قدرته الاحكام الفقهية، وتطبيقا لمنع هذا الضرر فى تخطيط المدينة الناشئة وجب إبعاد المنشآت التي تتسبب في ذلك- كأفران الفخار والجير والمدابغ والصناعات التى تصدر صوتا مزعجا- عن الوحدات السكنية التي تشغل القطاع الأكبر من حيز المدينة.

ومع تطور عمران المدينة وامتداده فإن وجود هذه المنشآت يظل باقيا لقدمها، ففي ازالتها نوع من الضرر لأصحابها، ولاسيما أن مادخل عليها من امتداد عمراني أحدث. وأصحابه كانوا على علم بوجود هذه المنشآت عندما استقروا مجاورين لها. ويمتد العمران في حلقة جديدة تبعد إلى أطرافها أيضا هذه النوعية من المنشآت التي تتسبب فى الدخان الضار، أو الرائحة الكريهة، أو الصوت المزعج، ولاشك في أن تطبيق هذه القاعدة بهذا الأسلوب في توزيع المنشآت الصناعية على مخطط المدينة وعلاقته بالتكوينات السكنية فيها يوفر الهدوء والرضى لحياة اجتماعية هادئة داخل المدينة.

وحكمت هذه القاعدة أيضا تصنيف الأسواق في المدينة الاسلامية، ذلك

التصنيف الذى كانت الحكمة الاساسية منه دفع الضرر الذى ربما يحدث إذا ما تجاورت سلعا وحرفا متضادة تفسد العرض والسلعة، وتتسبب أيضا في أذى رواد هذه الأسواق. وتدرج التصنيف من الساحة التي تحيط بالمسجد الجامع في قلب المدينة إلى أطراف شوارعها الرئيسة المنتهية إلى مداخلها وبواباتها في نظام معين يقوم على التناسب بين السلع والتجارات والحرف وجمهور المتعاملين من داخل المدينة أو خارجها،ومواصفات كل تجارة من حيث الرغبة فى وضعها قرب قلب المدينة- حيث تزداد درجة كثافة المرور فى اتجاه المسجد الجامع - أو في أطراف شوارع المدينة عند بواباتها -حيث تقل درجة الكثافة- لما قد تسببه من أذى للمارة.

وفي هذا التصنيف فائدة مزدوجة لكل من التجار والحرفيين من جهة، حيث يساعد تكثيفهم في موضع معين على وصول الراغبين في الشراء بسهولة، كما أنه يوجد نوع من الترابط بين تجار وصناع السلعة الواحدة يساعد على رواج تجارتهم، ومن جهة أخرى سهل هذا التصنيف على رواد السوق شراء احتياجاتهم دون عناء مما يريدونه من سلعة معينة يجمع تجارها في سوق واحدة تتجاور فيه الحوانيت مما يمكّن المشتري من أن يرى وجود السلع وحدود الأسعار فى وقت قصير. (١٤).

ومن الناحية الادارية سهل التصنيف مراقبة الاسواق من جهة سلطات المدينة، كما أنه تمشى مع الرغبة فى تخفيف كثافة المرور في شوارعها. فهذا التصنيف ساعد على الوصول مباشرة إلى السوق المتخصصه فى سلعة بعينها دون الحاجة لمسح شوارع المدينة كلها بحثا عن هذه السلعة أو تلك. كما أن هذا التصنيف راعى أن تكون السلع ضخمة الحجم ثقيلة الوزن عند أطراف المدينة حتى لايسبب نقلها إلى الداخل فى تكثيف وعرقلة حركة المرور وأذى المارة في الشوراع.

ويلاحظ أن اسواق المدينة، التي تمثل قطاعا رئيسا من النشاطين الاجتماعي والاقتصادي في المدينة،تركزت في المنطقة المحيطة بالمسجد الجامع، كما اصطفت

على جانبي الشوارع الرئيسة النافذة دون الطرق الخاصة، وقُصد هذا التخطيط لإنه من جهة يحصر النشاط والحركة التجارية في شوارع عامة متسعة لحركة المرور والحركة التجارية على جانبيها، فيتحقق منع الأذى عن النساء اللائى يرتدن غالبا هذه الأسواق، ويمثلن قطاعا كبيرا من المستهلكين المتعاملين مع التجار وأهل الحرف في الأسواق، ويمكن للمحتسب مراقبة التعامل بالاسواق بطريقة تكفل أداء واجبه بصورة سليمة، وفي الوقت ذاته فإن تراصّ الحوانيت في الأسواق على جانبي الشوارع العامة المتسعة كان هو المسموح به لأن بناء الأسواق على جوانبها لايتسبب في أذى الوحدات السكنية بكشف حرماتها نظرا لاتساع هذه الشوارع، ونظرا لاستغلالها في ذلك بحكم أن المرور فيها مسموح لكل العامة، بعكس الطرقات الخاصة التي تضيق، بالاضافة إلى أن المرور فيها يتميز بالخصوصية. ومن ثم تركزت الأسواق على جانبي الشوارع الرئيسة انطلاقا من تحقيق هذه الاغراض.

ومع تطور عمران المدينة تركزت الامتدادات فى المناطق الملاصقة للشارع الأعظم فى تفريعات منه: منها ما احتل شوراع جانبية نافذة، ومنها ما أخذ هيئة تكوينات معمارية تفتح حوانيتها إلى فناء داخلي كالوكالات والقياصر والخانات؛ استبدلت فى كثير من الأحيان بمنشآت وتكوينات معمارية أخرى، لتزايد النشاط التجاري، والحاجة إلى تكثيف الأسواق.

وفى إطار «مبدأ لاضرر ولاضرار» تأتي «ظاهرة الخصوصية» التي أثرت تأثيرا واضحا فى الحياة الاجتماعية في المدينة الاسلامية وبالتالي في تكويناتها المعمارية المختلفة(١٥)، فقد حددت التعاليم الاسلامية نظام الحياة الاسرية بما يحفظ الحرمات والعرض، فأخذ طابعها بمرور الزمن سلوكا عاما حرص عليه السكان حرصا شديدا، وأصدر الفقهاء أحكامهم التي تدعم الخصوصية، وطبقها القضاة، ولم يتسامحوا في كشف حرمات المنازل بالنظر من ابوابها، أو أثناء المرور فى الشارع، أو بجرحها من خلال الاطلاع على المنازل المجاورة من الاسطح والكوى التي تكشف بيوت الأخرين.

وكان لتمسك السكان بالتستر على حرماتهم، وحرص السلطة على تمكينهم من ذلك، أثر مباشر فى الشكل المادى للمدينة الإسلامية أخذ مظاهر متعددة: من بينها تحديد شروط معينة لارتفاعات المباني، وتنظيم المظلات على الشوارع بطريقة خاصة، وكذلك فتح الأبواب عليها.

وبالنسبة لارتفاعات المباني لم تحدد الأحكام الفقهية الاسلامية ارتفاعات معينة مثلما كان عليه الحال مثلا في بعض الحضارات الشرقية القديمة التي كان ارتفاع المباني فيها يتحدد طبقا لاتساع الشوارع(١٦). وجاء ذلك في اطار حرية استغلال الملكية الخاصة، والنظرة المعمارية للشوارع والطرقات باعتبارها شرايين اتصال في المقام الأول، حيث إن الاعتماد عليها في الاضاءة والتهوية والأطلال كان يعرض المنازل للكشف والتجريح، وهو أمر يتعارض مع الخصوصية التي يحرص عليها التوجيه الاسلامي. وبدا ذلك واضحا منذ البداية عندما شكا خالد بن الوليد للرسول صلى الله عليه وسلم من أن بيته- الذي كان يقع في الجانب الشرقي من المسجد- صغير جدا ولا يتسع لاسرته، فوجهه النبي صلى الله عليه وسلم الى أن يرفع بناءه في السماء ويدعو الله بالتوسعة(١٧). ولم تكن الحرية في الارتفاع بالبناء مطلقة، ولكنها مشروطة بعدم الإضرار بالجار أو المار، فإذا تسبب الارتفاع في مثل هذا الأذى منع، وإن لم يتسبب سمح بالارتفاع، وكان التصريح بالارتفاع بالبناء يتم بعد موافقة السلطات القضائية المختصة بذلك في المدينة. (١٨)

وتعكس المصادر صورا شتى من الأوامر والتصرفات التي تؤكد الحرص الشديد على «الخصوصية» وعدم كشف الحرمات، فقد وجه الخليفة عمر عند بناء مساكن البصرة إلى عدم التطاول في البناء(١٩). وامتد حكم الفقهاء ليمنع المؤذن من صعود المئذنة التي ترتفع عن البيوت المجاورة، ويكشف المؤذن من خلالها عورات البيوت، فقد سئل «سحنون» عن مؤذن ينظر من مئذنة جامع على عورات البيوت المجاورة: هل يحق لسكان هذه البيوت التي يفصلها عن الجامع شارع أن يمنعوا المؤذن من صعود المئذنة؟. فكانت اجابته بمنع المؤذن من الصعود مادام صعوده

يتسبب في الضرر(٢٠). وهناك مثال تطبيقي تم على يد الخليفة سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ / ٧١٧م)، فعند زيارته مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو في طريقه الى الحج، نزل في بيت مروان في جهة الركن الجنوبي لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم، وعندما صعد المؤذن المئذنة التي في هذا الركن للأذان أصبح الخليفة تحت بصره فعندئذ أمر الخليفة بهدم هذه المئذنة الى مستوى سطح المسجد. (٢١)

وبصفة عامة أصبح ارتفاع المئذنة عن البيوت المجاوة لها ـ لغرض وصول نداء الصلاة إلى اكبر مدى ممكن ـ وما قد يسببه من أذى بكشف البيوت المجاورة إياها مسألة هامة تدخل في مسؤوليات المحتسب الذي وجب عليه أن يراقب المؤذن ويوجهه إلى عدم امعان النظر في بيوت الناس وهو على المئذنة، ويجعله ملتزما بذلك بالقسم، ولا يجعل أحد غيره يصعد إلى المئذنة، ولا يصعد هو الا في وقت النداء إلى الصلاة(٢٢). وفي بعض المدن مثل الكوفة تشدد المحتسب في ألا يسمح للمؤذن بصعود المئذنة إلا إذا كان كفيفا حتى لا يؤذي البيوت المجاورة. (٢٣) ويبدو أن هذا التقليد في اختيار المؤذنين قد شاع في كثير من المدن الإسلامية ومازال قائما حتى الان وربما كان لذلك صلة بما نراه في شيوع استخدام السلم المروحي الداخلي للمئذنة الذي يدور حول عمود مركزي، وعدم وجود فتحات مناسبة لاضاءته في بدن المئذنة، فهذا التصميم بالاضافة إلى أنه أدى الى زيادة متانة بناء المئذنة وارتفاعها ورشاقتها، فإنه حمى البيوت المجاورة من التطلع عليها اثناء صعود المئذنة لعدم وجود فتحات، وان وجدت فهي ضيقة لا تمكن من الاطلال إذا كان المؤذن مبصرا، أما إذا كان المؤذن كفيفا فان التصميم الداخلي للمئذنة بهذه الكيفية يسهل له الصعود والهبوط، حيث إن السلم المروحي حول العمود المركزي يكفل ذلك تماما، بل ربما أجاد المؤذن الكفيف صعود هذا السلم أكثر من المبصر، وغالبا ما ارتفعت شرفة الأذان ارتفاعا كبيرا أيضا يمكن من وصول الأذان إلى أبعد مدى ممكن، ولا يمكن من الرؤية الواضحة للبيوت المجاورة.

ومثال آخر يدل على مدى الحرص على عدم كشف حرمات البيوت وهو ما

تشير إليه الرواية من أن سحنونا سئل عن شخص شيد مسجدا فوق حوانيته التي يملكها، وللمسجد شرفة يمكن الإطلال منها على البيوت المجاورة هل له الحق في عمل ذلك رغما عن جيرانه؟ فأجاب بأن صاحب المسجد عليه أن يبني حائطا حول الشرفة لكي يحمي جيرانه، ولا يسمح للناس بالصلاة في هذا المسجد قبل أن يبنى هذا الحائط الساتر. (٢٤)

ويدل مثال المئذنة والمسجد على مدى التشدد في منع كشف الحرمات بالإطلال على البيوت المجاورة، ويعكس مدى حرص السكان والقضاة والمحتسبين على تحقيق «الخصوصية»، واذا كان المتطفلون من المؤذنين المحبين للاطلاع على المباني الدينية لم يستثنوا من الشك فانه من الواضح أن هذا الحرص يمتد بصورة اكثر تحشما إلى مباني العامة.

وقد تعرضت الأحكام الفقهية لتحديد العلاقة بين هذه المباني وخصوصا فيما يتعلق بمطلاتها وأبوابها لتمنع كشف الحرمات، وتحقق الخصوصية لساكنيها. وكانت البداية عندما شكا أحد سكان «الفسطاط» إلى الخليفة عمر من إطلالة جاره عليه من غرفة بناها، فأرسل الخليفة عمر الى عمرو واليه على الفسطاط أن يهدم هذه الغرفة، وعندما علم أن ذلك لم يكن في نية المالك كتب مرة اخرى الى عمرو أن يضع سريره خلف النافذة ويحاول الاطلال فان أطل على بيوت الجيران(٢٥) وجب اغلاق النافذة، وان لم يتمكن فان للمالك أن يحتفظ بالنافذة، وهذه الحادثة كانت الاساس الذي انطلق منه نظام النوافذ في المنازل فهي تسمح بانشاء النوافذ للضوء والهواء دون الاطلال على بيوت الجيران، وهو ما تبلور في العمارة الاسلامية فيما يسمى «المناور الحائطية» التي تسمح بالضوء والهواء من حرم الجيران، ولا تسمح بالاطلال عليهم لارتفاع مستواها بنسبة ارتفاع لا تمكن من ذلك.

وتتضمن الاحكام الفقهية مسائل كثيرة نظمت فتح النوافذ والمطلات بما يمنع الأذى ويحقق المنفعة، فقد سئل ابن القاسم عن شخص يريد أن يفتح بابا أو كوة

في حائطه يطل منها على جاره، هل يسمح له أو يمنع؟ فذكر أن مالكا ذكر: أنه لايسمح للشخص بأن يعمل شيئا يسبب أذى لجاره، حتى ولو عمل هذا الشيء في ملكه الخاص، وفي حالة أخرى ذكر ابن القاسم رأيا مختلفا عندما سئل: هل يجبر مالك أن يسد بابا أو نافذة سابقة كانت تطل على بيت جاره وليس له فيها فائدة، وتسبب أذى للجار؟ فذكر أن الجار لايستطيع أن يفعل ذلك مادام المالك لم يستجد ذلك الباب أو النافذة(٢٦). بينما يرى آخرون كمطرف واصبغ بوجوب سدها حتى ولو كان مصدر الاذى أقدم من الشيء الذي يتأذى به. فقد سئل مطرف عن شخص فتح نافذة في حجرته العلوية تطل على ملك الجيران التي لم يكن قد بنى بعد، واراد المالك أن يمنعه من أن يطل على ارضه لان ذلك يسبب له ضررا عندما يبني، فهل تنظر الشكوى ويؤخذ بها؟ فذكر مطرف أن للجار حق الاعتراض قبل البناء وبعده، فله الحق في أن يمنع ذلك الاذى عندما يبني، واذا لم يعترض قبل البناء يمكن أن يفعل ذلك بعد البناء، ذلك لان سكوته أولا لا يمنع من أن يطالب بحقه بعد ذلك، وقال اصبغ الرأي نفسه(٢٧). ويجب أن نلاحظ هنا الاختلاف في الحالتين السابقتين ففي حالة ابن القاسم يرى الا تمنع الحالة السابقة، وفي رأي مطرف ذكر أنها تمنع حتى ولو كانت سابقة.(٢٨)

وفي حديث مفصل يذكر ابن الرامي أن الأبواب والنوافذ المطلة على الجيران نوعان: منها «الحديثة»، والمشهور بين الفقهاء أو ماجرى به العرف والعمل أنها تسد، ومنها «القديمة» التي تترك كما هي ويمنع الاطلال منها، بمعنى أنه يبقى فقط استغلالها في التهوية والاضاءة، ويشير إلى أن العمل بهذا جرى في مدينة تونس من واقع التطبيق العملي لهذا الحكم، ومما هو جدير بالذكر أن السلطة القضائية لم تكن تسمح بفتح أي مطلات تسبب كشف حرمات الآخرين حتى في حالة قبول الجيران ذلك في مقابل أن لهم أيضا مطلات مشابهة على الآخرين.(٢٩)

ومع مرور الزمن يصبح الحكم الفقهي، نتيجة الالتزام، قاعدة سلوكية اجتماعية عامة، ولا أدل على ذلك مما ذكره السيوطي عن أحد أعوان الخليفة

المعتضد الذي بنى بناء عاليا في بغداد يكشف المنازل المجاورة، ويعلق السيوطي بأن أحدا لم يعترض بحكم المكانة السياسية التي يتمتع بها هذا الرجل باعتباره من أعوان الخليفة(٣٠) . وتعددت حالات التداعي أمام القضاء بين سكان المدينة بسبب تلك المطلات التي تكشف حرمات المنازل، وتزخر الوثائق بأمثلة لهذه الحالات في كثير من المدن الاسلامية، ومن امثلتها ماحدث في المدينة المنورة سنة ٩٨١هـ/ ١٥٧٣ م عندما اشتكى أحد الاشخاص جاره بسبب فتح نافذة في إحدى الغرف العليا بمنزله يطل منها على منزله وتكشف حرماته، وتأكد القضاء من الضرر الفعلي الذي يسببه فتح النافذة، فحكم بمنعها.(٣١)

وجرت العادة على استغلال الأسطح في المدينة الاسلامية استغلالا خاصا في الأغراض المعيشية وخصوصا في فصل الصيف الذي جرت العادة على أن يتحول السطح ليلا إلى مكان للنوم هروبا من ارتفاع درجة الحرارة(٣٢). ومع هذا الاستغلال المكثف للسطح تضمنت الأحكام الفقهية ما يوجه المطالع المؤدية الى السطح وابوابه وسترته بحيث لا يكشف الصاعد الى السطح، أو من يكون فوقه البيوت المجاورة، أو أن تكشف البيوت المجاورة هذا السطح. وقد اشرنا الى حادثة ذلك الرجل الذي أراد أن يحول سطح حوانيته إلى مسجد، فلم يسمح الفقهاء بالصلاة فيه الا بعد أن يبنى له سترة تقي المنازل المجاورة من عيون المصلين فيه، ويشير ابن الرامي إلى حادثة أخرى تؤكد استمرار تطبيق هذه الاحكام فقد حدث في تونس انه كان لشخص سلم يؤدي الى سطحه، وكان للسلم والسطح سترة تمنع من التطلع. تهدمت هذه السترة، فأصبح كشف المنزل المجاور عند الصعود أمرا قائما. فطلب الجار من هذا الشخص أن يعيد بناء السترة حتى لايكشفه، لكنه رفض، فشكاه للقاضي الذي حكم بعدم اجبار الجار على بناء السترة، في الوقت الذي حذره من العقاب في حالة صعوده الى السطح لان الضرر لايقع الا عند صعوده (٣٣). وتدل هذه الرواية على مدى الحساسية من التطلع وكشف المنازل سواء لدى العامة أو القضاة(٣٤)، كما أنها تشير إلى أن التقليد المعماري جرى على ستر السلم والسطح بسترة معمارية تجنبا لهذا

الكشف، وأن وظيفة السترة للسلم أو السطح وظيفة أساسية ترتبط ارتباطا مباشرا بوقاية أهل المنزل من عيون الآخرين ووقاية الاخرين من عيون أهل المنزل. ومن ثم لايمكن استغلال السطح من دون بناء سترة تحقق هذا الغرض.

وارتبط تحقيق السترة للغرض منها بارتفاع بنائها الى المستوى الذي يحقق هذا الغرض، واستند الفقهاء في ذلك إلى ماحدث بشأن الشكوى التي تلقاها الخليفة عمر بن الخطاب من أحد سكان مدينة الفسطاط، والتي شكا فيها من بناء جاره غرفة علوية بها نافذة تطل عليه، وهي الشكوى التي بحثها واشار على واليه عمرو بن العاص بأن يعاين الحالة، ويضع سريرا بجوار النافذة ويطل من النافذة، فان تمكن من كشف الجار منعها. وان لم يتمكن تركها لاقتصارها على التهوية والاضاءة دون الاطلال. ويستشف من هذه الرواية، قياسا، أن تكون السترة بارتفاع لايمكّن من كشف البيوت المجاورة وهو الرأي الذي أشار به «أشهب» عندما ذكر أن السترة يجب أن ترتفع الى المستوى الذي لايستطيع منه الشخص أن يرى ماخلفها، أو على حد تعبيره «مالا يرى الناظر منه». وفي قياس محدد يذكر ابن الرامي أن «سبعة أشبار» ارتفاع مناسب للسترة يكفي لان يمنع الشخص من الرؤية اذا لم يكن محبا لفضول الاستطلاع(٣٥). ويمكن أن يكون كشف البيوت عن طريق أبوابها المؤدية إلى الشوارع والطرقات بما يقابله من ابواب المنازل المجاورة أو غيرها من الوحدات التي تمثل ضررا اكبر كالحوانيت وغيرها. ولذلك كانت الأحكام الفقهية المحددة لنظام فتح الابواب والسماح بانشاء الحوانيت وخصوصا في الشوارع والطرقات الضيقة. وارتبط هذا النظام كذلك بطريقة استخدام الافنية التي تتقدم المنازل في كثير من اغراض الحياة اليومية. ومنعا لما يمكن أن يتسبب عن فتح أبواب المنازل متقابلة على جانبي الشارع سواء أكان أذى الكشف أم اعاقة استخدام الافنية أمام هذه الأبواب في اغراض الحياة اليومية اتجهت هذه الاحكام بصفة عامة إلى العمل على تنكيب أبواب المنازل بعضها عن بعض وان اختلفت في مدى وجوب ذلك في الشوارع الواسعة. فبينما يرى بعض الفقهاء لزوم تطبيق ذلك في الشوارع الواسعة والضيقة على حد سواء

يرى آخرون استثناء الشوارع الواسعة من ذلك، واعتبروا الشارع الواسع هو ما بلغ اتساعه سبعة أذرع فصاعدا، أما ماقل عن ذلك فهو في حكم الشوارع الضيقة. وحكموا بذلك في بعض الحالات التي وقعت، كما حدث في مدينة تونس عندما وقع خلاف بين شخصين يملكان دارين متقابلتين يريد أحدهما أن يفتح في داره بابا يقابل باب الدار المواجهة، فاعترض عليه الآخر وتداعيا إلى القضاء الذي رأى أن الشارع واسع بدرجة تسمح بفتح الباب دون حدوث الضرر(٣٦). وتكشف هذه الحادثة وغيرها من مسائل تقابل الأبواب، وما تسببه من ضرر الكشف واعاقة استخدام الفناء عن مدى الحرص على تحقيق «الخصوصية»، وعدم كشف الحرمات في المدينة الاسلامية، وقد كشفت الدراسة الميدانية «لحارة الاغوات» في المدينة المنورة عن تطبيق أحكام الفقهاء فيما يتعلق بتنكيب أبواب المنازل في محاولة جادة لعدم تقابلها تجنبا لكشف محارم هذه المنازل. فقد كشفت الدراسة الميدانية عن أن إثنين فقط من ابواب المنازل بهذه الحارة متقابلان من مجموع المنازل التي تزيد على المائة. (٣٧)

وتوافق التطبيق الفعلي مع الاحكام الفقهية يؤكد على أن الخصوصية تبدو كأنها من أهم الامور واكثرها حساسية بالنسبة لسكان المدينة الاسلامية، فضرورة منع الاشخاص في ملكياتهم كما يرغبون حتى لا يتسببوا في ضرر ومضايقة الاخرين كان كافيا لان يوضح أهمية الخصوصية في حياة مواطني المدينة الاسلامية وبالمستوى نفسه كان التأكيد على احترام الخصوصية في جميع تكوينات المدينة باعتبار النسق الواحد الذي يؤطر حياة المدينة كلها. وغالبا ما تعرض القانون الاسلامي- مثلا في الاحكام الفقهية- بالحسم لاي مشكلة طارئة، وبعدها تظل الرغبة في المحافظة على الحقوق، وعدم التدخل في شؤون الآخرين قائمة ومعتبرة في الحالات التالية. (٣٨)

وقد أثرت الاحكام الفقهية المحققة «للخصوصية» وعدم كشف الحرمات في تخطيط «المنزل» الاسلامي في توافق تام مع العوامل الأخرى التي أثرت في هذا التخطيط، فوجبت المعادلة بين ضيق الشوارع والطرقات الجانبية التي تمثل نسبة

غالبة من شرايين الاتصال بين التكوينات السكنية في المدينة، وما قد يترتب على ذلك من منع فتح النوافذ والمطلات عليها لكشف البيوت المجاورة، والحاجة الى العديد من هذه النوافذ والمطلات بمقاييس تناسب غرض التهوية والاضاءة والإطلال، وهي حاجة تشتد بصفة خاصة في المدن الاسلامية ولاسيما أنها تقع غالبا في المنطقة الحارة، وتبدو الحاجة الى الهواء شديدة في فصل الصيف على وجه الخصوص. وتمثل الحل في الاقتصار على استخدام الشارع كشريان اتصال، واعتمد على الفناء الداخلي في بقية الاغراض الاخرى كفتح النوافذ والمطلات وتوفير نسبة جيدة من الاضاءة والتهوية، وتجنب فتح المطلات على الشوارع أو الجيران وما ينجم عن ذلك من ضرر للبيوت المجاورة. ومن هنا ساد الفناء كعنصر رئيس في تخطيط المنزل الاسلامي، واصبح يمثل محور النشاط الرئيس في المساكن والمباني الاسلامية الاخرى. والفناء عنصر اساسي في تخطيط المنزل الشرقي منذ اقدم العصور باعتبار ملاءمته المعمارية لمناخ المنطقة الحارة، فهو يساعد على خفض درجة الحرارة نتيجة الظلال الناتجة من تقابل اضلاعه، ونتيجة تبخير نسبة من الماء في الفساقي التي وضعت به غالبا بالاضافة الى أن انعكاس الاشعة على سطح الماء يقلل نسبة الامتصاص لأشعة الحرارة، كما أن المزروعات التي زرعت غالبا حول الفسقية في الفناء تساعد هي الاخرى على تلطيف الجو. وقد ثبت بالتجربة أن درجة الحرارة داخل الفناء تنخفض درجتين عن درجة الحرارة السائدة في المنطقة. ولإحداث تهوية جيدة من دون تلوث نجد أن الفناء بدرجة حرارته المنخفضة يكون منطقة ضغط مرتفع. والخارج «الشارع» يكون منطقة تفريغ (ضغط منخفض). وتبعا لذلك يتكون تيار هواء مستمر من الفناء الى الشارع، وبالطبع تكون التهوية دون أي تلوث علاوة على تلطيفها للجو الداخلي.

وقد استخدم الفناء في فتح النوافذ والمطلات للاجنحة المختلفة المطلة عليه تجنبا لصعوبة فتحها على الشوارع الخارجية بدرجة كافية للتهوية والاضاءة والاطلال، كما انه استخدامه كعنصر اتصال وحركة للربط بين اجزاء المنزل

المختلفة بالاضافة الى استخدامه في الاغراض المعيشية المتنوعة، واعتبر منطقة منفعة جماعية في حالة تقسيم المنزل أو سكناه بأكثر من أسرة، وكل هذه المميزات حتمت استمرارية استخدامه في التكوينات المعمارية الاسلامية بالمدينة الإسلامية، بل إنها دفعت الى تطوير استخدامه وظيفيا وجماليا ليتناسب وحياة الأسرة المسلمة التي تقضي معظم أوقاتها داخله وخصوصا النساء.

وكان تنكيب الأبواب الخارجية للتكوينات المعمارية المطلة على شوارع وطرقات المدينة مظهرا معماريا تطبيقيا لاحكام الفقه الاسلامي التي دعت الى ذلك حفاظا على عدم كشف حرمات المنازل من خلال هذه المداخل. ولاشك أن هذا التنكيب انعكس بصورة أو بأخرى على تخطيط المنزل أو الوحدة المعمارية ككل لأن وضع الباب في موضع معين يتفق وهذه الرغبة ينعكس انعكاسا مباشرا على تخطيط المبنى كله، وهو مؤثر يشترك مع مؤثرات اخرى في التأثير في تخطيط المنزل الاسلامي وتوجيهه توجيها معينا. واعتبر الفقهاء انشاء حانوت مقابل باب منزل ضررا يفوق انشاء باب منزل مقابل، وكانت الحساسية شديدة فيما يتعلق بانشاء الحوانيت باعتبار أنها عادة ما تكون مركزا ثابتا لورود العامة اليه لشراء حاجاتهم. ويدل على ذلك تلك الحادثة التي وقعت في تونس، والتي اعترض فيها أحد سكان شارع جانبي يتفرع من شارع رئيس، وداره تقع في الجانب الشرقي من هذا الشارع الفرعي، على انشاء حانوت في الشارع الرئيس في الجانب المقابل للشارع الفرعي الذي تقع على جانبه الشرقي داره بحجة أن انشاء هذا الحانوت يتسبب في أذى داره بالكشف. وبمعاينة الحالة تبين للقاضي أن إنشاء الحانوت لا يتسبب في كشف داره، فرفضت الدعوى وأنشىء الحانوت(٤٠). وهذه الحادثة تبين مدى الحساسية من إنشاء الحوانيت. فبالرغم من انشائها في شارع واسع بعيداً عن داره التي في شارع فرعي متفرع من الجهة المقابلة كانت الشكوى، وهو أمر يفسر لنا انحسار انشاء الحوانيت في الشوارع الفرعية الضيقة في المدينة الاسلامية، وتركيزها على جوانب الشوارع الرئيسة المتسعة، وانشاء التربيعات وقيساريات الشوارع على جوانب الشوارع الرئيسة متفرعة منها، وراجعة اليها

بهيئة الحوانيت في الشوارع المتسعة، وانشاء الوكالات والقياصر في موضع المنازل والتكوينات المعمارية الاخرى بتصميم معماري يتلاءم وخصوصية الشوارع والطرق والتكوينات المعمارية المجاورة لها. وهو اتجاه شكل مع التغير والتطور اللذين تعيشهما المدينة ذلك التركيب المادي للتكوينات المعمارية التجارية والحرفية على جوانب الشوارع الرئيسة للمدينة.

ولضيق النسبة الغالبة على شوارع المدينة الفرعية والطرقات الخاصة، كان لابد من حماية أهل المنزل من عيون المارة فيها، وحتى من عيون أهل المنازل المقابلة اذا ما وقفوا بأبوابها رغم تنكيبها، حيث إن تقارب البيوت لا يحقق منع الرؤية والكشف .وكان الحل في تخطيط المنزل حيث خططت مداخل المنازل بطريقة تمنع هذا الكشف، وتمثل تخطيطها في هيئة دهليز أو ممر ملتو أو منكسر يؤدي اليه الباب المطل على الشارع، ويوجد في أحد جانبي الممر أو الدهليز باب ثان يؤدي الى الصحن أو فناء المنزل. وبهذه الحيلة التي تجنب بها المعمار أن يكون البابان على محور واحد، وبوجود هذا الممر الملتوي توفرت الحماية لمن بفناء المنزل من أن يراه المارة بالشارع أو الواقف بأحد أبواب البيوت المقابلة. وكذلك قل عدد النوافذ التي بالطابق الأرضي وضاقت قياساتها، وخصصت حجرات هذا الطابق غالبا لاغراض التخزين لملاءمته لهذا الغرض، ولتعلو الطوابق الرئيسة المتسخدمة في الاغراض المعيشية عن مستوى أرضية الشارع لحمايتها من فضول المارة، ولتوفير نسبة اكبر من الضوء والهواء والهدوء، ويمكن أن نلاحظ ذلك فيما بقى من امثلة المنازل الاسلامية في القاهرة وغيرها من المدن الاسلامية، وهو تخطيط نراه مستمرا الى عهد قريب كما هو واضح فيما بقى من منازل مدن وبلاد نجد كالرياض وغيرها. (٤١)

وفي حالة امكانية فتح النوافذ والمطلات على الشوارع سواء أكان ذلك في جدران هذه المنازل أم فيما يلحق بها من اخاريج لم يسمح بإنشائها إلا في المنازل المطلة على الشوارع العامة(٤٢) كان الحرص شديدا على ألا تفسد هذه النوافذ والمطلات خصوصية هذه المنازل بالكشف. ومن ثم برزت السواتر الخشبية

المصنوعة من خشب انخرط على هيئة سواتر أو مشربيات تمكّن من خلفها من رؤية الشارع، ولا تمكّن من في الشارع من رؤية من خلفها، اضافة الى ميزاتها الاخرى كتقليل نسبة الاشعة المارة من خلالها وكسرها، فتدخل غرف المنزل وقاعاته هادئة متناسبة مع طبيعة الجو الحار وخصوصا في فصل الصيف. وامتد استخدام هذه المشربيات والسواتر للمطلات والنوافذ المطلة على فناء المنزل الداخلي ليحتمى من خلفها من عيون الغرباء أثناء زيارتهم صاحب المنزل. وهو ما يؤكد مدى الحرص على الخصوصية حتى بداخل المنزل. ذلك الحرص الذي يعبر عنه وجود الممرات البديلة التي تسمح بحركة أهل المنزل وانتقالهم بين جنباته دون الحاجة الى استخدام الممرات التي تضطر المار فيها الى المرور على المقاعد والقاعات التي ربما تكون مشغولة بضيوف غرباء، ومن امثلة المنازل التي توضح ذلك منزل جمال الدين الذهبي في القاهرة.

وكذلك صممت قاعات الاستقبال في المنازل تصميما خاصا حيث وضعت غالبا في الطابق الرئيس بعيدا عن غرف المعيشة والنوم التي توضع في الطوابق العليا، وخطط بعضها ولاسيما قاعات المنازل المملوكية والعثمانية- التي كثيرا ما اقيمت بها حفلات السمر والطرب- بطريقة تمكّن النساء من مشاهدة تلك الحفلات دون أن يراهن أحد، وذلك عن طريق وضع مجالس للسيدات على جانبي القطاع العلوي للقاعة من خارجها، ولما كانت القاعة ترتفع غالبا بارتفاع طابقين فان القطاع العلوي للقاعة يكون في مستوى الطابق المخصص للنساء، وتكون هذه المقاعد من ملحقاته مطلة على القاعة من خلال مطلات لها ستائر خشبية تمكّن النساء من رؤية من بالقاعة دون أن يراهن أحد ممن بالقاعة.

وتميزت منازل اليمن بصيغة اخرى حيث خصص اعلى طابق لاستقبال الضيوف والاجتماعات والراحة، وهي صيغة جمعت بين استقلالية غرف الاستقبال عن بقية الوحدات الاخرى في المنزل والإشراف على المدينة ومناظرها الطبيعية حتى أنّ المكان انسحب عليه التسمية «المنظر أو المنظرة»،

ويسمى أيضا «المفرج»، ويمتاز بسعة نوافذه التي تتيح للجالسين التمتع بمباهج الطبيعة كما يسمى أحيانا «الغرفة الكبيرة» لانها اكبر غرفة في الدار(٤٣). ولم يقتصر بناء «المفرج» على الطبقة العليا من الدار بل بنى مستقلا بأبواب واسعة مطلة على الحدائق والنافورات التي تحيط بها الازهار. ووضح عزل قاعات الاستقبال عن بقية وحدات المنزل في بعض مدن نجد تأكيدا على المحافظة على حرمات المنازل. ٤٤)

وفي المنازل التي كانت قاعات الاستقبال من وحدات تكويناتها كان التوصل اليها من سلالم وممرات خاصة غير تلك التي تؤدي الى بقية وحدات المنزل، حتى لا يكشف الصاعد اليها أهل المنزل، وزودت القاعات أحيانا بما يسمى «دولاب المناولة» الذي يسهّل على نساء المنزل خدمة من بالقاعة وتزويدهم بالشراب والطعام دون أن يراهن أحد، وهو دولاب عبارة عن ارفف يدور على محور خشبي، وتوضع على الارفف المشروبات والمأكولات ثم يدار الدولاب من خارج القاعة في اتجاه داخل القاعة ليقدم صاحب المنزل لضيوفه ما وضع على رفوفه.

وتبلور هذا الاتجاه في تخطيط المنزل حتى اصبح المنزل في العصر العثماني يشتمل على قسم مخصص للرجال واستقبالاتهم ويضم القاعات والمجالس والمقاعد المخصصة لذلك بمرافقها وهو ما اطلق عليه «السلاملك»، وقسم آخر يشتمل على غرف المعيشة وقاعات النوم ومرافقها اطلق عليه «الحرملك» نسبة الى الحريم. والقسم الثاني وزعت غرفاته بين اجنحة متكاملة كوحدات مستقلة، ووزعت قاعات النوم توزيعا خاصا يكفل الخصوصية بين افراد الاسرة الواحدة، وامتد ذلك الى تحديد مواضع الحمامات والمراحيض وغيرها من المرافق، وتناسب توزيع غرف المعيشة مع مرافقها كالمطبخ.

وارتبط هذا التوزيع بانشاء وتخطيط عناصر تغذية المنزل بالماء سواء أكان من آبار ترفع ماءها السواقي أم من ماء ينقل من الانهار بواسطة السقاءين كما كان في

القاهرة، أو عن طريق المواجل التي انشئت في منازل المدن التي تعتمد على ماء الامطار. وحددت الاحكام الفقهية نظام انشائها وخصوصا الابار وما يبنى عليها من سواق وما يتطلبه ذلك من انشاء أروية للدواب التي تديرها، أو التي يملكها صاحب المنزل لاغراض اخرى. وانطلق هذا النظام من مبدأ لاضرر ولا ضرار، كما أنه سار وفق القاعدة الفقهية في الانشاء التي لا تحكم بازالة القديم بسبب انشاءات محدثة عليه(٥٤)، وحتى لا يُضطر النساء الى النزول إلى الطابق الأرضي لحمل الماء من الآبار أو الصهاريج أو المواجل التي فيها الماء عملت بالمنزل «قصبات» مبنية ركبت عليها بكرة رافعة بها حبل بطرفه دلو يرفع به الماء عن طريق البكرة الى الطوابق العليا. وفي هذا توفير للجهد وحماية لاهل المنزل من رؤية الغرباء من الضيوف أثناء الصعود والهبوط. وأروع أمثلة ذلك ما نراه في منازل مدينة رشيد التي ترجع إلى العصر العثماني ومنازل اليمن الباقية.(٤٦)

ولتحقيق الخصوصية أفتى الفقهاء بانشاء السترات البنائية التي تعلو سطوح المنازل في حالة استخدامها، وكذلك انشاء سترات للسلالم الصاعدة اليها تجنبا لكشف المنازل المجاورة بالإطلال عليها- كما ذكرنا- ومع الاضطرار الى الامتداد الرأسي باتت الحاجة ملحة الى انشاء السلالم التي تؤدي إلى هذه الطوابق، وحتى لاتُكشف البيوت المجاورة ولا تكشفها البيوت المجاورة اذا كانت أعلى منها فاننا نلاحظ انشاء السترات التي تقيها اذا كانت مكشوفة، أو أنها توضع محصورة بين جدران وحدات المنزل في الطوابق المختلفة، ويتغير موضعها من طابق الى آخر حسب ظروف التخطيط والانشاء. وهو ما نلاحظه ببراعة فيما بقى من منازل ترجع الى العصرين المملوكي والعثماني في مدينة القاهرة، وماهو قائم في منازل مدينة رشيد التي امتد ارتفاعها في بعض الامثلة الى أربعة طوابق انحصرت فيها السلالم بين الوحدات المعمارية في كل طابق واحتلت مواضعها ارتباطا بالتخطيط ورغبة في متانة الانشاء.

ولم تكن ارتفاعات المنازل محددة بقاعدة أو بقانون واحد- كما أشرنا- وسمح

بارتفاع المباني أمام الحاجة الملحة لذلك ولاسيما أن الامتداد الافقي في المدينة الاسلامية كان محددا باعتبارات مختلفة أشرنا اليها. وكان السماح بالارتفاع من اختصاص سلطة المدينة. وكان انشاء السترة على أسطح المنازل في حالة الرغبة في استخدامها وانشاء السترة للسلالم هو الحل الذي يحقق الخصوصية في حالة اختلاف ارتفاعات المباني التي اختلفت وفقا لحاجات اصحابها وامكاناتهم. ونرى ذلك من خلال ماورد من أوصاف المصادر لمنازل الفسطاط مقارنة بأساساتها التي يختلف سمكها من منزل لاخر. (٤٧) وما ورد في الوثائق من وصف بعض المباني المملوكية المتجاورة(٤٨)، وما نراه فيها بقى من بعض منازل رشيد حيث يتجاور «منزل الامصيلي» الذي يرتفع ثلاثة طوابق مجاورا «لمنزل طبق» الذي يتكون من طابق واحد. واذا كانت دراسة ارتفاعات منازل المدينة المنورة قد اثبتت تقارب ارتفاعات المنازل، وتراوح ارتفاعها ما بين طابقين وأربعة على مستوى المدينة ككل. وندرة هذا التفاوت في الارتفاعات في المنطقة الواحدة(٤٩) فان ذلك يعكس ظروفا خاصة بهذه المدينة باعتبار مكانتها الدينية، وكثرة زوارها الراغبين في الاقامة قريبا من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ثم انعكس ذلك على الامتداد الرأسي للمنازل المحيطة به الى اقصى مداه انشائيا وهو أربعة طوابق، كما انه مرتبط أيضا بطبيعة الحياة الدينية والاجتماعية الملتزمة بتطبيق الاحكام الفقهية التزاما خاصا اذا ما قورنت بغيرها من المدن العادية التي يتخطى فيها اصحاب النفوذ والسلطة كثيرا من الاحكام. وربما كان للظروف الاجتماعية المرتبطة بالامكانات الاقتصادية أثرها في هذا التقارب خصوصا اذا ما قارنا بين الاحياء الارستقراطية واحياء العامة التي تتنوع فئاتهم أيضا وتختلف.

ويمتد هذا التنوع الى أنماط المنازل الاسلامية، تلك الأنماط التي تنوعت حسب ظروف المساحة وامكانات الانشاء، وظروف العصر، واختلافات المناخ من مدينة الى اخرى، وانعكست هذه المؤثرات على انماط المنازل الاسلامية بصفة عامة، وتأثر تخطيط هذه الانماط بعوامل اخرى مرتبطة بالمتجاورات السكنية وعوامل التغير المستمرة التي حدثت نتيجة الإرث والقسمة والبيع والشراء والتبادل،

وأحكام الفقه الاسلامي المتعلقة بتنظيم البناء واستغلاله، ومن امثلة ذلـك أن يكون العلوي من المبنى لشخص والسفلي لشخص آخر، وتحديد نظام الارتفاق بالطرائق الخاصة، واستغلال جدران الجار في تحميل الخشب، وبناء العناصـر والوحدات المشتركة كالآبار والمواجل والافنية وقنوات المجاري وغيرذلك . ويكفي أن ندلل على تنوع انماط المنازل بتنوع العوامل المؤثرة والداعية إلى هذا التنـوع إذا ما استعرضنا انماط الوحدات السكنية التي بقيت وكشفت في المدن الاسلامية، والتي ترجع الى عصور ومدن مختلفة كالقصور الأموية التي كشف عنها في بادية الأردن ولبنـان وجنوب العـراق، وما كشف من منـازل معاصـرة في مصـر في «منقباد»، وما نراه فيما كشف من ابنية بسامراء، وما هو باق من وحدات سكنية في قصر الاخيضر، وما كشف عنه من منازل طولونية وفاطمية في الفسطاط والقطائع والقاهرة، وما كشف عنه من منازل في مدن الشمال الافريقي والاندلس، وما بقى من المنازل المملوكية والعثمانية. والمقارنة بين ما بقى في مدينة القاهرة من منازل عثمانية وما بقى من منـازل رشيد تكشف عن أن منـازل القاهـرة سار تخطيطها على النمط التقليدي الذي يتوسطه فناء مكشوف أي أن تخطيطها موجه إلى الداخل، بينما نجد منازل رشيد يتجه تخطيط مطلاتها إلى الخارج، وفي المدينة المنورة كشفت الدراسة التصنيفية لمنازلها عن وجود أنماط متعددة ومتعاصرة من المنازل ارتبطت بظروف المساحة وامكانات الانشاء(٥٠)، وعكست كذلك مدن نجد التقليدية المتأخرة مدى الحرص على الخصوصية(٥١) كمـظهر من مـظاهر التمسك بالأحكام الفقهية . ورغم تغير الانماط فإنها جميعا انطلقت في تخطيطها، وأسلوب انشائها من منطلق يحقق الخصوصية، وتنوعت مظاهر التغير في العناصر المستخدمة في كل نمط ليوفر تناسبا مع الظروف المؤثرة في تخطيط المبنى، وهدف تحقيق الخصوصية الذي يؤكد عليها القانون الاسلامي- ممثلا في احكام الفقه- ومن هنا تشابهت المنازل الاسلامية في كثير من العناصر والوحدات التخطيطية والانشائية باعتبارها وسائل لتحقيق هدف اساسي «هو تحقيق الخصوصية».

ويمثل المنزل في المدينة الاسلامية اهم اوعية النشاط والحياة الاجتماعية ولاسيما

أن التعاليم الدينية الاسلامية وجهت الى حجب النساء، وتفرغهن للعمل في بيوتهن لتربية الاولاد وخدمة الازواج والقيام بأعباء الحياة الاسرية داخل المنزل، ولم تحبذ خروجهن إلا عند الضرورة. واقتصرت المنشآت والمرافق العامة في المدينة على كل ماهو ضروري ومفيد، فانعدم وجود المسارح والمنتديات الرياضية وغيرها من المنشآت التي ميزت غيرها من المدن كالمدينة اليونانية والمدينة الرومانية، وحظرت التعاليم الإسلامية انشاء المراقص، وحانات الخمور، ودور البغاء، والملاهي وغيرها من المنشآت التي تفسد العقيدة وتتعارض مع القيم الاسلامية. (٥٢)

ومن ثم لعب المنزل دورا هاما ورئيسا في حياة مجتمع المدينة، وانعكس هذاالدور على تخطيطه وانشائه وأساليب زخرفته، ونرى ذلك من خلال ماورد من أوصاف المنازل الاسلامية بمدينة فاس حيث يصف ليو الافريقي هذه المنازل بصفة عامة، فيذكر أن «الدور مبنية بالآجز والحجر المنحوت بدقة، ومعظم هذا الحجر جميل ومزدان بفسيفساء بهيجة، وكذلك الافنية والاروقة مبلطة بزليج مربع قديم مختلف الالوان على شكل أواني «مايورقة» الخزفية، وقد اعتاد الناس أن يصبغوا السقوف بألوان زاهية مثل اللازورد والذهب، وهذه السقوف مصنوعة من خشب ومستوية، ليسهل نشر الغسيل على سطح الدار والنوم فيه صيفا. وتتألف الدور كلها من طابقين، وفي كثير منها ثلاث طبقات في كل طبقة شرافات كثيرة الزخرفة تسمح بالمرور تحت السقف من حجرة لاخرى، لأن مساحة الدار مكشوفة والحجرات قائمة على كل جوانبها(٥٣) وهي ذات ابواب واسعة وعالية جدا، ويصنع الاثرياء لهذه الابواب مصاريع من خشب في غاية الحسن والدقة في النقش، ويجمّلون بيوتهم بخزانات في غاية الظرف مصبوغة على امتداد عرض البيت يحفظون فيها أثمن الاشياء، على أن بعضهم يفضل ألا يزيد علو هذه الخزانة على ستة أشبار، حتى يتمكنوا من بسط فراشهم فوقها، وجميع هذه الأروقة في هذه الدور قائمة على اعمدة من الآجر مكسوة بالزليج الى ارتفاع يزيد قليلا على نصف القامة، ونرى في بعض البيوت أعمدة من رخام، ويُبنى عادة بين كل

عمود وآخر قوس يغطى بالزليج ، والقناطر الموضوعة بين الاعمدة لتحمل الطبقات العليا مصنوعة من الخشب ومزدانة بنقوش جميلة واصباغ مختلفة الالوان. ويوجد في كثير من المنازل صهاريج مستطيلة يتراوح عرضها بين ستة وسبعة اذرع ، وطولها بين عشرة واثنى عشر ذراعا ، ويبلغ عمقها ستة أشبار أو سبعة تقريبا ، وكلها مكسوة بمربعات الزليج المايورقي ، ويبنون على كل جانب من جوانب الصهاريج سقايات منخفضة مزخرفة بالزليج نفسه ، وتزين بعض هذه النافورات المائية بخصات من المرمر على ارتفاع نصف قامة ، مثلما يشاهد ذلك في نافورات أوروبا ، وعندما يمتلىء حوض كل سقاية يفيض منه الماء إلى صهاريج كبيرة بواسطة قنوات مغطاة مبلطة أيضا بطريقة جميلة. وعندما تمتلىء الصهاريج الكبرى بدورها يخرج منها الماء بواسطة مجار معدة حولها ، ثم ينصب في بالوعات صغيرة ، وهكذا يجري الماء تحت المراحيض ويذهب إلى النهر ، ويعنى بالصهاريج دائما لتبقى في غاية الصفاء ، ولا تستعمل إلا في الصيف حيث يستحمون فيها رجالا ونساء واطفالا. ومن عاداتهم أيضا أن يبنوا على سطوح المنازل متنزها يشتمل على عدة حجيرات فسيحة ومزخرفة جدا تتسلى فيها النساء عندما يتعبهن العمل ، إذ يستطعن من هناك أن يشرفن على المدينة كلها» . (٥٤)

وتؤكد النماذج الباقية من المنازل وما كشف عنه من خلال الحفريات التي تمت في كثير من المدن الاسلامية كسامراء والفسطاط والقاهرة والزهراء وغيرها تلك الاوصاف التي وردت في بعض المصادر ، كما انها تضيف لنا الكثير من الحقائق عن الحياة الاجتماعية داخل المنازل الاسلامية. فقد اهتمت اهتماما كبيرا بوحدات الاستقبال في المنزل الاسلامي ، ويكفي أن نجد في كثير من منازل القاهرة في العصر العثماني اكثر من وحدة استقبال كالقاعة والمقعد والتختبوش ، منها ما هو مكشوف يطل على فناء المنزل بما فيه من فسقية وزروع على مستوى الفناء كالتختبوش ، أو على مستوى أعلى كالمقعد ويستخدم لنوعية معينة من الضيوف في أوقاف محددة ، ومنها ماهو مستقل مغلق كالقاعة التي تتسع لنوعية أخرى من الضيوف في مناسبات واوقات معينة . ويعكس هذا الاهتمام بوحدات

الاستقبال أهمية المنزل كملتقى ومركز استقبال رئيس للضيوف.

كما ان الاهتمام بعنصر الماء والزروع الخضراء في وسط فناء المنزل، وتكرار هذه الظاهرة وشيوعها(٥٥)، وتكثيف استخدامها في بعض المدن كفاس التي اصبحت فساقيها أشبه ما تكون بحمامات السباحة الخاصة جعل من فناء المنزل مكان الانطلاق نحو السعة والخضرة والماء في حرم آمن، بعيداً عن عيون الاخرين، بديلا من الانطلاق نحو الشارع والميادين التي تتوسطها. وهكذا وجدت المدينة الاسلامية في منازلها البديل من الشوارع الواسعة والميادين والساحات الخضراء والفساقي العامة التي تزينها، فيما توفر بأفنية هذه المنازل، كما وجدت البديل من المنتديات العامة والمسارح في قاعات الاستقبال بالمنازل التي كانت تؤدي هذا الغرض بطريقة تتفق والخصوصية التي تحرص عليها التعاليم الاسلامية.

وتلاصقت مباني المدينة الاسلامية تلاصقا شديدا، وبدأ هذا التلاصق في المدينة المنورة عندما ازدحم عمرانها نتيجة الهجرة، وما تبع ذلك من بناء المنازل والخطط الجديدة، ووجه الخليفة عمر إلى ذلك عند إنشاء البصرة حيث أمر بأن تكون دور الناس متلاصقة، ولا يزيد عدد غرف الدار على ثلاث غرف(٥٦)، وارتبط هذا التلاصق بعوامل أخرى كغرض الحماية وما ارتبط به من محدودية مساحة المدينة ببناء السور من جهة، وصعوبة مهاجمة المنازل المتلاصقة من جهة اخرى. ومن هذه العوامل ما ارتبط مباشرة بالحياة الاجتماعية، فيذكر القاضي النعمان أنه حدّث المعز لدين الله بشأن إقطاع الأبناء والبنات والمقربات اقطاعات متقاربة في المنصورية ليجتمع شملهم وتتقارب مساكنهم لما في ذلك من ستر الحرم عند حاجتهن الى التزاور وتفقد بعضهن بعضا وأنس بعضهن ببعض، لما نالهن من التفرقة والوحشة، ولضيق بعض مساكنهن وكون بعضهن مع بعض في مسكن ضاق بهن، وذلك لما اتسع بنا فضل ولي الله وكثرت نعمته عندنا». (٥٧)

وكان لهذه العوامل المختلفة وغيرها أثر واضح في تلاصق المنازل وازدحام

سكانها وخصوصا في تلك المدن التي زاد عمرانها وامتد، واحتشدت بالسكان. فتشير الرواية الى أن البصرة بلغ عدد سكانها في بداية سنة ١٦ هـ مايفوق ثلثمائة ألف نسمة(٥٨)، ووصل عدد سكان قرطبة في ازهى عصورها الى مائة ألف وهو رقم كبير بالنسبة لاحصاءات سكان المدن في العصور الوسطى(٥٩). ووصف بيلوتي الكريتي Pilote de Crete القاهرة فذكر انها «أكبر مدينة في الدنيا»، وقدر سكانها في القرن ٨ هـ / ١٤م بستمائة ألف نسمة(٦٠). وتصور هذه الاحصاءات ما يمكن أن يكون عليه اعداد المنازل والدور التي تتسع لهذه الاعداد، وحتمية تلاصق مبانيها وضرورة امتدادها الرأسي. وهو ما تصوره لنا المصادر من خلال ما ورد من احصاءات لأعداد الدور والمرافق العامة الاخرى في بعض المدن الاسلامية كالبصرة(٦١)، والقاهرة(٦٢)، وفاس، وقرطبة(٦٤)، وغرناطة، وإشبيلية، ومالقة وطليطلة(٦٥) وماكشف عنه من المباني والاطلال الاثرية في الكوفة، وسيراف، وسامراء، والفسطاط، والمهدية، ومراكش، وغرناطة، وغيرها. ومابقى شاخصا من الابنية الاثرية في الاحياء القديمة من المدن الاسلامية كاسطنبول، ودمشق، والقاهرة، وفاس، وغيرها.

وارتبط هذا التكثيف العمراني في المدن ارتباطا وثيقا بظروفها السياسية والاقتصادية التي دعت الى نموها وازدياد الهجرة اليها، وتكثيف الكثافة السكانية بها، تلك الكثافة التي زادت نسبتها إلى حد بدت معه أحيانا بوادر أزمة المساكن كما حدث في القاهرة في عهد السلطان برسباي. وكان ذلك من دواعي توجيه الاستثمار نحو انشاء الرباع والمساكن للفئات التي لاتستطيع بناء المساكن(٦٦). وبطرافة يدلل المقريزي على كثافة سكان القاهرة في العصر المملوكي فيذكر أن «درب السفافير بنى فيه زقاق بنى بالرصاص، وكان فيه جماعة اذا عقد عندهم عقد لايحتاجون إلى غريب، وكانوا هم واولادهم نحوا من اربعين نفسا». (٦٧)

وانعكس هذا التكديس على حياة المدينة انعكاسا واضحا، فقد أدى الى الترابط الاجتماعي بين افراد المحلة الواحدة. فتلاصق المباني يؤدي الى سهولة

اتصال الأسر ببعضها وزيادة ارتباطها وبالذات النساء اللاتي يتصلن ببعضهن أحيانا أثناء النهار(٦٨). وزاد من سهولة الاتصال تلك الخصوصية التي تتمتع بها النسبة الغالبة والمتنامية من طرق المدينة الاسلامية، ممثلة في الطرق الخاصة التي تغلق عليها الدروب، فأخذت بذلك المحلة السكنية هيئة التكوين المستقل نوعا عن مرور العامة بين طرقاتها، ليتيح فرصة اكبر من التلاقي والترابط بين سكان افراد المحلة خصوصا النساء أو الاطفال الذين يجدون فرصة كبيرة في الامتزاج واللعب في أمان مما ساعد على ترابط سكان المحلة «إذ إن الاولاد يخلقون جوا اجتماعيا بريئا ويوحدون بين مشاعر الآباء»(٦٩)، ومع هذا التلاقي يمكن أن يحدث العكس من صور الحياة الاجتماعية التي تعكس الخلافات والمشاحنات، وفي تلك الحالات تظهر السلطة الاجتماعية المسؤولة عن حل هذه الخلافات داخل المحلة، وتصعد أحيانا إلى السلطات القضائية التي تفصل في ما قد يحدث من مشاكل اذا لم يتمكن من حلها على نطاق أهل المحلة. (٧٠)

ومن الناحية المادية والتنظيمية استدعى هذا التكثيف السكاني في المدينة الاسلامية زيادة مرافقها من المساجد الجامعة والمساجد والبيمارستانات والحمامات والاسواق، كما أن ظروف المساحة وامكانات الانشاءات أدت بالتالي إلى الترابط المادي بين التكوينات المعمارية للمنازل ممثلا في بناء العناصر والوحدات المعمارية المشتركة التي تخدم اكثر من منزل أو وحدة معمارية كالبئر والفناء والجدار المشترك، ومنها ما أنشىء على هيئة مشاريع عامة تجمع اهل المحلة جميعا كانشاء قنوات المجاري التي يشترك في انشائها اصحاب المنازل في الزقاق الواحد لتصريف فضلات منازلهم الى القنوات التي في الشوارع الرئيسة ومنها إلى الحفير خارج المدينة. وحددت الاحكام الفقهية نظام الاشتراك في بنائها والمحافظة عليها بما يحقق النفع ويمنع الضرر. (٧١)

وتمثل شبكات الصرف وآباره أهمية خاصة مرتبطة بكثافة السكان في المدينة ومستوى حياتهم الاجتماعية، فهي الوعاء الذي يساعد على التخلص من فضلات سكان المدينة حفاظا على صحة المدينة ونظافتها واستمرارية الحياة فيها

بمستوى حضري راق. وما كشف في مدينة الفسطاط من شبكات الصرف التي تنقل فضلات المنازل إلى آبار الصرف(٧٢)، وما أشارت اليه المصادر عن وجود شبكات صرف جماعية في بعض المدن الإسلامية كتونس (٧٣) يؤكد المستوى الذي بلغته المدن الاسلامية في هذا المجال.

ويعكس انشاء الحمامات العامة بالمدينة الإسلامية مدى الحاجة إليها، تلك الحاجة التي ارتبطت في المقام الأول بعدم قدرة جميع سكان المدينة على انشاء حمامات خاصة بمنازلهم لما يكلفه ذلك من تكاليف الانشاء والمساحة والتزود بالماء وتسخينه، وأيضا انشاء شبكات الصرف وآباره. وكان الحل في انشاء الحمامات العامة التي تزايدت اعدادها في المدن الاسلامية تزايدا كبيرا تعكسه احصاءات المصادر العربية عن كثرة حمامات البصرة وبغداد ودمشق والقاهرة وفاس وقرطبة وغيرها. فقد توجه الاستثمار المعماري الى انشاء هذه الحمامات لما تدره من دخل وفير لاستخدام سكان المدينة المستمر والمكثف لحماماتها، وهذا الاستخدام ارتبط بتعاليم الدين الاسلامي التي تحث على النظافة والاستحمام. كما أنه ارتبط وتطوّر الحياة المدنية بالمدينة الاسلامية بحاجات اجتماعية خاصة عندما أصبح الحمام بمثابة متنفس اجتماعي.

وتعكس لنا المصادر ومابقى من آثار الحمامات الدور الكبير الذي لعبه الحمام في الحياة الاجتماعية، فتصور حكايات ألف ليلة وليلة الحمام بأنه الجنة الدنيوية واللحظات التي تُقضى فيه هي سعادة الحياة الانسانية، ويشير ابن خلدون إلى مايحدثه الحمام من شعور لذيذ بالانتعاش البدني والروحي، فحينما يستنشق المستحم بخار الحمام الساخن يشعر بنشوة يظهرها في غناء ومرح، ويقول كذلك: إن هناك لحظتين تمدان الشعراء بالالهام، الأولى: حينما يجدون أنفسهم في حمام، والأخرى: حين يستيقظون من النوم والمعدة خالية والأفكار نشطَة، وإلى جانب الشعور بالصحة الذي يحدثه بخار الحمام وما يتبعه من اجراءات فإن الحمام كان يعتبر مركزا لعقد المجتمعات المرحة»(٧٤). وجرت العادة في بعض المدن على قضاء يوم كامل بالحمام يأخذ فيه الرجال والنساء مأكولاتهم ومشروباتهم

ويتسلون بضروب التسلية ويغنون بأعلى أصواتهم(٧٥)، وهكذا كان الحمام فرصة من الفرص القليلة التي تسنح للنساء المحتجبات في منازلهن لكي يغيرن الجو ويتمتعن بحرية نسبية(٧٦)، وبذلك أعطى الحمام فرصة أخرى لزيادة الاتصال الاجتماعي بين نساء المدينة، حتى أن كثيرا من الزيجات والروابط الاجتماعية الاخرى كانت بداياتها في الحمام.

وارتبط بالحمام كثير من المظاهر الاجتماعية الإعلامية، فكان استحمام الشخص في الحمام بعد شفائه من مرضه «اعلانا» عن تمام الشفاء، وكثيرا ما لجأت الشخصيات الاجتماعية الكبيرة الى هذا الاجراء، وهو ما ارتبط بحالات الاغتيال التي تمت في الحمامات العامة لكثير من الامراء المماليك الذين تم التخلص منهم أثناء الاستحمام إعلانا عن الشفاء، بحجة أن تعرضهم للماء قبل الشفاء كان هو السبب في موتهم. وتمت بعض المظاهر الاعلانية للزواج في الحمامات العامة حيث جرت العادة في بعض المدن الاسلامية على تحميم «العروس» أو «العريس» في الحمام العام وسط جمهور المشاركين في الاحتفال من صديقات العروس أو أصدقاء العريس. وما يتبع ذلك من اجراءات التجميل للعروس خاصة.

وبصفة عامة كان نمو السكان في المدينة الاسلامية نموا عاديا غير مفاجىء مما ساعد على الاتزان في المدينة الإسلامية. فالزيادة الناتجة من المواليد أو الهجرة كانت تُستوعب ببناء مساكن جديدة داخل المحلات السكنية، أو بالنمو خارجها على شكل ارباض جديدة، وتم ذلك بشكل تدريجي(٧٧)، ويستثنى من ذلك بعض المدن الاسلامية التي مرت بمراحل من تاريخها كانت زيادة السكان فيها زيادة مضطردة متأثرة بعوامل الهجرة اليها. كمدن الامصار التي توافدت عليها القبائل للمشاركة في الفتوحات حتى أن هذه الهجرة انسحبت على تسميتها أحيانا «دور الهجرة»، وما تمتعت به بعض المدن الاسلامية من الأمن والرخاء والتطور الذي اغرى بالهجرة اليها من اقليمها أو الاقاليم المجاورة مثلما كان حال القاهرة في عصر المماليك.

وتبع امتداد عمران المدن تعدد الاجهزة الامنية والقضائية التي تستطيع تقديم خدماتها في هذا النطاق المتسع، ولا أدل على ذلك من وجود جهازين للشرطة في مصر القاهرة أطلق عليهما الشرطة العليا وهي مسؤولة عن القاهرة والشرطة السفلى مختصة بالفسطاط والضواحي التي تقع شمالها حتى حدود القاهرة. (٧٨) وحدث أن تعددت أجهزة الحراسة في قرطبة، وتوسعت السلطات القضائية فيها. فمع الحاجة للقضاة اختص كل منهم بمنطقة خاصة يفصل قضايا سكانها. (٧٩)

ومن الناحية المادية انعكس هذا الامتداد العمراني على نشأة الأرباض التي احيطت بالاسوار سواء تولى ذلك السلطة أو الاهالي بالتعاون فيما بينهم(٨٠) واعتبر الفقهاء كلا منها مدينة قائمة بذاتها بما يحدها من اسوار أو حدود طبيعية أخرى كالأنهار وغيرها. فسمحوا بانشاء مسجد جامع فيها، واكتملت مرافقها الاخرى من حمامات واسواق ومصادر مياه وغير ذلك، فكونت ما يشبه المحلات المتكاملة عمرانيا، وانعكس ذلك على ترابط اهلها اجتماعيا من منطلق أنهم جميعا ينتمون الى هذا الربض أو ذاك. وغالبا ما كانت تؤطر الارباض جميعا بأسوار واحدة تجمعها في وقت الحاجة الى ذلك باعتبارها مسؤولية السلطة في تأمين المدينة كلها فهي على حد قول ابن الربيع «بجملتها دار واحدة». (٨١)

ومع نمو المدينة الاسلامية وزيادة سكانها تظهر الحاجة الملحة إلى زيادة مساكنها وتكويناتها الاخرى، وهو ما دفع أهل الثراء لبناء المنازل والحوانيت وغيرها وتأجيرها لمن يحتاجون إليها، ونظمت الاحكام الفقهية علاقة المالك بالمستأجر تنظيما دقيقا يحقق المنفعة، ويمنع الضرر ويساعد في ذلك الوقت على المحافظة على هذه التكوينات، ويحفز ويرغِّب في عمارتها. (٨٢)

وكان لتغير الملكيات الناتج من القسم للتأريث والبيع والشراء أثر واضح في تغيير هيئة التكوينات المادية، وروعيت في هذه التصرفات الاحكام الاسلامية والمبادىء الاسلامية التي تؤكد على الترابط الاجتماعي «كمبدأ الشفعة» الذي يعطي الجار حق اسبقيته في شراء بيت الجار والارض منه إذا ما قرر الاخير بيعها،

وهذا ما يساعد إلى حد كبير على احتفاظ الحي السكني بهيئته الاجتماعية(٨٣)، كما كـان لتنظيم أحكـام قسمة العقـارات أثر واضـح في اشتراك الأسـر في بعض الوحدات التي لا يمكن تقسيمها للتعذر، وفي ظهور طرق خاصة متفرعة دقيقة تتخلل التقسيمات الناشئة عن تقسيم تكوين معماري ضخم بين ورثته. وبعد جيل أو جيلين تصل درجة التفتت في التكوينات المعمارية أدنى حد ممكن مما يضطر الاجيال اللاحقة الى الخروج إلى اطراف المدينة لتنشأ الارباض الجديدة بتكوين اجتماعي ناشيء يمر بالتجربة وفق صياغة اجتماعية مغايرة.

وتمثل شوارع المدينة واسواقها وعاء هاما بين أوعية النشاط الاجتماعي بالمدينة الاسلامية يتسع نطاقه عن المنزل لطبيعة السلوك وظروف التعامل والاتصال مع الاخرين، وما يحتاج ذلك من تدخل سلطة المدينة في تنظيم ومراقبة كل مايجري في الشوارع والاسواق من نشاطات ومعاملات وسلوكيات(٨٤)، وهو ما أبرز دور المحتسب ووظيفة الحسبة في الهيكل الاتصالي بالمدينة الاسلامية.

الحسبة والاتصال

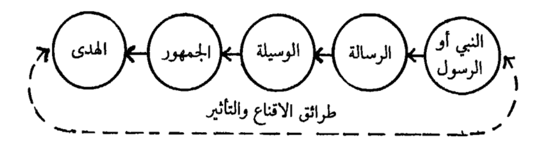
كشفت الدراسات الاعلامية عن أهمية الحسبة الاتصالية من منظور أن المحتسب يمثل القائم بالاتصال، والمستقبل المحتسب عليه، أما المضمون فهو المحتسب فيه، كما يحدد الهدف أو الاحتساب وطرائق تحقيقه كما يوضحه الشكل التالي:

المحتسب	←	المحتسب فيه	←	طرائق تحقيقه	←	المحتسب عليه	←	الاحتساب

فالمحتسب هو المكلف بالقيام على حدود الله بالاذن من الوالي أو الامام **القائم بالاتصال** والمحتسب فيه هو كل منكر معلوم انكاره موجود وظاهر للمحتسب من غير تجسس **الفكرة**. وطرائق تحقيقه هي درجات المنع وهي التعريف، ثم النهي، ثم الوعظ والنصح، ثم التعنيف ثم التعبير بالقوة. والمحتسب عليه هو الانسان البالغ العاقل الذي يتعاطى المنكر ممثلا **الجمهور** أو المستقبل. والاحتساب هو منع المنكر **الهدف** . (٨٥).

ويكشف هذا التحليل عن الدور المهم للحسبة كوظيفة اتصالية في حياة مجتمع المدينة الإسلامية يعايشها المجتمع في الشوارع والطرق والاسواق معايشة حية. وترتبط بالتكوين العقائدي للمسلم في مجتع المدينة، ويتكيف معها غير المسلم من منطلق الالتزام بقيم المجتمع وقوانينه التي حددت تحديدا دقيقا ما لأهل الذمة وما عليهم.

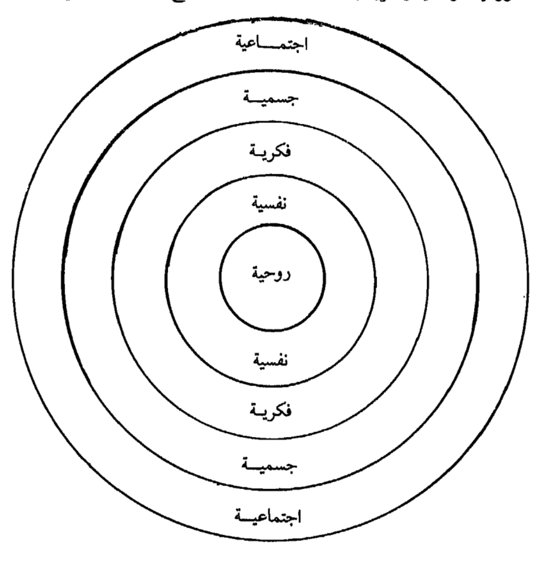
وتتكامل الحسبة كنموذج من نماذج الاتصال الاسلامي بالمدينة الاسلامية مع نموذجين آخرين: نموذج الدعوة إلى الاسلام والتمسك بعقيدته ومبادئه وقيمه ويوضح ذلك الشكل التالي: (٨٦)



وهي عملية اتصال مستمرة في المجتمع الاسلامي حرصا على التمسك بالعقيدة ومبادىء الدين، كما أنها تمتد للفئات الاخرى من غير المسلمين كهدف متجرد وواجب على افراد المجتمع الاسلامي، والنموذج الثاني يحلل مراحل الادراك واتخاذ القرار بعد تقييمه وفق معايير أساسية مرتبطة بالدعوة الاسلامية كالضمير والنية.

ويرتبط تاريخ الدعوة الاسلامية بالحركة.. حركة الإنسان الفرد وحركة الجماعة... وإذا كانت الهجرة النبوية الشريفة من مكة الى المدينة هي المثل الحقيقي لهذه الحركة باعتبارها مبعث الأمل والانطلاق من الضيق الى السعة، ومن الشدة إلى الأمل ومن الضعف إلى القوة فإن الهجرة في حياة المسلم سلوك يومي يرتبط بالصلاة، ويتكرر في اليوم والليلة خمس مرات، ويتحرك المسلم بمقتضاها خمس حركات تتجمع في اطار نسق هو المسجد الجامع والمساجد الخمسة.

ونشأة التكوين المادي للمدينة الاسلامية تعكس هذا التوافق بين الهجرة والمسجد، فقد كان بناء المسجد أول عمل تال للهجرة، أو بمعنى أدق مكمل لها باعتباره المكان الذي تتحقق للمسلم من خلاله الهجرات الخمس الاساسية المؤكدة لمعنى الحركة في تاريخ الدعوة. وهذه الهجرات هي هجرات روحية، ونفسية وفكرية وجسمية واجتماعية، كما يتضح من الشكل التالي:



وتعد هذه الهجرات الخمس إحدى الدعائم الاساسية لمكونات الظرف الاتصالي المسجدي وانماطه الاتصالية، وأحد المحددات الهامة لخصائص الاتصال المسجدي ووظائفه. واذا أضفنا الى هذا صفة الموقع الاتصالي- وهو هنا المسجد

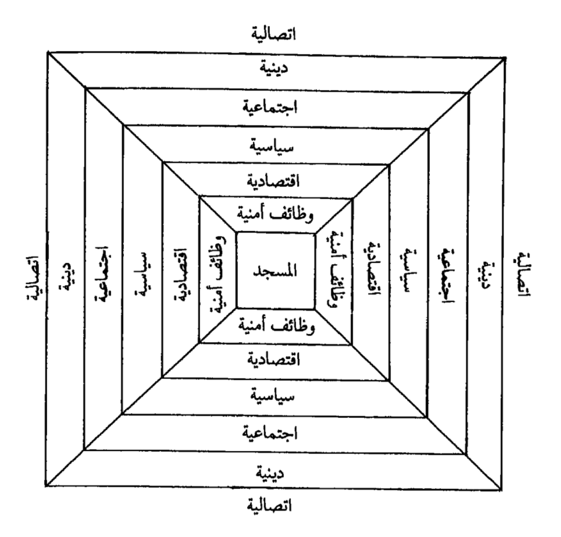
وخصائصه- اتضحت لنا الطبيعة الخاصة لخصائص الاتصال المسجدي وشموليتها المستمدة من شمولية المسجد وموقعه من البناء العقائدي للمسلم.

ولذلك كان المسجد أول عمل ايجابي نحو اقامة الدولة في الإسلام، فكان الجامعة التجريبية التي تأخذ على عاتقها مهمة تحويل القيم والمبادىء الاسلامية الى سلوك واقعي، وبحكم شمولية الاسلام لكافة جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية والحضارية كانت الوظائف الاساسية للمسجد، وكان الموقع المميز للمسجد باعتباره الممثل لروح الاسلام وشموليته. وكان منطقة القلب من المدينة الاسلامية.

ولهذا تتعدد الوظائف الاتصالية للمسجد وتتمازج وترتبط بوظائفه الاساسية الاخرى، وهي الوظيفة الامنية، والوظيفة الاقتصادية، والوظيفة الثقافية، والوظيفة الاجتماعية، والوظيفة الدينية، والوظيفة الاتصالية، ويوضح الشكل التالي الوظيفة الاتصالية للمسجد الجامع في المدينة الاسلامية وعلاقتها بالوظائف الأخرى. (٨٧)

وفي اطار النشأة الاسلامية والتأثير الاتصالي للحسبة في خارج المسجد، والدعوة المتجددة للتمسك بالعقيدة، والحفاظ على القيم والمبادىء الاسلامية من خلال الاتصال المسجدي، ترسخ العقيدة وتترجم في سلوك اجتماعي اسلامي محكوم بمبادىء العقيدة وقيمها ومعاييرها.

مما سبق يتضح أن الفرد في مجتمع المدينة الاسلامية كان تحت تأثير نماذج اتصالية متعددة وجهت حياته توجيها خاصا اتجه في الغالب إلى الحرص على التمسك بتعاليم الدين ومبادئه، واحترام العلماء والفقهاء ورجال الدين باعتبارهم مصدر التفقه وموطن المعرفة، وللسبب نفسه اهتم بهم الحكام من منظور سياسي دعائي يساعدهم على الاستمرار والبقاء في الحكم واقناع العامة بسياستهم، لذلك لم تكن لهذه الفئة نشاطات سياسية أو ثورية تجاه السلطة. وشذت بعض الفئات عن هذا السلوك تحت تأثير اتجاهات فكرية دينية وسياسية



برزت إلى سطح الاحداث، وشكلت تيارات فكرية وسياسية معارضة أو ثائرة كان لها أثر في حياة المجتمعات التي ظهرت فيها، لكنها كانت مؤقتة ومتنوعة. وكانت هذه الحركات محور دراسات عديدة حاولت أن تقارنها بما عايشته المدينة الأوروبية، ومزجت بعض هذه الدراسات بين ظهور هذه الحركات ونشأة الاصناف والحرف وما تطور عنها، مما يسمى النقابات الاسلامية من ذات المنطق (٨٨).

الأصناف والحرف والنقابات والحياة الاجتماعية:

ارتبط تطور حياة المدينة الاسلامية ارتباطا وثيقا بتطور حياتها الاقتصادية. وقد

لاحظنا ذلك من خلال التحول الاقتصادي الذي شهدته سياسة الأمويين نحو الاهتمام بالزراعة كمصدر أساسي من مصادر الموارد الاقتصادية الثابتة تعتمد عليه المدن في حياتها. وفي العصر العباسي انتقل المجتمع الى طور زراعي، فأدى توسيع ذلك إلى التجارة وتضخيم رؤوس الاموال من جهة، والى تكثيف الزراعة والتوسيع في الصناعة من جهة أخرى.

وساير التكوين المادي المعماري للمدينة هذه التطورات المتتابعة والمتنامية، فاهتم بانشاء المشاريع الزراعية الكبيرة، وما يخدمها من شق الانهار وحفر القنوات وتشجيع الاستثمار الزراعي، واستغلال الطاقات البشرية العاملة في ذلك. كما أنه امتد أيضا إلى الاهتمام بانشاء الاسواق والمنشآت التجارية التي تكفي حاجات الكثافة السكانية والعمران الممتد إلى هذه المدن، وما تبع ذلك من تبلور فكرة تصنيف التجارات والحرف في اسواق المدينة على امتداد شوارعها تصنيفا معينا غايته منع الاذى وتحقيق المنفعة، يجمع كل تجارة أو حرفة في منطقة بعينها.

وقد أدى التحول الاقتصادي الذي شهده العصر العباسي الى ظهور طبقة رأسمالية تضم كبار التجار وأصحاب المعامل وكبار الموظفين، زاد من قوتها وتوسيع فعاليتها ظهور طبقة من اصحاب المصارف الذين هم تجار في الأصل أخذوا يتاجرون بالنقود. وصاحب توسعة المعامل وتكثيف الزراعة تجميع العمال وتكتلهم في محل واحد أو رقعة واحدة. وهذا قوى الشعور بالمصلحة المشتركة بالأهمية(٨٩).

ومع ارتفاع مستوى المعيشة وغلاء الأسعار في أواخر القرن الثاني الهجري، وأوائل القرن الثالث الهجري دون حصول ارتفاع مقابل في الأجور، وماحدث من فوضى عامة- احدثتها سيطرة الجند الترك -عرقلت الأعمال الحرة وأضرت بأصحاب الحرف قبل غيرهم، فظهرت البطالة وروح التمرد والنقمة ولاسيما على الطبقات الغنية والحاكمة(٩٠).

ومن جهة أخرى تطورت وظيفة عامل السوق(٩١) التي اقرها الرسول إلى وظيفة الحسبة التي تنطلق من مفهوم اسلامي ينطلق من النص القرآني «ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»(٩٢). والتطور الاقتصادي، واتساع الأسواق، وتزايد المعاملات بين الأفراد، وزيادة أصحاب الحرف والمهن، وتنوع التبادل التجاري ومارافقه من تعدد المعاملات المالية التي شهدها العصر العباسي، أدى كل هذا إلى تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية، وجعل ايجاد نظام رقابي للسوق حالة مطلوبة لامحيص عنها، فظهر هذا النظام.

وتبلور نظام الحسبة في عهد الخليفة المنصور الذي فوض عاصم الاحول للنهوض بحسبة المكاييل والأوزان، وولى زكريا بن عبد الله حسبة اسواق بغداد. (٩٣)

وهدفت السلطة من خلال نظام الحسبة إلى تنظيم الحياة التجارية والسيطرة على الأسواق من خلال المراقبة المستمرة منعا لاي اختلال قد يحدث، أو تحسبا من تجاوزات المتعاملين في السوق بغير وجه حق بما يضعف ثقة التعامل، ويمنع استتباب الأمن والاستقامة والتعاون بين العامة والتجار. وقد اتسم تدخل الدولة باشكال متباينة ومتطورة بتطور المراحل الزمنية، وما رافق ذلك من تطور الحياة التجارية وتناميها، حتى أصبح نظام الحسبة اطارا رقابيا متخصصا ومتكاملا يستوعب الامور التجارية كافة، بهدف اقرار الحقوق، وانصاف الناس، ومنع الضرر المقصود والاساءة المتعمدة، وحماية السوق من كل اشكال العبث والفوضى والتكتل الذي يراد به ومنه محاصرة المشتري وارغامه على الشراء بالسعر التحكمي المفروض. (٩٤)

وتولى وظيفة الحسبة « المحتسب » الذي حتمت عليه ضرورة القيام بأعباء وظيفته الاستعانة بعصبة خيرة من الأعوان والغلمان «الصبيان». وكان هؤلاء الأعوان والغلمان ينالون أجورا على عملهم، ويخضعون للتدريب على أعمالهم وحدود ممارسة وظائفهم. وغالبا ما اختار المحتسب الى جانب ذلك مجموعة من

«العرفاء» من اصحاب المهن والحرف المختلفة ليكونوا له عونا في كشف التلاعب ورصد الغش وحصر المخالفات في نطاق الحرف والمهن التي يمثلونها.

أدى تصنيف التجارات والحرف في الأسواق، وما يتبع ذلك من توليد شعور قوي بالمصلحة المشتركة والمهمة في ظل نظام رقابي متخصص ممثلا في العرفاء، إلى ظهور تكوينات اجتماعية من أصحاب الحرف في هيئة طوائف حرفية لها هيكلها التنظيمي الذي تطور من عصر إلى آخر حتى أطلق عليه ما يسمى «النقابات».

وقد ارتبط تاريخ هذه الطوائف بالأحداث السياسية والاقتصادية في بعض مناطق العالم الإسلامي وخصوصا القطاع الشرقي منه، فظهرت حركة العيارين والشطار التي وسمت نفسها بالفتوة(٩٥) نتيجة الضغوط الاقتصادية التي عايشها المجتمع البغدادي، وسعت الثورات والدعايات الفكرية الى استيعاب وتحريك أصحاب الأصناف والحرف كثورة القرامطة التي تمثل في حد ذاتها ثورة اجتماعية اقتصادية دينية سياسية زلزلت العالم الاسلامي بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين.

وأدى اتصال الأصناف والحرف بهذه الدعايات التي تضمنت أفكارا تنظيمية للعمل والصنائع(٩٦) إلى انعكاس هذه الأفكار التنظيمية في الهياكل التنظيمية.

وتأثرت الأصناف والحرف أيضا بالاتجاهات الصوفية في القرن الخامس الهجري خصوصا بعد اختفاء الحركة القرمطية، فاتجهت نحو ميول دينية كالتصوف.

ويعكس نظام « الأخية » في الاناضول في القرن ٦ هـ/ ١٣م صورة من صور التكوينات الحرفية حيث إن نظام «اخيان روم» كان عبارة عن جمعيات تضم كل جمعية أصحاب حرفة واحدة من الحرف. وأدى الجهاد في الأناضول والحرب على حدود الدولة الإسلامية إلى اندماج الفتوة مع مبادىء الصوفية بتقاليد الحرفة. وفي العصر العثماني فقدت الأخية كثير من فعالياتها السياسية والفكرية لكنها حافظت على التعاليم الروحية والأخلاقية. وهذا التطور الذي طرأ على تكوين الأصناف

والحرف ووضعها في اطار تنظيمي معين أخذ شكل النقابات، وتمتد هذه الفترة من القرون ١٠ـ١٣هـ/ ١٦ـ ١٩م(٩٧) مع ملاحظة أن الشكل المتبلور مر بمراحل زمنية تطورية ممتدة من عهد السلاجقة في آسيا الصغرى حتى العصر العثماني، وأن هذه النقابات تختلف في نشاطها عن النقابات في المدينة الأوروبية حيث كانت أدوات بيد السلطة تعزز بها سيطرتها(٩٨).

مما سبق يتضح أن الاصناف والحرف كتكوينات اجتماعية مهنية نشأت وتطورت بتطور حياة المجتمع في المدينة الإسلامية ونشاطاته الاقتصادية، وتأثرت في بعض فترات تاريخها بالأحداث والدعايات الفكرية والحركات الثائرة استجابة لحاجات العمال أنفسهم، ولذلك اتخذت أحيانا موقفا معاديا للسلطة وخصوصا ما اتصل بها من حركات لطوائف متطرفة كالعيارين والشطار. وكان لذلك أثر في تشكيل هيكلها ونظامها الذي تبلور هيكله التنظيمي وفق دستور واضح، وانسحب عليها مسمى النقابات.

وهكذا يتضح من نشأة النقابات الإسلامية أنها تختلف عن النقابات الأوروبية في نشأتها، وهو ما يعلل تبعا اختلاف السمات في كل منها لاختلاف الاتجاهات والأهداف. ولذلك نلاحظ أن أصحاب العمل في النقابة الإسلامية من استاذ وصانع ومبتدىء يكوّنون طبقة اجتماعية واحدة فيها مجال التقدم لكل فرد دون تناحر، ودون الانقسام الذي ولدته رأسمالية أوروبا، وهذا تطور طبيعي لظروف المجتمع الإسلامي الاقتصادية والاجتماعية، وان النقابات الإسلامية تضم افرادا من مختلف الطوائف في جو من التسامح الاجتماعي والفكري على عكس ما حصل في الغرب، بالاضافة إلى أن للنقابات الإسلامية حياة روحية ومثل خلقية فهي قوة تهذيبية مهنية في الوقت نفسه، ولم تقتصر على المهنة.(٩٩)

ومن هنا كان للنقابات الإسلامية دور بارز في الحياة الاجتماعية لمجتمع أصحاب الأصناف والحرف بصفة خاصة، ومجتمع المدينة على وجه العموم. فقد كان لهذه النقابات نظمها وتقاليدها التي تظهر في تحديد مراتب الحرفيين ونظام الترقي في الحرفة، وما يصحب ذلك من احتفالات اجتماعية تقليدية بالاضافة إلى

قواعد تنظيم العمل والرعاية الاجتماعية، والتي تنوعت بتنوع الأصناف والحرف وطبيعة كل منها(١٠٠). فمثلا يتحدث ليو الأفريقي عن الحمالين في فاس فيذكر أن عددهم يبلغ ثلثمائة حمال لهم أمين أي رئيس، يختار كل اسبوع من يجب عليهم أن يشتغلوا ويكونوا رهن إشارة الجمهور طوال الاسبوع، يجمع هؤلاء الرجال ما ربحوه من مال في صندوق له عدة مفاتيح محفوظة عند كل رئيس مجموعة، ويقسم المال بين الذين اشتغلوا عندما ينتهي الأسبوع، ويحب هؤلاء الحمالون بعضهم كالأخوة، فإذا مات أحدهم وترك طفلا تكفلوا جميعا بالمرأة إلى أن تتزوج مرة ثانية إذا رغبت في ذلك، واهتموا بعطف وحنان بالأولاد إلى أن يبلغوا السن التي تمكّنهم من القيام ببعض الأعمال. وإذا تزوج أحد الحمالين أوولد له دعا جميع أصحابه الى وليمة، فيعطيه كل واحد منهم هدية مقابل ذلك، ولا يمكن لاحد ان يمارس مهنة حمال قبل ان يدعو جميع اصحابه الى وليمة، واذا لم يفعل فلن يتقاضى ـ عندما يشتغل ـ اكثر من نصف حصة الاخرين. وقد حصل هؤلاء الحمالون من الملوك على امتياز اعفائهم من أي ضريبة أو تكليف. ولا يؤدون لأصحاب الافران مقابل خبز عجينهم، واذا ارتكب احدهم جريمة يعاقب عليها بالاعدام فانه لا ينفذ عليه الحكم امام الجمهور، ويشتغل هؤلاء الناس وهم لابسون ملابس قصيرة ذات لون واحد، ويلبسون خارج اوقات العمل ما يشاؤون، وبالجملة فانهم أناس يتحلون بالاستقامة والاخلاق الحسنة»(١٠١).

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية لأصحاب الحرف في المدينة الاسلامية ذلك العرض الفني التي تعرض فيها كل حرفة روائع بضائعها ومهارات ابنائها في موكب خاص تشارك فيه كل الحرف ويحدد له يوم معين من السنة يكون بمثابة عيد لأهل الحرفة، مثلما كان يحدث في بغداد في أواخر عهد العباسيين، حيث كانت الاصناف تتقدم في موكب حافل كل حرفة تحتفى بنموذج لصناعتها في موكب يستمر طول اليوم(١٠٢). ويبدو ان هذا المظهر ظل مستمرا حيث تسجل هذه المواكب كثير من المخطوطات التركية المصورة، كما أنه كان تقليدا متبعا إلى وقت قريب في مدن مصر.

ويكشف الحديث عن السقاءين بالقاهرة العثمانية عن الدور الذي يمكن أن تلعبه النقابات في حياة مدينة، فكثيرا ما تعرض السقاءون للنهب والسلب من جانب الأمراء والجنود والباشوات خصوصا في فترات الاضطرابات التي تحاول فيها الفئات المختلفة منع وصول الماء عن الخصوم، والتعرض بالتالي للسقاءين ودوابهم. وغالبا ما استولوا على دوابهم للاستفادة منها في اغراضهم القتالية. وقد لجأ الفرنسيون ـ كذلك ـ اثناء حملتهم على سوريا إلى اجراء مماثل، إذ جندوا في خدمتهم دواب السقاءين وهنا كف معظم السقاءين ـ الذين تعلموا بما فيه الكفاية من التجارب السابقة ـ عن الخروج والذهاب إلى النيل مسببين بذلك متاعب جمة لشعب القاهرة. وفي عام ١٨٠٦م لجأ محمد علي إلى إجراء شبيه بما فعله «بونابرت» . ولذلك عندما بدأ الجنود في العام التالي يستولون على الجمال والحمير والبغال بحجة وضع القاهرة في حالة دفاع، لجأت طائفة السقاءين الذين اصبحوا أكثر حذرا إلى سلاح الاضراب حتى اصبحت المياه في القاهرة نادرة وباهظة الثمن»(١٠٣).

ومع تبلور نظام الطوائف والحرف على هيئة نقابات تتشكل وفق قواعد معينة واختيار معين(١٠٤) أصبحت الطائفة المهنية عنصرا أساسيا في حياة المدينة، فقد كانت تمثل بالنسبة للسلطات إطارا يمكّنها من الاشراف على معظم الشعب العامل بالمدينة من صناع وتجار، وهذه حقيقة بالغة الوضوح، فعندما يتوسط شيوخ الطوائف المهنية في المشاجرات التي تنشأ بين أبناء طوائفهم، وعندما ينظمون المنافسة، ويعاقبون المسيء على ما يرتكب من أخطاء، فانهم يسهمون بذلك في ادارة المدينة، وفي حفظ النظام(١٠٥).

وبصفة عامة كانت الطوائف رابطة ادارية من تلك الروابط القليلة التي اتيح لها أن تقوم بين السلطة والرعية(١٠٦).

مما سبق يتضح أن الأصناف والحرف نشأت مع تطور الأسواق والحياة الاقتصادية بالمدينة، واتصلت بالحركات الثائرة التي ظهرت في العصر العباسي

لظروف التكوين الاجتماعي، ثم تطورت وفق ظروف المجتمع الاسلامي المرتبطة بوجود تيارات دينية كالتصوف، وظهور جمعيات «الأخية» في الأناضول، وتبلورت في العصر العثماني فانسحب عليها تسمية النقابات متأخرا. ومن ثم يتضح أنها تختلف في نشأتها وتطورها ونشاطاتها عن النقايات في المدينة الأوروبية التي لعبت دورا سياسيا مميزا في حياتها.

وفي إطار هذا المفهوم يمكن تقييم النقابات في المدينة الاسلامية في ضوء المعايير التي يحددها « جويتاين » حيث يذكر أن وظائفها تقوم على مراقبة عمل أعضاؤها لدعم مستواهم، وتهيئة مستلزمات تثقيف التلاميذ وضمهم للنقابة، وحماية أعضائها من أي منافسة، ثم ارتباطها بالدين في البلاد المسيحية(١٠٧). وكذلك مراجعة الآراء التي حاولت أن تفسر اتصال الأصناف والحرف ببعض الحركات الجماهيرية ،في مرحلة محدودة من مراحل تاريخها، على أنه اتجاه أساسي في تاريخها، ومن ثم اتجهت إلى تقييم الدور السياسي للنقابات الإسلامية بالرغم من أن نشأتها وتطورها ونشاطها انصبت على تحقيق غايات اجتماعية مرتبطة بالنشاط الاقتصادي. وفي مراحلها الأخيرة أدت النقابات إلى السلطة وظيفة ادارية محدودة بفئات الصناع والتجار.

وفي إطار هذا التقييم خلطت بعض الآراء بين «نشأة الحرف والأصناف وتطورها إلى ما يسمى النقابات الإسلامية والحركات الثائرة التي انتابت تاريخ المدن الإسلامية في فترات مختلفة(١٠٨). وهو خلط تنبهت إليه بعض الدراسات الأخرى التي فصلت بين الأصناف والحرف والنقابات وهذه الحركات الثائرة، ففرقت بين اتصال الأصناف والحرف ببعض هذه الحركات لظروف اجتماعية معينة، وبين أن تكون هذه الحركات والثورات نتيجة فعاليات سياسية لهذه الأصناف والحرف والنقابات(١٠٩).

وفي إطار نشأة الأصناف والحرف في بداية العصر العباسي وتطورها إلى ما يسمى النقابات في فترة لاحقة متأخرة (١٦ - ١٩م)(١١٠) يمكن أن نقول إنّ الأصناف والحرف، ثم بعد ذلك النقابات، كانت في كل المدن الإسلامية(١١١)،

ولم يرتبط وجودها بقيام حركات شعبية ثائرة،بل اقتصر ذلك على بعض المدن دون غيرها، وهو ما يؤكد بُعد الأصناف والحرف والنقابات عن اتجاهات المقاومة السياسية.

من خلال هذا العرض لجوانب الحياة الاجتماعية في اطار المنظور المادي للمدينة الإسلامية باعتبارها الوعاء الذي يشمل كل نشاطات الحياة.فيها تتضح ملاءمة التكوينات المادية للمدينة الإسلامية وتخطيطاتها لممارسة أنشطة الحياة الاجتماعية، ومدى تأثر التخطيط بتلك الجوانب التي تحكم الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية. واتضح أيضا من خلال مراحل التطور التي مرت بها المدن الإسلامية أن المدينة الإسلامية كانت في مراحلها الأولى وعاء لتجربة مثيرة في جمع مجتمعات قبلية يجمعها إطار واحد، واستطاعت أن تجتاز هذه التجربة بتذويب النزعة القبلية، وإبراز معايير مدنية جديدة منبثقة من نتاج التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي مر به المجتمع الإسلامي في المدينة في مراحلها المختلفة.

وتمثل الأصناف والحرف تكوينات اجتماعية جمعت فئات متخصصة في الحرف والصناعات والتجارات في حدود الإطار المكاني الذي يجمعها في أسواق متخصصة، موزعة توزيعا معينا في خطة المدينة، اندفع تطورها مع ازدهار الحياة الاقتصادي فولد الحاجة السياسية لمراقبتها وتنظيم أعمالها، فكانت وظيفة الحسبة التي بلورت هيئة الأصناف والحرف، من منظور التنظيم والسيطرة.

واتصلت هذه الأصناف بالحركات والثورات التي عاشها بعض المدن، وببعض التيارات الدينية، ثم أخذت شكل النقابات في مرحلة متأخرة في اطار تاريخي، وظروف سياسية وحربية معينة، وتمثل هذه المرحلة أقصى مراحل النضج التنظيمي، وبحكم نشأتها وتطورها ظلت تؤدي دورا اجتماعيا، ولم تكن لها اتجاهات سياسية مقاومة، بل إنها كانت أداة من أدوات السلطة القليلة التي استخدمتها في التعامل مع فئات الحرفيين والصناع والتجار.

وأبرزت الدراسة نماذج الاتصال الأساسية في المدينة الإسلامية ولاسيما الحسبة كنموذج اتصالي فعال في الشوارع والأسواق، والمسجد الجامع باعتبار وظائفه الاتصالية المتنوعة. وأثر ذلك في السلوك الاجتماعي لمجتمع المدينة الذي كان كلا واحدا تربطه وتصل بينه صلات اجتماعية ودينية واقتصادية وثقافية وحضارية متنوعة هدف إلى توثيقها النشاط الاتصالي المسجدي ونظام الحسبة. وهو نظام يقوم على الاتصال المباشر الذي هو أكثر أنواع الاتصال تأثيرا.

ومن خلال هذه الرؤية للحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية ينتفي كثير من آراء بعض الباحثين كرأي «جرابار» الذي يدل على أن محلات المدينة الإسلامية منقسمة قبليا ودينيا وجنسيا، وإن كانت مراكز المدينة التجارية تحتوي على ناس من مختلف الأديان والأجناس(١١٢). وقد ذكر «هاموند» أن العرب المسلمين لم يروا في المدينة أنها تمثل وجودا سياسيا واجتماعيا، فكانوا ينظرون إليها على أنها تمثل مجرد مكان لتجمع الناس، ولذلك فهي تدار كأي بقعة أخرى، وعلى هذا فإن العرب لم يعيروا أهمية لتأسيس مؤسسات مدنية(١١٣). وما يذكر من أن سكان المدينة الإسلامية لم يكونوا موجودين إلا في مسألة خضوعهم الجماعي للسلطات، وأن وحدتهم لم تنبثق من خلال تماسكهم تجاه القانون كما هو الحال في المدن اليونانية والرومانية والأوروبية في العصور الوسطى. فأهالي المدينة الإسلامية منقسمون على أنفسهم اقليميا وعنصريا إلى جماعات لكل منها رئيسها وقوانينها. وانهم لم ينتظموا في نقابات أو تنظيمات حرفية. فقد كانوا فقط مجرد ساكنين في المدينة، ولا يمتون لها في الحقيقة بصلة مدنية(١١٤).



هوامش الفصل السابع

١ ـ رمزية الأطرقجي : الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول: بغداد سنة ١٩٨٢ ، ص٤٣ .

٢ ـ محمد الخضري : تاريخ الأمم الإسلامية ـ القاهرة، سنة ١٩١٦ ، جـ٢ ، ص٦٣ .

٣ ـ المسعودي : مروج الذهب، بيروت، سنة ١٩٦٥ ، جـ٣، ص٣٢٢.

٤ ـ محمد عبدالعزيز مرزوق: الفنون الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس، ص٢٣ .

٥ ـ رمزية الأطرقجي : المرجع السابق، ص٩٤.

٦ ـ صاحب انتشار اللغة العربية في الأقوام الأخرى جهد كبير من علماء اللغة الذين ألفوا الكثير من المؤلفات التي تساعد على هذا الانتشار وتحافظ على اللغة، ومن ثم اتجه التصنيف في التأليف اتجاهات شتى لتحقيق ذلك.

٧ ـ أهل الذمة هم المستوطنون في الأقطار الإسلامية من غير المسلمين، سموا هذا الاسم لأنهم كانوا في ذمة المسلمين، ودفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى اتباع الملل المعترف بها، وهي المسيحية واليهودية والمجوسية والصابئة والسامرية، (الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ـ القاهرة، ١٩٥٩ ، ص٢٦٣).

٨ ـ احتفظ الاسلام بنظام الرق في أضيق الحدود، ووجهت أحكامه إلى التقليل منه بصفة مستمرة. كاعتاق العبيد للتكفير ـ رمزية الأطرقجي المرجع السابق، ص١٦١ .

٩ ـ البغدادي : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص٩٩

١٠ ـ رمزية الأطرقجي : المرجع السابق، ص١٦٥ .

١١ ـ الماوردي : الأحكام السلطانية، ص٢٤٣ .

١٢ ـ آدم ميتز : الحضارة الإسلامية، جـ١ ، ص٢٩٣ .

١٣ ـ أفاضت الدراسات المتخصصة في دراسة الجوانب الاجتماعية لحياة المجتمع في المدينة الإسلامية، وفصلت هذه الدراسات ما يتعلق بها من أخلاق وعادات وتقاليد، وما يتجلى من مظاهر الاحتفال بالأعياد الدينية والقومية، ولعل ما يوجد من مجالس اجتماعية سواء أكانت مجالس للعلم أم الأدب، أم مجالس للهو والغناء، أم مجالس المجون والخلاعة، وأوضحت دراسات الحياة الاجتماعية في المدن المختلفة، وفي العصور المختلفة ما يحدث من مظاهر التغير والتطور من فترة إلى أخرى وأسبابه، وكذلك أوضحت هذه الدراسات ما يمكن أن تتميز به مدينة عن اخرى وخصوصا فيما يتعلق بالجوانب المظهرية المتأثرة بالتقاليد

المحلية في هذا الأقليم أو ذاك، وهو ما يغنينا عن الخوض في هذه المسائل التي توجبها دراسة الحياة في مدينة بعينهاولاسيما أن سطور هذا الكتاب تنوء بحمل هذه التفاصيل.

١٤ ـ يرى البعض أن في هذا التصنيف عناء لأن من يريد شراء حاجاته لابد له من أن يمشي بالسوق كله، ومعنى ذلك أن عليه أن يقطع شوارع المدينة كلها ليشتري حاجاته، ونسى أن هذه الأسواق المقصودة ليست بأسواق الحاجات الاستهلاكية اليومية، ولكنها أسواق يرتادها الإنسان بصفة موسمية في الغالب. وإذا افترضنا العكس فإن الجهد سيكون مضاعفا، إذ إنه في هذه الحالة لابد من أن يمسح جيدا حوانيت المدينة إذا ما أراد شراء سلعة معينة. نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها في العصور الوسطى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٧٣، ص٢٨٣.

١٥ ـ يعتقد بعض الباحثين ـ خطأ ـ أن المنزل هو التكوين المعماري الوحيد بالمدينة الاسلامية الذي يمكن أن يكون وفق الصياغة الاسلامية.

Xavier de Planhol, op. cit., pp. 22 - 23

١٦ ـ محمد حماد: المرجع السابق، ص٤٣.

١٧ ـ السمهودي: المرجع السابق، جـ٢، ص٣٧.

١٨ ـ الإمام مالك: المدونة: دار صادر ـ بيروت، جـ٥، ص٢٣٥، عبداللطيف ابراهيم علي: الوثائق في خدمة الآثار ـ مقال في كتاب دراسات في الآثار الاسلامية، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ القاهرة سنة ١٩٧٩م، ص ٤٢٠ ـ ٤٢٣.

١٩ ـ ابن الغملاس: ولاة البصرة ومتولوها، سنة ١٣٣٣هـ. نشر دار منشورات البصرة، سنة ١٩٦٢م، ص٣، عيسى سلمان وآخرون: المرجع السابق، ص٤٧.

٢٠ ـ ابن الرامي: المرجع السابق، ص١٦٣. Hathloul: op. cit. p. 106

٢١ ـ السمهودي: المرجع السابق، جـ٢، ص٦٢٥، Hathloul: op. cit. pp.106

٢٢ ـ ابن الأخوة: المرجع السابق، ص١٧٦ ـ ١٧٧.

٢٣ ـ السقطي: كتاب في أدب الحسبة، باريس سنة ١٩٣١، ص٧. Hathloul: op. cit. p.106

٢٤ ـ ابن الرامي: المرجع السابق، ص١٦٣.

٢٥ ـ ابن عبدالحكم: المصدر السابق، ص١٠٤ ـ ١٠٧، ابن الرامي: المصدر السابق، ص١٢٢.

٢٦ ـ الإمام مالك: المدونة جـ٥. ص٧٠. Hathloul: op. cit. 108

٢٧ ـ Hathloul: op. cit. p.108

٢٨ ـ Hathloul: op. cit. p.108

٢٩ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص١٣٧ .

٣٠ ـ السيوطي : تحفة المجالس ونزهة المجالس، القاهرة سنة ١٩٠٨، ص٤١٣ ـ ٤١٤ .

٣١ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص١٥٠ ـ ١٥٣ .

Hathloul, op. cit. p. 108 appendex 41 case 418

Ibid., 108

٣٢ ـ ليو الأفريقي : المرجع السابق، ص٢٢٨ .

٣٣ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص ١٤٠ .

٣٤ ـ Hathloul, op. cit. p. 108.

٣٥ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص١٢٦ «الشبر قياسا يبلغ نصف ذراع الذراع حوالي ٥٢سم، أي أن الشبر حوالي ٢٦سم، أي أن الارتفاع المحدد يصل إلى حوالي ١,٨٢ متر» .

٣٦ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص١٧٠ ـ ١٧١ .

٣٧ ـ Hathloul, op. cit. p.112,

وقد قام الباحث بهذه الدراسة سنة ١٩٧٦م عندما كانت الحارة قائمة حيث ازيلت الآن لأدخالها ضمن التوسعات التي تتم في الحرم النبوي .

٣٨ ـ Hathloul: opit, p.113.

٣٩ ـ علي بسيوني : الفناء كعنصر هام في المدينة، مقال في كتاب المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامي، ص٨٧.

٤٠ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص١٧٤ ـ ١٨٢ .

٤١ ـ Geoffrey King, op. cit. p.118.

٤٢ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ٢٢٣ ـ ٢٢٥ .

٤٣ ـ د. غازي رجب محمد : البيوت الإقلاعية في اليمن، مجلة سومر، مجلد ٣٤، سنة ١٩٨١، ص١٦٣ .

٤٤ ـ King , op. cit. p. 120.

٤٥ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص ١١٧ ـ ١٢١ .

٤٦ . د. غازي رجب: المرجع السابق، ص١٦٢ .

٤٧ ـ ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

٤٨ ـ ٤٨ ـ تتضمن وثائق الوقف المملوكية أوصافا عديدة للدور يمكن من خلالها تصور ارتفاع هذه المباني.

٤٩ ـ Hathloul, op. cit. p. 113.

٥٠ ـ Ibid., p. 113.

٥١ ـ Geoffrey King , op. cit. pp. 116 — 119.

٥٢ ـ محمد الفائز : المرجع السابق، ص ٢٢٤ ـ ٢٣٨ .
King , op. cit. p. 118

٥٣ ـ انشئت بعض منازل نجد على هذا النمط وخصوصا منطقة القصيم. وتوجد أمثلة لها في المنازل التقليدية في مصر.

٥٤ ـ ليو الأفريقي : المصدر السابق، ص٢٢٢ ، ٢٢٣ .

٥٥ ـ محمد نادر العطار : حمراء غرناطة وفن الحدائق عند العرب، مجلة عصور ـ المجلد الثاني ـ العدد الثالث سنة ١٩٨٧، ص ٦٤ ـ ٦٨

٥٦ ـ ابن الغملاس : المرجع السابق ، ص ٣، عيسى سلمان وآخرون: المرجع السابق، ص٤٧ .

٥٧ ـ القاضي النعمان : المسايرات والمجالس، ص٥٩٦، ابن الغملاس، المرجع السابق، ص١٣ .

٥٨ ـ محمد عبدالعزي الحسيني: المرجع السابق، ص٤٤

٥٩ ـ د. قاسم عبده قاسم : الحياة الاجتماعية، ص٣٥ .

٦٠ ـ Ashtor (E). A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages. Collins, London, 1976, pp. 286 — 281

د. قاسم : المرجع السابق: ص١١ ـ ٣٥ .

٦١ ـ ابن الغملاس. المرجع السابق، ص ١١ ـ ٣٥ .

٦٢ ـ عبد الرحمن زكي : المرجع السابق، ص٢٧ .

٦٣ ـ ليو الافريقي : المرجع السابق، ص ٢٢١ ـ ٢٢٥ .

٦٤ ـ حسين مؤنس : الخبر عن مدينة قرطبة ومحاسنها ـ صحيفة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ص١٦٨ ـ ١٦٩ .

٦٥ ـ بلباس : الأبنية الإسبانية الاسلامية ـ مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية، مدريد، عدد ١ ، مجلد ١ ، سنة ١٩٥٣ ، ص١٢٢ـ ١٢٣ .

٦٦ ـ محمد عبد الستار عثمان: الآثار المعمارية للسلطان برسباي بمدينة القاهرة، ماجستير جامعة القاهرة ـ كلية الآثار، سنة ١٩٧٧، ص١٢٢ .

٦٧ ـ المقريزي : خطط ،جـ١ ، ص٣٣٠ .

٦٨ ـ أحمد فريد مصطفى : امكانية تحقيق مقومات ومبادىء المدينة العربية الإسلامية في التخطيط العمراني المعاصر ـ نشر أمانة مدينة الرياض، ص ١٥ ـ ١٦ .

٦٩ ـ أحمد فريد مصطفى : المرجع السابق، ص١٥ .

٧٠ ـ د. صلاح هريدي : الحرف والصناعات في عهد محمد علي ، دار المعارف، سنة ١٩٨٥ ، ص٢٥ .

٧١ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص ٣٢٨ ـ ٢٣٥ .

٧٢ ـ كشفت البعثة الأمريكية عن نماذج لهذه القنوات في بعض أطلال منازل مدينة الفسطاط في القطاع الشمالي من المدينة .

Scanlon : Preliminary report, Excavations at Fustat, 1964. in J of the American Research Center in Egypt. vol. VI, (1964), pp. 7 - 28, vol. V, 1966, pp. 83 - 112, vol. VI, (1967), pp. 65 - 86

٧٣ ـ ابن الرامي : المرجع السابق: ص٣٤٠ ـ ٣٤٣ .

٧٤ ـ بلباس : المرجع السابق، ص ١٠٨ .

٧٥ ـ ليو الأفريقي : المرجع السابق، ص٢٣٠

٧٦ ـ بلباس : المرجع السابق، ص١٠٨ .

٧٧ ـ احمد فريد مصطفى: المرجع السابق، ص١٦ .

٧٨ ـ عبد الرحمن زكي: المرجع الاسلامي، ص١٤، مدثر عبدالرحيم: المؤسسات القضائية مقال في كتاب المدينة الاسلامية، اشراف ر.ب سيرجنت، ترجمة محمد قطب، ص٤٦ـ٤٨ .

٧٩ ـ عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص٥٩ ـ ٦٠

٨٠ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص٢٢٣ .

٨١ ـ ابن الربيع: المرجع السابق، ص٢١ .

٨٢ ـ ابن الرامي : المرجع السابق، ص ٢١٦ ـ ٢٤٨ .

٨٣ ـ Hathloul , op. cit. p. 59

٨٤ ـ راجع الفصل الرابع من ص١٨٧ـ١٩٧ .

٨٥ ـ د. محمد منير حجاب: نظريات الاعلام الاسلامي المبادىء والتطبيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الاسكندرية سنة ١٩٨٢، ص٤٧ ـ ٤٨ .

٨٦ ـ د. محمد منير حجاب: المرجع السابق، ص٦٧ .

٨٧ ـ في اطار مناقشة حول دور المسجد الاتصالي يعتزم د. محمد منير حجاب دراسة هذا الموضوع من الناحية الاعلامية. وكان من نتائج هذه المناقشة وضع هذا الشكل الذي يبين وظائف المسجد الاتصالية.

٨٨ ـ ينظر المختصون في الاعلام الاسلامي هذا السلوك في اطار تحليلي لما يسمى نموذج الاتصال

الذاتي. وهو نموذج يتكامل مع نماذج الاتصال الاخرى. (د. محمد منير حجاب: المرجع السابق، ص٧٩).

٨٩ ـ وفي ذلك الاطار يشير «هوسلتز» الى ان الوظيفة الاقتصادية لمدن العصور الوسطى وفعالية الدور الذي أدته قد انتجا تركيبا اجتماعيا

Bert F. Hoselitz, The Role of Cities in the Economic Growth of Underdeveloped Countries in the J. of political, Economy. (LXI, 1923. pp. 205-206).

وعبد الجبار ناجي: المرجع السابق، ص١٥٨.

٩٠ ـ د. عبدالعزيز الدوري: الأصناف والحرف الإسلامية ـ مجلة الرسالة عدد ٩٨٣ سنة ١٩٥٣، ص٤٩٣ ـ ٤٩٤.

٩١ ـ عرفت الحضارة اليونانية نظاما اقتصاديا انتشر في السيطرة اليونانية على بلاد الشرق، وكان يعرف باليونانية باسم «اغورانوموس» Agoranomos «صاحب السوق» وكان عمل هذا الموظف الاشراف على أمور الأسواق. وقد استمرت هذه الوظيفة عند الرومان والبيزنطيين. (حسان على حلاق: الادارة المحلية الإسلامية، المحتسب، سنة ١٩٨٠ الدار العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص١٤).

٩٢ ـ قرآن كريم ـ سورة آل عمران، الآية رقم ١٠٤.

٩٣ ـ طاهر جاسم التميمي: الحسبة والرقابة التجارية ـ مجلة المدن العربية، عدد ٢٠ رجب سنة ١٤٠٦هـ ـ نشر المنظمة العربية للمدن، ص٣٩.

٩٤ ـ زهير خضير ياسين: الحسبة المفهوم العام والبعد الاقتصادي ـ مجلة آفاق عربية ـ دار آفاق عربية للصحافة والنشر ـ العدد الأول، سنة ١٩٨٥، ص١٠٩.

٩٥ ـ للفتوة معان سامية كما يتضح من دراسة التراث العربي الاسلامي أساء اليها الشطار والعيارون عندما سحبوها على انفسهم، لكن سرعان ما أعادت الصوفية لها معانيها السامية بتوجيه الفتوة الى اطاعة الشريعة والعفو عن المسيء والكرم حتى مع المشركين، والأمانة والصدق، (انظر: ضياء الدخيلي: الفتوة في اللغة وكتب الأدب وحياة الفتيان في الجاهلية وعصور الاسلام. مجلة الرسالة ـ عدد ٧٨٩، أغسطس ١٩٤٨، ص٩٥٨ ـ ٩٦٠.

٩٦ ـ تضمنت رسائل اخوان الصفا موضوع العمل وتمجيده، كما تناولت تصنيف الصنائع والحرف تصنيفا خاصا يبرز أهمية كل منها، رسائل اخوان الصفا، جـ١، ص٢٨٨، وفي اطار هذه الصلة حاول ماسنيون أن يربط النقابة بالقرامطة وهو اتجاه خالفه ستيرن وأشار إلى ان رأي «ماسنيون» يحتاج إلى أدلة أقوى، (عبد الجبار ناجي: المرجع السابق، ص١٤٦).

٩٧ ـ عبد الجبار ناجي: المرجع السابق، ص١٦٥.

٩٨ - C. Cahen, 'Ga - t - il eu des Corporations Professionalles dans le monde Musulman Classique **Quelques reflexions** in the Islamic City. ed by Hourani and Stern, Oxford, 1970, pp. 51 - 63.

M. Stern , The Constitution of the Islamic City in the Islamic City, Oxford, 1970, p. 40.

٩٩ - عبد العزيز الدوري : المرجع السابق، ص٥٢٣.

١٠٠ - حدد جويتين Goitein سمات نشاط النقابة فذكر ان وظائفها تتلخص في: مراقبة عمل أعضائها لدعم مستواهم، وتهيئة مستلزمات تثقيف التلاميذ وفهمهم، وحماية اعضائها من أي منافسة، ثم ارتباطها بالدين في البلدان المسيحية، ثم يشير إلى عدم وجود هذه الصلاحيات في المدينة الإسلامية، (عبد الجبار ناجي. المرجع السابق، ص١٦٥).

١٠١ - ليو الافريقي : المرجع السابق، ص ٢٣٥.

١٠٢ - الدورى : المرجع السابق، ص ٥٢٠ - ٥٢١.

١٠٣ - اندريه ريموند : المرجع السابق، ص٤٤ - ٤٥.

١٠٤ - هاملتون جب، هارولد بوون : المجتمع الاسلامي والغرب - ترجمة أحمد عبدالرحيم، مصطفى الحسيني، القاهرة سنة ١٩٧١م، جـ٢ ص١٣٧.

١٠٥ - د. صلاح هريدي : المرجع السابق، ص١٥.

١٠٦ - د. صلاح هريدي : المرجع السابق، ص١٦.

١٠٧ - د. عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص١٦٥.

١٠٨ - د. عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص ١٥٤.

١٠٩ - د. عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص١٥١، ١٥٢، ص١٥٤.

١١٠ - د. عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص١٦٥.

١١١ - د. عبد الجبار ناجي : المرجع السابق، ص١٥٢.

١١٢ - Oleg Grabar , op. cit. p. 100

١١٣ - Hammond : p. cit., p. 34.

١١٤ - Jean Combire, Werner. J. Cahnman, How Cities Grew. the Historical Sociology of Cities, New Jersey, 1965. 3rd., edition, pp. 6 - 7.



الخاتمة

أوضحت هذه الدراسة أهمية بحث المدينة الاسلامية في اطار تجربتها الخاصة التي تعكسها آثارها الباقية ومصادر التراث الأخرى. فقد كشفت الدراسة من هذا المنظور عن أن المدينة مرت بمراحل متتابعة من التطور الذي انعكس على تكوينها المادي وعلى حياة مجتمعها بصورة جلية من فترة إلى أخرى. وهو اتجاه في البحث يثني جانبا ذلك الاتجاه الذي غلب على دراسة المدينة الإسلامية في اطار مقارنتها بالمدينة الأوروبية التي تختلف عنها في نشأتها وتطورها.

وبينت الدراسة المحاور التي قام عليها تخطيط المدينة الإسلامية، وكيف أن هذا التخطيط شمل جوانب التخطيط العمرانية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وفق الهدف الذي انشئت من أجله المدينة، ومن خلال الدراسة التفصيلية للتركيب المادي للمدينة الإسلامية اتضح انه كان وفق أسس وقواعد عامة شكلتها ظروف البيئة، وحكمتها التجربة في تفاعل كامل مع القيم والمبادىء الإسلامية التي أطّرت كل هذه العوامل التي شكلت التكوين المادي للمدينة. ومن ثم اختلفت الصيغ المادية لهذه المدن، ولم تكن قالبا جامدا التزمت به كل المدن الإسلامية، وهو ما يعكس حرية المجتمع الإسلامي الذي يشكل هذا التكوين أو ذاك، واتحدت هذه الصيغ في الالتزام بالمبادىء والقوانين الإسلامية - التي هي أكبر العوامل تأثيرا في تشكيل هذا التكوين - فتشابهت أفكار التخطيط رغم تنوع الاشكال في اطار منطقي يتفق والعوامل الأخرى المؤثرة في التشكيل، تلك العوامل التي حكمها إلى حد بعيد الاطار الزمني لتاريخ المدينة الإسلامية.

وفسرت هذه الدراسة كثيرا من الظواهر المعمارية المتمثلة في التكوينات المعمارية الإسلامية والثانوية من منظور تحليلي يوضح أسباب ظهورها، ومراحل تطورها وارتباطها بالكيان الكلي للمدينة الاسلامية تأثيرا وتأثرا بما يوضح كثيرا

من الحقائق المهمة في تاريخ العمارة الاسلامية ومراحل تطورها. ويكشف عن العلاقات الأساسية بين تكوينات المدينة المختلفة، تلك العلاقات التي تغفل عنها الدراسات الأثرية التي تتناول هذه التكوينات منعزلة بعضها عن بعض.

وربطت هذه الدراسة بين الحياة السياسية والحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية وتكوينها المادي في اطار التطور التاريخي الذي مرت به المدينة، فكشفت عن التأثير المتبادل بين الحياة السياسية والحياة الاجتماعية وبين التكوين المادي للمدينة الاسلامية، وفي ذلك ما يوضح أهمية تكامل اتجاهات البحث في المدينة الإسلامية وتحديثها.

من خلال ذلك أوضحت هذه الدراسة أهمية الحسبة كنموذج اتصالي اسلامي كان له دور بارز في الاتصال بالمدينة الاسلامية ولاسيما شوارعها وطرقاتها واسواقها، أكمل الدور الاتصالي للمسجد الجامع باعتباره المركز الرئيس الأول من مراكز الاتصال بالمدينة تلك المراكز التي ساهمت في توثيق الاتصال بين فئات المجتمع في المدينة الإسلامية كالحمامات العامة وغيرها من المنشآت التي تتيح فرص الاتصال المستمر. وقد أثرت هذه النماذج الاتصالية في تشكيل السلوك الاجتماعي تشكيلا معينا ووجهته توجيها خاصا ـ في اطار القيم والمبادىء الاسلامية ـ يمكن قراءة تفاصيله والتعرف على ملامحه من خلال التاريخ السلمي لحياة المجتمعات الاسلامية الذي تخللته بعض الحركات الثورية والجماهيرية التي حاولت التمرد ولاسيما في عهد الامويين والعباسيين في ظل تيارات فكرية ودينية مرتبطة بأحداث العصر الذي نشأت فيه.

وأوضحت الدراسة نشأة الأصناف والحرف وتطورها الى ما يسمى «النقابات» في اطار اجتماعي مرتبط بالأسواق كجزء من التكوين المادي للمدينة الإسلامية، بعيدا عن محاولات المقارنة بينها وبين النقابات في المدينة الأوروبية، تلك المحاولات التي حاولت ابراز دورها السياسي رغم أنها بدأت مع مراقبة الأسواق وتيسير الارتفاق بها وتطورت كمؤسسة اجتماعية تعمل على تنظيم العمل بين المنتمين إليها ورعايتهم. وفي أقصى مراحل تطورها أصبحت مجرد أداة من أدوات

السلطة لحكم الفئات العاملة من الصناع والتجار المنتظمين في هذه النقابات.

كشفت المقارنة بين نتائج هذه الدراسة وما انتهت إليه دراسات أخرى عن أهمية تكثيف البحث في المدينة الاسلامية في اتجاه مغاير للاتجاهات التي بدأتها الدراسات في مطلع هذا القرن، والدراسات الحديثة التي نهجت نهجها حتى تتضح الرؤية الصحيحة للمدينة الإسلامية التي يمكن اعتمادها في تطوير دراسات المدينة الإسلامية وفق الاتجاهات والنظريات الحديثة لدراسة المدن.

ولعل هذه الدراسة بما عرضت من أهمية مصادر التراث الإسلامي وما استعانت به من مصادر بجانب الآثار الباقية للمدن الإسلامية تكون خطوة في هذا الاتجاه من جانب الآثاريين والجغرافيين والاجتماعيين والمؤرخين وغيرهم ممن تتصل دراساتهم بالمدينة بصفة عامة والمدينة الإسلامية على وجه الخصوص.



المحتوى



المؤلف في سطور

- محمد عبد الستار عثمان.
- ليسانس من كلية الآداب/ جامعة القاهرة. قسم الآثار الإسلامية، عام ١٩٧٣. وماجستير من كلية الآثار/ جامعة القاهرة، عام ١٩٧٧. ودكتوراه من كلية الآداب/ جامعة أسيوط، عام ١٩٨٠.

الوظائف العلمية:

- آثاري بمركز الآثار بهيئة الآثار ـ معيد ـ مدرس مساعد ـ مدرس بآداب سوهاج ـ مدرس بجامعة الملك سعود في الرياض.

الانتاج العلمي:

- نشر عددا من المقالات والأبحاث منها:

١ ـ اخميم في العصرين القبطي والإسلامي.

٢ ـ وثيقة وقف جمال الدين يوسف الاستادار «دراسة تاريخية أثرية وثائقية».

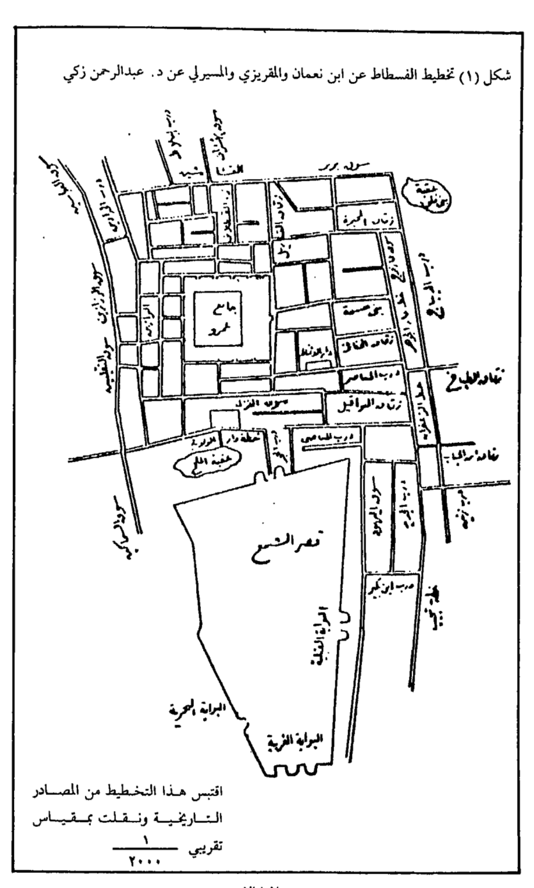
٣ ـ المراسيم الحجرية من وسائل الإعلام في العصر المملوكي.



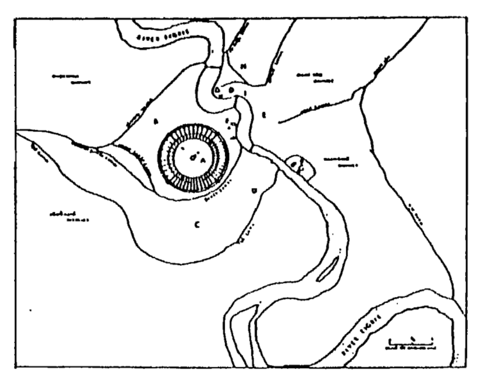
الموسيقا الاندلسية المغربية

تأليف: عبد العزيز بن عبدالجليل

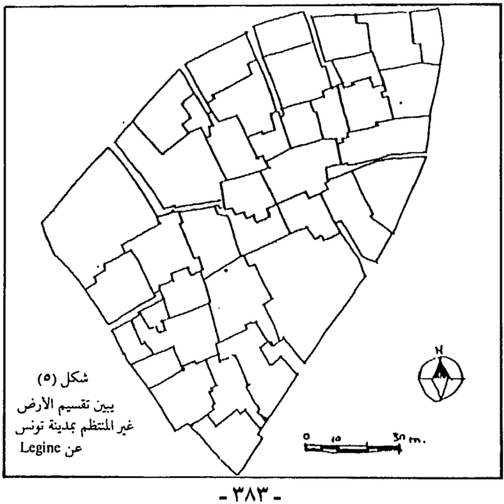
شكل (١) تخطيط الفسطاط عن ابن نعمان والمقريزي والمسيرلي عن د. عبدالرحمن زكي



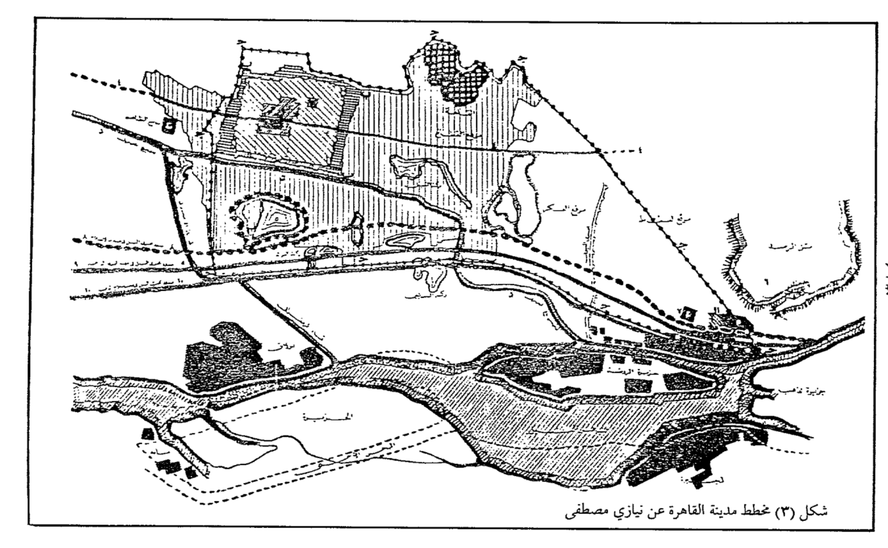
اقتبس هذا التخطيط من المصادر التاريخية ونقلت بمقياس تقريبي $\frac{١}{٢٠٠٠}$



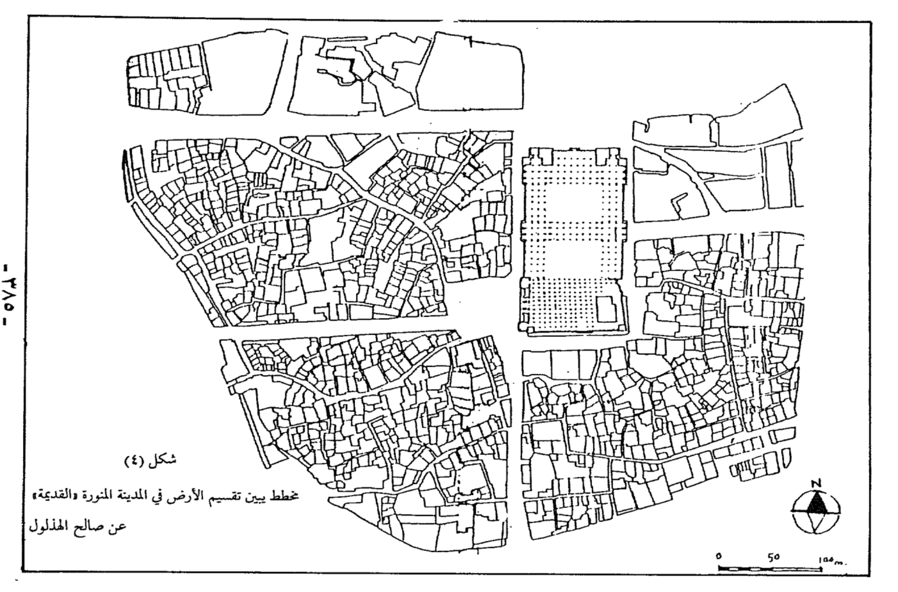
شكل (٢) خريطة لبغداد يبين مراحل النمو العمراني عن Lassner



شكل (٥)
يبين تقسيم الأرض
غير المنتظم بمدينة تونس
عن Legine



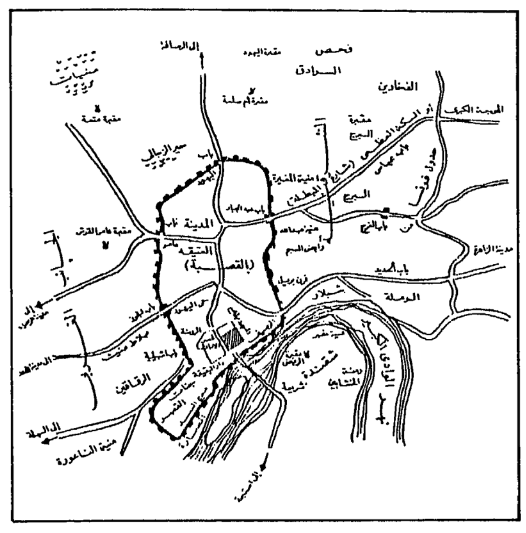
شكل (٣) مخطط مدينة القاهرة عن نيازي مصطفى



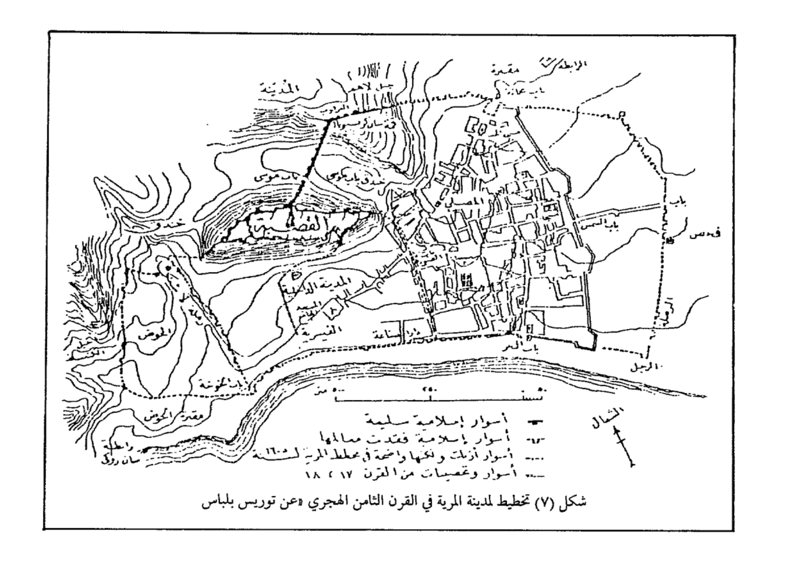
شكل (٤)

مخطط يبين تقسيم الأرض في المدينة المنورة «القديمة»

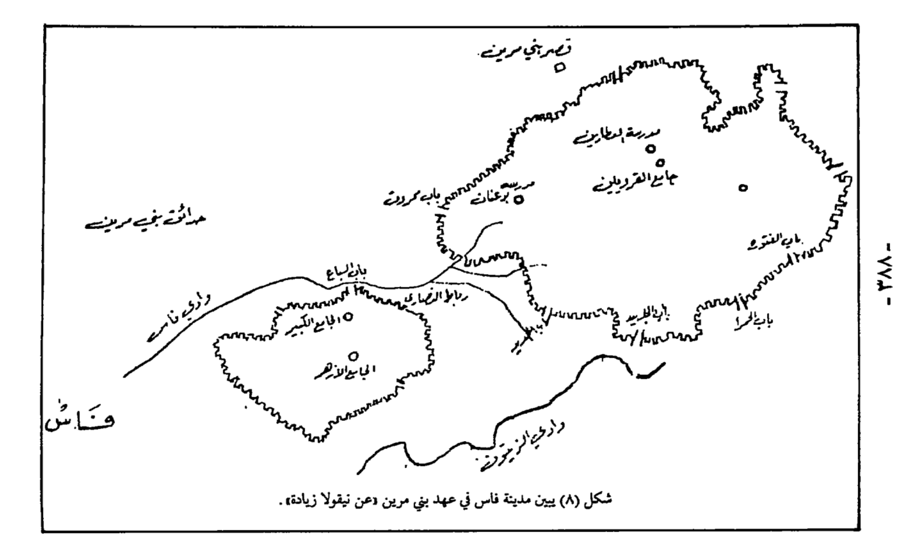
عن صالح الهذلول



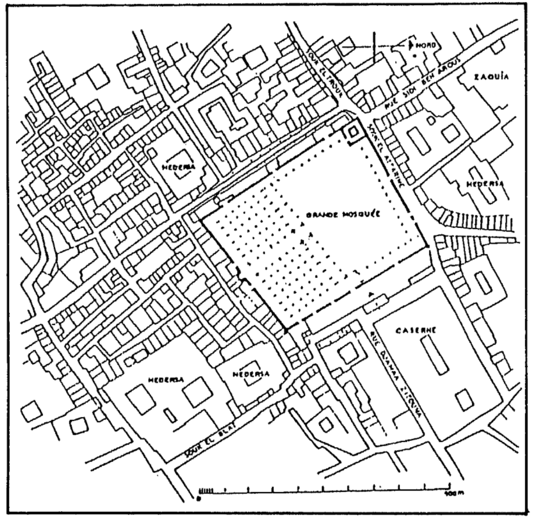
شكل (٦) مدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي. عن: السيد عبدالعزيز سالم



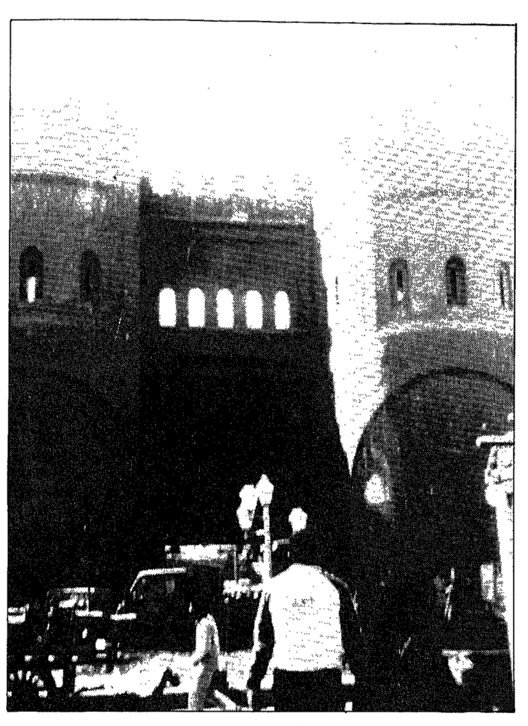
شكل (٧) تخطيط لمدينة المرية في القرن الثامن الهجري «عن توريس بلباس



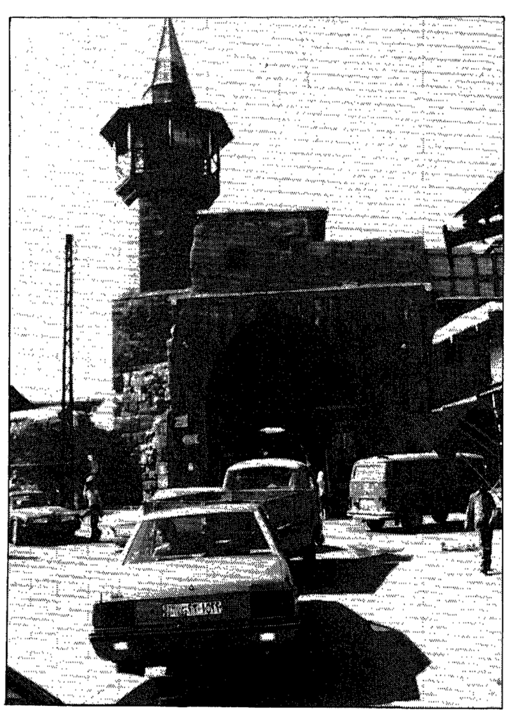
شكل (٨) يبين مدينة فاس في عهد بني مرين «عن نيقولا زيادة».



شكل (١١) يبين مسجد الزيتون بتونس والأسواق المجاورة له. عن Lexine



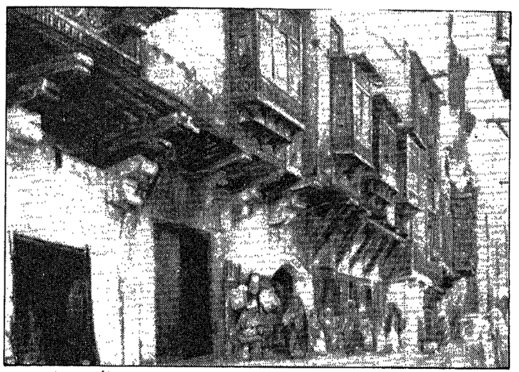
باب الفتوح أحد أبواب القاهرة الفاطمية.



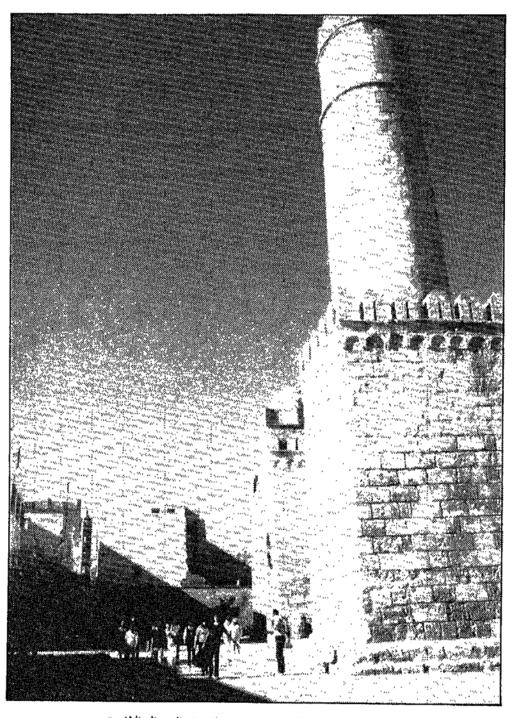
لوحة تبين إحدى بوابات دمشق الأثرية .



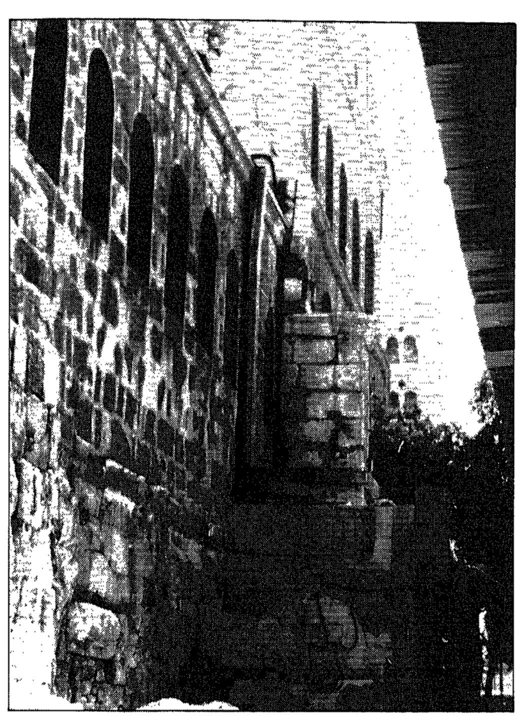
بوابات مدينة صفاقس.



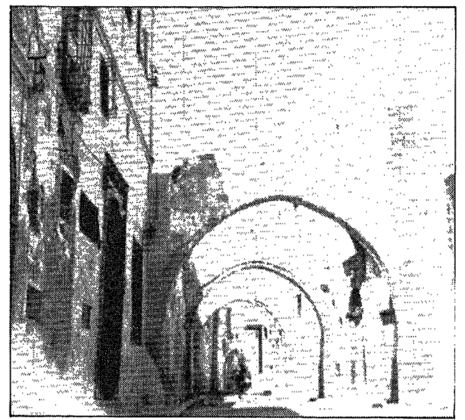
شارع درب الجماميز بالقاهرة قبل سنة ١٩٢٠، عن مجموعة خاصة توضح الأجنحة والرواشن البارزة إلى الطريق.



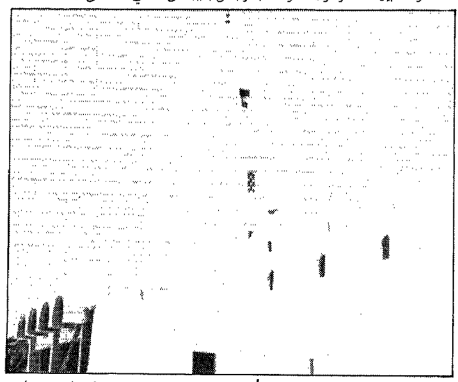
لوحة توضح جانبا من تحصينات مدينة المهدية بالشمال الافريقي.



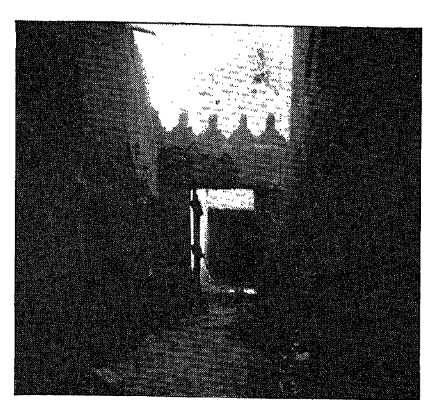
لوحة تبين أحد الشوارع المجاورة للجامع الأموي بدمشق.



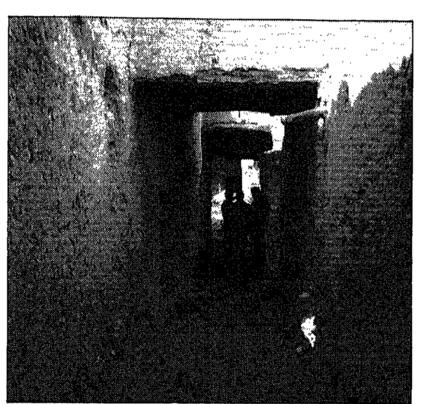
لوحة تبين القناطر فوق الطرقات بطرابلس بليبيا عن : ـ علي مصطفى رمضان .



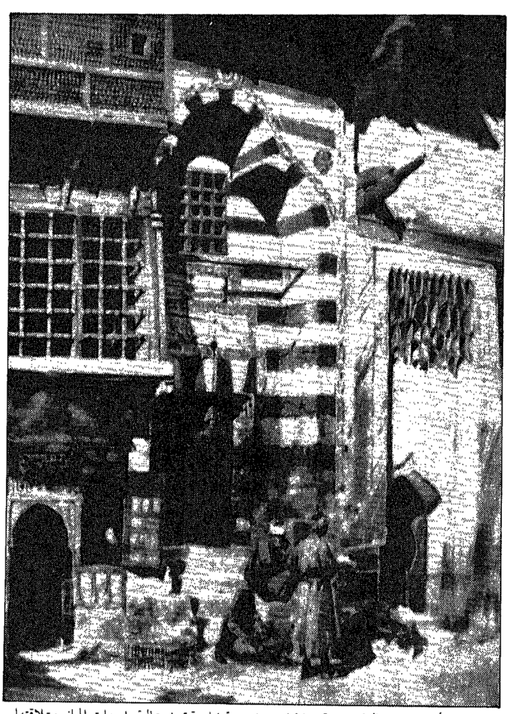
لوحة تبين المسجد الجامع في القيروان . وتُلاحظ المئذنة ذات النمط المربع أول أشكال المآذن ومن أقدمها .



لوحة توضح نموذج أحد الدروب بسدوس. بالمملكة العربية السعودية.



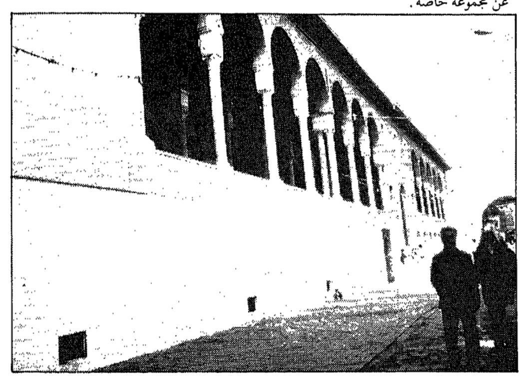
لوحة توضح أحد الطرق بسدوس القديمة بنجد بالمملكة العربية السعودية ويلاحظ البناء فوق الطريق.



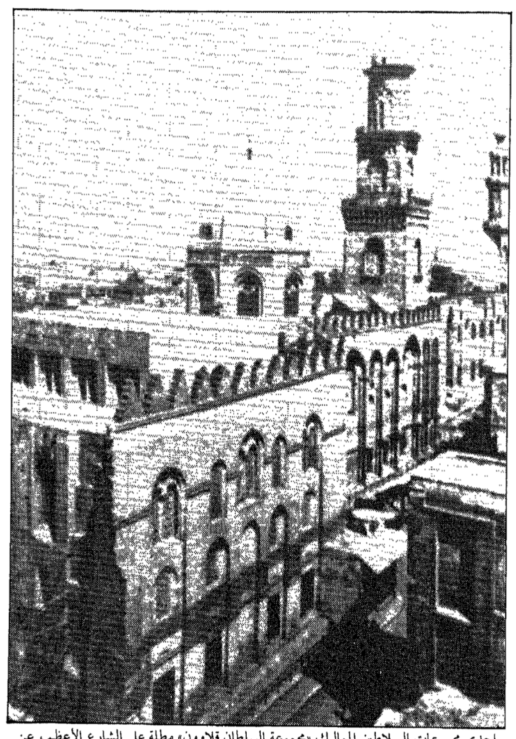
لوحة تبين أحد شوارع القاهرة سنة ١٩٢٠.عن مجموعة خاصة تبين جمالية واجهات المباني وعلاقتها بالشارع المطلة عليه.



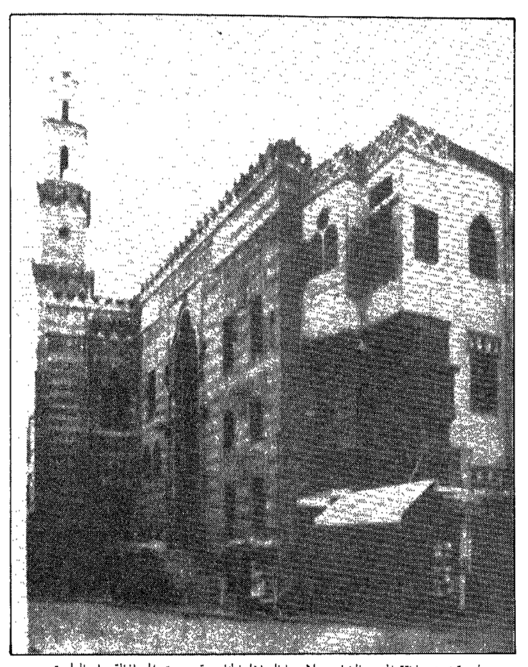
أحد المساجد القديمة بشارع باب الوزير ويرى البوابة التي كانت تؤدي إلى المسجد قبل سنة ١٩٢٠ عن مجموعة خاصة.



لوحة لجامع الزيتونة بتونس.



إحدى مجموعات السلاطين المماليك «مجموعة السلطان قلاوون» مطلة على الشارع الأعظم، عن د. صالح لمعى.



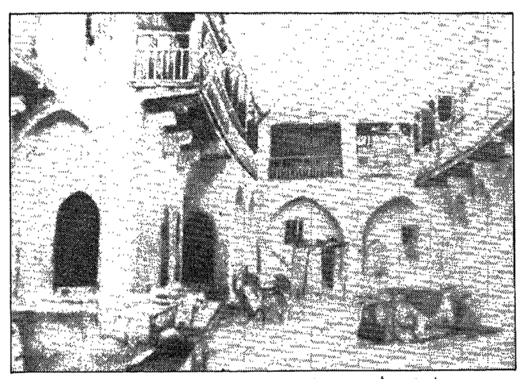
لوحة تبين علاقة المبنى بالشارع ولاسيما السلالم الخارجية، وحق المحافظة على الطريق.



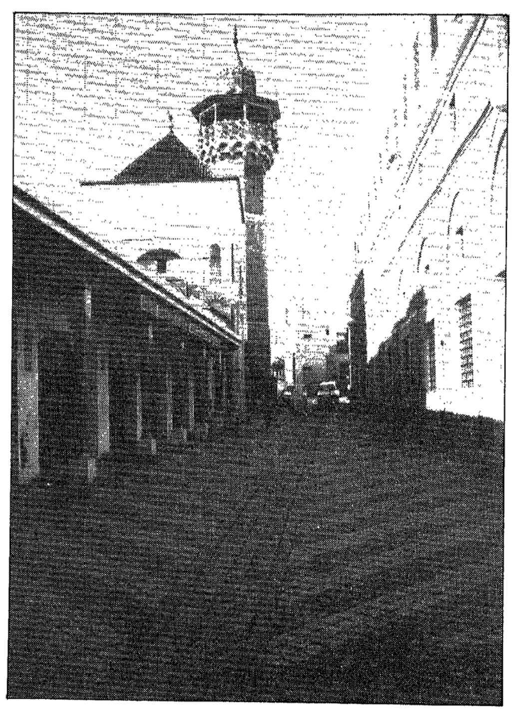
قطاع من شارع الأزهر بالقاهرة قبل سنة ١٩٢٠.عن مجموعة خاصة. علاقة التكوينات السكنية بالمساجد وشبكة الطرق.



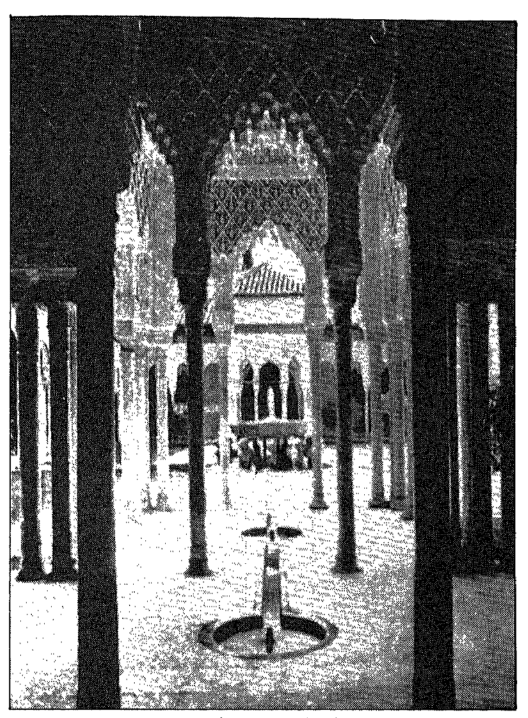
لوحة تبين سوق الخيميين بالقاهرة قبل سنة ١٩٢٠.عن مجموعة خاصة.



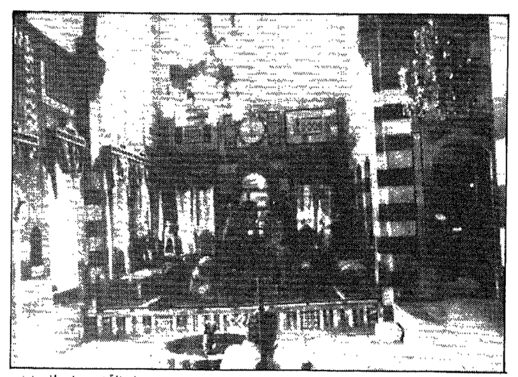
لوحة تبين أحد خانات القاهرة قبل سنة ١٩٢٠. عن مجموعة خاصة.



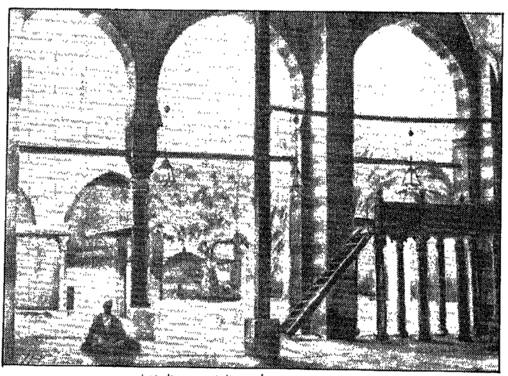
لوحة تبين أحد الشوارع الأثرية بمدينة تونس ، المباني السكنية والمسجد



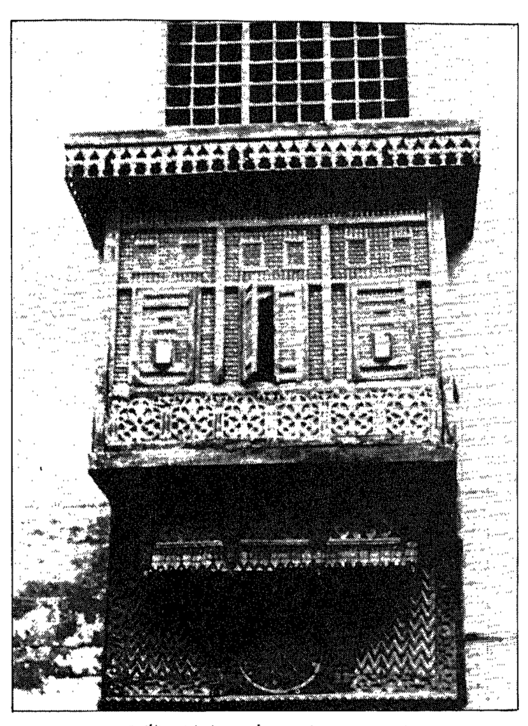
لوحة لقصر الحمراء بالأندلس.



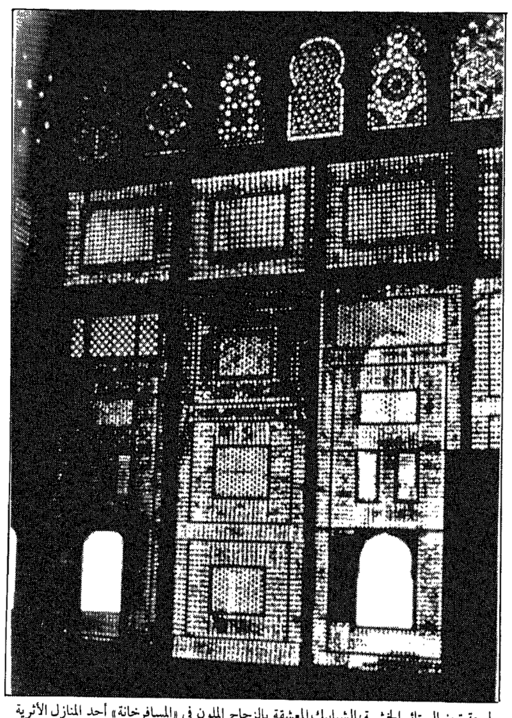
لوحة تبين إحدى قـاعات قصـر العظم بسـوريا «دمشق»، حيث يشغله الآن متحف للتـراث الشعبي.



لوحة لجامع ابراهيم أغا. بالقاهرة من الداخل.



لوحة تبين إحدى المشربيات بأحد منازل القاهرة الأثرية .



لوحة تبين الستائر الخشبية، الشبابيك المعشقة بالزجاج الملون في «المسافرخانة» أحد المنازل الأثرية بالقاهرة.

صدر عن هذه السلسلة

١٧ـالكون والثقوب السوداء	إعداد : رؤوف وصفي
	مراجعة : زهير الكرمي
١٨ـالكوميديا والتراجيديا	ترجمة : د/ علي أحمد محمود
	مراجعة : د/ شوقي السكري د/ علي الراعي
١٩ ـ المخرج في المسرح المعاصر	تأليف : سعد أردش
٢٠ ـ التفكير المستقيم والتفكير الأعوج	ترجمة : حسن سعيد الكرمي
	مراجعة : صدقي حطاب
٢١ـمشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي	تأليف : د/ محمد علي الفرا
٢٢ـالبيئة ومشكلاتها	تأليف : رشيد الحمد د/ محمد سعيد صباريني
٢٣ـالسرق	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني
٢٤ـالإبداع في الفن والعلم	تأليف : د/ حسن أحمد عيسى
٢٥ـالمسرح في الوطن العربي	تأليف : د/ علي الراعي
٢٦ـمصر وفلسطين	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن
٢٧ـالعلاج النفسي الحديث	تأليف : د/ عبدالستار إبراهيم
٢٨ـأفريقيا في عصر التحول الاجتماعي	ترجمة : شوقي جلال
٢٩ـالعرب والتحدي	تأليف : د/ محمد عماره
٣٠ ـ العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة	تأليف : د/ عزت قرني
٣١ ـ الموشحات الأندلسية	تأليف : د/ محمد زكريا عناني
٣٢ـتكنولوجيا السلوك الإنساني	ترجمة : د/ عبدالقادر يوسف
	مراجعة : د/ رجا الدريني
٣٣ـالإنسان والثروات المعدنية	تأليف : د/ محمد فتحي عوض الله
٣٤ـقضايا أفريقية	تأليف : د/ محمد عبدالغني سعودي
٣٥ـتحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي (١٩٣٠ ـ ١٩٧٠)	تأليف : د/ محمد جابر الأنصاري

٣٦ـالحب في التراث العربي — تأليف : د/ محمد حسن عبدالله
٣٧ـالمســـاجد — تأليف : د/ حسين مؤنس
٣٨ـتكنولوجيا الطاقة البديلة — تأليف : د/ سعود يوسف عياش
٣٩ـارتقـــاء الإنســـــان — ترجمة : د/ موفق شخاشيرو
مراجعة : زهير الكرمي
٤٠ـالرواية الروسية في القرن التاسع عشر — تأليف : د/ مكارم الغمري
٤١ـالشـعر في السودان — تأليف : د/ عبـــده بـــدوي
٤٢ـدور المشروعات العامة في التنمية الاقتصادية — تأليف : د/ علي خليفة الكواري
٤٣ ـ الإســـلام في الصـــين — تأليف : فهمي هويدي
٤٤ـاتجاهات نظرية في علم الاجتماع — تأليف : د/ عبدالباسط عبدالمعطي
٤٥ـحكايات الشطار والعيارين في التراث العربي — تأليف : د/ محمد رجب النجار
٤٦ـدعـــوة إلـى الموسيقـا — تأليف : د/ يوسف السيسي
٤٧ـفكـرة القانـــون — ترجمة : سليم الصويص
مراجعة : سليم بسيسو
٤٨ـالتنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان — تأليف : د/ عبدالمحسن صالح
٤٩ـصراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي — تأليف : صلاح الدين حافظ
٥٠ـالتكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية — تأليف : د/ محمد عبدالسلام
٥١ ـ السينما في الوطن العربي — تأليف : جـــان ألكســـان
٥٢ـالنفط والعلاقات الدولية — تأليف : د/ محمد الرميحي
٥٣ـالبدائيـــة — ترجمة : د/ محمد عصفور
٥٤ـالحشرات الناقلة للأمراض — تأليف : د/ جليل أبو الحب
٥٥ـالعالم بعد مائتي عام — ترجمة : شوقي جلال
٥٦ـالإدمـــــان — تأليف : د/ عادل الدمرداش
٥٧ـالبيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية — تأليف : د/ أسامة عبدالرحمن
٥٨ـالوجوديـــــة — ترجمة : د/ إمام عبد الفتاح
٥٩ـالعرب أمام تحديات التكنولوجيا — تأليف : د/ انطونيوس كـــرم
٦٠ـالايديولوجية الصهيونية (الجزء الأول) — تأليف : د/ عبد الوهاب المسيري

٦١ـالايديولوجية الصهيونية (الجزء الثاني)	تأليف : د/ عبد الوهاب المسيري
٦٢ـحكمة الغرب (الجزء الأول)	ترجمة : د/ فؤاد زكريا
٦٣ـالإسلام والاقتصاد	تأليف : د/ عبدالهادي علي النجار
٦٤ـصناعة الجوع (خرافة الندرة)	ترجمة : أحمد حسان عبد الواحد
٦٥ـمدخل إلى تاريخ الموسيقا المغربية	تأليف : د/ عبدالعزيز بن عبدالجليل
٦٦ـالإسلام والشعر	تأليف : د/ سامي مكي العاني
٦٧ـبنــو الإنســان	ترجمة : زهير الكرمي
٦٨ـالثقافة الألبانية في الأبجدية العربية	تأليف : د/ محمد موفاكــو
٦٩ـظاهرة العلم الحديث	تأليف : د/ عبدالله العمــر
٧٠ـنظريات التعلم (دراسة مقارنة)	ترجمة : د/ علي حسين حجاج
القسم الأول	مراجعة : د/ عطيه محمود هنا
٧١ـالاستيطان الأجنبي في الوطن العربي	تأليف : د/ عبدالمالك خلف التميمي
٧٢ـحكمة الغرب (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ فؤاد زكريا
٧٣ـالتخطيط للتقدم الاقتصادي والاجتماعي	تأليف : د/ مجيـد مسعود
٧٤ ـ مشاريع الاستيطان اليهودي	تأليف : د/ أمين عبدالله محمود
٧٥ـالتصويــر والحيــاة	تأليف : د/ محمد نبهان سويلم
٧٦ـالموت في الفكر الغربي	ترجمة : كامل يوسف حسين
	مراجعة : د/ إمام عبد الفتاح
٧٧ـالشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً	تأليف : د/ أحمـد عتمـان
٧٨ـقضايا التبعية الإعلامية والثقافية	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن
٧٩ـمفاهيــم قرآنيــة	تأليف : د/ محمد أحمد خلف الله
٨٠ـالزواج عند العرب (في الجاهلية والإسلام)	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني
٨١ـالأدب اليوغسلافي المعاصر	تأليف : د/ جمال الدين سيد محمد
٨٢ـتشكيل العقل الحديث	ترجمة : شوقي جلال
	مراجعة : صدقي حطاب
٨٣ـالبيولوجيا ومصير الإنسان	تأليف : د/ سعيد الحفار

٨٤ـ المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية — تأليف : د/ رمزي زكي

٨٥ـ دول مجلس التعاون الخليجي ومستويات العمل الدولية — تأليف : د/ بدرية العوضي

٨٦ـ الإنسان وعلم النفس — تأليف : د/ عبد الستار إبراهيم

٨٧ـ في تراثنا العربي الاسلامي — تأليف : د/ توفيق الطويل

٨٨ـ الميكروبات والإنسان — ترجمة : د/ عزت شعلان
مراجعة : د/ عبد الرزاق العدواني
د/ سمير رضوان

٨٩ـ الإسلام وحقوق الإنسان — تأليف : د/ محمد عماره

٩٠ـ الغرب والعالم (القسم الأول) — تأليف : كافين رايلي
ترجمة : د/ عبدالوهاب المسيري
د/ هدى حجازي
مراجعة : د/ فؤاد زكريا

٩١ـ تربية اليسر وتخلف التنمية — تأليف : د/ عبدالعزيز الجلال

٩٢ـ عقول المستقبل — ترجمة : د/ لطفي فطيم

٩٣ـ لغة الكيمياء عند الكائنات الحية — تأليف : د/ أحمد مدحت اسلام

٩٤ـ النظام الإعلامي الجديد — تأليف : د/ مصطفى المصمودي

٩٥ـ تغيير العالم — تأليف : د/ أنور عبدالملك

٩٦ـ الصهيونية غير اليهودية — تأليف : ريجينا الشريف
ترجمة : أحمد عبدالله عبدالعزيز

٩٧ـ الغرب والعالم (القسم الثاني) — تأليف : كافين رايلي
ترجمة : د/ عبد الوهاب المسيري
د/ هدى حجازي
مراجعة : د/ فؤاد زكريا

٩٨ ـ قصة الانثروبولوجيا — تأليف : د/ حسين فهيم

٩٩ ـ الأطفال مرآة المجتمع — تأليف : د/ محمد عمادالدين اسماعيل

١٠٠ ـ الوراثة والإنسان	تأليف : د/ محمد علي الربيعي
١٠١ ـ الأدب في البرازيل	تأليف : د/ شاكر مصطفى
١٠٢ ـ الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية	تأليف : د/ رشاد الشامي
١٠٣ ـ التنمية في دول مجلس التعاون	تأليف : د/ محمد توفيق صادق
١٠٤ ـ العالم الثالث وتحديات البقاء	تأليف : جاك لوب ترجمة : أحمد فؤاد بلبع
١٠٥ ـ المسرح والتغير الاجتماعي في الخليج العربي	تأليف : د/ ابراهيم عبدالله غلوم
١٠٦ ـ «المتلاعبون بالعقول»	تأليف : هربرت. أ. شيللر ترجمة عبدالسلام رضوان
١٠٧ ـ الشركات عابرة القومية	تأليف : د/ محمد السيد سعيد
١٠٨ ـ نظريات التعلم (دراسة مقارنة) الجزء الثاني	ترجمة : د/ علي حسين حجاج مراجعة : د/ عطية محمود هنا
١٠٩ ـ العملية الإبداعية في فن التصوير	تأليف : د/ شاكر عبد الحميد
١١٠ ـ مفاهيم نقدية	ترجمة : د/ محمد عصفور
١١١ ـ قلق الموت	تأليف : د/ أحمد محمد عبدالخالق
١١٢ ـ العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث	
١١٣ ـ الفكر التربوي العربي الحديث	تأليف : د/ سعيد اسماعيل علي
١١٤ ـ الرياضيات في حياتنا	ترجمة : د/ فاطمة عبد القادر الما
١١٥ ـ معالم على طريق تحديث الفكر العربي	تأليف : د/ معن زيادة
١١٦ ـ أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات القسم الأول	تنسيق وتقديم : سيزار فرنانذث مورينو ترجمة : أحمد حسان عبد الواحد مراجعة : د/ شاكر مصطفى

١١٧ ـ الأحزاب السياسية في العالم الثالث	تأليف : د/ اسامة الغزالي حرب
١١٨ ـ التاريخ النقدي للتخلف	تأليف : د/ رمزي زكي
١١٩ ـ قصيدة وصورة	تأليف : د/ عبدالغفار مكاوي
١٢٠ ـ سيكولوجية اللعب	تأليف : د/ سوزاناميلر ترجمة : د/ حسن عيسىٰ مراجعة : د/ محمد عماد الدين إسماعيل
١٢١ ـ الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم	تأليف: د/ رياض رمضان العلمي
١٢٢ ـ أدب أمريكا اللاتينية القسم الثاني	تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو ترجمة: أحمد حسان عبدالواحد مراجعة د/ شاكر مصطفى
١٢٣ ـ ثقافة الأطفال	تأليف : د/ هادي نعمان الهيتي
١٢٤ ـ مرض القلق	تأليف: د/ دافيد. ف. شيهان ترجمة : د/ عزت شعلان مراجعة : د/ أحمد عبدالعزيز سلامة
١٢٥ ـ طبيعة الحياة	تأليف : فرانسيس كريك ترجمة : د/ أحمد مستجير مراجعة : د/ عبدالحافظ حلمي
١٢٦ ـ اللغات الاجنبية (تعليمها وتعلمها)	تأليف : د. نايف خرما د. علي حجاج
١٢٧ ـ اقتصاديات الإسكان	تأليف: د. اسماعيل ابراهيم درة

سلسلة عالم المعرفة

عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت ـ وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير ١٩٧٨. ويتولى الإشراف عليها لجنة تضم عددا من الشخصيات العلمية المعروفة على مستوى الوطن العربي كله.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارىء العربي بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة وكذا ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها ـ ترجمة وتأليفا:

١ ـ **الدراسات الإنسانية** : الفلسفة، علم النفس والتربية، علم الاجتماع، السياسة والاقتصاد، التاريخ، الدراسات الحضارية، والجغرافيا وأدب الرحلات.

٢ ـ **الدراسات الأدبية واللغوية** : الآداب العالمية، الأدب العربي، علم اللغة.

٣ ـ **الدراسات الفنية**: علم الجمال وفلسفة الفن، المسرح، الموسيقا، الفنون التشكيلية، الفنون الشعبية.

٤ ـ **الدراسات العلمية** : تاريخ العلم وفلسفته، التكنولوجيا والإنسان، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) والرياضة التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم).

أما بالنسبة لنشر الأعمال الإبداعية، المترجمة أو المؤلفة، من شعر وقصة ومسرحية فأمر غير وارد في الوقت الحالي.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المؤلف أو المترجم تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل خمسة عشر فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي أو تسعمائة دينار أيهما أكثر بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتيا مقابل تقديم المخطوطة المؤلفة أو المترجمة من نسختين مطبوعة على الآله الكاتبة.

الاشتراك السنوي : وهو مقصور على الفئات التالية :

● المؤسسات والهيئات داخل الكويت	١٠ دنانير
● المؤسسات والهيئات في الوطن العربي	١٢ ديناراً
● المؤسسات والهيئات خارج الوطن العربي	٨٠ دولاراً امريكياً
● الافراد خارج الوطن العربي	٤٠ دولاراً امريكياً

الاشتراكات :

ترسل باسم الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب ٢٣٩٩٦ الصفاة/ الكويت ـ 13100

برقيا ثقف ـ تلكس ٤٤٥٥٤ TLX No 44554 NCCAL

البلد	سعر النسخة
* الكويـت	٥٠٠ فلس
* السعودية	١٠ ريالات
* العراق	دينار واحد
* الأردن	٧٥٠ فلس
* سوريا	١٥ ليـرة
* لبنان	١٥ ليرة
* ليبيا	دينار واحد
* المغرب	١٥ درهم
* تونس	١ ¼ دينار
* الجزائر	٢٠,ـــ دينار
* مصر	١,ـــ جنيه
* السودان	١,ـــ جنيه
* عمان	١ ريال
* اليمن الجنوبية	٨٠٠ فلس
* اليمن الشمالية	١٠ ريالات
* البحرين	دينار واحد
* قطر	١٠ ريالات
* الامارات العربية	١٠ دراهم

طبع من هذا الكتاب خمسون ألف نسخة

مطابع الرسالة - الكويت